



كتاب الشعب
١١

على هامش
النَّاسِخِ الْمَصْرِ الْفَاتِيهِ
عبد القادر حمزة

لن تنعم على أحكم نعمة الإيمان بمصر
حتى يجيئ بشارتها علماً

مطابع الشعب
١٩٥٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التي وضعها علماء المصولوجيا (٤) فكنت كلما أوغلت فيها شعرت كأن مصر تكبر في عيني وكأنني أمتلىء بذلك زهواً ، وأخذتني الدهشة من أننا ونحن أبناء مصر هذه لا نعرف عنها هذا الذي يعرفه الأجانب ، ولا نعجب بها هذا الإعجاب الذي يبذله لها الأجانب ، ولا نغرم بمجدها وتفصي خفاياه هذا الاغرام الذي يقبل عليه ويرتاح له الأجانب .

وكان من الضروري أن أقرأ هذه المؤلفات ، أو بعضها على الأقل ، مرة وثانية ، بل تالعة في بعض الأحيان ، فلم أجد في ذلك كلفة ، ولم ينقص التكرار شيئاً من معنى بالقراءة ، لأنني كنت أفهم في الثانية ما يبهم علي في الأولى ، وأنفذ في الثالثة إلى ما يغيب عني في الثانية .

وانقضت سنوات وجاءت سنة ١٩٣٤ ، فكتبت في « البلاغ » رسائل في تاريخ مصر القديم كانت لي تجربة أولى ، ثم جذبتني القراءة وشواغلي الصحفية فأنصرفت إليهما . ثم حانت فرصة في سنة ١٩٣٨ فكتبت في « البلاغ » رسائل أخرى كانت تجربة ثانية . واليوم رأيت أن أخرج كتابي هذا فأجمع فيه بعض ما كتبه من قبل ، بعد تعديله وتنقيحه ، ثم أضيف إليه بحوثاً أخرى .

وتاريخ مصر القديم بحر خضم ، لأنه تاريخ أربعة آلاف سنة أو أكثر ، فليس يوفي حقه في كتاب ولا في كتب . وقد كتب فيه العلماء الأجانب بعد كشف اللغة المصرية في سنة ١٨٢٢ ميلادية ، مئات من الكتب (٥) ، وهم إلى اليوم كلما كتب واحد منهم وجد

(٤) يجعل العلماء درس الآثار المصرية القديمة والتاريخ المصري القديم علماً مستقلاً يسمونه « ايجيتولوجيا » نسبة إلى « ايجبت » أي مصر . فكلمة « مصولوجيا » هي إذن تسمية صحيحة للعلم الخاص بتاريخ مصر القديم .

(٥) أمامي وأنا أكتب هذه الكلمة جدول بالمؤلفات التي وضعت من مصر القديمة وتاريخها منذ خمسين سنة فقط باللغات الفرنسية والانجليزية والالمانية والاطالية يصل العدد فيه إلى ما يقرب من ألف مؤلف . وهذا عن أمهات المؤلفات فكيف بغيرها !

زرت الأقصر في سنة ١٩٢٤ لمشاهدة قبر الملك «توت عنخ آمون» الذي كان مستر هوارد كارتير (١) ، قد اهتمدى إليه وكشف عنه بمساعدة اللورد كارنارفون (٢) ، فزرت في الوقت نفسه كثيراً من قبور وادي الملوك ووادي المسكات ، وزرت الدير البحري ومعبد الكرنك . وكنت نازلاً في فندق « ونتر بالاس » فمررت بمعبد الأقصر رائحاً وغادياً ولكنني لم أجشم نفسي عناء دخوله . ووقع في يدي وأنا في الفندق كتاب « طيبة » Thêbes للأستاذ كابار (٣) « وقيل لي إن ثمنه مائتا قرش فتددت في شرائه ، ولكنني اشتريته ، ثم عدت إلى القاهرة وفي نفسي من ذلك كله أثر غامض . وقرأت الكتاب فخيّل لي أن الآثار التي مررت بها مرور الطير أخذت تتجسم أمام ناظري رويداً رويداً ، وأن الحياة أخذت تدب فيها ، فتحدثني عن مجد عجت من أنني لم أجد في مدارس الحكومة التي تلقيت فيها تعليمي في جميع درجاته ما يرشد إليه أو يبعث في الذهن فكرة عنه .

وحفزني ذلك إلى زيارة الأقصر مرة أخرى فزرتها في سنة ١٩٢٦ ، ولكن الزيارة في هذه المرة لم تكن زيارة مشاهد يريد أن يتمتع نظره بمناظر غريبة ، بل كانت زيارة منسوق كان قد فهم بعض الشيء من حياة طيبة ، فكان يهمه أن يدرس ما فيها من الآثار . وعدت من هذه الزيارة وقد ازدادت شغفا بمصر القديمة ، فأحسست رغبة قوية في زيارة المتحف المصري ، مع أنني كنت قد زرت من قبل مرتين ، فجعلت أزوره من جديد زيارات كان لها في نفسي معنى جديد .

وتكررت زياراتي للآثار ، وانكبت على المؤلفات

(١) توفى مستر كارتير منذ عامين (صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٤٠ - دار الشعب) .

(٢) توفى اللورد كارنارفون منذ عدة سنوات .

(٣) J. Capart هو مدير معهد الآثار المصرية في بروكسل .

أدق إلى أن يجبلوه فيه شبحاً بغير روح . ولكن هذه السيطرة رفعت منذ سنين ، وصار لنا أن نضع كما نشاء مناهج التعليم ، فحفا إنه لقصير منا أننا لم نعن بعد عناية جدية بسد هذا النقص المعيب .

وأنا أعرف أن علم الآثار صار يدرس في جامعة فؤاد الأول منذ بضع سنين ، وأن وزارة المعارف بعثت وقتاً ما بعثة إلى ألمانيا تخصص أفرادها فيه . ولكن أين هذا من العناية الواجبة بالتوسع في تدريس التاريخ المصري في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية ؟ وأين هذا من مئات المؤلفات التي يجب أن توجد في هذا التاريخ باللغة العربية ؟

إن الناشئ في إنجلترا أو في فرنسا أو في ألمانيا أو في غيرها من البلاد الراقية ينشأ وتاريخ بلاده يسايره في كل سنة من سنى تعليمه . فلا يكاد يغادر مقاعد الدرس حتى تكون نفسه قد انطبعت بطابع مافى هذا التاريخ من عظمة وجمال . ومن هذا الانطباع ينولد حب خاص للوطن ، وتولد رغبة في محاكاة أبطاله ، وينمو تبعاً لذلك الشعور بالقومية ، وتترى أو تقوى فضائل الأقدام وسمو النفس ومجادة المخاطر والمبل إلى طيب الاحدونة . ومن عجيب أمر التاريخ أنه يولد هذه الفضائل كلها سواء أكان تاريخ مجد وبسطة في الفنى والسلطان ، أم كان تاريخ مناعب ومكاره وآلام . وقد عرفت الأمم الراقية ذلك فجعلت من تاريخها القومى أول عامل في تربية الفضائل النفسية وإبراز صفات الرجولة . أما نحن فقد جهلنا هذا فصار الناشئ منا ينشأ وهو لا يرتسم في ذهنه عن مصر القديمة غير خيال مبهم ، وإذا انفق له أن عرف شيئاً عنها فليس هذا الشيء سوى صورة مسوّهة نخلط فيها الخرافات بالأخطاء ، وبذلك يفقد التاريخ المصري روحه ، وينعذر عليه أن يتحدث إلى النفوس حدينا يقومها ويربى الفضائل فيها .

وقد ذكرت الخرافات والأخطاء التي تشوه التاريخ المصري ، فأذكر هنا أن الخرافات هي الصورة التي يقلب أن ترتسم في الدهن كلما ذكر المصريون القدماء ، وذلك لأن الكتاب اليونانيين والرومانيين الذين زاروا

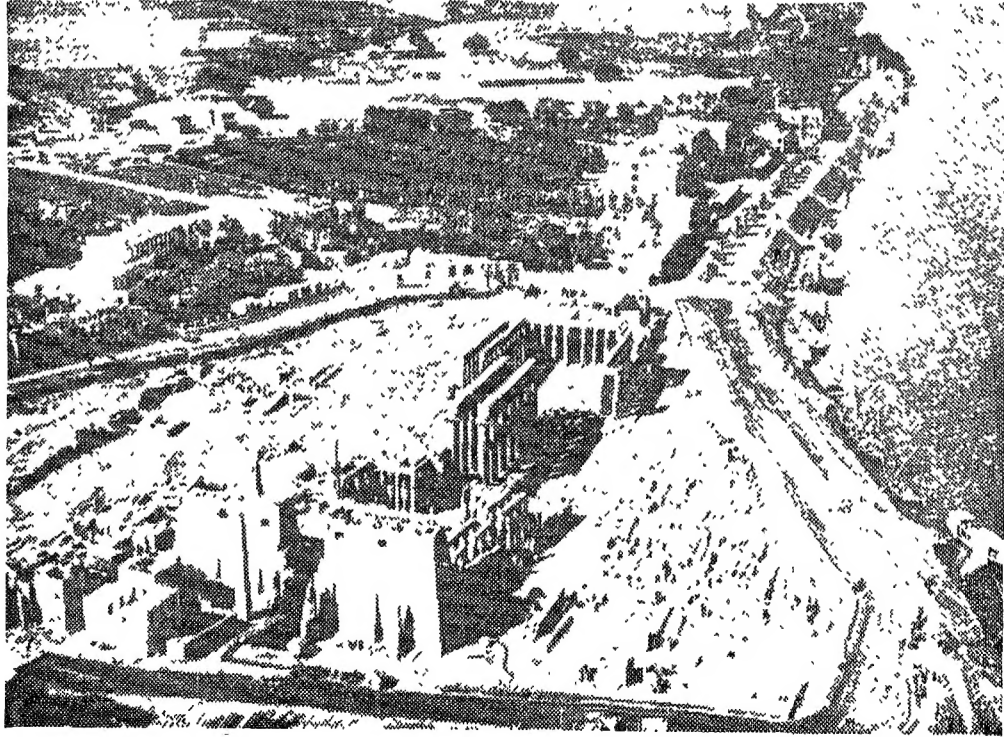
جديداً ، وكلما ضربت فأسه في أديم مصر خرجت بجديد . فلا مناص من أن اكفى في كتابى هذا بأطراف ، وإذا أراد الله فسأبع هذه الأطراف بأطراف وأطراف .

وقد قصصت قصتى هذه في انسياقى إلى التاريخ المصري القديم لأنى أعرف أن تيشاً منها يوشك أن يكون صورة لما ينشأ عليه - مع الأسف - جميع المصريين . فهم يجهلون هذا التاريخ لأنهم لم يقرأوا منه وقت تحصيلهم العلم غير أشياء ضئيلة مبهمة ، وهم بعد وقت التحصيل لا يجدون في هذا التاريخ مؤلفات عربية (١) تجذبهم إليه ، وتسد النقص الذى اعترى تربيتهم الأولى فيه . وهكذا ينشأ المتعلمون منا وكل الذى يعرفونه من تاريخ مصر القديم لا يزيد في مجموعته على ما يعرفونه عن اليابان في آسيا أو عن كندا في أمريكا . وقد يعرفون عن إنجلترا أو عن فرنسا في ماضيها وحاضرها أكثر مما يعرفونه عن مصر . وبهذا تنقطع الصلة بين مصر القديمة ومصر الحديثة ، ويمتنع علينا أن نأخذ من أمسنا ليومنا وغدنا . والإنسان الذى يعيش مقطوع الصلة بأسمه كالنبات الغريب ينمو ثم يموت وكأنه لم يوجد .

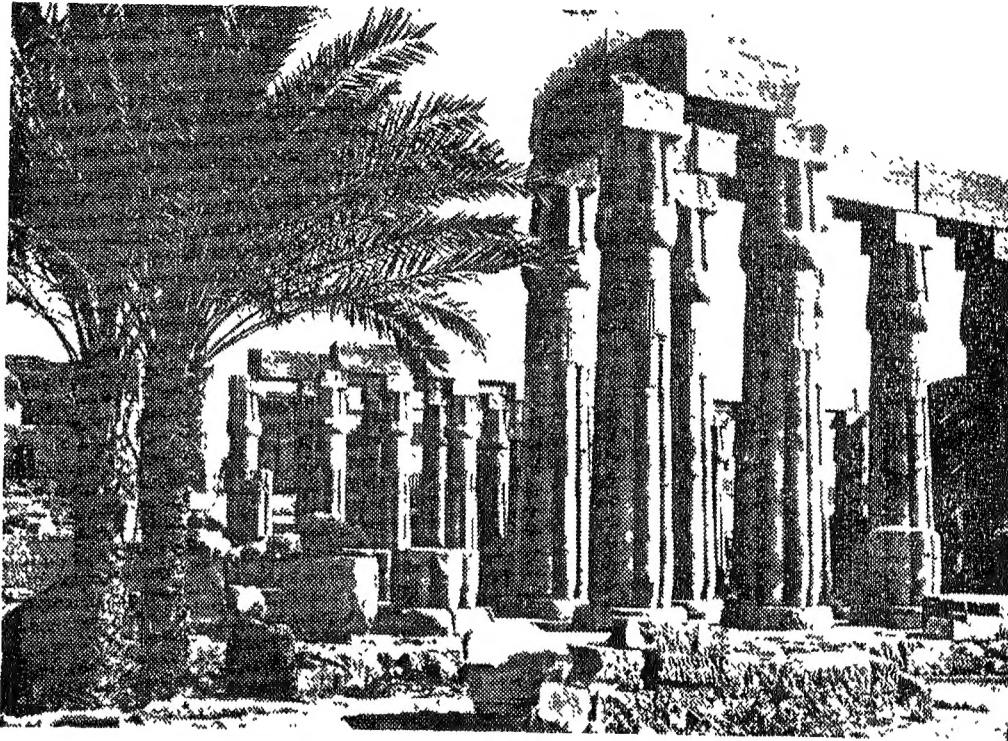
والآراء منفقة على أن التاريخ أعظم مهذب للأفراد والشعوب . فإذا كان هذا التاريخ تاريخ مجد لم يسبقه مجد أمة أخرى ، فهو لأبناء هذا المجد أعظم محى للشعور بالعزة القومية ، وأقوى ملقن للفضائل الوطنية والاجتماعية . ولعل هذا هو بعينه الذى دفع بالانجليز ، حينما كانوا مسيطرين على التعليم ، إلى أن يخرجوا منه تاريخ مصر القديم ، أو بعبارة

(١) لا يقوى هنا أن أشير إلى المؤلفات التي تركها العالمان أحمد كمال باشا واحمد نجيب بك وهي مؤلفات بافعة في ذاتها ولكنها صارت قديمة فصار الانتماع بها محدوداً . ولا يقوى أن أذكر الدكتور حسن كمال عرب كتاب « تاريخ مصر » للعالم J. H. Breasted وهو من الكتب النفيسة في موضوعه . ولا يقوى أن أجري أن بعض الموظفين في المتحف المصري أصدروا في السنين الأخيرة كتاباً هاجوا بها نواحي من التاريخ المصري القديم . ولكن هذا التاريخ يحتاج إلى عشرات وعشرات من الكتب لا إلى هذا العدد القليل منها .

من آيات الصانع المصري



الاقصر ... منظر عام



الاقصر ... أعمدة معبد أمنحتب الثالث

صورتها المشوهة ، أربعة عشر قرناً . وقد قضت بحوث هؤلاء العلماء على جانب من هذه الصورة المشوهة وما زالت في سبيل القضاء على جانب آخر منها .

وحينما أقول إن بحوث العلماء قضت على جانب من الصور المشوهة ، أريد صورة مصر عند الأجانب ، لأن هؤلاء الأجانب قرأوا وقرأوا ما كتبه علماء المصريون والفرنسيون والبريطانيون والبلجيكيون . أما مصر عند المصريين فلا تزال صورتها المشوهة على ما هي عليه ، ولابد أن يمضي وقت قبل أن تزول . ومتى زالت فسيعرف المصريون أن المدينة المصرية التي جعلها كثر من الباحثين أولى المدنات جميعاً ، والتي عاشت أربعين قرناً أو تزيد ، لم تقم على أساس من الخرافات والعقائد الفاسدة ، بل قامت على أساس علمي وخلقى هو الذي اقتبس منه المحدثات الأخرى بعد ذلك ، وأخذت تسر في نوره وتزيد عليه .

وسأعرض لهذا الأساس العلمي والخلقى في بعض بحوث هذا الكتاب . وسأعرض أيضاً لبعض ما يدعى على مصر ظلماً من الخرافات والعقائد الفاسدة . ولكنني أقول هنا إن المدينة التي بنت الأهرام ، وشيدت معابد الكرنك والأقصر والدير البحري والرمسيوم ومدينة هابو وإدفو ، ونحتت مقابر سقارة ووادي الملوك ، وخلفت تماثيل من كل نوع ما زالت تعتبر آية في النحت والتصوير ، وصنعت الزجاج ، وصاغت الذهب والفضة والنحاس ، ووضعت أول أساس علمي للكيمياء (٢) والطب ، وكان

(٢) أكثر العلماء على أن المصريين هم أول من عرف علم الكيمياء ويرون أن كلمة « كيمياء » مشتقة من الكلمة المصرية « كيمي » التي كان المصريون يطلقونها على مصر والتي معناها الأرض السوداء . والمقصود بالأرض السوداء هنا الأرض التي انتزعها النيل من أرض الصحراء الرملية وجعلها بطنية سوداء صالحة للزراعة .

وفي هذا يقول (A. Moret) في كتابه :

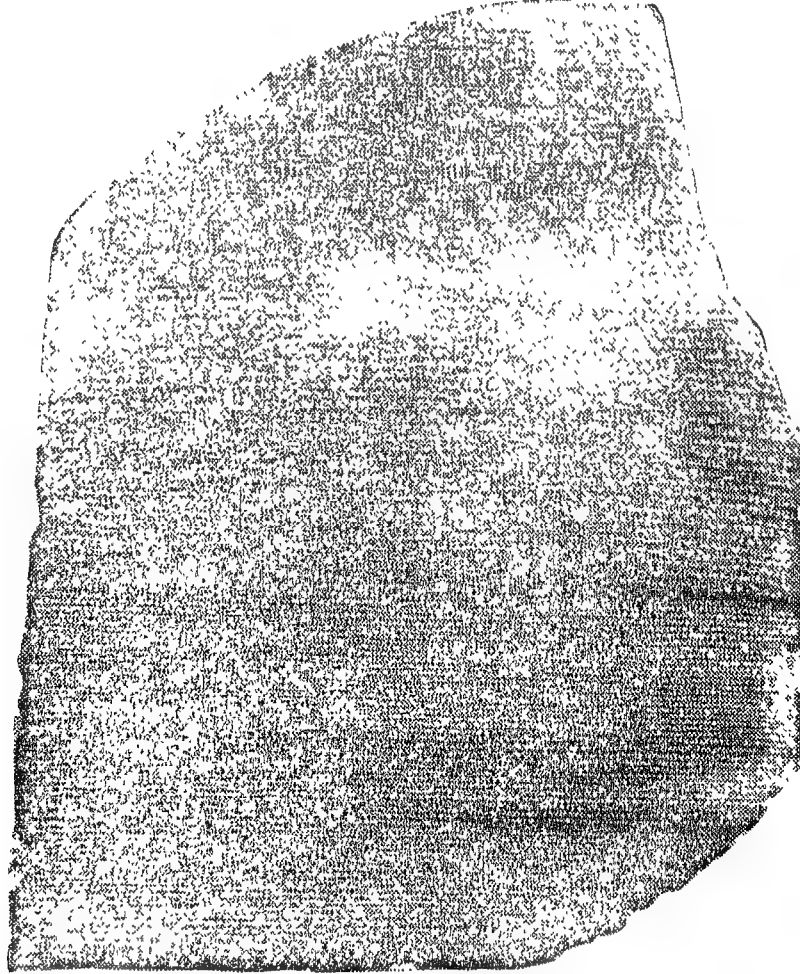
(Le Nil et la Civilisation)

في صفحة ٢٧ ما يأتي :

« إن علم العقاقير يقودنا إلى أعمال التحضير في العامل الكيماوية ، وهنا نجد أنفسنا في ميدان مصرى محض حتى أن الكيمياء مدينة باسمها لاشتقاقه من كلمة « كيمي » التي معناها الأرض السوداء » .

مصر وكتبوا عنها ، فيما بين القرن الرابع قبل الميلاد والقرن الثاني بعد الميلاد ، سحنوا كتاباتهم بأشياء لم يفهموها ، فالبسوها لباس الغرابة والخرافة . مثلهم في ذلك تمثل الذين يزورون مصر الآن من الأجانب فبدعون عليها دعاوى لا وجود لها ، لأنهم لم يفهموا ما شاهدوه ، أو لأنهم يريدون أن ينيروا دهشة قرائهم بما يقصونه عليهم من المبالغات والعجائب . يضاف إلى ذلك أن المصريين أنفسهم كانوا ، حينما زارهم أولئك الكتاب ، قد سقطوا في هوة الضعف والجهل ، فصاروا ينظرون إلى أجدادهم السالفين نظرهم إلى حلم بعد غريب ، وصار من أسهل الأشياء لديهم أن ينسجوا حول هذا الحلم نسيجاً من الأوهام والخرافات . وهؤلاء المصريون هم الذين أصغى إليهم أولئك الكتاب ، ونقلوا أحاديثهم عن عصور الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة ، أي عن عصور كان قد مضى على الأولى منها ٣٥٠٠ سنة أو أكثر ، وعلى الثانية منها ٢٥٠٠ سنة أو أكثر ، وعلى الثالثة منها ١٥٠٠ سنة أو أكثر ، فكان من الطبيعي أن يختلط بهذه الأحاديث كثير من الأغلاط والخرافات . وهذه الكتابات التي كتبها الكتاب اليونانيون والرومانيون أمثال : هيكاتي دى ميلى وهيرودوت وسترابون وديودور الصقلي وكليمان الاسكندري وبلاطرك كانت المرجع الوحيد لمعرفة مصر القديمة منذ ضاع سر اللغة المصرية إلى أن كشفه شامبوليون الشاب ، أي مدى أربعة عشر قرناً (١) . فلم يكن العالم يعرف مصر القديمة في مدى هذه المدة الطويلة إلا من خلال ما تركه أولئك الكتاب . وهكذا علق بها عنده الخرافات المعزوة إليها ، ثم انضاف الخيال إليها خرافات أخرى ، فصارت صورة مصر لا تخطر على البال إلا خلطت معها مجموعة كبيرة من الخرافات . ولم يزل الأمر كذلك حتى كشف شامبوليون اللغة المصرية ، وأخذ العلماء يقرأون ما عسى الآثار في مصر من النقوش وما في أوراق البردي من الكتابات ، فيجدون فيها مصرًا تختلف عن مصر التي ألف العالم

(١) من سنة ٣٩١ بعد الميلاد ، وهي السنة التي أصدر فيها الإمبراطور الروماني ثيودور الأول أمره بإقفال المعابد الوثنية المصرية ومطاردة الكهنة المصريين واللغة المصرية ، إلى سنة ١٨٢٢ وهي السنة التي كشف فيها شامبوليون الشاب سر اللغة المصرية .



حجر رشيد

عشر الضابط الفرنسي بوسارد (Boussard) على حجر رشيد عام ١٧٩٩ ، إبان حملة نابليون على مصر ، على بعد أربعة أميال شمالي مدينة رشيد . وقد توفر شامبلون على دراسته لحل لغز الكتابة المصرية القديمة .

وهو من البازلت ، ورقمت عليه النقوش باللغة المصرية القديمة : بالخط الهيروغليفي (الجزء الأعلى) ، والديموطيقي (الجزء الأوسط) . أما الجزء الأسفل فقد دونت عليه الترجمة اليونانية للنص نفسه .

وعندما تم جلاء الفرنسيين عن الاسكندرية عام ١٨٠١ اغتصبه الانجليز ونقلوه إلى المتحف البريطاني .

والعقاب والجنة والنار ، لم يكن لها أن توجد ولا أن تعيش أكثر من أربعين قرناً ، وهى قائمة على أساس من الخرافات ، بل وجدت وعاشت هذه القرون الطويلة لأنها قامت على أساس علمى وخلقى صحيح .

ويحسن أن أسارع هنا إلى كلمة في شأن الخرافات والعقائد الفاسدة . فلست أنكر أن هناك آراء وعقائد كان المصريون القدماء يظنونها صحيحة ، والآن — أى بعد بضعة آلاف من السنين تقدمت فيها خبرة الإنسان بالحياة وتقدمت العلوم — يتضح لنا أنها غير صحيحة . لا أنكر هذا ، وهو لا يعيب مصر القديمة ، وقد وجد أكثر منه في المدينيات التى عاصرتها ، بل في المدينيات التى تلتها ، ولا يزال بعضه موجوداً إلى اليوم . والأمة التى نشأت أول حضارة في العالم هى أمة يبدو العقل فيها في حالة الطفولة ثم يتدرج في النمو خطوة بخطوة . فليس يغض من مصر القديمة أنها مرت بحالة الطفولة ، وإنما يرفعها أنها لم تجمد عليها ولم تقف فيها طويلاً ، بل خرجت منها قبل غيرها ، وكانت خطواتها في هذا الخروج جبارة ، فكانت لذلك هى التى ظهرت فيها التبشير الأولى لتفتح العقل الإنسانى ، وكانت هى التى نما فيها هذا العقل بعد ذلك نمواً قوياً حتى استطاعت المدينيات التالية أن تأخذ منه وتزيد في خطواته .

فلمصر القديمة آراء وعقائد يتضح لنا الآن أنها غير صحيحة ، هذا لاشك فيه (٣) . ولكن مما لاشك فيه

(٣) أكثر ما نظهر فيه هذه الآراء الفاسدة عقائدهم الدينية . ولكن مدرهم فيها أنهم كانوا في دور الطفولة كما قلنا . وقد انجبت عقولهم الى البحث في الكون وخلقته وخالفه فكان من الضروري أن يخطئوا في خلال تلمسهم الحقيقة . وتاريخ الإنسان في بحثه عن الحقائق العلمية يدل على أنه كلما اهتمدى الى واحدة منها دفعة واحدة . وإنما هو يبدأ فيسير في طريق مظلم فيضل مبيناً وشالاً . وقد يمتد في خلال ضلاله هذا على أطراف من الحقيقة التى يطلبها ثم لا يزال يواصل البحث الى أن يستقيم له الطريق ويبين النور فيصل الى غرضه . وكلما كان هذا الغرض مغليماً كان الطريق اليه شاقاً وطويلاً .

وقد جرت هذه السنة على المصريين في بحثهم في الكون وخلقته وخالفه . وكان الطريق أمامهم شديد الظلمة ، وكانت عقولهم لاتزال في بداية التفتح للبحث العلمى والفلسفى ، فأخطأوا تارة يميناً وتارة شمالاً ، ولكنهم اهتمدوا في خلال خطئهم هذا الى حقائق لا يتكرها عليهم منكر . منها أن روح الإنسان باقية بعد الموت =

أفيها بشهادة هيروودوت أطباء متخصصون في كل نوع من أنواع الأمراض (١) ، ووضعت التقويم الشمسى ، وكانت أول مدينة عرفت علم الهندسة وبرعت فيه (٢) ، وأول مدينة اهتمت إلى الكتابة ، وأول مدينة صنعت الورق وكتبت عليه — أقول إن هذه المدينة التى عرفت كل هذا ، وعرفت الله والآخرة والثواب

(١) نذكر هنا ما كتبه هيروودوت في هذا . قال :

« الطب عند المصريين مقسم كما يأتى : كل طبيب يعالج مرضاً واحداً لا جملة أمراض ، والأطباء يملأون كل مكان . فبعضهم للأمراض العيون ، وبعضهم للأمراض الرأس ، وبعضهم للأمراض الإنسان ، وبعضهم للأمراض الباطنية ، وبعضهم للأمراض التى لا يعرف لها مكان معين » .

وقد قلنا هذا النص من كتاب هيروودوت من مصر ، وهو الجزء الثانى من التاريخ العام الذى وضعه . والترجمة التى اعتمدنا عليها هنا ، والتى سنعتمد عليها في كل ما سنقله عن هيروودوت في كتابنا هذا ، هى الترجمة الفرنسية التى أصدرها في سنة ١٩٣٦ (Ph. E. Legrand) الأستاذ بجامعة ليون بفرنسا . وهى آخر الترجمات . وقد طبعها صاحبها وطبع الأصل اليونانى معها صفحة فصفحة ليتمكن الذين يعرفون اللغة اليونانية القديمة من مقابلة أحدهما بالآخرى .

والفقرة التى مريناها هنا هى الفقرة ٨٤ من ١٢٠ . ويجب أن نقول هنا أن ما سببرو مرض لهذا الموضوع في كتابه : (Histoire Ancienne des Peuples de l'Orient) ، فظهر شكه في أن يكون الطب قد تقدم عند المصريين الى هذا الحد ، ولكنه لم يقدم دليلاً ينقض به هذه الرواية التى روى بها هيروودوت ما شاعده بعينه . ولعل ماسبيرو بنى شكه هذا على أوراق البردى التى كانت معروفة ومترجمة قبل وفاته ، والتى كانت منها أوراق خاصة بالطب والسحر والتعزيم ، ولم تكن منها الورقة التى سميت « ورقة نيوبورك » أو « ورقة ادوين سميث » . ولو أن ماسبيرو عاش حتى اطلع على ترجمة هذه الورقة لاعترف بتقدم الطب عند المصريين ، وبأنه تقدم على أساس ملئى كما أثبت ذلك برستيد الذى ترجم تلك الورقة ودوسها درساً مستفيضاً بعد وفاة ماسبيرو ببضع سنين .

(٢) تكلم هيروودوت في الفقرة ١٠٩ من الجزء الثانى من تاريخه العام من انشاء الترع والتقنوات في مصر وتقسيم الأراضي الزراعية فيها ثم قال :

« وهذا في رأى هو السبب في اختراع علم الهندسة الذى نقله اليونانيون الى بلادهم » . ويؤيد مورى هذا الرأى في كتابه (Le Nil et la Civilisation) من ٥١٩ ثم يقول :

« يؤخذ من كلام هيروودوت أن علم الهندسة نشأ في مصر من الضرورة التى قضت بتقسيم الأراضي الزراعية في مصر تقسيماً منظماً . وعلى كل حال أن النظام الاجتماعى في وادى النيل قضى منذ العصور الأولى بإيجاد قواعد ثابتة تكون دسامة للمقاسبات . ومن هذا الرأى أيضاً العالم الانجليزى (Griffith) في بحثه قدمه في سنة ١٨٩٢ للجمعية الاثرية في لندن .

ومن هذا الرأى أيضاً العالم الألماني (Brugsh) في كتابه « المصولوجية » ص ٣٧٠ ، وعلماء آخرون .

و « ايلفتنين » (١) وأن شطرا من مائة يجرى إلى مصر
والشطرا الآخر إلى النوبة (٢). وقد أخذ بعض المؤرخين
هذا القول قضية مسلما بها ، وزعموا أنه كان بعض
ما يعتقد المصريون في منابع النيل . ومن الواضح
مع ذلك أن هذا القول ليس سوى خرافة ما كانت
تستحق أن يعنى بها هيرودوت ويشتهر في كتابه ،
وخاصة بعد أن قال هو نفسه « إنه يميل إلى الظن
بأن ذلك الموظف الذى نقل عنه هذا القول كان
يمزح » . إذ المصريون الذين كانت سيين وايلفتنين
من مدنها كانوا يوقنون من غير شك أن النيل لا يجرى
شطر منه إلى مصر وشطر منه إلى النوبة ، بل يأتي
من النوبة جاريا إلى مصر . وقد أرسل المصريون
قوافلهم التجارية وحملاتهم العسكرية وسفنهم
التجارية والحربية إلى النوبة ، وإلى ما وراء النوبة ،
منذ الدولة القديمة ، ووصلت فتوحاتهم في عهد
الدولة الحديثة إلى ما وراء الشلال الرابع . ولا تزال
آثارهم في هذه المنطقة قائمة يكشف عنها العلماء
ويدرسونها . فهم إذن ركبوا النيل إلى ما وراء الشلال
الرابع . فالادعاء عليهم بأنهم كانوا يعتقدون أنه يولد
عند أسوان هو ادعاء زور ، والاعتماد فيه على حديث
قال هيرودوت إنه سمعه من موظف مصرى ، هو
اعتماد على سند ساقط .

وقد أراد بعض المؤرخين أن يتأولوا هذا الذى رواه
هيرودوت فقالوا إن ولادة النيل عند ايلفتنين كانت

- (١) سيين كانت ضاحية من ضواحي ايلفتنين . وايلفتنين مدينة
قديمة كانت بجانب المكان الذى يقوم فيه الآن مدينة أسوان ،
وكانت عاصمة لاقليم يسمى بابيهما .
- (٢) هذا تعريب ما كتبه هيرودوت في ذلك فعلا عن موظف مصرى
قال أنه كاتب جعبد « أيتا » في صا الحجر . وأيتا هو الاسم
الذى يطلقه اليونانيون على المعبودة « نيت » التى كانت تعبد في
صا الحجر وفي أسنا . قال هيرودوت في الفقرة ٢٨ من كتابه :
« يقال ان بين سيين ، وهى إحدى المدن التابعة لغسم طيبة ،
وبين ايلفتنين ، جبلين لكل منهما قمة قائمة كالسن . واحد هذين
الجبلين يسمى كرونى والثانى يسمى سوى . وهما اللذان يقال
ان النيل ينبع من هاويات واقعه بينهما . وشطر من الماء يجرى
نحو مصر وريح الشمال بينما الشطر الآخر يجرى نحو اثيوبيا
وريح الجنوب » .

« ومما قاله لى ذلك الموظف أن الملك پسانتيك أراد أن يعرف
عمق هذه الهاويات فصنع جبلا طوله عدة آلاف من الأوربى لم
دلاه فيها فلم يصل إلى قافها » .
والأوربى مقياس يونانى قديم يعادل مترا ٨٥٠ سنتيمترا .

، هذه الآراء والعقائد شيء وما يدعى عليها من
ت والأوهام شيء آخر . وبحسبى أن أذكر
س الأمثلة بإيجاز ، وسأعالج أمثلة أخرى في
التالية .



هيرودوت عن موظف مصرى في معبد المعبودة
« في صا الحجر أن النيل يولد بين « سيين »

عسمه هو الذى يقنى . وقد رتبوا على ذلك أنه يبعث بعد
عاسب على ما قدم في دنياه من خير أو شر ، فيجرى على
شواب وعلى الشر بالعقاب . وبرغم تعدد معبوداتهم ،
الاصنام ، وتقديسهم بعض الحيوانات ، وجدت عندهم
حدانية . وفي النظرية الدينية التى شرعتها مدرسة
ب أو هليوبوليس ما يمكن أن يكون صورة من صور هذه
وعبادة أنون التى دعا اليها الملك امينوفيس الرابع أو
(أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة) هى أيضا صورة من
، الفكرة .

نرى نظرية مدرسة هليوبوليس (وكانت تسمى باللفة
ت) في كيفية خلق الكون لا يسمه إلا أن يجد شيئا غير
ما وبين ماى الاصحابين الاول والثانى من سفر التكوين
لمعهد العديم المسمى بالتوراة .

سالة الوجدانية يقول احمد كمال باشا في كتابه « الحضارة
، ص ١١٠ :

... قد اجتهدوا فحولوا التثنيح الاصلى الى تثليث
حب الاشموين بأن ضموا الاب الى ابنه وبالعكس ، أو
الى الزوجية فصارا ذاتا واحدة . وبذلك ادخلوا
ت كل تثليث في بعض وجعلوها معبودا واحدا حالا في ثلاثة
ع ارادوا رياسته على التثنيح ... وكما حدث في ادخال
ع التثنيح حدث في نفس التثليث بأن ضموا المعبودات
نفسها لبعض فصارت معبودا واحدا . وبذلك اوجدوا
، وعلى هذا نرى أن المصريين كانوا سائرين من طبيعتهم
الوجدانية المقدسة ومما تقدم يظهر أن علماء
مشمولوا من قديم الزمان بحصر صفات البارى في معبود
، أن فرقت أسلافهم بينها » .

هذا القول قاله ماسيرو أيضا وقاله كثير من العلماء .
نرى من ذلك ان علماء اللاهوت المصريين قالوا في مقيدة
حا يقرب مما يقوله فيها الآن علماء اللاهوت المسيحيون .
العلماء المصريين لم يجعلوا الوجدانية لاله واحد امترفوا
، بل جعلها كل فريق منهم لمعبوده الذى كان يطلق عليه
سقب . فهليوبوليس جعلته لأنوم رع ، ومنفيس جعلته
هرموبوليس جعلته لتوت ، وطيبة جعلته لأنوم ، وهكذا .
نستأتون فنأدى بالوجدانية لمعبود أنون . وكان المصريون
كما نمقد نحن الآن أن طريقة الخلق هى أن يقول الله
فيكون .

ع ، فيما يلى من صفحات ، حين ذكر لشيد النيل ، بيان
الذى أشير اليه هنا .



المعبود النيل

في هذه الصورة كانوا يمثلون المعبود النيل . وهى صورة رجل ممتلئ الجسم تظهر عليه سيما النيل والعنى . وندياه كبيران كأنهما نديا امرأة . وفى بعض الاحيان كانوا يرسمون الماء خارجا منهما . وأمامه مائدة للقرابين علق فيها أنواع مخلقة من الزهور والاسماك والطيور . ومن خلفه كاهن يقدم له رسوم العبادة

متعارضان ، أحدهما يتجه إلى مصر والثانى إلى النوبة ، وإذن لما عني بأن يسجل تلك الخرافة التى يعزوها إلى المصريين (٢) .

على أننا نحب أن نكشف هنا عن المصدر الذى نرجح أن تكون هذه الخرافة قد انبعثت منه ، فقد ورد فى بعض النقوش النى وجدت على حوائط الاهرام أناشيد موجهة إلى النيل ومنها نسيذ يذكر قدوم فيضانه إلى مصر فيقول :

« إن ماء الحياة الذى فى السماء يأتى . إن ماء الحياة الذى فى الأرض يأتى . فالسماء تلتهب (يريد تبرق) من أجلك (يخاطب النيل) . والأرض تزلزل من أجل ولادتك .

(٣) يرى هذا الراى أيضا ليجران (Ph. E. Legrand) الأستاذ بجامعة ليون ص ٢٥ و٢٦ من المقدمة التى وضعها للكتاب الثانى من تاريخ هيرودوت .

اعتقادا للمصريين قبل أن يفتحوا النوبة ويركبوا النيل إلى ما وراء الشلال الرابع . ولكن هذا التأويل لا يسنقيم ، لأن هيرودوت لم يقدم إلى مصر فى مفتتح الحضارة المصرية ، بل قدم إليها فى مختتمها ، أى بعد أن كان المصريون قد فتحوا النوبة فى عصر الدولة القديمة ، ووصلوا إلى ما وراء الشلال الرابع فى عصر الدولتين الوسطى والحديثة . فالموظف الذى نقل عنه هيرودوت ما نقله لا يمكن أن يكون إلا جاهلا أو مخرفا ، وهيرودوت لا يدل بنقله هذا التخريف إلا على أنه كان يلتقط كل ما يقال له بغير احتياط ولا تمحيص (١) .

وكل الذى نجح فيه هيرودوت بأبائاته هذه الخرافة ، هو أنه كذب نفسه بنفسه فى غير هذا المكان من كتابه ، إذ قال إنه وصل فى تجواله فى مصر إلى ايلفنتين (٢) ، لأنه لو كان قد وصل إليها وشاهد مجرى النيل عندها لعلم أنه ليس له مجريان

(١) تدل الآثار على أن المصريين بدأوا يغزون النوبة فى عهد الملك زوسر أحد ملوك الأسرة الثالثة (فى نحو سنة ٢٨٩٠ ق م) . ثم غزوها مرة ثانية فى عهد الملك سنفرى أحد ملوك الأسرة الرابعة وعادوا منها ب ٧٠٠٠ أسير و ٢٠٠٠٠ رأس من الحيوانات . ثم غزاها الملك أوناس أحد ملوك الأسرة الخامسة مرة ثالثة . ثم صارت فى عهد الملك بيبى الاول أحد ملوك الأسرة السادسة مستعمرة مصرية تصل حدودها الى ناباتا والى مروي بعد الشلال الرابع . فبهذه هى فتوحاتهم للنوبة فى عهد الدولة القديمة . أما فى عهد الدولة الوسطى فقد توالى فتوحاتهم لها فى زمن الأسرة الثانية عشرة والأسرة التالية لها . وانتقلت إليها الحضارة المصرية فى عهد الدولة الحديثة حتى كان أمون يعبد فى عاصمتها ناباتا كما كان يعبد فى طيبة . ويقول احمد كمال باشا أن المصريين وصلوا الى الخرطوم (ص ٣٣٧ من كتابه الحضارة القديمة) والى ماوراء الخرطوم فى عهد الاسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة وكونوا عند مجمع النيل الأبيض والنيل الأزرق مملكة مصرية . ولكنى لم أجد سندا لأكثر من وصولهم الى ما وراء الشلال الرابع بقليل ، أى الى قريب مما يسمى الآن بلدة أبى حماد .

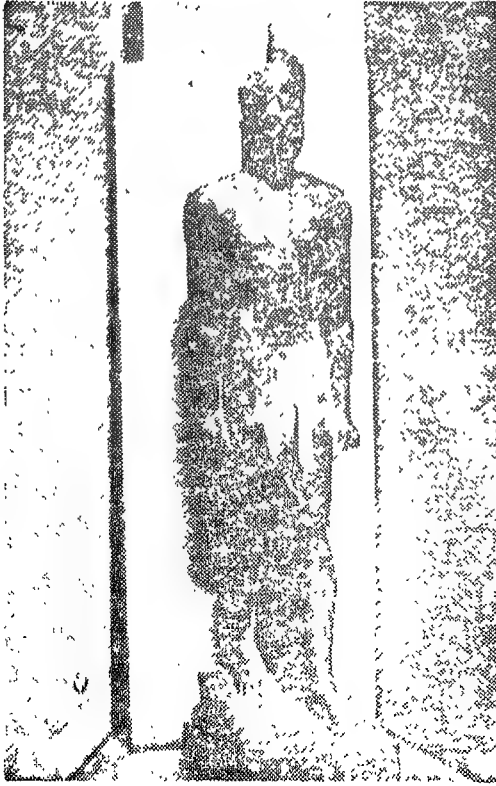
وكانت تلى ذلك الى الجنوب منطقة لم تحتلها الجيوش المصرية ، ولكن النفوذ المصرى كان سائدا فيها .

وفى عهد الأسرة الثالثة والعشرين (حوالى سنة ٧٣٠ ق م) كانت مصر قد ضعفت وكانت ناباتا قد صارت مملكة مستقلة قوية فزت مصر وحكمتها مدة من الزمن .

(٢) قال هيرودوت فى الفقرة ٢٩ من كتابه :

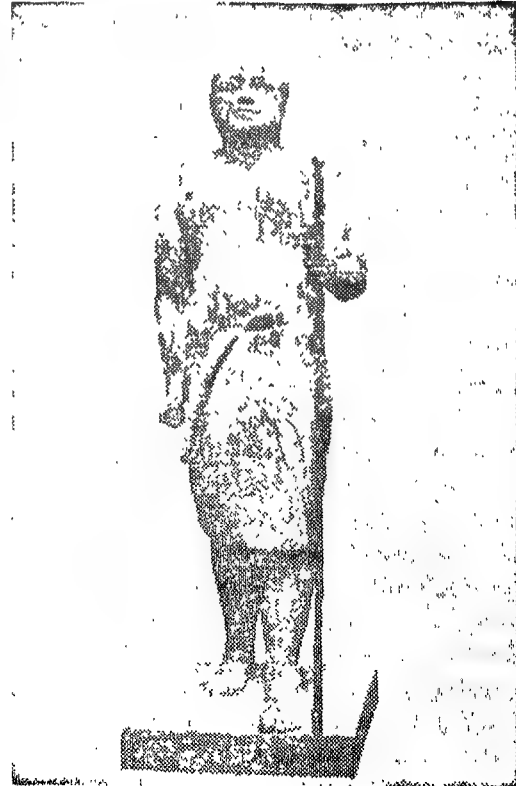
« وصلت فى تجوالى الى مدينة ايلفنتين ، لما اكتبته وصفا لمصر ، الى هذه المدينة ، رأيت بهينى . أما ما اكتبته وصفا لما وراء ايلفنتين فهو بهينى على السماع وعلى ماوصل الى من الاخبار .

من آيات الصانع المصري



تمثال تحوتمس الثالث

وهو مصنوع من حجر الشيست . وتحوتمس الثالث من ملوك الأسرة الثامنة عشرة التي اتسعت في مهبها الامبراطورية المصرية ، حتى لقد سمي تحوتمس الثالث « ناهليون مصر »



تمثال شيخ البلد

قال عنه ماسبيرو : « لو ان معرضا اقيم في اى مكان لتعرض فيه روائع الفن في العالم كله ، لكان هذا التمثال واحدا من التماثيل التى اقدمها اليه تمجيذا للفن المصري » .



هرم سقارة الذى بناه زوسر من ملوك الأسرة الثالثة

البيت (١) . ولم يكن هيرودوت صادقا في هذا ولكنه رأى شيئا لم يألّفه فأخطأ في فهمه وتفسيره .

(١) اليك ما كتبه في ذلك هيرودوت في الفقرة ٣٥ من كتابه . قال :

« ان المصريين الذين يعيشون في مناخ لا نظير له ، وحول نهر تخلف طبيعته من طبيعة الانهار الأخرى ، جروا في كل شيء تقريبا على أخلاق وعادات تحالف أخلاق غيرهم من الناس وعاداتهم . المرأة لديهم هي التي يذهب الى السوق وتشتري الأشياء بينما الرجل يبعد في البيت وينسج » .

وقد خلط هيرودوت بعد ذلك أشياء صحيحة بأشياء غير صحيحة فقال :

« وفي البلاد الأخرى يفسون الشبكة الى أعلى لينسجوا ، أما في مصر فانهم يجعلونها الى أسفل . والرجال في مصر يحملون الأحمال على رؤوسهم بينما النساء يحملنها على اكتافهن . المرأة تبول واقفة . والرجل يبول قاعدا القرفصاء . وهم يبرزون في البيوت ويأكلون في الشوارع . والعلة عندهم في ذلك أن الأعمال الضرورية التي تخدش الآداب ينبغي أن تعمل سرا ، أما الأعمال التي لا تخدش الآداب فينبغي أن تعمل جهرا . ولا توجد امرأة تبشر الكهانة لمعبود أو معبودة ، وإنما الرجال هم الكهان للمعبودات جميعا . وليس الابن ملزما بأن يعمل أبوه ، فله أن يفعل والا يفعل ، أما البنت فملزمة ولو لم ترد . والكهان في البلاد الأخرى يرسلون شعورهم ، ولكنهم في مصر يخلقونها . ومن عادات الشعوب الأخرى في الحداد أن يخلق أهل الميت شعور رؤوسهم أما المصريون فيرسلونها بعد أن كانت مخلوقة . وغير المصريين يقيمون بعيدين عن الحيوانات والمصريون يقيمون معها . وغيرهم يعيشون على القمح والشعير وهم يجعلون طعامهم من نبات « الأوليا » وبعضهم يسميه « ظيا » - (لم يعرف العلماء هذا النوع من النبات وقد ذهب بعضهم الى أن المقصود به الدرة) - والمصريون يجعلون الخبز بأرجلهم ويعجنون الطين (الذي تصنع منه الأواني) بأيديهم . وهم يجمعون روث البهائم . والرجال في جميع الشعوب يتكون أعضائهم التناسلية على حالتها الطبيعية إلا المصريين والذين تعلموا منهم فلههم يختنون . والرجل في مصر يلبس ثوبين والمرأة تلبس ثوبا واحدا . والعادة عند جميع الأمم أن تثبت الحلقات والحبال الى لملوع المراكب في الظاهر من افريز المركب ، إلا في مصر فانها تثبت في باطن الافريز . والافريز يكتبون ويرصون الحمى الذي يستعملونه في الحساب من الشمال الى اليمين بينما المصريون يكتبون ويحسبون من اليمين الى الشمال . وهم يقولون انهم أصحاب اليمين وغيرهم أصحاب الشمال . ولهم نوعان من الكتابة أحدهما مقدس والثاني شعبي » .

انتهى ما كتبه هيرودوت في هذا . وكل الذين درسوا التأريخ المصري القديم ، كما دلت عليه النقوش وأوراق البردي ، لا كما دلت عليه كتب هيرودوت وغيره من الكتاب اليونانيين والرومانيين ، يعرفون الى أي حد خلط هيرودوت في أقواله هذه فمزج حقائق قليلة باخطاء كثيرة . ويكاد هيرودوت لم يقع على حقائق الا في قوله ان المصريين يختنون وأنهم هم الذين علموا غيرهم الاختتان ، ثم في قوله ان كهنتهم يخلقون شعورهم ، ثم في قوله انهم يرسلون شعورهم في الحداد ، أما فيما عدا ذلك فليس الا الخطأ الظاهر والخطأ البين . ولهذا ولأشياء أخرى قال الذين بحثوا مزاعم

لقد انفتحت الصخرتان وظهر المعبود . إن المعبود يضع يده على جسمه (يريد أنه يضع يده على أرض مصر) » .

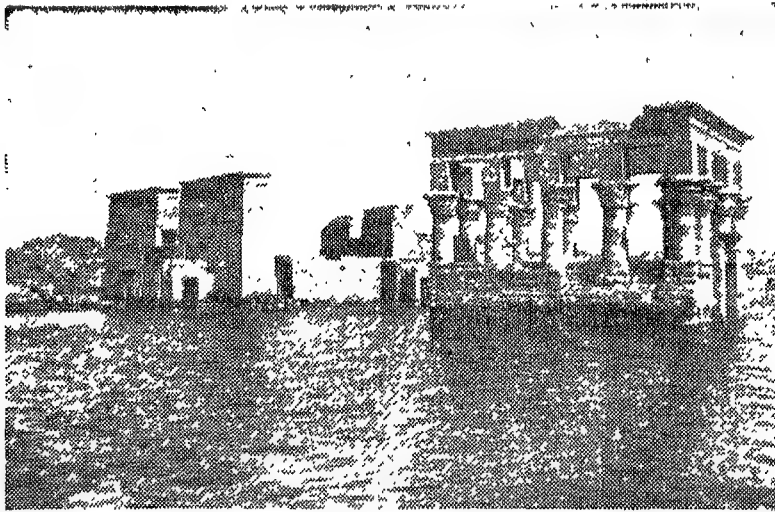
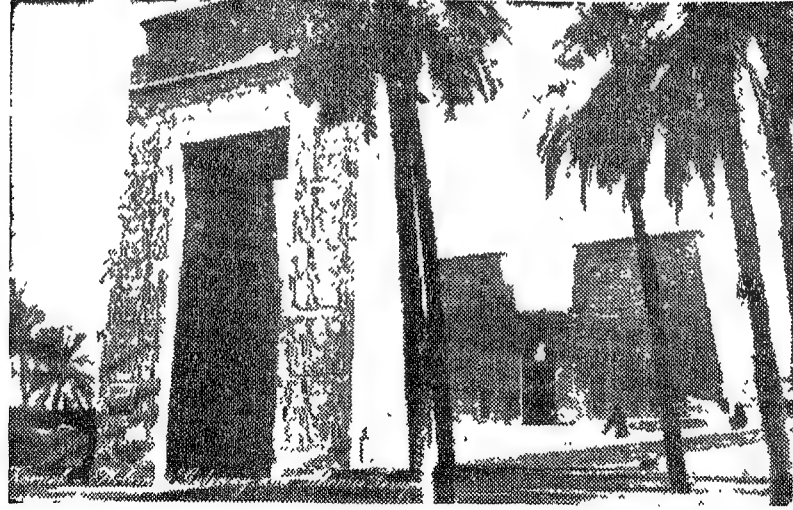
فالصخرتان اللتان يقال هنا إنهما انفتحتا وظهر المعبود من بينهما قائمتان عند ايلفنتين . وأغلب الظن أن مراد الشاعر الذي وضع هذا النشيد أن النيل يدخل حدود مصر عند هاتين الصخرتين فكأنه يولد عندهما بالنسبة لها . وهذا تعبير شعري جائز . والذين قرأوا كتابات المصريين في ذلك العهد وما بعده يعرفون انهم كانوا مشغوفين بالمعاني المجازية . فليس يبعد أن يكون ما كتبه الشاعر هنا جاريا هذا المجري ، والجملة التي نقلناها عنه هنا تدل كل كلمة منها على إمعانه في هذا الضرب من النخيل .

أما إذا قلنا إن الشاعر لم يرد معنى مجازيا ، وإنما أراد معنى حقيقيا كان المصريون يعتقدونه ، فنلاحظ أولا أن الشاعر اكتفى بأن يقول إن النيل يظهر من بين صخرتين عند ايلفنتين ، ولم يقل شيئا من السخافة التي نقلها هيرودوت ، وهي أن شطرا منه يجرى إلى مصر وشطرا يجرى إلى النوبة ، ونلاحظ ثانيا أن جميع علماء الآثار المصرية متفقون على أن نقوش الأهرام تسجل أساطير كانت عامة المصريين تعتقدها فيما قبل التاريخ ، أي حينما كانت المدنية المصرية تحبو كما يحبو الطفل . أما ما ذكره هيرودوت فقد نقله عن موظف وقت زيارته مصر في القرن الخامس قبل الميلاد . فبين أسطورة الأهرام ورواية هيرودوت خمسة آلاف سنة على الأقل ، وهذه مدة من الزمن تتبدل فيها أعظم الأساطير وتتغير أقوى الآراء والمعتقدات .

ولما زار هيرودوت مصر وطاف في مدنها كان مما لفت نظره ان للمرأة المصرية من المقام في الأسرة ، والاحترام في المجتمع ، والحقسوق في المعاملات ، والحرية في غشيان الأسواق وفي البيع والشراء ، ما لا مثيل له في بلاده ، فكتب يقول إن الرجل في مصر يباشر شئون البيت والمرأة تبشر الشئون خارج

من آيات الصانع المصري

بوابة البطالسة
ومعبد خنسو
(الكرنك)



معبد ايزيس
(جزيرة فيلى او «إلفنتين»)

طريق الكباش
(الكرنك)



ويوم ٥ طوبة شؤم شؤم شؤم ، فلا يجتمع فيه بامراة وقت ظهور القمر ، واحترس فيه من وقوعك في النار التي توقد في دارك . ويوم ٨ طوبة طيب طيب طيب ، وكل ما نظرته فيه عينك تعطيك إياه المعبودات ، وفيه يشفى المرضى . ومن يولد يوم ٤ أو ٥ أو ٦ بابه

العصر لم يكونوا على الطباع الغربية التي نسبها اليهم بعض الكتاب . نعم انهم بما كانوا يضعونه على رؤوسهم من الشعور المستعارة ، وبما كانوا يلبسونه من الملابس المختلفة المتداخلة ، لم بما كانوا يأخذون به انفسهم من الاداب والتقاليد الجمة ... بهذا كله يظهرون امام اميننا عند النظرة الاولى غريباء هنا ، كأنهم صينيون أو يابانيون من اهل الجيل الفابر ، ولكن النظرة الفاحصة تنطق بأن عاداتهم قريبة كل القرب من عقلنا الغربي ، وان افكارهم متصلة بافكارنا الى حد بعيد في بعض الأحيان . هذه هي شهادة الحق التي كتبها أوتو ويجل ، وهي ترسم صورة للمصريين غير الصورة المزيطة التي رسمها هيروودوت . وقد طعن نفس مترجم هيروودوت من اليونانية الى الفرنسية (Pl. H. Legrand) في الصورة التي رسمها هيروودوت للمصريين وحكم منها بأنه لم يختلط بالجمع المصري (ص ٣٠ و ٣٥ من مقدمه كتاب هيروودوت) .

وقد ذكر هيروودوت فيما نقلناه عنه أنه « لا توجد امرأة تباشر الكهانة لمعبود أو معبوده وأما الرجال هم الكهان للمعبودات جميعا » . وهذا خطأ ، فقد دلت الآثار على ان النساء كن يكن المعبودتين « نيت » و « هانور » ولعبودات أخرى . كما دلت الآثار على أنه كانت توجد في معبد امون في طيبة طوائف من النساء ملحقات به . فبعضهن للرقص امام المعبود في مواكبهم وحفلاته ، وبعضهن للغناء ، وبعضهن للضرب على آلات موسيقية ، وبعضهن للكهانة . وكانت كبيرة الكاهنات تلقب بالريسة العليا لسيدات امون أو بروجة امون ، وهي في الغالب الملكة أو بنت الملك أو زوجة الكاهن الأعلى أو أرمته . وفي عهد الأسرة النابية والعشرين صارت زوجة امون حاكمة لطيبة فصارت ذات سلطة ادارية واسعة ، واستمر هذا التقليد الى ان دخل الفرس مصر في سنة ٥٢٥ ق.م وكانت زوجة امون حينذاك بنت إسامايك الثالث .

على ان من الانصاف لهيروودوت أن نذكر أنه عاد بعد كلامه الذي أوردناه فقال في وصف المصريين :

« ان القوم الذين هم اخذ الناس استمسكا بالعقائد الدينية (يريد المصريين) يتبعون القواعد الآتية :

« فهم جميعا ، لا فريق منهم دون فريق ، يشربون في أوان من البرنز ينظفونها كل يوم نظيفا دقيقا . وهم يلبسون ملابس من الكتان يعتنون دائما بعسلها اعتناء كبيرا . وهم يختشون رغبة في النظافة لانهم يرون أن النظافة خير للجسم . وكهنتهم يحلقون أجسامهم مرة كل يومين حتى لا تعلق بهم أية حشرة وهم يخدمون معبوداتهم . ولا يلبس هؤلاء الكهنة غير لباس من الكتان واحدة مصنوعة من نبات البردي . ومن المخطور عليهم أن يلبسوا ملابس من قماش آخر واحدة من نوع آخر . وهم يفتسلون بلباس البارد مرتين بالنهاة ومرتين بالليل » .

وعشر العلماء منذ سنين على ورقة بردى يظن أنها كتبت في عهد رمسيس الثاني وفيها أن بعض الأيام والساعات ميمون وبعضها الآخر مشسئوم . فيوم ٤ طوبة طيب طيب طيب ، وكل شيء نظرته فيه يكون ميمونا ، وكل من ولد فيه يموت شيخا كبيرا .

هيروودوت هذه انه لم يدرس ما شاهده في مصر درساً يمكن الركون اليه . والتمس له بعضهم مدرا فقالوا انه لم يختلط بالمجتمع المصري بل رأى بعض السوق في الطرق فشاهد من افراد منهم مناظر شاذة فحكم بها على المجموع . مثله في ذلك كمثل كثير من السياح الذين يندون الى مصر في هذه الايام . وما دما قد ذكرنا هذا ، يحسن أن نذكر كيف تظهسر حالة المجتمع المصري على ضوء الآثار التي خلفها المصريون ، لا على ضوء ما كتبه هيروودوت أو غيره ممن لم يفهمهم . ونستند في هذا الى شهادة عالم انجليزي هو الاستاذ آرثر ويجل (Arthur Weigall) أحد كبار الموظفين السابقين في مصلحة الآثار المصرية ، فقد لخص في كتابه الذي ترجم الى الفرنسية تحت عنوان :

(Histoire de l'Ancienne Egypte.)

وطبع في باريس في سنة ١٩٣٥ ص ١٥٧ ما دلت عليه الآثار من مظاهر الحياة الاجتماعية المصرية في عهد الأسرة الثامنة عشرة والاسر التي تلتها فقال :

« كانت الحياة في ذلك العهد ناعمة بالغة حدا بعيدا من التأنق ، حتى ليدعشنا ما نراه فيها من أوجه الشبه بالحياة في عصرنا هذا الحاضر . فقد كان اهل الطبقات العليا ينامون على اسرة ذات أغطية ووسائد موشوة بالريش تشبه أغطيتنا ووسائدنا في هذا العصر شبةا كبيرا . وكانوا يجلسون مثلنا على كراسي موشوة بالشعر . وكانت الغرف تضاء بمصابيح زيتية ، تعكس ضوءها حيطان مكسوة بالزمرر الأبيض الشفاف . وكان النساء يضعن الدهان الأحمر في شفاههن وخدودهن . وكن يتكحلن بالكحل الاسود ويصبغن شعورهن . أما الرجال فكانوا يحلقون شعورهم بأمواس من المعدن . وكان من المألوف أن يعنى الرجالناية خاصة بتنظيف أظفار أيديهم وأقدامهم ثم يتشويبتا . وكان الاطفال يلعبون بالعرائس من القماش ، وبالطواق من المعدن ، وبالكرات المختلفة ، كما كانوا يلعبون بيهلوانات ذات خيوط تتحرك بها أجزاءها . وفي المدوسة كان هؤلاء الاطفال يتسلمون كما يتسلم أطفالنا الآن القراءة والكتابة والحساب .

« وكان الرجال يلبسون قفازات حين يخرجون من بيوتهم » وكانوا اذا شعروا بالظما في وقت تناولوا سرطيات بواسطة غابة فارغة الجوف كغابة القش التي تشرب بها نحن الآن . وكانوا اذا هادوا الى بيوتهم فسلوا أيديهم في أحواض وبابريق كالتى نستعملها في عصرنا هذا .

« وفي الحفلات كان تافخون ينفخون في نفث طويلة من الفضة . أما المدعرون فكانوا يتمشون بمشاهدة الرقص وسماع الغناء والاصعاء الى موسيقى مؤلفة من قيثارات ونايات ونقارات وساجات وطبول . وكانت لهم ألعاب ينسلى بها الرجال والنساء في البيوت منها الضامة والزهر وألعاب أخرى من ألعاب الاجتماعات الخاصة . » تلك أمثلة قليلة ذكرناها هنا انشاقا ، ومن غير أن نفرد للموضوع بحثا خاصا ، وهي تكفى لظهار أن المصريين في ذلك

تستمر المدنية المصرية أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، ثم يبقى المصريون على اعتقادهم أن من يولد في يوم ٤ طوبة يموت شيخا ، ومن يولد في يوم ٢٣ كيهك يموت بأنياب تمساح ، ومن يولد في يوم ٢٧ كيهك يموت بلدغة نعبان ، وغير ذلك من التقديرات التي تتناول أكثر أيام السنة ، كانما ثلاثة آلاف سنة لم تكف لاقناعهم بأن هذه التقديرات حساب غير صحيح .

والأمر في هذه التقديرات بعد ذلك هين ، فمثلا موجود بيننا في مصر ، وموجود في أوربا ، إلى اليوم . وهانذا أفتح تقويم « طوالع الملوك » لسنة ١٩٣٦ . فأجد فيه مايتى :

الثلاثاء ٥ مايو	يوم جيد لمقابلة الحكام .
الخميس ١١ يونية	يوم جيد لتجار البحر
الثلاثاء ٢٣ يونية	يوم يخاف فيه من لبس الجديد .

الأربعاء ٢٤ يونية	يوم سعيد لرفع البناء
الثلاثاء ٣٠ يونية	يوم سعيد لمقابلة الملوك .
الثلاثاء ٧ يولية	ظهور الحق لدى عنيين .
الأحد ١٩ يولية	يستحب دخول الحمام .
الثلاثاء ١١ أغسطس	تموت الحية الرقطاء تحت حكم السلاح .

الاثنين ٣١ أغسطس	يوم سعيد لقضاء الحوائج .
السبت ٣١ أكتوبر	يجتنب الفصد والحجامة .
السبت ١٤ نوفمبر	يوم سعيد لحفر الآبار .
الاثنين ١٦ نوفمبر	أوان ظهور الملاحم الدموية .

والتقويم مشحون بكثير من أمثال هذه « التوقعات » . ومثله « تقويم الأسىوطى » لسنة ١٩٣٦ ، وفي أوربا تقاويم من هذا النوع . فهل الذى يقرأ هذه التقاويم يسوغ له أن يحكم بأن المصريين والأوربيين يعتقدون ما فيها ؟ وهل إذا اتفق أن عثر الباحثون بعد ثلاثة آلاف عام على تقويم من هذه التقاويم يسوغ لهم أن يعزوا ما فيه من الخرافات إلى جميع أهل الزمن الذى عاش صاحبه فيه ؟

ولاحظ فوق هذا أن الذين يعزون إلى المصريين ما فى ورقة ساليير من الخرافات لا يعزونه إلى المصريين الذين عاصروا كاتبها فحسب ، بل إلى المصريين فى جميع العصور ، أى فى ثلاثة آلاف من السنين !!



لوحة محفوظة فى القسم المصرى من متحف برلين وهى تمثل جنديا سوريا أراد أن يشرب شرابا فأعطاه الخادم المصرى غايه يشرب بها

يموت بالحمى الاجامية أو بسبب العشق أو بسبب السكر . ومن يولد فى ٢٣ كيهك يلدغه نعبان فيقتله . ومن يولد فى ١٩ أو ٢٩ كيهك يعيش طويلا ويمضى حياته فى لذة وسرور واحترام ... الخ (١) . ولا أمضى إلى أكثر من هذا فى اقتباس ما فى ورقة البردى هذه لانى لا أفتح هنا باب بحث خاص فيها ، ولكنى أقول إن كثيرا من الباحثين لم يكادوا يقفون على هذه « التوقعات » حتى ذهبوا من التخصيص إلى التعميم وحكموا بما فيها على المصريين . وحينئذ لم تبقى هذه الخرافات معزوة إلى كاتبها ، بل صارت عقائد كان المصريون يعتقدونها أجمعين . بهذا قال علماء من أمثال ماسبيرو (٢) واحدكمال باشا (٣) وغيرهما ممن لا ينكر أحد فضلهم فى خدمة التاريخ المصرى وإظهار فضائله . وأنا أخالف أصحاب هذا القول وأرى أنه يكون عجيبا إلى أقصى حدود العجب أن

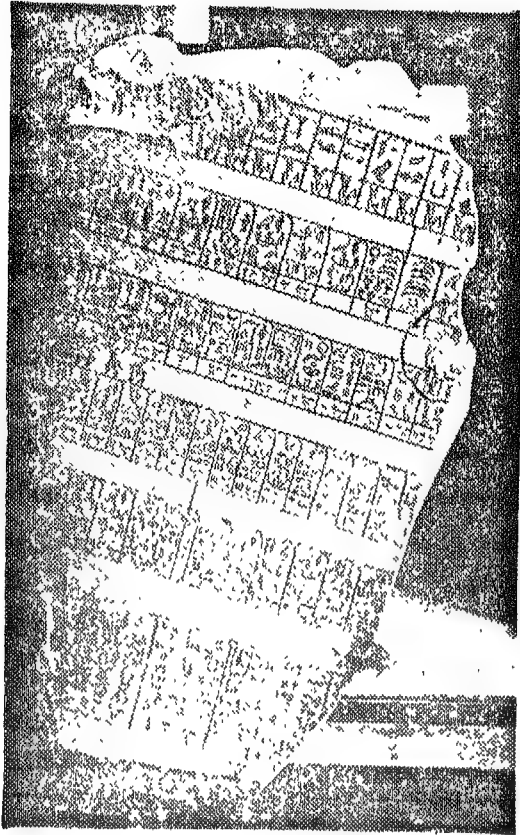
(١) ورقة البردى هذه موجودة فى القسم المصرى من المتحف البريطانى وتسمى ورقة ساليير (Sallier) رقم ٤ . وأول من ترجمها العالم شاباس (Chabas)

(٢) كتاب (Causeries d'Egypte) من ١٤٩ الى ١٥٨

(٣) كتاب الحضارة المدينة جزء اول من ١١٦ الى ١١٨

تلك هي القصة . وقد ذكر ابن عبد الحكم أن الرسول الذي حمل البطاقة كان يسمى جاحل الصدفى . فالذى يقرأ هذه البيانات المفصلة يظن أول وهلة أنها نقلت من سجلات حكومة المدينة أو سجلات حكومة مصر في عهد عمر وعمره . وقد شاعت هذه القصة وتناقلها الكتاب أكثر من ألف سنة ، وهى لا تزيد فى حقيقتها على أن تكون أكذوبة من الأكاذيب المدعاة على المصريين .

نعم هى أكذوبة على الرغم من التفاصيل التى ساقها ابن عبد الحكم ، فقد صار تاريخ مصر القديمة معروفا ، وأنت تقرأه كله فلا تجد فيه أثرا لهذه القصة . وقد دون المصريون ، فيما دونوه عن النيل ، أنهم رفعوه إلى صف المعبودات ، وعنوا بفيضانه فجعلوا له مقاييس يقيسونه بها كل سنة كما نقيسه الآن . وكانوا يسجلون فى سجلات خاصة درجات



حجر بالرم

قطعة من حجر بالرم الذى نقش عليه أسماء الملوك فى عصر ما قبل الأسر ، ثم فى عصر الأسر إلى منتصف الأسرة الخامسة . وقد نقش عليه أيضا مقاييس النيل

قورقة سالىير لا تزيد قيمتها عندى على قيمة « طوالع الملوك » أو « تقويم الأسىوطى » ، والخرافات التى فيها لا تتعدى صاحبها وجماعته من الجهلة يوجدون فى كل عصر وكل بلد ، فلا يحكم بهم على البلد الذى هم فيه .

ومثل آخر من امثلة الخرافات، المكذوبة على المصريين :

زعم المؤرخون العرب أن للنيل عروسا كان المصريون يقدمونها له كل سنة فلم يبطلها إلا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

« قال ابن الحكم : لما فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها إلى عمرو حين دخل بؤنة من أشهر العجم فقالوا له : أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها . فقال لهم : وما ذلك ؟ قالوا : إنه إذا كان لثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر من أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلوى والنياب أفضل ما يكون ثم القيناها فى النيل . فقال لهم عمرو : هذا لا يكون فى الاسلام وإن الاسلام يهدم ما قبله . فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى وهو لا يجرى قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجللاء . فلما رأى عمرو ذلك كتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بذلك ، فكتب إليه عمر أن قد أصبت . إن الاسلام يهدم ما كان قبله ، وقد بعثت إليك ببطافه فآلقها فى النيل إذا أتاك كتابى . فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فاذا فيها : « من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر . أما بعد ، فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجبر وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجربك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك » . فآلقى عمرو البطافه فى النيل قبل يوم الصليب بيوم وفد نهيا أهل مصر للجللاء والخروج منها لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل . وأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله تعالى سنة عشر ذراعا فى ليلة وقطع تلك السنة السوء عن أهل مصر » .

ثم إن فيما تركه لنا المصريون من الآثار وصفا
لاحتفالات دينية كانت تقام للنيل المرفوع إلى صف
المعبودات ، وقصائد وجهها إليه الشعراء ، وأغاني
تغنى به فيها المغنون ، وهذه الاحتفالات والقصائد
والأغاني خالية كلها من أية إشارة إلى إلقاء فتاة فيه
تسمى عروس النيل ، ولو أن قصة هذه العروس
كانت صحيحة لما خلت منها .

عروس لم يكن إلا لانه لم تكن هناك عروس . وهذه اللوحة
وجدت في إحدى الجزر بالقرب من أسوان .

وانخفض النيل في عهد الملك سنخارح منتوحب أحد ملوك
الأسرة الحادية عشرة فغشت مجاعة شملت مصر كلها ، ووصل إليها
خيرها في كتب كتبها بعضهم إذ ذاك . ومن هذه الكتب كتاب كتبه
أحد كبار الملوك في ذلك العهد إلى أمه ، وكان يقيم في الوجه
البحري وكانت أمه تقيم في الوجه القبلي ، فقال فيه :
« كيف أنت ؟ لا تقلقي على فاني حيا وفي صحة جيدة ، ولكن
البلد يموت جوعا . لقد حصلت لك على كل ما استطعت الحصول
عليه من الغداء .

« ألا يزال النيل شديد الانخفاض ؟ ... لا تستائي
لقلة ما أبعث به اليك فان نصف الموت خير من الموت . »
ومن تلك الكتب أيضا كتاب كتبه هذا الرجل نفسه إلى ولده
يقول فيه :

« عليك أن تفدي رجالي حينما يكونون في العمل . تذكر ذلك
ولا تغفل عنه . وليكن وكذلك أن تجعل انتاج أرضي أقصى مايمكن »
أحرث الأرض وانصرف إلى العمل بكل ما فيك من قوة . جدد
واجتهد واذكر أنك تأكل من عيشي ، وأن من حسن حظك أنني
مستطيع أن أقدم بحاجاتك . وإذا عاف أحد من رجالي المأكولات
التي تقدمها لهم فابعث به إلى ليقيم معي ويعيش كما أعيش .
وذلك ما لا يفعله أحد غيري . »

وفي هذه الكلمات ما يتم من شعور إنساني وعن أخلاق كريمة
تستحق أن يقف الباحث عندها .

(كتاب (Histoire de l'Egypte Ancienne) تأليف
(Arthur Weigall) ص ٧١ من الترجمة الفرنسية الطويلة
في باريس في سنة ١٩٣٥) .

وقد توفي الملك سنخارح منتوحب فخلفه الملك قبتاوى وع
منتوحب ، وفي عهده أيضا جاء النيل منخفضا في بعض السنين
فاستدت المجاعة وأدت إلى ثورة فقد فيها الملك مره وخلفه
عليه وزيره امنمحت . وبذلك انتهت الأسرة الحادية عشرة
وابتدأت الأسرة الثانية عشرة .

وفي كل هذه المجاعات والثورات الناشئة من انخفاض النيل
وفي كل الكتب التي بقيت لنا من مخططات تلك العصور ، لم يرد
ذكر شيء يسمى عروس النيل .

علوه وانخفاضه في أوقات معينة من كل سنة كما
نسجلها الآن . وقد سجلوا هذه الدرجات على بعض
حجارة المعابد . ولا يزال حجر « بالرم » وأعمدة
الكرنك وصخور أسوان والنوبة شاهدة بذلك (١) .
فلو أنهم كانوا يلقون فيه عروسا كل سنة لكي يفيض
لأشاروا إلى هذه العروس حين إشارتهم إلى الفيضان
ودرجاته .

أضف إلى ذلك أن فيما دونوه عن النيل ذكرا
لسننى جدد ومجاعة زرئت بها مصر بسبب انخفاض
الفيضان ، وهم لم يذكروا في ذلك عروسا قدمت أو
كانت تقدم ، ولو أن هناك عروسا لوجب أن تذكر
في خلال ذكرهم تلك السنين (٢) .

(١) حجر بالرم هو حجر يظن أنه بقية من بقايا معبد هليوبوليس .
وقد نقش عليه تاريخ ملوك مصر في العصر السابق على عصر الأسر
ثم تاريخ الأسر الخمس الأولى بأن قسم إلى خانات متوالية
خصصت كل خانة منها لذكر أهم ما وقع في كل سنة وأقصى
الدرجات التي وصل إليها ارتفاع النيل في تلك السنة . ولم
يوجد من هذا الحجر إلا جزء يظن أنه عشرة . وهو موجود الآن
في متحف بالرم في جزيرة صقلية ولذلك يسمى حجر بالرم .
وفي متحف القاهرة أجزاء صغيرة يظن أنها من حجر آخر كان
نسخة ثانية لحجر بالرم .

(٢) كان النيل يسمى حابي . وقد وجد منقوشا على لوحة
تذكاريه من الحجر تعرف منذ علماء الآثار باسم « لوحة المجاعة »
أن النيل جاء منخفضا سبع سنوات متواليا في عهد الملك
زوسر أحد ملوك الأسرة الثالثة فقال هذا الملك :

« اننى حزين لان النيل لم يفيض في عهدي سبع سنوات ، فقلت
الغلال ، وجفت الحقول ، وهلك كل ما يصلح أن يكون طعاما . وصار
الرجل اذا استنجد بجيرانه هربوا منه ولم يأت أحد منهم
لإنجاده . وصار الطفل يبكي ، والشاب يدبل ، والشيخ يغمى عليه .
وصارت سيقانهم جميعا لا تحملهم فهم مطروحون على الأرض
وقد اتقوا بأذرتهم متعارضة على صدورهم » .

ومع أن هذه الأقوال معزوة إلى الملك زوسر فقد عرف أن
اللوحة نقشت في عهد البطالسة ، وأن كهنة المعبد خنومو (معبود
أيلفتين) هم الذين نقشوها ثم أضافوا إليها أن الملك زوسر
استفاد إذ ذاك بالمعبود خنومو فأغاثه وأجرى النيل . وبهذه
القصة حصل كهنة خنومو على امتيازات كان المعبد الذي يخدمون
فيه قد حرم منها .

ومن هذا يتضح أن القصة مطعون في صحتها ، ولكن هذا الطعن
لا ينقص من قيمتها فيما نحن بسبيله . إذ من الجلي أنه لو كانت
عروس تلقى في النيل كل سنة ، لأشير إليها ولو مرة واحدة على
الأقل في هذه السنوات السبع التي جاء النيل فيها منخفضا ، ثم
لنقل أن النيل بقي مع ذلك منخفضا حتى أجراه خنومو ، فيكون
ذلك أدل على قدرته وفضله . فخلو القصة من أية إشارة إلى

نشيد النيل

وننشر هنا نشيد النيل نقلا من ماسبيرو السدئ
ترجمه من النص المصري في كتابه :
Histoire Ancienne des Peuples de l'Orient Classique
ص ٤٠ و ٤١ و ٤٢ من الجزء الأول . ويجب ان نقول
هنا ان ماسبيرو موزنا ونسعه هو بنفسه لكتابته هذا
المؤلف من ثلاثة أجزاء كبيرة ، وهذا المرحل يقع في
جزء واحد ، وقد ابيت فيه هذا النشيد نفسه بعد
حذف بعض اجزائه ومع تغيير طفيف جدا في كلمات
قليلة منه . وقد اعتمدنا نحن في الترجمة العربية
التي ننبثها هنا على الترجمة الاولى لأنها اوسع وأوفى .
وهذا هو النشيد :

« سلام عليك يا سنابى . يا من تخرج إلى
هذه الأرض وتأتى لنحى مدمر . يا من تخفى
في الظلمات مجيئك (١) . إنك اللجة تنتشر على
الحقول التي يخلقها رع . إنك تعطى الحياة
جميع الظمآنين ، ولستك ترفض أن تروى
الصحراء من فيض ماء السماء (٢) . ومتى هبطت
فان جب إله الأرض ينفخ بالخيز على اختلاف
انواعه ، ونابرى إله الحبوب يقدم قربانه ،
وبتاح ينشر الرخاء في دار صناعه (٣) .
« أنت سيد السمك ، مئى جزت الشلال (٤) .
لم تعد الطيور ترتدى مشردية على الحقول .

(١) يرى ماسبيرو ان في قوله « نعى في الظلمات مبيك »
إشارة إلى اسطورة كانت تقول ان النيل ينبع من نيل في السماء ،
ويجى في الظلمات إلى أن يكون النيل الذي على الأرض والذي
يروى مصر .

(٢) كان من الأساطير المعروفة عند المصريين ، من قبل عصر
الاسر ، ان النيل مظهر من مظاهر المعبود أوريس إله البحر
والخصب ، وان هذا المعبود مظهر من مظاهر سبت إله الشر
والجذب . وكان هذان المعبودان أحوين واحن سبت قبل أوريس
فانتم له حوريس ابنه من أوريس وحارب سبت حتى ادصر
عليه . فقول الشاعر هنا ان النيل يرفض أن يروى الصحراء
معناه انه يرفض أن يروى طمة إله السر في حين أنه « يسطى
الحياة جميع الظمآنين » .

(٣) كان المعبود بساح يلف في مبدأ أمره برئيس الصناعات ورجال
الحمت والهدوء . وكان يمد في منفيين على هذا المعنى .
وحسب كانت مصر تومض همد عابديه بأنها دار صناعه . ثم
تطور الأمر فصار بساح معبودا عاما وحالما للكون مثل رع في
بين شمس وامون في طيبة .

(٤) يريد الشلال الاول لأن النيل يدخل مصر بإيجيابه .

انت صانع القمح والشعير وكاسى المعابد حلال
الأعياد .

« أنت من إذا أضربت هن العمل أصابعه ،
أو مرض ، وقع ملايين من الناس في الجؤس .
وإذا قل ماؤه في السماء هلكت الآلهة نفسها ،
وهلك الناس ، واستولى الدعر على المواشى ،
وصار كل من في الأرض كبيرا او صغيرا يعانى
العذاب .

« اما إذا أجيب دعوات الناس ، فعلا النيل ،
وصار لهم خنومو (٥) . فان الأرض حين ظهوره
تصبح ابتهاجا ، وكل بطن يفرح ، وكل ظهر
يهتز من الضحك ، وكل سن يقطع .

« هو النيل جالب الخيرات ومفيض الخير
من المأكولات . هو موجد جميع الأشياء
الطيبة . هو سيد جميع النطف والجرايم .
هو منلو للذين يصطفيه . هو موجد العلف
للمواشى ، والقرايين لجميع الآلهة . والبحور
الذى يابى منه أجود من كل بحور غيره . وانه
ليفيض على البلدين (٦) . فتملأ مخازن الحبوب
وتزدحم المسنودعات وتوافر حاجات الفقراء .

« إنه ليضع نفسه في خدمة جميع الامانى
فيصعبها من غير أن ينقص شيئا منها . وهو
مستوى السفن . وهو في غنى عن أن تنقش
باسمه نصب من الحجارة او أن نحت له
تماثيل يوضع له الناجان عليها (٧) . وهو لا يراه
الرائون ، ولا يدفع له الناس ضريبة ، ولا
يقدمون له هدايا ، ولا يفنونه بالكلمات ذات
الأسرار الخفية ، ولا يعرفون مكانه ، ولا يقفون
بالكنائس السحرية على صندوق ذخائره
المقدسة .

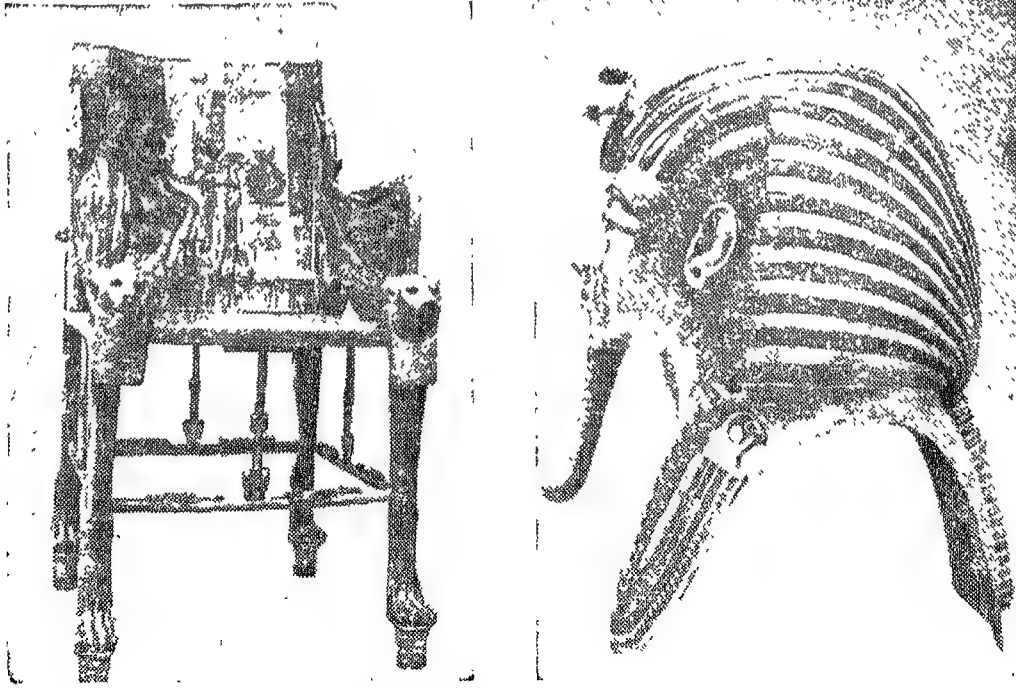
« وما من بيت يمكن أن تتسج له جوانبك
يا حابى ، ولا من إسان يدخل قلبك . وابناؤك

(٥) قوله « فصار لهم خنومو » معناه انه صار الإله الذى
يصنع بيده من الماء والطمى الخير للناس . وخنومو هو معبود
إلفنتين ، وكان يقال انه هو الذى صنع بيده الكون ويصنع بيده
الناس حين يولدون ويصنع جميع الأشياء .

(٦) المراد بالبلدين الوجه القبلى والوجه البحرى من مصر .

(٧) الناجان هما تاجا الوجه القبلى والوجه البحرى .

من آيات الصانع المصري



عرش توت عنخ آمون

وهو مصنوع من الخشب المحفور المكث بالذهب ، وقد
رصع بالأحجار الكريمة والفضة ، وصنعت الأرجل على صورة
أرجل السنور .

قناع مومياء توت عنخ آمون

وهو من الذهب الخالص . وهو يمثل سورة بالغة الدقة
للملك . وقد كان هذا الصاع يعطى رأس المومياء .



ثمانييل لرأس توت عنخ آمون

وهي مصنوعة من الجص في مهارة فائقة . واتخذت أغطية
لصدوى حفظ أحشاء الملك المنيطة .

طربا حينما تخرج من العالم المجهول ، فذلك لأن تشاقلك اضمحلال وفساد . وإذ ذاك يجتمع للابتهال إليك والحصول على مائك السنوي ، أهل طيبة جنبا إلى جنب مع أهل الشمال ، وكل واحد منهم يحمل آلات مهنته ، وليس فيهم من يتأخر عن جاره ، ولا من يلبس ملابس الأعياد النى كان قد تعودها . وإبناء توت ، إله الغنى ، لا يتجملون بالحلى . ومثلهم التتسيع الإلهى . والليل عام شامل (٦) . ولكن متى بسطت فيضانك تحلى الكل وتعطروا .

« أيها المعطى الخيرات الحقيقية ، ومن تتجه إليه رغبة الخلق ، ها هي ذى كلمات مزوقة لكى تحيب (٧) ، ان أنت أجبت وأعطيت أمواج الاقيانوس السماوى ، فان نابرى إله الحبوب يقدم قربانه ، والآلهة جميعا يعبدونك ، والطيور لا تتردى على الجبل .

« لو أن ما تعجبه يدلك كان ذهباً ، أو قوالب من الفضة ، لما أكله الناس ، لأنهم لا يأكلون ذهباً ولا فضة ولا لازورد ، وإنما يأكلون قمحا هو أفضل من الحجارة الكريمة .

« لقد بدأوا يشدون باسمك على القيثارة ، مستلهمين صدى التصفيق بالأيدى . وهؤلاء هم ذراري ابنائك يفرحون بك ، ويمطرونك برسائل الشناء عليك . ولا عجب فان إله الغنى هو الذى يزين الأرض ويبسط الخير للسفن ، ويبعث الحياة فى قلوب النساء الحاملات ، ويجب أن يتكاثر عدد القطعان .

« حينما ظهرت فى مدينة الملك شبع الغنى ، ولم يعد الصغير يعبأ بزهور اللوتس ، وصار كل شىء تابئنا ومن صنف جيد .

(٦) يصف الشاعر هنا ماذا يفعل أهل مصر حينما يكون النيل متشاقلا أى قليل الفيضان . فيلاحظ أنه ليس فى هذا الوصف أية إشارة لفتاة تلقى فى النيل .

(٧) كان من الأساطير الفاشية اذ ذاك أن الآلهة يمكن التسلط عليها بالومود المزوفة ولو كانت مما لا يمكن تحقيقه ، وأن الآلهة تتخدع بهذه الومود فتجيب صاحبها الى ما يطلبه منها . فالمراد بقوله « ها هي ذى كلمات مزوقة لكى تحيب » أن الشاعر يوف الى النيل كلمات مزوقة لكى يغضب .

وذرايرهم ينتهجون بك لأنك تحكم كملك تسرى أوامره على الأرض كلها (١) ، ويظهر أمام أهل الجنوب وأهل الشمال على السواء ، ويجفف الدموع من جميع العيون ، ويبدل خيراتة بغير حساب .

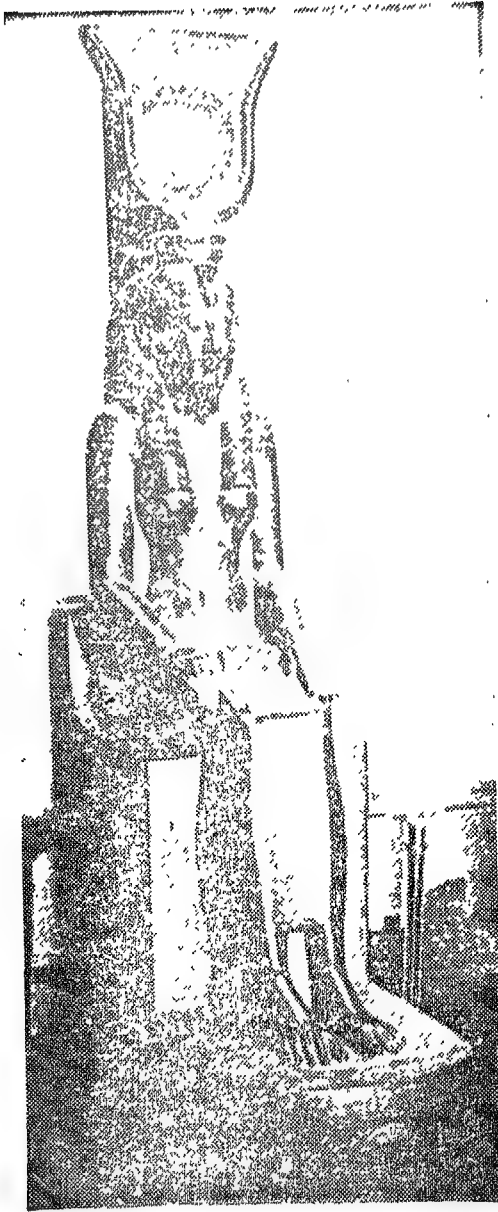
« وأينما يوجد الألم فأنت تحولته إلى فرح . وحينئذ ينتهج كل قلب ، ويقفز سوفكو ، التمساح ابن نيت (٢) من الطرب لأن التتسيع الإلهى (٣) الذى يراففك ينظم كل شىء . فالفيضان الكافى يروى الحقول ويبعث النشاط فى الرجال ، وإذ ذاك يرتوى كل رجل بعمل أخيه من غير أن يتحاكم معه الى القضاء (٤) .

« وإذا كنت تدخل فى خلال الأغانى . وتخرج فى خلال الابتهاج (٥) ، ثم اذا كان الناس يرقصون

(١) المراد بالأرض كلها مصر بفسمها .
(٢) نيت هذه (Nit) غير نيت (Neith) معبودة صالحجر . وتقول الاساطير انها عجلة ولدت فى المساء الاول الذى خلق منه الكون ، ولها طفلان هما تمساحان .

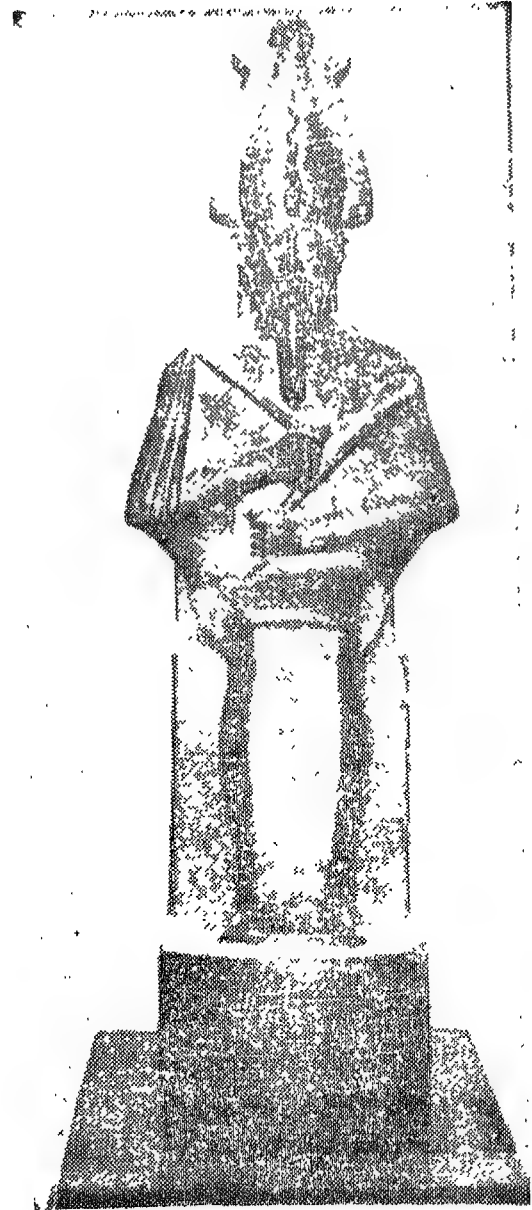
(٣) التتسيع الإلهى موجود فى نظرية هليوبوليس من كيفية خلق العالم . فقد كانت هذه النظرية تقول ان الخالق الاول هو اتوم رع ، وقد بدأ خلق من نفسه شو (أى القضاء) وزوجته نفتيت . ثم جب (أى الأرض) ونوبت (أى السماء) . ثم أوزريس (أله الخير والخصب) وزوجته ايزيس (وهى أخت أوزريس) وسيت (أله الشر والجذب) وزوجته نفتيس . فالجموع تسعة آلهة . وقد اقتبست المدن الكبيرة هذا التتسيع نفسه بعد أن حولته الى معبودها الاكبر . فمدينة منفيس أخذته ولكنها وضعت معبودها بتاح بدل اتوم رع . ومدينة طيبة وضعت معبودها آمون مكان اتوم رع . ولكن لما كان آمون فى أول نشأته معبودا خامل الذكر فقد سمت طيبة اليه رع فسمته آمون رع ليفيد من هذه الاضافة . على انها لم يفتها حينئذ أن تقرر أنه ملك الآلهة وأن تصفه بجميع الأوصاف التى كانت هليوبوليس تصف بها اتوم رع . ومدينة هرموبوليس (الاشمونين) كان لها تتسبع آخر قمرى رئيسه توت . (٤) يرى ماسبيرو أن فى هذه الجملة اشارة الى المنازعات والقضايا التى كانت تنشأ من توزيع المياه على الحقول حينما يكون النيل واطنا والفيضان قليلا ، أما حينما يكون الفيضان كافيا فلا يبنى محل لمنازعات ولا لقضايا .

(٥) علق ماسبيرو على هذه الجملة فقال ان النص المصرى فيها مضطرب غير واضح ، وانه جعلها فى هذه الصيغة قياسا على كتابات من هذا النوع موجودة فى متحف اللوفر كان يقال فيها ان فلانا صاحب المقام الكبير يمثل أمام الملك بين كلمات الشناء ويخرج بين الافانى . وذلك أنه كانت توجد فى البلاط الفرعونى كما كانت توجد فى بلاط پيرانس صيغ مختلفة الدرجات من الأغانى والكلمات للمنازلات الكبيرة للملوك . فكان النيل واحد من هؤلاء الكبراء يستقبل بالفناء ويودع بالابتهاج .



تمثال ايزيس
أخت اوريس وزوجه

(بين الاقصر وأسوان) . وكان يحضرها الملك في كثير من الاحيان ، فاذا لم يستطع حضرها مندوب عنه . وقد وجدت ثلاث لوحات واحدة لرئيس الثاني ، والثانية لرنفناح ، والثالثة لرئيس الثالث . وفي كل واحدة وصف واسع لهذه الحفلة ، وأن الملك حضرها بنفسه . وفي هذا الوصف أنه كان يلبح على سبيل القربان للنيل عجل أبيض وأوز وطيور أخرى ثم كان يلقي فيه قرطاس من البردى يدعى فيه النيل



تمثال أوزيريس
إله الخير والخصب

« إنه النيل ، لأبنائه جميع النباتات ، وإذا هو لم يطعم الناس ، هجر النعيم المساكن وأصبحت الأرض بالاضمحلال » .

وقد عرضنا هنا للحفلات الدينية التي كانت تقام للنيل ، فنذكر واحدة منها تسمى موضوعنا هذا ، وهي التي كانت تقام كل سنة في موعد معين لأجل دعوة النيل إلى الفيضان .

كانت هذه الحفلة تقام في منطقة جبل السلسلة

بعد ذلك دفعة واحدة ، وفي ليلة واحدة ، على أثر إلقاء البطاقة ، ستة عشر ذراعا بسد ان كان جافا لا يجرى قليلا ولا كثيرا ؟

وقد فات ابن عبد الحكم أنه جعل قصته هذه في عهد عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص ، وان مصر في ذلك العهد كانت مسيحية ولم يكن قد بقى فيها شيء من الوثنية ، بل لقد كان الرومان طاردوا الوثنية وكهننتها وأنصارها حتى انقرضت اللغة المصرية . وكان قد مضى على هذا كله بضع مئات من السنين . وقد تحمس المصريون للمسيحية حينما اعتنقوها حتى كان منهم « النهداء » الذين يعرفهم التاريخ . فاذا قيل - والقول غير صحيح - إن العقيدة الوثنية كانت تبيح تقديم عروس للنيل ، فكيف يمكن أن يقال إن العقيدة المسيحية والحكومة المسيحية افرتا تقديم هذه العروس ؟

لا شك في أن القصة مخترعة وان ابن عبد الحكم لم يزنها حينما رواها .

فأنت ترى مما تقدم ان الخرافات المختلقة على مصر القديمة كثيرة ، وان الأسباب التي دعت إلى اختلاقها كثيرة أيضا ، وإذن لم تقم المدنية المصرية على هذه الخرافات التي لم يكن لها وجود ، كلا ، ولم تقم على الآراء التي كان المصريون يعتقدونها والتي يظهر لنا الآن أنها فاسدة ، وإنما قامت على أسس علمية وخلقية سليمة ، ولهذا استطاعت أن تعيش أكثر من ثلاثة آلاف عام ، وان تخطو بالإنسان إلى الأمام .

فاذا تيسر لكتابي هذا أن يساهم ، ولو بنصيب ضئيل ، في جلاء هذه الحقيقة ، فذلك ما أغبط به ، وهو كل ما أبغى .

عبد القادر حمزة

إلى أن يفيض . وهذا القرطاس هو كل ما كان يلقي فيه . وكان الكهنة يزعمون ان للكتابة الى فيه قوة سحرية .

فهذه كما رأيت ثلاث لوحات مختلفة ، لثلاثة ملوك مختلفين ، في عصور مختلفة ، وصفت كل منها الحفلة التي كانت تقام لدعوة النيل إلى الفيضان . وظاهر أنه لو كانت هناك عادة جارية بتقديم عروس لوجب أن تقدم في هذه الحفلة . ولكن واحدة من اللوحات الثلاث لم تشر إلى شيء يسمى عروسا تلقى أو لا تلقى ، وإنما أشارت إلى القرطاس من البردى . ومن البديهي أن إلقاء عروس أهم بكثير من ذبح عجل وأوز وإلقاء قرطاس ، فإشارة اللوحات إلى هذه الأشياء وسكوتهما عن شيء يسمى عروسا قاطع في الدلالة على أنه لم تكن هناك عروس .

على أن كلمة « عروس النيل » ليست اختراعا محضاً ، بل هي كلما كان المصريون يقولونها ويريدون منها « أرض مصر » ، وكان معناها عندهم أن النيل متى فاض دخل على أرض مصر كما يدخل الرجل على عروسه . ولا يبعد أن يكون هذا المعنى المجازي هو الذي أدى مع الزمن إلى توهم أن هناك عروسا كانت تلقى .

هذا هو التمهيص التاريخي يثبت أن لا وجود لعروس كانت تلقى في النيل ، فاذا نحن تركنا هذا التمهيص جانباً ، وانتقلنا إلى التمهيص العقلي وجدناه يدل على أن رواية ابن عبد الحكم لا تستقيم ولا يمكن أن تقبل . أفلا تراه يقول إن النيل بقى « لا يجرى قليلا ولا كثيرا ثلاثة أشهر هي بؤنة وأبيب ومسرى » فهل يمكن أن يبقى في مصر أثر الحياة إذا جف ماء النيل فلم يجر قليلا ولا كثيرا ثلاثة أشهر متوالية ؟ وهل من المعقول أن يجرى النيل

مارس سنة ١٩٤٠

المدنية المصرية

هل نبتت في مصر؟

أوطرات عليها من الكلدان؟

فالدليل الاول استعمال معدن النحاس في صناعة السكاكين والدبابيس والمسامير ورؤوس الحراب ، واستعمال الذهب في الأسلحة والحلى وغيرها . وقد قال أصحاب هذا الدليل إن النحاس والذهب لم يستعملوا في مصر إلا في عصر ما قبل الأسر بقليل ، وكان استعمالهما فيها فجأة ، وهذا يفسر انتقال المصريين فجأة من حالة إلى حالة . ولم يذكر أصحاب هذا الرأي الحديد لأنه دخل مصر في عصر الأسر .

والدليل الثاني استخدام الضمائر في اللغة المصرية على نحو شبيه بالذى تستخدم به في اللغات السامية ، ثم شيوع كتابة أسماء الرؤساء والملوك داخل إطارات مستطيلة ، تسمى الآن « خراطيش » ، قبيل عصر الأسر ثم في عصر الأسر . وهذه العادة كانت توجد عند الكلدان في ذلك الوقت نفسه .

والدليل الثالث أن المباني التى وجدت للملوك الأسر الأولى في نقادة ، وبخاصة للملك « عحا » ذات واجهات مزينة بأشكال مخروطية خارجة وداخلية ، وهذا النوع من البناء له شبيه في مباني الملوك في الكلدان .

والدليل الرابع أنه وجدت على بعض الأواني المخلفة عن عصر ما قبل الأسر رسوم حيوانات خرافية ذات أعناق طويلة (انظر الوجه الثانى من لوحة نعيمر) . وقد وجد مثل هذا النوع من الزخرفة على بعض الأواني في الكلدان .

والدليل الخامس وجود قصة منقوشة على معبد إدفو لقوم يسمون « أتباع حوريس » فسرت بما معناه أن هؤلاء الأتباع وفدوا على مصر من جنوبها وغزوها . وحوريس واحد من المعبودات الأولى التى عبدها المصريون .

تلك هى الأدلة ، وقد ذكرناها لأننا سنعود إليها

كان الاعتقاد السائد عند العلماء إلى سنة ١٨٦٨ م أن المدنية المصرية تبتدىء فجأة بالأسرة الأولى التى أسسها الملك منا ، أو قبلها بقليل . وكانوا يقولون إن هذه المدنية بدأت فجأة لأنها لم تترب في مصر بل طرات عليها مع وافدين غزوها غزوا حريباً أو سلمياً ، فعلموها الكتابة وصناعة المعادن وتشبيد المباني وادخلوا إليها ديانتهم ، وكانوا هم الذين أقاموا فيها نظام الحكم على النحو الذى عرف عن العراعنة . ومن نسل هؤلاء الغزاة كان الملك منا وخلفاؤه (١) .

وتساءل العلماء : من يكون هؤلاء الغزاة ؟ فلم يختلفوا كثيراً ، بل قالوا إنهم من الجنس السامى ، ومن أمة الكلدان .

وتساءل العلماء بعد ذلك : أى طريق سلك هؤلاء الغزاة ؟ فاختلفوا لأن جماعة منهم قالوا : إن الطريق بلاذ اليمن فالبحر الأحمر فالصومال فالنوبة فمصر العليا ، بينما جماعة آخرون قالوا : إن الطريق فلسطين فصحراء سيناء فلدنا مصر . فالأولون رأوا أن مصر غزيت من الجنوب إلى الشمال ، والآخرون رأوا أنها غزيت من الشمال إلى الجنوب . ولكل من الفريقين أدلة لاندخل هنا فيها .

ولكننا إذ ندع هذه الأدلة على غزو مصر من الشمال أو غزوها من الجنوب لا يسعنا إلا أن نسير بايجاز إلى أهم الأدلة التى كان العلماء يستندون إليها ، والتى مازال بعضهم يستند إليها ، ليقولوا إن غزاة من الكلدان غزوا مصر فكانوا هم الذين جلبوا لها المدنية وأسسوا فيها الأسرة الأولى .

(١) لولا أن جماعة من كبار العلماء هم الذين رفعوا ومازالوا يرفعون إلى اليوم راية هذا الرأي لما عطينا هنا عناية خاصة بشرحه وتفنيده . فمن العلماء السابقين الذين قالوا به ماريت باشا وماسبيرو ولبسيوس ونافيل وشوينفورت ومورجان . ومن العلماء الذين ما زالوا يقولون به فلندرز بيتري ،

وشاباس (٨) فانهزم القائلون بوجود العصر الحجري . وكانت اعظم حجة لهؤلاء الرافضين أن الأدوات والأسلحة الحجرية توجد في بعض قبور الدولة القديمة ، أى في الوقت الذى كان المصريون فيه يصنعون المعادن صناعة راقية . فالعصر الحجري مختلط عندهم إذن بعصر المعادن ولا يمكن فصل أحدهما من الآخر .

قالوا : وسبب هذا أن المدنية طرأت على مصر فجأة من الخارج بينما كان أهلها لا يزالون في الحالة البدائية ، وبذلك اختلطت عندهم المدنية بالبدائية ، وكان الأثر الملموس لهذا وجود الأسلحة والأدوات الحجرية في قبور الدولة القديمة ، إلى جانب الأسلحة والأدوات المعدنية .

وكانت هذه الهزيمة قاسية ولكنها لم تكن من همة الباحثين عن العصر الحجري في مصر ، فتوالت بحوثهم ، وتوالت معها كشوفهم . ولا نستطيع هنا أن نخوض في هذه وتلك لأن للخوض فيها كتباً خاصة ، فيكفي أن نقول إن البحوث والكشوف استمرت بغير انقطاع ، وأنها مازالت مستمرة إلى الآن . وقد ساهم فيها كثير من كبار العلماء ، نذكر منهم ديبلانو (٩) في سنة ١٨٧٢ وكان محل بحثه إسنا وأسوان ، والدكتور ريل (١٠) في السنة نفسها وكان محل بحثه حلوان ، والسير جون لوبوك (١١) في سنة ١٨٧٣ ، والدكتور شوينفورت (١٢) البعثة النمساوية الذى استمر بدراسة أرض مصر وأعلى النيل نحو أربعين سنة ، وفلندرز بترى (١٣) وجاك دى مورجان (١٤) في سنتي ١٨٩٦ و ١٨٩٧ وإليه وإلى مساعديه ليجرين (١٥) وداريسى (١٦) وجيكيير (١٧) الذين كانوا موظفين تحت إقامته في مصلحة الآثار المصرية يرجع كثير من الفضل في تأييد الرأي القائل

(٨) (Chabas) وهو من خلفاء شامبوليون الشاب في خدمة المصروlogie .

(٩) (Delanoue) (١٠) (Dr. Reil)

(١١) (Sir J. Lubbock) (١٢) (Schweinfurth)

(١٣) (Flinders Petrie) وهو من المصروlogيين الإنجليز المعروفين في العصر الحاضر (وقت ظهور الطبعة الأولى عام ١٩٤٠) .

(١٤) (J. de Morgan) وكان مديراً لمصلحة الآثار المصرية

(١٥) (Legrain) (١٦) (Daressy) (١٧) (Jequier)

قيماً بعد لتثبت أنها واهية لا يمكن أن يبنى عليها افتراس حادث تاريخي جسيم ، كغزو الكلدانيين مصر ونقلهم المدنية إليها .

كان هذا إذن هو الاعتقاد السائد عند العلماء إلى سنة ١٨٦٨ م ، وكانوا لهذا يقولون إن مصر لم تعرف العصر الحجري (١) بالترتيب الذى عرفت به أمم أوروبا ، بل كانوا يقولون إن من العبث البحث فيها عن عصور ما قبل التاريخ . ففي تلك السنة دعا الخديو اسماعيل ملوك أوروبا وعلماءها للاحتفال بأفنياس قنافة السويس ، وكان من بينهم العالم الجيولوجي أرسلين (٢) ، فجاب مصر صعوداً وهبوطاً فاستوفت نظره أدوات من الحجارة وجدها بالقرب من منطقة الأهرام تشبه الأدوات الحجرية التى وجدت في أوروبا ، ثم لما بحث في الأقصر وجد في وادى الملوك أدوات وأسلحة حجرية مصقولة .

وبعد ذلك بسنتين وجد العالمان هامى (٣) ولينرمان (٤) في الأقصر مجموعة أخرى من الأدوات والأسلحة الحجرية المصقولة وغير المصقولة .

وعندئذ فتح أمام المجمع العلمى المصرى (٥) باب البحث في هل العصر الحجري يوجد في مصر كما يوجد في أوروبا أو لا ، فرفض العلماء المصروlogيون أن يقولوا بوجوده ، ومنهم ثلاثة كانوا في ذلك الوقت من زعماء المصروlogia وهم مارييت باشا (٦) ولبسيوس (٧)

(١) العصر الحجري هو العصر الذى كانت فيه أدوات الإنسان وأسلحته من الحجر . وهو ينقسم إلى عصرين كبيرين : أحدهما عصر الحجر غير المصقول ، والثانى عصر الحجر المصقول . وذلك أن الإنسان حينما بدأ يتخذ من الحجر أدواته وأسلحته لم يكن يعرف كيف يصقلها ، ثم جاء عصر استطاع فيه صقلها ، وبعد ذلك بدأ ينتقل إلى عصر استعمال المعادن . فباستعمال المعادن ، ولا سيما النحاس والذهب والبرنز ، يبدأ العصر التاريخي لأن الإنسان بدأ فيه يكتب ويمسح المباني التى تحدثنا الآن آثارها الباقية بأخباره .

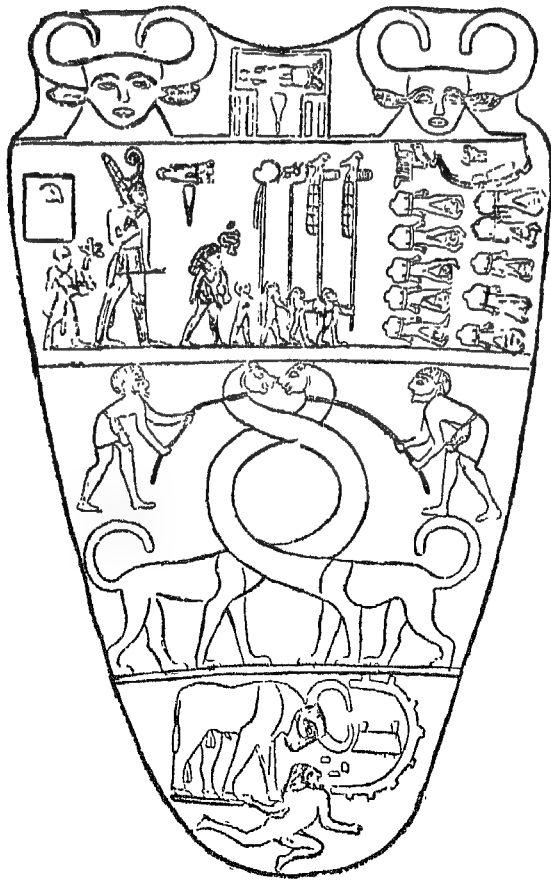
والعصور السابقة على استعمال المعادن تسمى كلها عصور ما قبل التاريخ .

(٢) (Arcehin) (٣) (Hamy)

(٤) (Lenormant) (٥) (Institut Egyptien)

(٦) (Mariette Pacha) وكان مديراً لمصلحة الآثار المصرية .

(٧) (Lepsius) وهو من كبار المصروlogيين الألمانين .



لوحة نعرمر (الوجه الثانى)

فى هذا الوجه من اللوحة يرى فى الخانة العليا اسم الملك كما هو فى الوجه الاول .

ويرى فى الخانة الثانية الملك لابسا التاج الاحمر ، تاج الوجه البحرى ، وهو يسير وامامه رجال يحملون اربع شارات هى من شارات الحوريين . ثم عشرة اجسام قطعت رؤوسها ووضعت بين اقدامها .

فمعنى ذلك ان الملك ذاهب الى احتفال قطعت او ستقطع فيه رؤوس الاسرى .

وفى الخانة الثالثة رسم حيوانين خرافيين لهما عنقان طويلان . وهذا النوع من الرسم هو الذى يقول بعض العلماء انه منقول من الكلدان .

وفى الخانة الرابعة ملك فى شكل ثور كبير يهدم براسه حصنا ويدوس بقدمه اسيرا اسيويا ، اى شعبا اسيويا .



لوحة نعرمر (الوجه الاول)

هذه اللوحة مصنوعة من حجر النيسبت . وهذا احد وجهيهما . ويرى بعض العلماء (ومنهم برستيد) ان الملك نعرمر واحد من ملوك الاسرة الاولى ، ويرى الآخرون (ومنهم موري) انه سابق عليها .

وفى هذا الوجه من اللوحة يرى فى وسط الخانة العليا اسم الملك . وفى الخانة التى تليها يرى الملك قابضا بيده اليسرى على شعر رأس اسير جاك امامه من اهالى الاقليم السابع من اقليم الوجه البحرى . ويحمل الملك فى يده اليمنى مضربا بهم بأن يضرب به هذا الاسير . وامامه الصقر آتيا اليه واحدى قدميه تقبض بمخيلها على رأس اسير اسيويا . ومن فوق هذا الاسير ستة سيفان من النبات كل واحدة منها تمثل ألف اسير . فالمجموع ستة آلاف اسير وكان الصفر محبوب مدينة الكاب التى كانت هاصمة للملوك الحوريين اباع حوريس .

والملك يضع على راسه التاج الابيض ، تاج الوجه النبلى .

والشعب الوحيد الذى يشترك مع الشعب المصرى فى هذه الميزة هو الشعب الكلدانى ، لأن الطبيعة هيات له من الاسباب فى وادى دجلة والفرات مثل ماهيات للشعب المصرى فى وادى النيل (٥) . وإنما الذى يجب أن نسجله هنا هو أن وجود العصور الحجرية فى مصر هدم جانباً من النظرية القائلة بأن المدنية المصرية ليس لها جذور قديمة فى مصر ، وأنها طرأت على يد غزاة من الكلدان غزوا مصر غزوا حرباً أو سلمياً .

إذن توجد فى أرض مصر مخلفات لعصور ما قبل التاريخ ، وإذن يستطيع العلم أن يرشد إلى الحالة التى كانت عليها مصر وكان عليها سكانها منذ أقدم هذه العصور ، فيحسن أن نقول فى هذا كلمة .

قال العلماء : إن الإنسان انتشر فى عدة نقاط فى أوربا وأفريقيا وآسيا فى عصر واحد تقريباً . ولكن الأرض التى كانت الاسباب الطبيعية المجتمعة فيها إذ ذاك تجعلها أصح للحياة من غيرها هى أرض وادى النيل وأرض ما بين النهرين (دجلة والفرات) . ولهذا ظهرت المدنية المصرية والمدنية الكلدانية حينما كانت كل أمم العالم الأخرى لاتزال على الحالة البدائية .

والمراد بصلاحية أرض وادى النيل وأرض ما بين النهرين للحياة أكثر من غيرها ، أن أوربا وآسيا كانتا فى ذلك الوقت تهاجمهما سيول من الثلج تلجىء الإنسان فيهما إلى أن يعيش فى مغارات الجبال وتمنعه من أن يفارق الحالة الوحشية . ويقال إن عدد السيول التى هاجمت أوربا أربعة ، وإن مدتها تستغرق ألوفاً من السنين . وكانت الأرض الوحيدة التى انقطعت منها هذه السيول هى الواقعة على سواحل البحر الأبيض المتوسط فى أفريقيا وآسيا .

ولكن هذه الأرض لم تكن كلها فى مستوى واحد من حيث الصلاحية للحياة بل كانت فيها بلاد تمتاز

(٥) دلت كنوف حديثة على أن هناك وادياً ثالثاً اشترك مع وادى النيل ووادى الفرات ودجلة فى هذه الميزة وفى نتائجها . وهذا الوادى هو وادى نهر الهندوس فى الهند . ويرى كثير من العلماء أن الكلدانيين الذين انشأوا أول حضارة فى الكلدان كانوا أهل هذا الوادى الهندى نزحوا إلى دجلة والفرات وهم السومريون المعروفون فى تاريخ الكلدان .

يوجد العصر الحجرى فى مصر (١) . ثم أميلينو (٢) سنة ١٨٩٥ وسنين تالية . ثم العالم الأمريكى برستيد (٣) الذى توفى منذ ثلاث سنوات . ثم العالم البلجيكى كابار (٤) ، وهو الآن رئيس المعهد الأثرى المصرى فى بروكسل .

ويطيب لنا هنا أن نذكر أن بعض المصريين اشتغلوا بهذا البحث وانصرفوا إليه انصرافاً علمياً صحيحاً فحصلوا فيه على نتائج قدرها لهم العلماء . ومن هؤلاء المصريين الأمير (السابق) كمال الدين حسين وكان أكثر بحوثه فى الواحات والصحراء . ثم المغفور له أمين المصرى وفد كشف منذ بضع سنوات فى شمالى حلوان عن قرية كاملة من قرى العصر الحجرى ثم توفى بعد كشفها بقليل فسمها العلماء باسمه اعترافاً بفضلها . ثم الأستاذ مصطفى عامر وهو يعمل الآن لحساب الجامعة المصرية فى منطقة المعادى وقد كشف هو أيضاً عن قرية من قرى العصر الحجرى . وهذه الأسماء وحدها - ونحن لم نذكر غير البارز منها - تدل على مقدار الجهود التى اتجهت إلى البحث فى عصور ما قبل التاريخ فى مصر ، وقد أدت كلها إلى نتيجة واحدة لم يبق الآن شك فيها ، وهى أن عصور ما قبل التاريخ توجد فى مصر كما توجد فى أوربا ، وبالترتيب نفسه . ففيها عصر الحجر غير المصقول بأقسامه الفرعية ، وفيها عصر الحجر المصقول بأقسامه الفرعية أيضاً ، وفيها أخيراً عصر الانتقال رويداً رويداً من الحجر المصقول إلى المعدن . ولكن هناك مع ذلك فارقاً بين المصرى والأوروبى فى العصر الحجرى ، أو بعبارة أصح بين المصرى وغيره من جميع أمم العالم . وهذا الفارق هو أن المصرى اجتاز عصور الحجر بسرعة بينما الأمم الأخرى تأخرت فلم تخرج منها إلا بعد المصرى بأزمنة متفاوتة بتفاوت استعداد كل منها ، فهى عند البعض مئات وعند البعض الآخر ألوف من السنين .

(١) من أعجب ما يقال هنا أن أبحاث وجود العصر الحجرى فى مصر كان من الأدلة القوية التى هدمت نظرية طروء المدنية على مصر بواسطة فرقة من الكلدان ، ومع ذلك كان جاك دى مورجان من القتالين بها وقال بها أيضاً فلندرز بترنى .

(٢) (Amellneau) (٣) (J. H. Breasted)

(٤) (J. Capart)

يزين هذه الأواني برسوم السفن والحيوانات والنباتات .

وفي هذا يقول موري (١) في صفحة ١٤٠ من كتابه
(Des Clans Aux Empires)

« لم تجد الطبيعة في ذلك الوقت على بقعة من بقاع الأرض بالخصائص اللازمة لنمو مجتمع انساني كما جادت على مصر . ولهذا لا توجد في أية بقعة من بقاع الأرض صناعة من صناعات عصر الحجر المصقول هي في إنقاس الصناعة التي توجد من هذا النوع في مصر . على أنه لم يوجد في ما بين النهرين ، ولا في سوريا أي أثر للانسان سابق على ٤ آلاف سنة قبل الميلاد ، ما خلا نقطة قليلة في فلسطين لم يحدد تاريخها بعد بدقة ، ولكن يظن أنها من عصر الحجر المصقول . وفي هذا الوقت أي في حدود أربعة آلاف سنة قبل الميلاد نرى المصريين يدخلون في العصر التاريخي من عصور المدنية » (٢) .

ويقول برستيد في الجزء الأول من كتابه (A History of Egypt) في الصفحة ٢٩ من الترجمة الفرنسية المطبوعة في بروكسل سنة ١٩٢٦ : « أن الأسلحة والأدوات التي وجدت في مصر من الحجر الصوان ، أجمل وأحسن صقلا من جميع الأسلحة والأدوات التي وجدت من هذا النوع في جميع بلاد العالم » .

(١) الأستاذ (A. Moret) كان الرئيس الشرفي لمتحف (Guimet) في باريس ومدير مدرسة الدراسات العليا فيها . وهو من كبار المصنوعين في العصر الحاضر وله فيها مؤلفات عدة . وقد توفي منذ سنتين (مفهوم أنه منذ سنتين من صدور الطبعة الأولى) .

(٢) هذا شاهد من الشواهد التي تهدم نظرية القائمين بأن المدنية طرأت على مصر فجأة على يد غزاة من الكلدان . ولهذا يستمر الاساذ موري في كلمته تلك فيقول :

« يحسن اذن أن نعزو الى مصرية سكان مصر الاولين ، والى الخصائص الانشائية التي توافرت في وادي النيل ، تقدم هؤلاء المصريين المبكر . وليس هناك دليل على أن هذا التقدم راجع الى غزاة اجانب كانوا قد نالوا من المدنية اكثر مما ناله المصريون . فان وجود هؤلاء الاجانب ، أو على الاقل وجود مدنيتهن ، أمر يحتاج الى اثبات » .

ونقول بعد ذلك ان الاساذ موري كان من الذين جروا مع نظرية الغزاة الكلدانيين ولكنه عدل عنها في مؤلفاته الأخيرة .

على بلاد . ومن هذه البلاد الممتازة وادي النيل ووادي ما بين النهرين .

قال العلماء ايضا : وكان الوجه البحري كله غير موجود ، وكانت مياه البحر المتوسط تضرب في جبل المقطم حيث توجد القاهرة الآن . وكانت الأمطار غزيرة في صحراء أفريقيا الكبرى ، فكانت تجري في هذه الصحراء أنهار ، وكانت أرضها تزدحم بالنباتات والأشجار والحيوانات ، وحدث بعد ذلك تحول في الأمطار فجعلت نقل شيئا فشيئا في الصحراء وتزداد شيئا فشيئا في وسط أفريقيا ، وحينئذ بدأ نهر النيل يوجد وشق طريقا له من أواسط أفريقيا إلى البحر الأبيض المتوسط .

ولما جرى النيل أخذت جموع من الانسان تتجمع حوله . ولا يعرف الآن تاريخ صحيح لبدء هذا التجمع ، ولكن من المباحث التي بحثها شوينفرت أنه حفر في مدخل الدلتا حتى وصل إلى عمق ٢٠ مترا في بعض النقاط و ٣٠ مترا في بعضها الآخر ، فوجد أواني من الفخار وقوالب من الطوب ، ووجد على مثل هذا العمق بالقرب من دمياط جمجمة إنسان . ولما كانت طبقة الطمي التي يكسو بها النيل أرض الدلتا كل سنة معروفة على وجه التقريب ، فقد حسب برستيد فوجد أن الانسان السدي عاش حيث وجدت تلك الجمجمة وتلك الأواني والقوالب يرجع الى ١٦ ألف سنة مضت . ولا يزال باب البحث في هذا الموضوع مفتوحا ، ولا تزال الكلمة الأخيرة فيه متروكة للمستقبل .

ومر إنسان وادي النيل بالعصر الحجري ، فكانت أسلحته التي يقاتل بها وبصطاد الحيوانات ، من الحجر غير المصقول ، ثم تقدمت فصارت من الحجر المصقول . وفي هذا العصر الأخير يشهد العلماء جميعا بأن تقدم الانسان في مصر كان سريعا ، وكان يفوق مثله في أوروبا . فآلات الانسان في مصر وأسلحته وأدواته تشبه آلات الانسان في أوروبا وأسلحته وأدواته ، ولكنها اتقن منها صقلا وأحسن صنعا . وفي هذا الوقت عرف الانسان في مصر كيف يصنع الفخار الأحمر والأسود ، وكيف يصنع منهما أواني ، ثم استطاع أن

وجدها نباتات وحشية فأخذ يعالجها قرونا وقرونا حتى استخلص منها الأنواع الصالحة لعدائه . ويرى كثير من العلماء أن الأدلة كافية على أن الإنسان في مصر هو أول من استخلص — على الأقل — القمح المعروف الآن ، من القمح الوحشى .

وقد قال شوينفورت الذى تقدم ذكره : إن القمح الوحشى يوجد الآن فى بعض المناطق المرتفعة فى فلسطين وإيران . وعنده أن هذا دليل على أن المدنية المصرية دخلت مصر على يد غزاة من الكلدان كانوا هم الذين حملوا إليها نبات القمح . ولكن برستيد يخالفه فى هذا ويقول : إن نبات القمح الوحشى وجد فى وادى النيل كما وجد ولا يزال يوجد فى بلاد أخرى . فوجوده فى فلسطين وإيران ليس دليلا على أن المصريين لم يستخلصوا منه نبات القمح المعروف (٥) .

وتلا هذا أن اخترع الإنسان فى مصر الكتابة (٦) وتدل إشاراتها ورموزها على أنها ولدت فى مصر خطوة فخطوة ، وترقت فيها خطوة فخطوة . فهى اختراع مصرى محض . ولم يصل هذا الاختراع إلى اللغة التى كانت معروفة فى عهد الملك « منا » إلا بعد مئات ومئات من السنين . وبالكتابة يبدأ العصر التاريخى .

وقد قلنا فيما تقدم إن النيل جمع سكان مصر الأولين حوله ، فهنا نقول إنه لم يجمعهم حوله فقط ، بل رباهم وعلمهم ، حتى أخرجهم من حالة الوحشية إلى حالة المدنية . وذلك أن أولئك السكان رأوا النيل يفيض فى وقت معين من السنة فيغرق مساكنهم ويلجئهم إلى الهرب منه إلى مناطق بعيدة عن الفرق ، ثم ينسحب ويقل خطره فيعودون إلى حيث كانوا لأنهم لا يستطيعون أن يعيشوا بعيدا عنه . فقادهم ذلك إلى إقامة حواجز بينهم وبينه ثم إلى تقوية جسوره .

وعندما ينسحب النيل يترك الأرض التى ينحسر

(٥) كتاب (The Origins of Civilisation) (الماد طبعه فى

سنة ١٩١٩ ص ٣١٦ .

(٦) أكثر العلماء على أن الكتابة المصرية هى التى عمد الفينيقيون إليها فاختاروا إشاراتها واستخلصوا منها الحروف الفينيقية . ومعروف أن هذه الحروف هى الأصل فى الحروف الأوروبية .

ويقول جوستاف جيكيير (١) :

« وصل العمل الفنى فى صقل الحجر فى عصر الحجر المسقول فى مصر حدا من الاتقان والدقة يتعذر أن يوجد له منيل فى أى بلد آخر . وهذه الدقة لا تلاحظ فى أدوات البذخ فقط ، بل تلاحظ فى الأدوات العادية أيضا » .

ومن مخلفات المصريين فى هذا العصر سكاكين ذات حدين كل منهما يماثل الآخر ، وأساور ، ورؤوس سهام ، كلها من الحجر الصوان . وبشهاد مورجان أنها « ليست أدوات نافعة فقط ، بل هى أعمال فنية عجيبه أيضا ، تفوق جميع ما خلفه الإنسان فى عصر الحجر المسقول فى جميع البلاد الأخرى » (٢) .

ومن مخلفات المصريين فى هذا العصر عظام وجلود والأواح من العظام عليها رسوم مختلفة . ويرى مورجان (٣) أن وجود هذه الأشياء مضافا إليه الرسوم التى وجدت على الألواح العظمية يدلان على أن المصرى إذ ذاك لم يكن يوجه همه إلى صيد الحيوانات ليأكل من لحمها فقط ، بل كان يوجه همه فى صيدها إلى فرض آخر أيضا ، هو اقتناص ما يمكن استخدامه منها كالكلب والغزال والخروف والثور والحمار .

ووجدت مع هذه المخلفات حبوب من الشعير والذرة والقمح . ووجدت أسلحة محارث مصنوعة من الحجر الصوان (٤) . فدللت هذه وتلك على أن المصرى فى عصر الحجر المسقول عرف الزراعة واستطاع أن يستخلص منها النباتات الصالحة لعدائه من النباتات الوحشية (٥) .

وهنا لا يفوتنا أن نقول إن نباتات الشعير والذرة والقمح لم يجدها الإنسان أول الأمر كما هى الآن ، بل

(١) (Gustave Jequier) ص ٧٥ من كتابه :

(Histoire de la Civilisation Egyptienne)

الطبع فى باريس فى سنة ١٩٣٠ ، والأسناد هو الآن مدرس علم المصنوعات فى جامعة نوشاتل فى فرنسا .

(٢) (J. de Morgan) فى كتابه :

(L'Humanité Préhistorique)

(٣) المصدر السابق من ص ٩٦ الى ص ١٠٠

(٤) سلاح المحراث هو الجزء الامامى منه الذى يشق الأرض .

(٥) كتاب (J. de Morgan) الذى مر ذكره — الفصل الثانى

من الجزء الثانى .

صيد الحيوانات (١) . وهذا الانتقال من المعيشة على صيد الحيوانات وعلى النباتات الوحشية إلى المعيشة على الزراعة ، هو خطوة كبيرة في تاريخ المدنية في العالم . وهو الأساس الأول في وجود المدنية المصرية . وبهذا يعترف موري فيقول إن الجهود العجيبة المنظمة التي بذلها المصري في هائيك القرون « هي التي هيأت للمدنية أن تظهر لأول مرة على وجه الأرض » (٢) . ونحن نضيف إلى ذلك أن النيل هو الذي قاد المصري في مجهوداته هذه وغداه بالعناصر الأساسية للمدنية ، فالمدنية على هذا لم تطرأ على مصر من الخارج ، بل هي بنت النيل ، بنت مصر .

والآن نظن أن الحقائق العلمية التي مرت هدمت جانباً كبيراً من الفكرة القائلة بطرء المدنية على مصر مع غزاة من الكلدان ، ودلت على أن هذه المدنية نشأت في مصر ، وخطت فيها خطواتها واحدة بعد أخرى ، من العصر الحجري إلى عصر التاريخ . وظاهر أن على الذين يقولون بالغزو أن يقدموا دليلاً تاريخياً ، وإلا كانوا يبنون قولهم على قرائن هي أدخل في باب الأمور الفرضية منها في باب الحقائق العلمية . والدليل التاريخي الوحيد الذي يلجأون إليه هو — كما تقدم — وجود قصة منقوشة على معبد ادفو تقوم يسمون « أتباع حوريس » فسرت بأن هؤلاء الأتباع وفدوا على مصر من جنوبها وغزوها . وحوريس واحد من المعبودات الأولى التي عبدها المصريون . هذا هو دليلهم التاريخي الوحيد ، ومن الذين يقيمون له وزناً كبيراً ماسبيرو وأحمد كمال باشا (٣) . ولكن هذا

(١) يرى بيري (M. Perry) في صفحة ٣٠ من كتابه :
(The Growth of Civilization)

أن مصر هي المهد الأول للزراعة لا . فيضان النيل وطبيب المخصب كانا كافيين لأنبات البلور التي تلقى على الأرض من غم أي عمل يعمل الإنسان .
قال : « ولقد كان يكفي حينئذ أن يوجد المبقري الذي يشق قنوات تجري فيها مياه النيل لكي تنتشر هذه وتنتشر معها الزراعة في سطح أوسع » .

(٢) كتاب (Des Clans Aux Empires) ص ١٤٥ .

(٣) كتاب « الحضارة القديمة » من ص ٣٣ إلى ص ٥٢ .
ولكن كمال باشا يقول أن أتباع حوريس هم قوم وفدوا من جنوب بلاد العرب ولا يذكر الكلدان . ولا نعرف نحن أية مدنية كانت في جنوب بلاد العرب في العصر الحجري فنقلها أصحابها إلى مصر .

عنهامكسوة بالطمى صالحة للزراعة . ولكن الزراعة تحتاج إلى محارث لشق الأرض ، وإلى قنوات يجري الماء فيها ، وإلى آلات الري ، فصنع المصري المحارث من الحجر الصوان وجرها بنفسه في مبدأ الأمر ثم جرتا الحيوانات المستأنسة . وفي الوقت نفسه شقت القنوات وجري فيها الماء .

وكان سكان مصر يعيشون قبل الزراعة على صيد الحيوانات والأسماك ، ثم على الحشائش والنباتات المتوحشة وثمار الأشجار ونباتات البردى واللوتس التي كانت تنبت في المستنقعات . فلما عرفوا الزراعة والقوا التغذى بمحصولاتها أدى بهم ذلك ، بعد تجارب استمرت قروناً وقروناً ، إلى استخلاص القمح والدرة والشعير من النباتات الوحشية .

وكان من الضروري لهم في حالتهم هذه الجديدة استخدام بعض الحيوانات فاستخدموا الحمار والخروف والثور .

وكان خطر الفرق لا ينفك يهددهم كل سنة ، وكان شره لا يقتصر على جماعة منهم دون جماعة ، فقادهم ذلك إلى أن يتعاونوا على دفعه وتنظيم مجرى النيل . وابتدأ هذا التعاون أول الأمر في حدود ضيقة بين كل جماعة تعيش في منطقة واحدة ، ثم امتد من منطقة إلى أخرى . ودعا هذا إلى أن تكون هناك سلطة تنظم التعاون بين أفراد المنطقة الواحدة ثم بين المناطق المتجاورة ، فوجدت الحكومات الإقليمية ، ثم الحكومة الواحدة في بضعة أقاليم ، ثم الحكومة الواحدة في كل من الوجه البحري والوجه القبلي ، ثم الحكومة الواحدة في الوجهين معا ، وصارت مصر بلداً واحدة ومملكة واحدة .

فالنيل على هذا هو الذي علم سكان مصر الأولين تكوين الجماعات ، وبث فيهم روح التعاون ، فنقلهم من حالة الرجل الهائم على وجهه العائش مع الحيوانات وبين الغابات ، إلى حالة الرجل العائش في وسط الجماعة من أمثاله ، المتعاون معهم ، الخاضع لسلطة حاكمة منظمة .

والنيل هو الذي علم المصريين الزراعة ، حينما كان قيرهم لا يزال يعيش على النباتات الوحشية ، وعلى

وقال مورى إن السبب فى هذا الخطأ راجع إلى أن ماسيرو أخطأ فى قراءته إحدى كلمات القصة، وهى كلمة (mesentiou) فذهب إلى أن المراد بها قبيلة كانت تسمى « قبيلة الحدادين » كانت تقيم فى أعالي النيل ، لأن الكلمة تؤدي هذا المعنى فى اللغة المصرية . ثم استنتج ماسيرو من ذلك أن هذه القبيلة هى التى وفدت على مصر بقيادة حوريس . وقد أُرشد مورى إلى هذا الخطأ فائتبت الكلمة على صحتها وهى (mesenou) ، ومعناها « حملة الخطاطيف » ، أى أهل الاقليم السابع من أقاليم الدلتا ، وكانوا يلقبون بذلك لأنهم كانوا معروفين بصيد عجول البحر من البحيرات المجاورة لهم بالخطاطيف . ولهذا كان الخطاف رمزا قديما لاقليمهم . وإذن تكون القصة منصرفة إلى حوريس بن إيزيس ، وإلى زحفه من الوجه البحرى الذى نشأ فيه ، ثم إلى حروبه ضد سيت عدو أبيه أوزيريس ، بعكس ما ذهب إليه ماسيرو .

وغزو الوجه البحرى للوجه القبلى فى العصر الذى يسمى « عصر ما قبل الأسر » ، وهو الذى سبق عصر الملك « منا » بوضع مئات من السنين ، صار الآن من الأمور التى يسلم بها أغلب العلماء ، ولهم على ذلك أدلة قوية لا محل هنا للافاضة فيها .

هذا هو الدليل التاريخى الوحيد ، أو الشبيه بالتاريخى ، قد انهدم من جميع نواحيه ، فبقبت الأدلة الأخرى وهى استعمال معدنى النحاس والذهب ، واستخدام الضمائر فى اللغة المصرية على النحو الذى تستخدمها به الشعوب السامية ، وشئ من الشبه بين المباني فى عهد الأسرة الأولى والمباني فى الكلدان ، وزخرفة بعض الأدوات برسوم حيوانات خرافية ذات أعناق طويلة ، واستعمال « الخرطوش » فى كتابة أسماء الملوك، فسند هنا على هذه الأدلة جلة وسنقف عندما يستحق الوقوف منها .

لم تكن مصر حين بدأت تبشير المدنية تظهر فيها ، منعزلة عن الأمم المجاورة لها ، بل كانت على صلات مستمرة بها ، تجارية وغير تجارية . فكانت معاملاتها لاتنقطع مع قبائل النوبة جنوبا والشعوب الليبية غربا

الدليل يسقط بقليل من التأمل ، لأن كل ما فيه — إذا أخذ على علانه وسيأتى أنه مصلول — هو أن أتباع حوريس وفدوا على مصر من جنوبها ، وجنوب مصر قد يكون بلاد النوبة ، أو قد يكون أعالي النيل ، كما قد يكون إقليما من الأقاليم المصرية الجنوبية مثل وادى حلفا أو أسوان ، ولكنه لا يمكن أن يكون بلاد الكلدان ولا بلاد اليمن .

ثم إن قصة أتباع حوريس مطمئون فى قمتهما التاريخية لأنهم تنقش على معبد إدفو فى العصر الأول من عصور المدنية المصرية ليتمكن أن يقال إنها نريد لحادث تاريخى وقع قبل عصر الأسر ، ثم لما جاء هذا العصر كان أمره لا يزال مائلا فى الأذهان . بل نقشت القصة فى عصر البطالسة ، لأن المعبد نفسه بنى فى هذا العصر على انقراض معبد قديم ، فبين الوقت الذى نقشت فيه القصة والوقت الذى يعزى فيه إلى أتباع حوريس أنهم وفدوا على مصر أكثر من ستة آلاف سنة أو سبعة آلاف على الأقل .

وقد يقال مع ذلك إن البطالسة حينما جددوا معبد إدفو نقشوا عليه تلك القصة نقلا عن المعبد القديم . وهذا غير بعيد ، ونحن لانجادل فيه ، وخاصة لأن كلمتى « أتباع حوريس » وردتا فى بعض نصوص الاهرام التى شيدت فى عهد الأسرة الخامسة . ولكن مورى (١) أثبت أن حوريس المعنى بهذه القصة ليس حوريس إدفو القديم وإنما هو حوريس بن إيزيس ، وهما معبودان مختلفان . ونصوص القصة تدل على ذلك دلالة صريحة . وهذه القصة تذكر حوريس على أنه لقب ملكى ، وعلى أنه مندمج مع رع ، لا على أنه معبود وكفى . وحوريس لم يصير كذلك إلا فى نهاية الأسرة الثانية . وإذن ليس المعنى بالقصة حوريس إدفو الذى لا محل للشك فى وجوده قبل وجود الأسر ، وإنما المعنى حوريس آخر ، هو حوريس بن إيزيس الذى خرجت قصته من الوجه البحرى وسرت عبادته إلى الوجه القبلى ، ثم اندمجت فى عبادة رع ، وصار الملوك — منذ الأسرة الثانية — كلما ارتقوا العرش حملوا أسماء مشتقة من اسمه بجانب اسمائهم الأصلية .

(١) كتاب (Le Nil et la Civilisation) من ١٢٤ و ١٢٥

عن مصر . وهذا النقل إما أن يكون بطريق مباشر ، وإما بواسطة القبائل السامية التي كانت هائلة إذ ذاك في سوريا وفلسطين وكانت على علاقات دائمة بالبلدين معا ، أو بواسطة جزائر قبرص وودس وكريت التي صار من الثابت الآن أنها كانت في عصر ما قبل الأسر على صلات مستمرة بمصر من ناحية وبالكلدان من ناحية أخرى . أو ربما كان الأصح أن هذه العوامل كلها كانت تعمل معا في سبيل النقل بين البلدين .

ولم تتصل مصر بالساميين والكلدانيين فقط ، بل اتصلت بالقبائل الأفريقية أيضا وأخذت منها ، فظهر أثر لغاتها في اللغة المصرية . وقد عرف العلماء هذا الأثر في السنين الأخيرة (٢) حتى لقد قالوا أن صلة اللغة المصرية باللغات الأفريقية أقوى من صلتها باللغات السامية . وبذلك يسقط البرهان المأخوذ من تشابه استعمال الضمائر في اللغة المصرية واللغات السامية .

والآن لم يبق من الأدلة غير استعمال معدني النحاس والذهب . والرأى عند أصحاب هذا الدليل أن الكلدانيين عرفوا استعمال النحاس والذهب قبل المصريين ، وأن الغزاة الذين غزوا مصر منهم هم الذين علموا أهلها هذا الاستعمال ، فنظر هل هذا صحيح . ويجب في بحثنا هذا أن يكون مانلا في اذهائنا أن الغرض الذي دعا إلى الأخذ بهذا الدليل ، هو القول الفاسد بأن المدنية وجدت في مصر فجأة ، وفي عصر سابق على عصر الأسر بقليل ، فهي لم تترب جذورها فيها ، وإنما انتقلت إليها على يد قوم مغيرين . وقد بينا في كل مامضى فساد هذا القول ، وابتدنا عناصر المدنية تربت كلها في مصر وأخذت تنمو فيها شيئا فشيئا منذ العصر الحجري ، وكان يحق لنا أن نكتفي بذلك ، لأن استعمال النحاس والذهب ليس أهم في بناء المدنية من الزراعة ، ولا من استخلاص النباتات الصالحة لغذاء الإنسان من النباتات الوحشية ، ولا أهم من التعاون على تنظيم مجرى النيل ، ولا من

(٢) راجع في ذلك كتاب :

(Les Peuples de l'Orient Méditerranéen)

تأليف Et. Drioton (مدير مصلحة الآثار المصرية) (إذ ذاك)
و (Jaques Vendier) ص ٤ وه طبعه باريس في سنة ١٩٣٨ .

والبلاد الآسيوية شرقا وسكان جزائر البحر الأبيض شالا . وكانت تأخذ من هذه الأمم المواد الأولية التي تشقها وتعملها مصنوعات ومنجاتها . وكانت هذه الأمم نفسها تعرف أن مصر سسقتها في الزراعة والصناعة والاسراج ، وأنها صارت بفضل الزراعة بلادا غنية تدر الخير على أهلها ، فكانت نلتمس عندها بعض هذا الخير من طريق المبادلات أو من طريق السطو على حدودها ونهب ما تصل إليه أيديها . ولم يحل دون هذا الاتصال ، وجود صحراء ليبيا وصحراء سيناء في حدود مصر الغربية والشرقية ، كما لم يحل دونه وجود البحر الأبيض (١) في حدودها الشمالية . وقدظن بعض العلماء إلى زمن قريب أن وجود هاتين الصحراوين والبحر الأبيض جعل مصر تعيش في عصر ما قبل الأسر منعزلة عن العالم ، كأنها في صندوق مقفل ، إلى أن انصلمت بالأمم المجاورة لها في عصر الأسر ، وأخذت تفكر في الغزو والفتوحات . وأصحاب هذا الرأى هم الذين يستغربون وجود شبه بين المباني وزخرفة الأدوات في مصر والمباني وزخرفة الأدوات في الكلدان . وهم كذلك الذين يستغربون استخدام الضمائر في اللغة المصرية على النحو الذي تستخدم به عند الشعوب السامية . ولا تفسير عندهم لهذا التشابه غير الذهاب الى بعيد ، والقول بأن قبائل كلدانية غزت مصر وعلمتها أسباب المدنية ، في حين أن التفسير الصحيح هو اتصال مصر بجاراتها واتصال هذه الجارات بها تم تأثر كل منهما بالآخرى . وقد أصبح هذا الاتصال الآن حقيقة مسلما بها لأن الأدلة المادية قامت عليه فلا حاجة لأن نتوسع فيه .

وفي هذا الاتصال لابد أن تكون مصر قد نقلت أشياء من الكلدان ، كما لابد أن تكون الكلدان قد نقلت أشياء

(١) كان المصريون يسمونه الأخضر الكبير لأن واضعى أسطورة اوزيريس قالوا : أنه لما قتله أخوه سيت ثم وضعه في صندوق وإعماه في البحر سار الصندوق الى البحر الأبيض المتوسط وعام فيه متجها الى ميناء بيلوس (وهو جبيل الآن) . وحينئذ اخضر لون الجنة ثم اسود . ومن هنا سمي هذا البحر الأخضر الكبير راجع في ذلك ص ٩٦ من كتاب (La religion des Eg.)
تأليف أدولف إرمان (Adolf Erman) الذي كان استنادا للمصرولوجية في جامعة برلين وتوفي منذ بضع سنين . وقد نقل كتابه هذا من اللغة الألمانية الى اللغة الفرنسية (Henri Wild) وطبعه في باريس سنة ١٩٣٧ تحت العنوان الذي تقدم ذكره .

بعد أن تكلم عن حضارة تاسا ثم شرع يتكلم عن حضارة البدارى :

« ... وحينئذ بدأ يشتد البحث عن مواد أولية ، فادى ذلك إلى استخدام عنصرا اقتصادى جديد هو عنصر المعاملات التجارية . ومن المؤكد أن معدن الدهنج الذى كان يستعمل إذ ذاك فى تححيل العيون كان يجلب من سبنا والنوبة . وقد وجدت فى قبور عصر البدارى قواقع كثيرة من البحر الاحمر وقطع من خشب الأرز وخشب الراتنج ، مما يفهم منه وجود علاقات بين مصرى البدارى وبين سوريا (٢) ، وفى هذا الوقت عرف البداريون خواص معدن النحاس ، فعرفوا قابليته للطرق ، ولكنهم لم يهتدوا الى قابليته للانصهار » .

ويستمر جوردن شيلد فبقول بعد ذلك بقليل :
« كان البداريون يلبسون ملابس من جلود الحيوانات ... وكانوا يكحلون عيونهم بمعدن الدهنج (٣) ، وكانوا يضعون فى اعناقهم وأوساطهم عقودا أو أحزمة فيها قطع من النحاس » .
أما برستيد فقد قال فى كلامه عن مصر البدائية (٤)
« كان المصريون البدائيون يصنعون ويستعملون أسلحة وأواني من البرنز . ويمكن وضع العصر الذى كانوا يعيشون فيه إذ ذاك فى زمان الانتقال بين عصر الحجر وعصر استعمال النحاس . وكانوا يعرفون الذهب والفضة والرصاص ، ولكنهم لم يكونوا يستعملونها إلا قليلا » .

وتكلم دريوتون (٥) عن حضارة البدارى فقال :
« ... وكان النحاس فى ذلك الوقت قليلا فكان استعماله مقنصا على الأدوات الصغيرة كالدابيس التى تستخدم لتعليق الجلود أو كالأبر أو أسنان الخطاطيف أو المكاشط أو أزاميل النجارة . وقد عرف المصريون منذ

إيجاد المناطق الاقليمية والحكومات الاقليمية ثم الحكومة الواحدة — نقول ليس استعمال النحاس والذهب بأهم فى بناء المدنية من هذه الأسس ، بل هو دونها ، ولكننا لاندع هذا الدليل من غير تفنيد ، لأنه ليس من الحق فى شئ أن يقال إن المصريين لم يعرفوا استعمال النحاس والذهب إلا على يد غزاة من الكلدانيين ، وقبل عصر الاسر بقليل .

لايزال العلماء يواصلون البحث فى عصر ما قبل الاسر، فمن المجازفة أن يقول قائل ان الكلمة الأخيرة قد قيلت فيه . ولكن هناك حقائق دلت عليها الحفائر فى مناطق مختلفة عرف أن بعضا منها خلفه المصرى حينما كان قريبا من الحالة الوحشية وكان يعيش على صيد الحيوانات أكثر من عيشه على الزراعة ، وبعضا آخر حينما كان عيشه على الزراعة وبدأ يستخدم الحيوانات وبعضا ثالثا حينما خطا خطوة إلى الامام بعد ذلك ، وبعضا رابعا حينما خطا خطوة أوسع وأخذ يمهّد لعصر الاسر .

فالحالة الأولى تمثلها حفائر دير تاسا ، ويسمى عصرها عصر تاسا أو حضارة تاسا . والثانية تمثلها حفائر البدارى ونقادة ، وتسمى حضارة البدارى . والثالثة تمثلها حضارة العمرة . والرابعة تمثلها حضارة جرزة . وهذه المناطق كلها قائمة فى الوجه القبلى . أما فى الوجه البحرى فقد وجدت حفائر مرمدة بنى سلامة وحفائر المعادى وهما أرقى من حضارة البدارى، ولكن لم توجد حفائر يمكن ترتيبها على النحو الذى رتب به الحفائر فى الوجه القبلى ، لسبب ظاهر هو أن الأرض فى الوجه البحرى رخوة فالنيل وطميّه يجعلانها أقل من أرض الوجه القبلى احتفاظا بما فيها .

ففى حضارة البدارى ، أى عند الدرجة الثانية من درجات سلم الصعود إلى المدنية المصرية ، عرف المصريون النحاس واستعملوه . وقد وجدت أدوات منه فى قبورهم . وفى ذلك يقول جوردن شيلد (١)

(١) (V. Gordon Childe) هو استاذ علم الآثار فى جامعة ادنبرة ، وقد اشتهر بحفرياته فى الهند والعراق ومصر ، ثم بمؤلفاته فى عصور ما قبل التاريخ لهذه البلاد جميعا . ويعتبر كتابه من « الشرق فى ما قبل التاريخ » زبدة بحوثه هذه . وقد وضعه بالانجليزية ونقله (J. Lévy) الموظف بمتحف (Guimet) بباريس الى اللغة الفرنسية فى سنة ١٩٣٥ تحت عنوان : (L' Orient Préhistorique) . ومن هذه الترجمة ص ٧١ و ٧٢ و ٧٣ نقلت ما نقلته هنا .

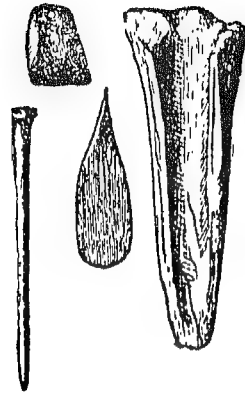
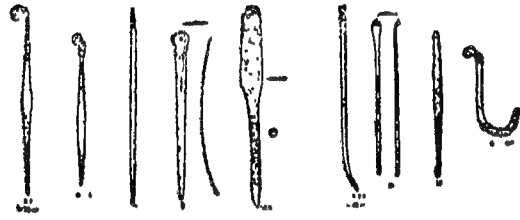
(٢) قلنا فيما تقدم ان المصريين فى عصر ما قبل الاسر كانوا على اتصال بجيرانهم فى فلسطين وسوريا وجنار البحر الأبيض وليبيا والنوبة ، فهذا هو بعينه الذى يفوله جوردن شيلد هنا .

(٣) الدهنج هو المعدن الذى يسمى باللغة الفرنسية malachite (٤) ص ٢٩ من الترجمة الفرنسية لكتابه :

(A History of Egypt) وقد سبق ذكرها .

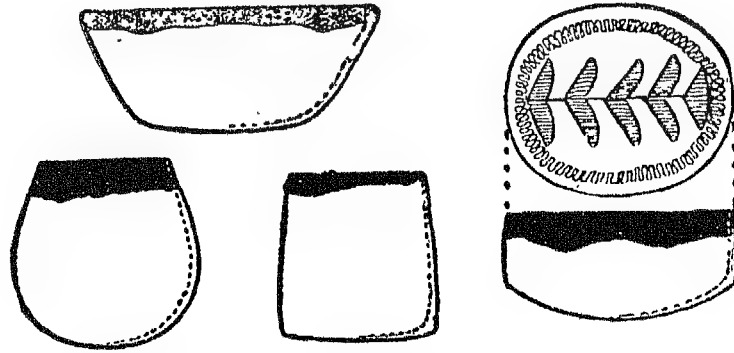
(٥) ص ٣٧ من كتاب :

(Les Peuples de l'Orient Méditerranéen)

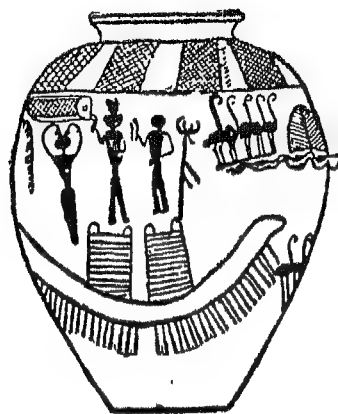


ادوات من النحاس وجدت في مقابر نقادة وترجع الى ما قبل عصر
الاسر . وهي دبابيس وابر وسنارة

ادوات مصنوعة من عظام الحيوانات وحجمها هنا يعادل ٢/١ من
حجمها الطبيعي . وقد وجدت في حفائر مرمدة بني سلامة



ادوات من الفخار ترجع الى حضارة البداري . وحجمها هنا سدس حجمها الطبيعي



اناء من الفخار يرجع الى ما قبل عصر الاسر ، وقد زين برسوم مختلفة منها طيور واشخاص
ثم سفينة تحمل شارة على ساريتها

ان الكلدان وبلاداً أخرى هي التي أخذت من المدنية المصرية . قال بعد أن فرغ من شرح الحضارات المختلفة في عصر ما قبل الأسر (٣) :

« ... إلى هنا كان من الممكن تفسير التقدم الذي تقدمته المدينة في وادي النيل بعوامل متواصلة مستقلة عن الخارج . ومع أن هناك أكثر من عنصر عالمي كان له أثر في هذا التقدم ، ومع أننا نستطيع تمييز حضارتين ، فإن جميع الكشوف والمخترعات ذات الأهمية هي بنت حوض النيل . نعم إن حضارة جرزة تحتوي على مظاهر شبه بينها وبين آسيا ، ولكن ليس هناك ما يدل على أن مصر مدينة لآسيا في هذه المظاهر . ومن الممكن نظرياً على الأقل ، تفسير مظاهر الشبه هذه بين مصر وبلاد النهرين (يريد الكلدان) بأنها نتيجة تيار من المدنية صادر من مصر » .

ثم استمر جوردن شيلد فأخذ يشبّه أن جميع العوامل الطبيعية كانت تجعل من وادي النيل أرضاً صالحة للزراعة منذ أقدم العصور ، وأن المصريين عرفوا في حضارة البدارى وحضارة العمرة صنع السفن قبل أن يعرفه سواهم ، وأنهم شرعوا حينذاك يعرفون مبادئ الكتابة ، وأنهم اتصلوا بالبلاد المجاورة لهم فجلبوا منها الخشب ومواد أولية أخرى . ثم قال إن المخلفات التي وجدت في قبور المصريين في حضارة البدارى وحضارة جرزة :

« تدل على أنهم كانت لهم علاقات تجارية تمتد إلى بلاد العجم وأرمينيا وسوريا الشمالية . ومن هذا الاتصال وجدت الفرصة لاحتذاء مثال الكشوف والمخترعات المصرية في هضاب إيران ، وفي آسيا الصغرى ، وفي جزيرة كريت » .

فنظن بعد ذلك أن ما كان باقياً من نظرية جلب المدنية إلى مصر على يد الكلدانيين قد انهدم . ونظن أيضاً أنه صار واضحاً أن المدنية المصرية بنت مصر لا بنت بلد آخر ، في مصر تكونت عناصرها الأولى ، وفي مصر نمت وتطورت حتى صارت نوراً يرسل أشعته إلى القريين والبعيدين من الأمم .

(٣) ص ١٠٢ و ١٠٣ و ١٠٤ من الترجمة الفرنسية التي مر ذكرها .

ذلك الوقت أنه قابل للانشاء ، وأنه قليل الصدا ، فكانوا يصنعون منه تلك الأدوات ، ولكنهم كانوا يصنعونها منه وهو على حالته الطبيعية وبطريقة الطرق والصقل » .

ذلك في حضارة البدارى ، أما في حضارة العمرة التي تلتها فقد تقدمت صناعة النحاس والذهب وجلب المصريون اللازورد من سوريا .

هؤلاء إذن هم المصريون عرفوا النحاس والذهب منذ حضارة البدارى . ولم يكونوا يجلبونها من الكلدان ، ولا من بلاد قريبة من الكلدان ، بل كانوا يستخرجونها من سيناء والنوبة ومن مناجم لهما في مصر . وبين حضارة البدارى وعصر الأسر بضعة ألوف من السنين عاشت فيها حضارة العمرة . حضارة جرزة . فعلى الذين يزعمون أن المصريين لم يعرفوا النحاس والذهب إلا بعد أن دخل بهما الكلدانيون ، أن يثبتوا أن هؤلاء الكلدانيين جلبوهما قبل عصر الأسر بألوف من السنين ، وليس إلى هذا الإثبات من سبيل .

ويحسن أن ننقل هنا كلمة كتبها في ذلك موري ودافى (١) فقد قال :

« حينما كان المصريون قبل الميلاد بنحو ٤٥٠٠ سنة (٢) يستخدمون النحاس ويصنعون الأدوات المعدنية ، كان غيرهم من أمم العالم لا يزال يستخدم الأدوات من الحجر ، أو هذا على الأقل هو ما وصلت إليه معلوماتنا إلى الآن . ولذلك تفوق سكان وادي النيل تفوقاً لم يكن في استطاعة الأمم الأخرى أن تقاومه . وفي هذا الوقت نفسه أخذ جيران مصر يظهرون على الآثار المصرية الأولى ، وبهذه الآثار صرنا نستطيع درس العلاقات الأولى التي كانت متبادلة بين أمم الشرق القديم » .

وإليك كلمة أخرى كتبها جوردن شيلد فقال فيها إنه إن كانت توجد وجوه من الشبه بين مصر والكلدان فليس معنى ذلك أن الكلدانيين جلبوا المدنية إلى مصر ، ولا أن مصر أخذت منهم ، وإنما قد يكون معناه الأصح

(١) (A. Morot, G. Davy) في صفحة ١٩٣ من كتابهما :
(Des Clans Aux Empires)

(٢) يلاحظ هنا أن موري ودافى يأخذان بالتاريخ القصير الذي يجعل الملك « منا » في نحو سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد .

التقويم المصري

الشمس . فحسبوا هذا الحول فوجدوه ٣٦٥ يوما ، فجعلوه سنتهم ، وقسموه إلى ١٢ شهرا ، كل شهر منها ٣٠ يوما . ثم أضافوا إليها خمسة أيام هى التى سميت بعد ذلك أيام النسيء (١) .

وقسموا السنة إلى ثلاثة فصول : هى فصل الفيضان وفصل البذر وفصل الحصاد ، كل واحد منها أربعة أشهر .

وقسموا الشهر إلى ثلاثة أثلث ، كل ثلث منها عشرة أيام . وقسموا اليوم إلى ٢٤ ساعة نصفها ليل ونصفها للنهار .

أما الأشهر فهى بعينها الأشهر القبطية المعروفة الآن وهى توت وبابه وهاتور وكيهك وطوبة وأمشير وبرمهات وبرمودة وبشنس وبؤنه وأيبب ومصرى .

وحينما وضعوا هذا التقويم ، اتفق أن وصل فيضان النيل إلى ايلفنتين فى اليوم الذى ظهرت فيه الشعري اليمانية قبيل شروق الشمس ، فجعلوا هذا اليوم أول سنتهم ، أى أول شهر توت ، لأنه اليوم الذى اجتمعت لهم فيه ظاهرتان : ظهور الشعري اليمانية قبيل شروق الشمس ، ووصول الفيضان إلى ايلفنتين .

وكان حسابهم هذا صحيحا ، لا يدخله غير خطأ

(١) صاغ المصريون حول هذه الأيام الخمسة أسطورة مؤداها أن المعبود جب اى الأرض بنى بالمعبودة نوت أو نوت اى السماء على غير رغبة الاله الأعظم رع . ثم حملت نوت فصنع لهما رع طلسمات يمنهما من التنازل فى أى شهر من شهور السنة . ولكن المعبود توت كان يحب نوت فلعب بالزهر مع القمر فكسب منه الجرم المتم لكل سنين يوما من أيام السنة فتكونت من ذلك خمسة أيام زائدة على شهور السنة ، وفيها استطاعت نوت أن تضع معبودا فى كل يوم . وهذه المعبودات الخمسة هى أوزيريس وسيت وايزيس ونفتيس وحارويريس . وحارويريس هذا هو حوريس الكبير ، وقد سمي بذلك تمييزا له من حوريس بن ايزيس . وكان يعبد فى مدينة ليتوبوليس على انه اله الحرب .

حينما بدأ المصريون يقسمون الزمن كان من البديهي أن يعتمدوا فى تقسيمه على القمر ، لأنه يبدو فى أول ظهوره صغيرا ، ثم ينمو ليلة فليلة حتى يصير بدرا ، ثم يتضاءل ليلة فليلة حتى يبلغ المحاق . فهو علامة بارزة كان من الضروري أن يلتفت الانسان إليها وأن يجعلها قبل غيرها قاعدته فى تقسيم الزمن . ومن هنا وجد الشهر القمري ووجدت الشهور القمرية .

وقد وجد التقويم القمري فى مصر ، كما وجد فى البلاد الأخرى ، ثم أخذ المصريون يدركون مافيه من ميوب ، وأغلب الظن أن البلاد الأخرى أدركت هذه العيوب أيضا ، ولكن المصريين وحدهم هم الذين استطاعوا أن يخرجوا منها إلى تقويم آخر يصلحها ، ليس الحساب فيه قائما على الدورة القمرية ، بل على الدورة الشمسية ، وهذا التقويم هو الذى وجدته يوليوس قيصر حينما جاء مصر فحمله منها إلى روما ، وهو بعينه الذى يستعمله العالم الآن باسم التقويم الجريجورى بعد تعديل طفيف فيه .

أما كيف اهتدى المصريون إلى هذا التقويم الشمسى ، فذلك انهم لاحظوا أن الشهور القمرية التى تقع فى إحدى السنين فى زمن الفيضان ، أو زمن بذر الجيوب فى الأرض ، أو زمن حصاد الزرع ، تقع بعد سنين قليلة فى ازمئة أخرى ، فقام البرهان المادى لديهم على أن هذه الشهور لا يمكن التعويل عليها فى ضبط مواسم الزراعة . وهم قوم كانت الزراعة همهم الأول ، وكان ضبط أزمئتها ومواعيدها ضرورة لهم قصوى . ففكروا فى إيجاد تقويم يضبط لهم هذه الأزمئة والمواعيد . وكانوا قد لاحظوا أن كوكب الشعري اليمانية يسطع فى الأفق قبيل شروق الشمس فى يوم معين من السنة — هو يوم ١٥ يونية فى التقويم الجريجورى المستعمل الآن — ثم يمضى حول كامل حتى تعود الشعري اليمانية إلى الظهور قبيل شروق

شروق الشمس ، ويعرفون أيضا أنها لا تظهر كذلك إلا في منطقة تقع في الدرجة الـ ٣٠ من خطوط الطول ، وهذه المنطقة هي منطقة الوجه البحرى حيث كانت مدينتا منفيس وهليوبوليس . وبما أن منفيس لم تكن قد أنشئت حينما وضع التقويم المصرى ، فلا بد أن يكون أساس الحساب ظهور الشعري اليمانية في أفق هليوبوليس ، ويغلب على الظن أن يكون علماء هذه المدينة ، أى كهنتها ، هم الذين وضعوا التقويم . وهذا يتفق مع المعروف عن هذه المدينة ، إذ الأدلة قائمة على أنها كانت في عصر ما قبل الأسر ذات نفوذ علمى ودينى واسع . وقد استمر نفوذها هذا في عصور الأسر ، واستمرت عبادة معبودها رع إلى أن انتهت المدينة المصرية .

ومما اشتهرت به هليوبوليس (وتسمى في اللغة المصرية أون) على وجه خاص ، أن كهنتها كانوا في كل وقت يعنون برصد الشمس والنجوم . وكانوا يدونون نتائج مشاهداتهم سنة بعد أخرى ، ولهذا أطلق على رئيس كهنتها لقب « المبصر الأعظم » أو « رئيس الذين يبصرون الشمس ، والوحيد الذى يراها وجهها لوجه » (٢) .

وننتقل بعد ذلك إلى مآثره لنا المصريون عن الفروق بين التقويم ودورة الشعري اليمانية .

كان المصريون يجعلون للشعري اليمانية مقاما دينيا وكانوا يقيمون لها احتفالا حين ظهورها كل سنة ، ففي عهد تحوتمس الثالث (أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة) نقشوا على أحد الصخور فى إلفنتين أن الشعري ظهرت قبيل شروق الشمس فى يوم ٢٨ من شهر أيب بدل اليوم الأول من شهر توت . وهذه البيانات تكفى علماء الفلك فى وقتنا هذا لكى يعرفوا أن ذلك الفارق وقع فى المدة من سنة ١٤٧٤ إلى سنة ١٤٧١ ق م . ومن الضروري أن نذكر هنا أربع سنوات

(٢) وجدت لوحة لأحد رؤساء الكهنة وصف نفسه فيها كما يأتى : « القارىء الذى يعرف وجه السماء ، والمبصر الأعظم فى قصر الأمير » وقد ترك المصريون عدة خرائط محفورة على الحجر لأجزاء من السماء . منها خريطة فى معبد الرمسيوم فى الأقصر . وخريطة فى معبد دندرة . وسيأتى بحث خاص بها وبالضجة التى أثارها نقلها إلى باريس . وخريطة فى مقبرة سيتى الأول .»

طفيف مقداره ٦ ساعات ويضع دقائق فى السنة ، فى حين كانت الشهور القمرية تختلف عن الدورة الشمسية بما لا يقل عن أحد عشر يوما فى السنة ، ولذلك كان اهتدأهم إلى هذا التقويم القائم على دورة الشعري اليمانية بالنسبة للشمس عملا بارزا جليلا . وظهر فى السنين الأولى من وضع هذا التقويم أن الفصول ومواعيد الزراعة تقع فى شهور هى بعينها فى كل سنة . ولكن ذلك الفارق القليل بين التقويم ودورة الشعري اليمانية أخذ يحدث أثره على مر السنين ، فصارت سنة التقويم تنقص عن دورة الشعري يوما فى كل أربع سنوات . ثم توالى السنون فصار الفرق يزداد ، وصارت الفصول ومواعيد الزراعة تقع فى شهور غير التى قدرت لها .

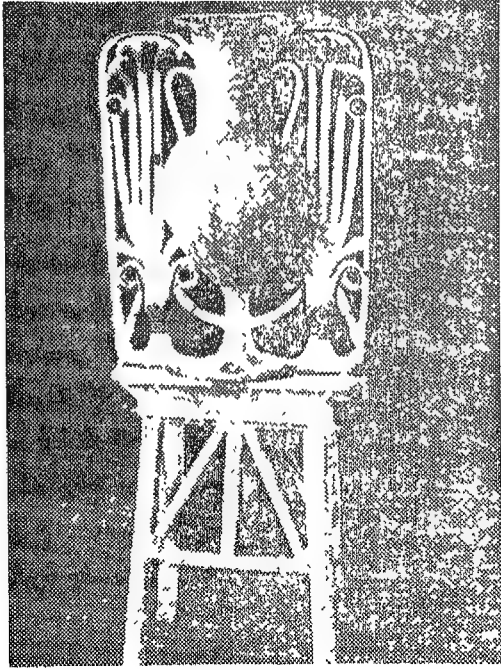
ولم يخف هذا الفرق على المصريين ، بل أدركوه وعرفوا أنه ربع يوم فى السنة ، ولكنهم تركوا التقويم على ما هو عليه ، واكتفوا بأن يسجلوا الفرق كلما حانت فرصة لتسجيله (١) .

وبما أن السنة تنقص ربع يوم فمن البديهي أن يتوالى هذا النقص بمقدار أيام السنة مضروبة فى أربعة ، أى $365 \times 4 = 1460$ تضاف إليها السنة التى نقصت فى هذه المدة فيكون المجموع ١٤٦١ ، ومعنى هذا أنه كلما مضت ١٤٦١ سنة اعتدل الحساب من جديد ، وعادت الشعري اليمانية تظهر قبيل شروق الشمس فى أول توت . ولكنها لا تظهر فيه إلا لمدة أربع سنوات ثم تنقص السنة يوما .

ويستطيع الفلكيون الآن أن يعرفوا دورات الشعري اليمانية ودورات الشمس فى الماضى كما يعرفونها فى الحاضر والمستقبل . فهم يعرفون جميع السنين التى ظهرت فيها الشعري اليمانية فى أفق مصر قبيل

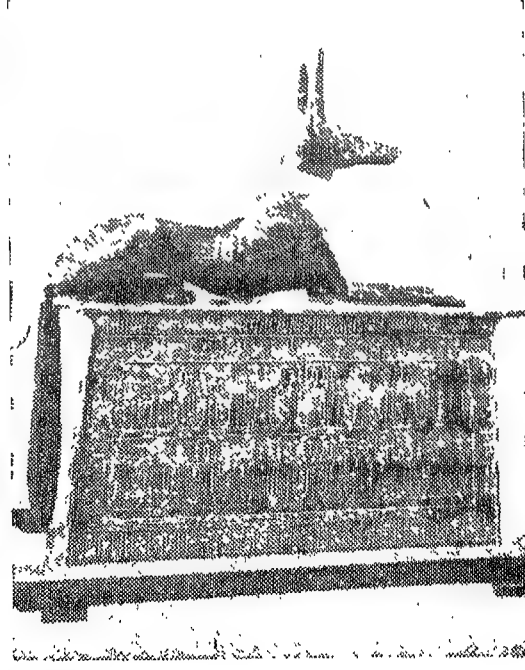
(١) من الكتابات العريقة التى وصلت إلينا خاصة باختلاف الفصول من الشهور التى قدرت لها فى التقويم كلمات دهابة كتبها طالب علم فى زمن الأسرة التاسعة عشرة فى كراسة تمرينه على الكتابة والانشاء ، هذا سرهيا : « إلى يا أمون . أنقذنى من السنة المختلة . فالشمس لا تسطع ، والشتاء يأتى فى وقت الصيف . والشهور تمشى القهقري » . ويؤخذ من قوله « فالشمس لا تسطع » أنه كتب كلماته هذه فى يوم غيم فى فصل الشتاء .

من آيات الصانع المصري



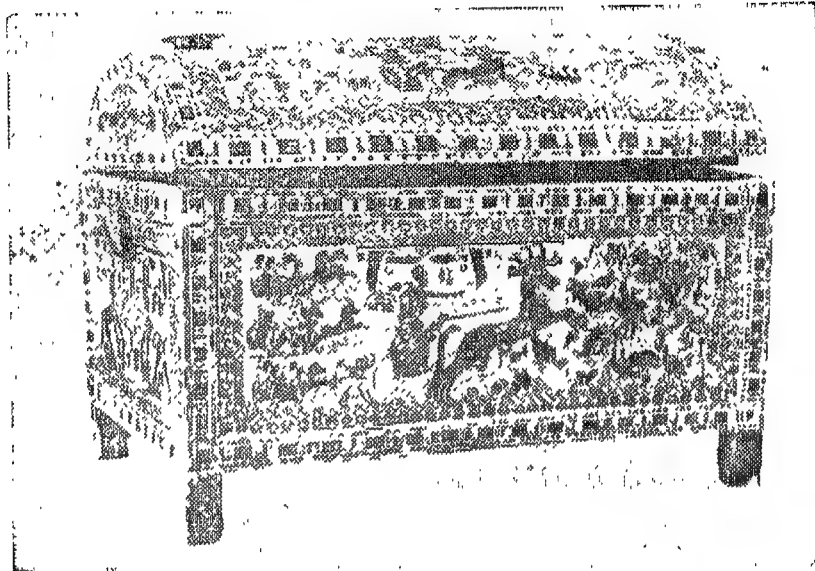
وعاء لحفظ الطيب

وقد صنع من الجص ، وكان يحفظ فيه دهان للتطرية .
وله حامل ذو أربعة قوائم . وقد تداخلت في زخرفته زهور
البردى واللوتس ، التي ترمز للوجيـه القبلى والبحرى .



خزانة لحفظ التماثـم

وهى مصنوعة من الخشب المزين بالرسوم والألوان
والذهب ، وقد علا عليها مثال للاله أنوبيس .



خزانة لحفظ المجوهرات

وهى من الفخر ما أخرجت يدا الصانع المصرى من الآثار الفنية المصنوعة من الخشب
وهى محلاة بالمنمنمات التى تسمى الآن (Miniature) . وفى وسطها صورة للملك توت
عنخ آمون فى عجلته يصيد وحش الصحراء .

وهنا سؤال لابد منه ، وهو : هل ترشدنا هذه البيانات إلى الوقت الذى وضع المصريون فيه تقويمهم هذا ؟

فعلى هذا السؤال يجيب علماء الفلك فيقولون إن التقويم ابتدا فى يوم ظهرت فيه الشمس فى أول توت ، والحساب الفلكى يدل على أن هذا الحادث وقع قبل سنة ٢٠٠٠ (التى تقدم أن الأسرة الثانية عشرة جلست فيها على العرش) فى المدة من سنة ٢٧٨١ إلى سنة ٢٧٧٨ ، ثم قبل ذلك ب ١٤٦١ سنة أى فى المدة من ٢٤١ إلى ٤٢٣٨ . فالتقويم لابد أن يكون قد وضع فى إحدى هاتين المدينتين أو قبلهما . فاما المدة الأولى فيجب طرحها جانبا ، لأن نقوش اهرام سقارة تذكر ، فيما تذكره ، الأيام الخمسة التى تضاف إلى الشهور الاثنى عشر لتكملة السنة ، فمعنى ذلك أن التقويم كان مستعملا فى وقت بناء الاهرام ، ومعناه أيضا أن الفرق بين ابتداء الأسرة الثانية عشرة وهذه المدة ، وهو نحو ٧٨١ سنة ، لا يمكن أن يكون كافيا للأسر التى حكمت مصر من وقت بناء اهرام سقارة إلى وقت ارتقاء الأسرة الثانية عشرة إلى عرش الحكم .

وإذن لابد من الرجوع الى المدة الثانية ، وهى كما قلنا من سنة ٢٤١ إلى سنة ٤٢٣٨ . وإذن تكون هذه المدة أقرب زمن يمكن أن يقال إن التقويم كان موجودا فيه . أما وضع التقويم فلا يعرف زمنه ، ومن المرجح أن يكون قبل هذه المدة .

فاذا نحن أخذنا بالتاريخ القصير الذى يقول إن الملك «منا» حكم فى نحو سنة ٣٢٠٠ ق م . فالتقويم المصرى كان موجودا قبل هذا الملك بأكثر من ألف سنة . ومن البدهى أن المدنية المصرية لم تستطع وضع هذا التقويم إلا بعد أن كانت قد وصلت الى درجة من الحضارة مكنتها من رصد دورة الشمس ودورة الشمس اليمانية وجعلها أساسا للسنة .

ولا نختم هذه الكلمة قبل أن نذكر أن برستيد كان من المعجبين بقدرة المصريين على وضع هذا التقويم فى ذلك الزمن القديم فقال : (٢) .

(٣) من ٣٥ من الترجمة الفرنسية لكتابه من تاريخ مصر : وقد مرت الإشارة إليها .

لأن الفرق فى السنة الواحدة ربع يوم كما تقدم ، فلا بد أن تكون الشمس قد ظهرت فى يوم ٢٨ ابيب أربع سنوات متواليات . وليس من المعروف أى يوم من هذه الأيام الأربعة هو الذى أريد بما نقس على صخرة ايلفتين فى عهد تحوتمس الثالث . وإذن تبين أن تحوتمس الثالث كان جالسا على عرش مصر فى الوقت الذى سلفت الإشارة إليه .

وجاء فى ورقة من أوراق البردى الطيبة تسمى « ورقة إيبرس » (١) أنه فى السنة التاسعة من حكم الملك امينوفيس الأول (ثانى ملوك الأسرة الثامنة عشرة) ظهرت الشمس قبيل شروق الشمس فى يوم ٩ ابيب . فعلماء الفلك يعرفون أن هذا الحادث لابد أن يكون قد وقع فى المدة من سنة ١٥٥٠ إلى سنة ١٥٤٧ ق م . ومن هنا يمكن أن يقال إن الأسرة الثامنة عشرة جلست على العرش فى نحو سنة ١٥٨٠ ق م .

وفى ورقة من البردى تعرف باسم ورقة اللاهون أنه فى عهد الملك سنوسريت الثالث (أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة) ، وفى السنة السابعة من حكمه ، ظهرت الشمس فى ١٦ برمودة بدلا من أول توت . فعلماء الفلك يعرفون أن هذا الحادث وقع فى المدة من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٧٩ ق م . ومن هذا يؤخذ أن ابتداء جلوس الأسرة الثانية عشرة على العرش يقع حوالى سنة ٢٠٠٠ ق م (٢) .

(١) (Georg Ebers) هو عالم المانى ولد فى سنة ١٨٣٧ وتوفى فى سنة ١٨٩٨ ، وقد شغل بعم الآثار المصرية ، فانصرف اليها أغلب أيام حياته وزار مصر عدة مرات واشترى فيها ورقة من أوراق البردى وترجمها فأنشأ عنها بحث فى الطب عند المصريين ، فلما تمت شهرتها عند علماء الآثار المصرية . ووضع إيبرس كتابا عدة من مصر بعضها بحوث علمية وبعضها الآخر روايات تحيلها وجعل موضوعاتها تدور حول مصر القديمة .

(٢) يرى بعض العلماء فى المصروlogia أن هذا الحساب ينقص دورة كاملة من الدورات التى يعادل بها التقويم . وعلى هذا فالأسرة الثانية عشرة عندهم تبدىء فى سنة ٢٥٧٩ ق م . والأسرة الأولى تبدىء فى سنة ٥٥١٦ ق م . وهذا هو ما يسمى عند العلماء بالتاريخ الطويل . أما التاريخ القصير الذى يأخذ به أغلب العلماء فى الوقت الحاضر فإنه يجعل ابتداء الأسرة الثانية عشرة فى سنة ٢٠٠٠ ق م . وابتداء الأسرة الأولى ، نحو سنة ٢٤٠٠ أو ٢٤٠٠ ق م .

طبقا للتقويم ، وأمام كل واحد منها اليوم المقابل له طبقا لدورة الشعرى اليمانية . وقد دل البحث على أن الحساب في هذه الأيام الأخيرة صحيح ، ومنه يستنتج أنهم كانوا يعدلون التقويم بما يزيل النقص منه .

وقد كتب في ذلك موري في كتابه :

(Histoire de l'Orient)

في ص ١١٠ و ١١١ فذكر أن الاعتقاد كان سائدا « بأن المصريين سكتوا على هذا الاختلاف المكدر بين السنة في تقويمهم والسنة الفلكية » . ثم أشار موري الى النصوص التي جمعها ويل ، وقال :

« فبين أيدينا ، منذ العهد الذي كانت فيه طيبة قاعدة للملك ، جداول بأعياد دينية مكتوبة على البردى أو منقوشة على المعابد ، وقد عثت فيها الأيام طبقا للتقويم الناقص وعين أمام كل واحد من هذه الأيام اليوم المقابل له تعيينا صحيحا ، بحسب دورة الشعرى اليمانية . فالكهنة ورجال الحكومة كانوا اذن يستعملون تقويما ثابتا قائما على هذه الدورة التي مدتها ٣٦٥ يوما وربع يوم . وفي هذا التقويم الثابت كانت حفلات المواسم الزراعية تقع في أيام ثابتة بالنسبة لفصول السنة الطبيعية ولنظام العالم . فكيف يمكن حساب هذا التقويم إلا باضافة يوم سادس الى الأيام الاضافية الخمسة كل أربع سنوات » .

ومما يستحق الذكر هنا - وقد ذكره موري - أن العالم مير (١) عرض للتقويم المصري في كتاب له عن « تاريخ مصر » ، فذهب الى أن من المستبعد أن يكون المصريون قد أغفلوا الفرق الذي بينه وبين دورة الشعرى اليمانية . ولكنه لم يستطع أن يقدم برهانا على قوله هذا . وجاراه في ذلك العالم سيت (٢) ، وتوسع فيه ولكنه لم يقدم ، هو أيضا ، برهانا حاسما . فما كان يفترضه مير افتراضا ويؤيده فيه سيت ، صار الآن أمرا صحيحا تثبته النصوص .

(١) (Ed. Meyer) عالم الماني من كبار المصروlogيين ، وهو الغائل بالتاريخ الفصير ، وقد أخذه منه فريق كبير من العلماء^٢
(٢) (K. Sethe) هو عالم الماني أيضا من كبار المصروlogيين .

« إن هذا التقويم العظيم الذي كان يستعمل في عصر بعيد ، هو بعينه الذي يستعمل في أيامنا هذه . فقد حمله يوليوس قيصر من مصر إلى روما فاستعمل فيها على أنه أفضل تقويم . ثم ورثناه نحن عنها . وبذلك يكون قد اسعمل بغير انقطاع أكثر من ستة آلاف سنة . وقد كان المصريون من أهل الوجه البحري ، الذين عاشوا في نحو القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد ، هم أصحاب الفضل علينا فيه . ومن المهم أن نلاحظ أنه خرج من أيدي واضعيه الأولين ، بشهوره الاثنى عشر ، والتي كان كل شهر منها ثلاثين يوما ، أفضل مما صار إليه بعد أن عدله الرومانيون » .

وقد كان الذي فعله يوليوس قيصر أنه لما جاء إلى الاسكندرية وجد فيها التقويم المصري ، وكانت روما لاتزال تستعمل التقويم القمري ، فلما عاد إليها حمله معه ، فأخذه الرومانيون وأضافوا إليه يوما كل أربع سنوات ، فتكون كل سنة من السنوات الثلاث الأولى ٣٦٥ يوما ثم تكون السنة الرابعة ٣٦٦ يوما ، وسموا الثلاث السنوات الأولى بسيطة والسنة الرابعة كبيسة .

وفي سنة ١٥٨٢ قرر مجمع الكرادلة برياسة البابا جريجوار الثالث عشر إدخال تعديل طفيف على التقويم الروماني ، فسمى تقويمه النقويم الجريجوري ، وهو الذي يستعمله العالم الآن ، وهو النقويم المصري معدلا تعديلا طفيفا .

ونضيف هنا إلى ذلك أن عالما اسمه ويل (R. Well) استطاع أن يجمع أخيرا من أوراق البردى وجدوان المعابد نصوصا تثبت أن الكهنة ورجال الحكومة المصريين كانوا يصلحون التقويم بما يزيل منه ذلك الفرق القليل ويجعله ثابتا غير متغير .

وهذه النصوص التي جمعها ويل في كتابه :

Bases, Méthodes et Résultats
de la Chronologie Egyptienne

تشتمل على أيام محددة لحفلات موسمية زراعية

اذا بقيت السنة مكونة من ٣٦٠ يوما وخمسة ا
اضافية » .

فهذا الامر الذى اصدره بطليموس الثالث ه
تعديل للتقويم ، ولكنه ليس جديدا ، بل هو تنف
لعرف قديم كان جاريا منذ العهد الطبى ، و
الكهنة ورجال الحكومة يدونونه فى سجلاتهم
ينقشونه على جدران المعابد . ومن هذا كله يتظ
أن يوليوس قيصر لما جاء الى مصر وحمل التقو
منها الى روما ، لم تفعل فيه روما غير ما كانت م
نفسها قد فعلته من قبلها بأكثر من الف سنة .

وفى سنة ٢٢٨ ق . م اصدر بطليموس الثالث
المسمى « ايفرجيت » امرا يعرف عند العلماء « بالامر
الكانوبى » بتعديل التقويم . ويقضى هذا الامر
« باضافة يوم كل اربع سنوات الى الايام الخمسة
الاضافية ، لكى تجرى فصول السنة على قاعدة
لا تتحول ولا تختلف بالنسبة لنظام العالم ، فيمتنع
بذلك ان تجيء فى فصل الصيف مواعيد حفلات يجب
ان تقام فى الشتاء بسبب تقدم كوكب الشعرى
اليمانية فى دورته يوما فى كل اربع سنوات ، ويمتنع
ايضا ان تجيء فى الشتاء مواعيد حفلات يجب ان تقام
فى الصيف . وهذا ماحدث من قبل ولا بد ان يحدث



معركة بين الكنيسة وعلم الآثار المصرية

وبنات . فكانت كل أيام آدم التي عاشها
تسعمائة وتلاثين سنة ومات .

« وعاش شيث مائة وخمسة سنين وولد
أنوش . وعاش شيث بعد ما ولد أنوش ثمانمائة
وسبع سنين وولد بنين وبنات . فكانت كل
أيام شيث تسعمائة واثنى عشرة سنة
ومات . . الخ . . الخ » .

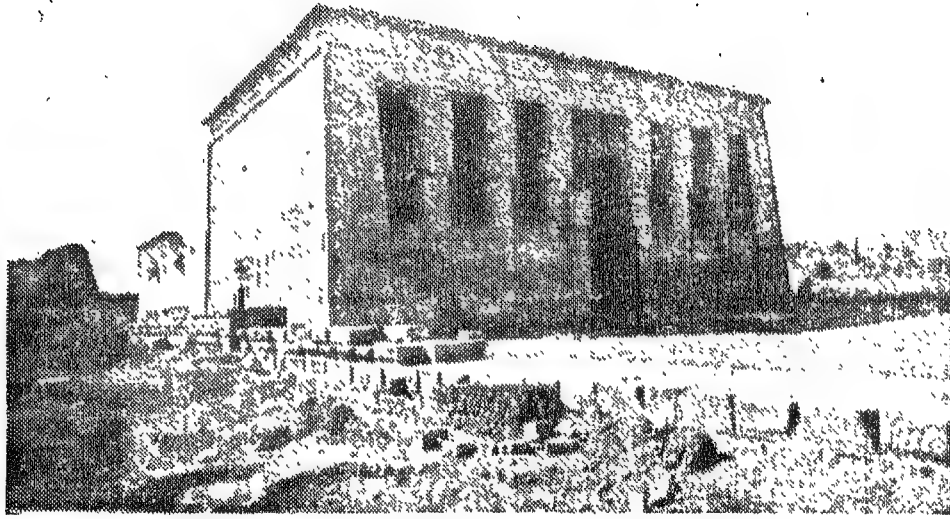
وتستمر النصوص على هذا المنوال حتى تصل
إلى نوح ثم إلى إبراهيم . فعلى هذه النصوص استند
الذين قدروا عمر الانسان على الأرض . ثم لما كانت
هذه النصوص قد اختلفت باختلاف النسخ فقد
اختلف تبعاً لذلك تاريخ خلق الانسان . وذلك ان
هناك ثلاث نسخ للتوراة كل واحدة منها اعتبرتها
الكنيسة مقدسة : نسخة عبرية ونسخة سامرية
ونسخة سبعونية . ففي الاولى يبلغ مجموع الأعمار
من آدم إلى إبراهيم ٢٠٢٣ سنة . وفي الثانية يبلغ
مجموع هذه الأعمار نفسها ٢٣٢٤ سنة . وفي الثالثة
يبلغ هذا المجموع ٣٣٨٩ سنة . أما المدة من إبراهيم
إلى عيسى (عليه السلام) فهي ٢٢٠٠ سنة . وبهذا
تكون أقصى مدة قدرت من خلق الانسان إلى رسالة
عيسى هي ٥٥٨٩ سنة .

وقد أخذت الكنيسة هذه الأرقام قضية مسلماً
بها ، وجعلتها إحدى العقائد المقدسة ، فانتشرت في
المؤلفات الدينية وسرت منها إلى المؤلفات العلمية التي
ألفها القسوس . وهذا هو الخطأ الذي أخذ العلم
المصري يصدمه منذ سنة ١٧٩٣ ، فثارَت الكنيسة وثار
معها أنصارها في أوروبا كلها على مصر والعلم الذي يأتي
منها ، فتغلبوا في بدء المعركة ، ولكن الصدام استمر ،
فكان العلم المصري ينهض يوماً ويكبو يوماً ، وبلغ من
حمو المعركة أن اشتراك أكبر العلماء من الجانبين ،
واشتغال بهارجال الدين ورجال العلم ورجال السياسة ،

قامت بين سنة ١٧٩٣ وسنة ١٨٨٠ معركة بين
الكنيسة وعلم الآثار المصرية شغلت بها أوروبا في هذه
المدة الطويلة . وكان منشؤها أن الكنيسة وقسوسها
وقعوا في خطأ ألبسوه ثوب الدين وجعلوا منه عقيدة
من انكرها خرج على الكنيسة وكفر بالدين . وكان
كثير من البحث العلمي في ذلك الوقت واقفاً في أيدي
القسوس ، فما عرض واحد منهم لهذه العقيدة إلا وهي
عنده من الحقائق الثابتة التي لا يرقى الشك إليها .
وما زالوا كذلك حتى هب عليهم علم الآثار المصرية ،
فثار بهبوبة غبار ، ثم اشتد هذا الغبار فتحول إلى
معركة حامية تقف منها الكنيسة وقسوسها في جانب ،
وتقف الآثار المصرية في جانب آخر ، إلى أن انهزمت
العقيدة بعد حوالي تسعين سنة . وحينئذ افادت
الكنيسة وافاق قسوسها فاعترفوا جميعاً بأنهم مخطئون
وان الآثار المصرية انتشلتهم من باطل كانوا فيه
مخدوعين .

وموضوع هذا الخطأ أن في التوراة ، أو « كتاب
العهد القديم » ، نصوصاً عن خلق العالم وتسلسل
الاجيال من آدم (عليه السلام) إلى نوح (عليه السلام) .
وقد ذكرت التوراة في هذا التسلسل أعمار الأشخاص
واحداً بعد الآخر ، فكان من السهل على الذين يجمعونها
أن يحددوا الزمن الذي مضى على خلق الانسان .
ونذكر هنا شيئاً من نصوص التوراة على سبيل المثال .
ففي « الاصحاح الخامس » من « سفر التكوين »
مانصه :

« هذا كتاب مواليد آدم يوم خلق الله
الانسان على شبه الله ، عمله ذكراً وأنثى ، خلقه
وباركه ودعا اسمه آدم يوم خلق . وعاش آدم
مائة وثلاثين سنة وولد ولداً على شبهه
كصورته ودعا اسمه شيثا . وكانت أيام آدم
بعد ما ولد شيثا ثمانمائة سنة . وولد بنين



معبد دندرة

وبعد ذلك ببضع سنوات ، أى فى سنة ١٧٩٨ ، غزا نابليون بونابرت مصر ، وزار العلماء الذين كانوا يرافقونه الصعيد فمشاهدوا برجين فى سقوف معبد دندرة وبرجين آخرين فى معبدين بالقرب من إسنا ، ولاحتفلوا أن قواعد التقسيم فى هذه البروج كلها واحدة ولكن العلامات ومناطق الكواكب مختلفة . ففى إسنا تبتدىء البروج بالعدراء وفى دندرة تبتدىء بالأسد ، فاستنتجوا من ذلك أن الغرض هو الدلالة على الوقت الذى بنيت المعابد فيه ، وأن معبدى إسنا بنيا حينما كانت الشمس فى فلك العدراء ، وأن معبد دندرة بنى حينما كانت الشمس فى فلك الأسد . وهذا معناه أن معبدى إسنا يرجعان إلى ٧ آلاف سنة وأن معبد دندرة يرجع إلى ٤ آلاف سنة .

ونشرت جريدة المونيتور (Moniteur) التى كانت الحملة الفرنسية تصدرها فى القاهرة هذا الخبر فى عددها الصادر فى ١٨ أغسطس سنة ١٨٠٠ ، وقالت إن معابد إسنا ودندرة تعتبر مع ذلك من أحدث المعابد المصرية . ووصل هذا الخبر ، ووصلت جريدة المونيتور ، إلى دوائر أوروبا الدينية والعلمية ، فأحدثا فيها رجة ، وأخذ المتسائلون يتسائلون : ماذا ؟ ٤ آلاف سنة و ٧ آلاف سنة ؟ ! ومعابد إسنا أحدث المعابد ؟ ! والبلاد التى تعرف بروجها كهذه

لا بل اشتغل بها البابا لبون الثانى عشر نفسه . وأخيرا انتصر العلم المصرى ففضى على الخطأ واعترف بانتصاره الدين حاربوه .

والآن فلنخض ميدان المعركة ولنتتبع أطوارها واحدا بعد واحد .

فى سنة ١٧٩٢ كان عالم فرنسى يسمى دىپوى (Dupuis) قد درس البروج (١) التى وجدت فى بعض المعابد المصرية ، فالف كتابا استنتج فيه من علامات فى هذه البروج ومن حساب حسبه أولا أن المصريين هم أول من اخترع رسم هذه البروج ، وثانيا أن عمر البروج المصرية يبلغ ١٣ أو ١٥ ألف سنة قبل ميلاد المسيح . ثم قال : « وبما أن شعبا من الشعوب لا يستطيع أن يخترع هذه البروج فى مستهل حضارته فالحضارة المصرية ترجع إلى أبعد من ١٥ ألف سنة » .

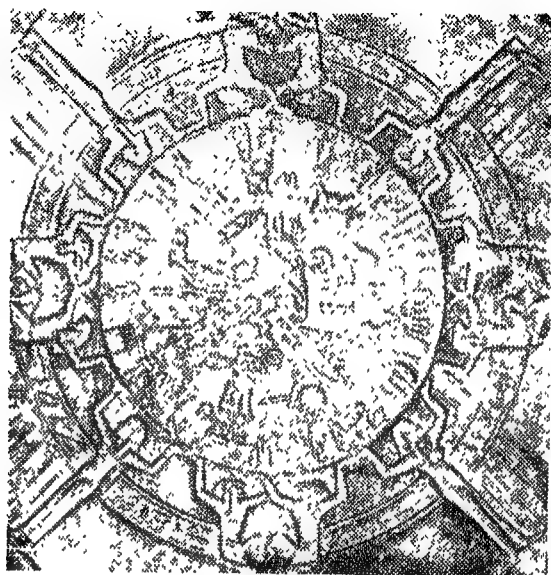
وكان دىپوى ذا سلطان بين العلماء فدوت كلمته هذه عندهم ، ورأى كل واحد منهم فيها تحديا لنصوص البوراد والديانة التى قدستها الكنيسة ، ولكنهم تركوها دور لها يمر الأشياء التى تسحق الإهمال .

(١) هذه البروج هى رسوم مستديرة على المباني تمثل مناطق من السماء والدواب والبروج الفلكية .

الخبر صحيحا ، وكانت جليته أن ابن أحد أعضاء مجلس النواب في فرنسا أخذته نشوة المعركة الناشبة حول البروج المصرية ، فذهب بنفسه إلى دندرة واستطاع أن ينزع برجها من مكانه وأن ينقله إلى فرنسا بعد أن اتخذ جميع المعدات لصونه من أن يصاب بسوء . فلما وصل البرج إلى مرسيليا في يناير سنة ١٨٢٢ لم تبق في أوروبا كلها جريدة لم تنشر خبر وصوله . وكانت الذي جلبه - وهو يسمى ليلورين - ولأصدقائه الذين ساعدوه مصلحة شخصية في أن يدقوا حول البرج طبولا ضخمة فدقوا منها ما شاءوا وكيفما شاءوا . وكان الناس مستعدين لأن يسمعوا هذه الطبول فأقبلوا عليها وجعلوا يتمثلون حول البرج المصري ، والحضارة المصرية ، والعلوم المصرية ، ما لا يتسع له إلا الخيال الواسع .

ولحظ رجال الكنيسة هذا الأثر في الناس فانزعجوا ، ولحظه خصومهم الذين كانوا في ميدان المعركة فتشجعوا واغتبطوا .

ونقل البرج إلى باريس ، واخترق شوارعها في موكب كموكب الغازي المنتصر ، وضمن به أصحابه عن أن يتذلل ، فلم يعرضوه للجمهور ، ولم يقبلوا أن يدخل عليه إلا العظماء . وكتب كاتب فرنسي هو كاميل لاجبي (Camille Lagier) يصف شغف باريس حينئذ بالبرج فقال :



البرج الذي نزع من معبد دندرة ونقل الى باريس

البروج وترسمها بهذه الدقة الفلكية يجب أن تكون حضارتها قد استمرت قبل ذلك الوفا أخرى من السنين ؟ ! ... فالمصريون الذين هم أهل هذه البلاد متى وجدوا ، وكم من الزمن قطعوا حتى خرجوا من الهمجبة إلى المدنية ؟ ! ... وهل يصح حينئذ قول ديبوى إن الحضارة المصرية ترجع إلى أكثر من ١٥ ألف سنة ... ؟ ! وأي شيء يبقى من نصوص التوراة إذا كانت الحضارة المصرية والآثار المصرية في هذا القدم ؟ ! ... ولكن لا ، ثم لا ، فإن التوراة مقدسة ، فهي صادقة ، أما مصر وآثارها والرياح التي جاءت تهب من ناحيتها ، فهي كلها زور وخداع .

تلك هي الضجة التي نارت في الدوائر العلمية والدينية على أثر ذبوع الخبر عن بروج إسنا ودندرة . وحينئذ انقسم العلماء فريقين : فريقا يقول إن الآثار المصرية تثبت أن خلق الإنسان أقدم من الزمن الذي حددته له التوراة ، وفريقا يتمسك بالتوراة ويدافع عنها . فمن الفريق الأول ديبوى الذي مر ذكره ، وبورخارت (Bourekhart) وريمي ريج (Remi Raige) وفوريي (Forrier) وجولوا (Jollois) وديفليرز (Devillers) . أما الفريق الثاني فكانت تقوده الكنيسة وكان يتولى زعامته الأب تيسا (Testa) سكرتير البابا في روما ويعاونه فيسكونتي (Visconti) والأب جريبو (Greppo) والقسيس هالما (Halma) وليترون (Letronne) وغيرهم .

وحملت المعركة بين هذين الفريقين من العلماء ، وكانت نظرية الفريق الثاني أن البروج التي وجدت في إسنا ودندرة لا ترجع إلى أكثر من القرن الثالث قبل الميلاد وأنها لذلك لا تقفد في التوراة . وإنما نادى الفريق الثاني بهذه النظرية لأنه رأى أن التشبث بأرقام التوراة من غير الطعن في قدم البروج المصرية لا يفيد . واستمرت المعركة على هذا المنوال ٢٥ سنة أخرج فيها كل واحد من هؤلاء العلماء عدة كتب كان موضوعها كلها البروج المصرية والحضارة المصرية .

وبينما المعركة عند هذا الحد إذا بقائل يقول : إن برج دندرة وصل إلى مرسيليا ، فسرى الخبر مسرى البرق ، ووقع في النفوس كما تقع الأعجوبة . وكان

المعابد في مؤلفهم العلمى الذى سموه « وصف مصر »
(Description de l'Egypte) ، فلاحظ الأب تيسن
ولاحظ معه فيسكونتى أن على معابد إسنا وندرة
كتابات يونانية ، فقلا إن هذه الكتابات سترشد على
الأرجح إلى التاريخ الصحيح لهذه المعابد والبروج التى
وجدت فيها .

وتتبع ليترون هذه الفكرة ، فلاحظ أن اسمى
الامبراطورين الرومانيين انطونين وإدريان موجودان
على معبد إسنا . وقرا على معبد دندرة عبارة باللغة
اليونانية كتبت تكريما للامبراطور تيسير ابن الامبراطور
اغسطس .

وفي هذا الوقت كان شامبوليون الشاب قد فك
حروف الخط الهيروغليفى فاطلع على جميع الأوصاف
والرسوم الخاصة بمعابد دندرة وإسنا ، فأثبت أن
جزءا من معبد دندرة بنى في عهد كليوباترة وابنها
قيصرين ، وأن جزءا آخر منه بنى في عهد الامبراطور
اغسطس .

أما معبدا إسنا فأثبت أنها بنيا في عهد الامبراطور
كومود .

وأثبت في الوقت نفسه أن البروج حديثة وإنها
صنعت في الوقت الذى بنيت فيه المعابد أى في حكم
الرومانيين لمصر .

وبذلك سقطت دعوى قدم البروج وانتصرت
الكنيسة .

انهزمت البروج وانتصرت الكنيسة ، فكان معنى
هذا أن عمر الانسان على الأرض لا يتجاوز ٣٣٨٩ سنة
على أكثر تقدير قبل النبى إبراهيم ، وكان المعنى
ايضا أن كل قدم تدعيه الحضارة المصرية لنفسها
أبعد من هذا الحد زور وخداع . وهذه المدة التى
تحددها التوراة هى المدة التى يجب أن يكون المصريون
قد انتقلوا فيها من حالة الوحشية الأولى إلى حالة
المدنية ، ثم من حالة المدنية إلى الحضارة الراقية ،
فحضارتهم على هذا لا تتجاوز قرونا تعد على الأصابع
قبل النبى إبراهيم .

« إن هذا البرج الذى كان يظهر ويختفى في
آن واحد صار مبيود المنحدين في الصالونات ،
وفي أماكن الرياضة ، وفي كل مكان . فما كنت
تسمع غير سدة نقول لصاحبها : «أرأيت البرج
يعزيزنى ؟ » ، أو رجل يقول لصاحبه :
« مارايك يا أخى في البرج ؟ » أو مايجرى هذا
المجرى من الحدث » (١) .

وإذا تمت الصحف على أن ذلك أن الحكومة
الفرنسية الفت لجنة من ثلاثة من العلماء لفحص البرج،
وهل هو زائف أو ذو قيمة علمية . ثم فحصته اللجنة
فقررت أنه غير زائف . وكان أصحابه ينتظرون هذا
التقرير ، فلما قدم إلى الحكومة كتبوا إليها يطلبون أن
تشتريه منهم ، ويقولون إن دولة أجنبية دفعت لهم
فيه ٢٠٠ ألف فرنك فرفضوا لأنهم يؤبرون الأيقوت
بلادهم الاحتفاظ بذخيرة مثله . واشترته حكومة
لويس الثامن عشر ودفعت فيه ١٥٠ ألف فرنك (أى
نحو ستة آلاف جنيه) ووضعت في متحف اللوفر
وسمحت للجمهور بأن يراه فيه .

واشتد في هذا الوقت حنى رجال الكنيسة ،
واشتمعه حنى المؤمنين النبورين على نصوص التوراة
فكانوا جميعا «يلعنون الحجر الأسود الحقى» (٢) بينما
كان بعض أعضاء مجلس النواب في فرنسا يشيرون
الشواثر عليه لأنه « أداة لبث الإلحاد وإنكار الدين » (٣)
وهذه الكلمات كافية للدلالة على أن المعركة وصلت في
هذا الدور إلى أقصى شدتها . وبعد ذلك يأتى الدور
الثالث وفيه انقلب الأمر فانهزمت البروج وانتصرت
الكنيسة .

بقى الأب تيسن يناضل نضالا عنيفا ، وجعل
أساس نضاله أن يدرس البروج نفسها لهدمها .
وكان العلماء الذين رافقوا حملة نابليون بونابرت قد
عادوا إلى فرنسا ونشروا الرسوم والصور التى
جلبوها معهم لكثير من الآثار المصرية ، ومنها معابد
إسنا وندرة . وكانوا قد نشروا ايضا اوصاف هذه

(١) صفحة ٣٠ من كتاب (Autour de la Pierre de Rosette)

(٢) (٣) صفحة ٢٢ من المصدر السابق ذكره .

موريس (٢) ليس سوى مصريين حفيد نوح . وما زال الأب دى روشى يمضى فى السلسلة على هذا القياس حتى جرد مصر من تاريخها وحوله كله إلى التوراة والقصص التى فيها . وعنده أن المؤرخين : مانيتون وديودور الصقلى وهيرودوت ، لم يفعلوا غير أن وضعوا التوراة أمامهم ، ثم جعلوا يأخذون منها ويخترعون .

وهذا القول يظهر لنا الآن غاية فى السخف ، ولكنه راج فى ذلك الوقت على أنه حقيقة تاريخية ودينية . واستقر فى الأذهان أن كل ما وراء إبراهيم من الزمن يجب أن يؤخذ تاريخه من التوراة . فما أثبتته فهو الحق الذى وجد ، وما لم تثبته فهو الباطل الذى لم يوجد .

ولكن هذا الانتصار للكنيسة لم يدم طويلا لأن المعركة عادت تتجدد فى شكل آخر . وعادت تتجدد فى هذه المرة بشيء غير البروج ، وعلى يد عالم هو الذى نصر الكنيسة على البروج ، وهذا العالم هو شامبوليون الشاب الذى تقدم أنه أثبت من كتابات على معابد دندرة وإسنا أنها هى وبروجها بنيت فى عصر كليوباترة والرومانيين .

وذلك أن شامبوليون كان قد كشف الخط الهيروغليفى كما قلنا ، وعرف الخطين المصريين الآخرين الديموتيقى والهيرأتيقى ، فصار فى استطاعته أن يقرأ جميع الكتابات التى تركها المصريون على المعابد وفى أوراق البردى . فبدأت الكنيسة تحس قلقا من هذه الناحية على الرغم من أنها كانت قد ارتاحت لعمل شامبوليون فى هدم قدم البروج . وقد كانت على حق فى هذا القلق ولكن شامبوليون كان سياسيا بارعا فأخذ يهدى روعها حتى لا تحول بينه وبين بحثه العلمى . فنجح واستنامت له الكنيسة ، ثم لم تفق إلا بعد أن صار كل نضال لها فى المعركة لا يفيد .

(٣) الفرعون موريس هو الفرعون الذى زعم المؤرخون اليونانيون والرومانيون ولا سيما المؤرخ سترابون ، أنه أنشأ بحيرة موريس (بحيرة قارون) فى اليوم لتكون خزانة للليل . ولكن الآثار دلت بعد ذلك على أن هذه البحيرة أنشئت فى عهد أمنحت الثالث أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة وأنه لا يوجد فرعون مسمى موريس .

ولكن هذا الحساب فيه تسامح أيضا ، لأن من المفروض أن الطوفان جاء على عهد نوح فأهلك فى مصر — كما أهلك فى غيرها — كل حى ودمر كل عامر (١) ، فالمدة التى بين آدم ونوح يجب إسقاطها من الحساب . وفى النسخة السبعينية من نسخ التوراة — وهى النسخة التى يزيد رقمها على رقمى النسختين الأخريين — أن المدة من آدم إلى نوح ٢٢٤٢ سنة ، ومن نوح إلى إبراهيم ١١٤٧ سنة فقط . فهذه المدة الأخيرة هى وحدها التى يجب أن تكون قاعدة الحساب وهى التى عمرت فيها مصر بالمصريين ووصل المصريون فيها إلى الحضارة التى وجددهم عليها إبراهيم حينما جاء مصر . فالحضارة المصرية حديثة إذن ، وليس لها أن تتيه على حضارات الأمم الأخرى بدعوى القدم .

هذا كان مؤدى انتصار الكنيسة على البروج المصرية . ولهذا لم يكد الانتصار يتقرر فى الأذهان حتى بدأت حملة عنيفة على مصر وتاريخها ، وقاد هذه الحملة الأب جيرين دى روشى (Guérin du Rochet) وكان قد الف قبل ذلك ببضع سنين كتابا عنوانه « التاريخ الصحيح للعصور الخرافية » ، هاجم فيه مصر وتاريخها وحضارتها ، فأعاد طبعه وزاد عليه . وكان الأب دى روشى من العلماء الواسعى الاطلاع البارعين فى صناعة القلم ، فاستطاع أن يصوغ كتابه هذا فى شكل يلبس فيه الحق بالباطل . فزعم أن التاريخ المصرى من أوله إلى آخره ليس سوى تخطيط فى الحوادث التى تسردها التوراة . فالملك (منا) الذى يذكره المؤرخ المصرى مانيتون (٢) ويقول إنه أول ملك حكم مصر ليس سوى نوح . والملوك الذين يعدمهم مانيتون ثلاثمائة وثلاثة وثلاثين خلفاء (لنا) ليسوا سوى أولاد نوح الثلاثة . والفرعون

(١) يقول بعض العلماء الآن أن الطوفان لم يعم الأرض كلها ، بل اقتصر على بلاد الكلدان وأرمينيا ، ولكن هذا القول لم يكن شائعا فى الوقت الذى نشبت فيه معركة البروج .

(٢) مانيتون (Manéthon) هو أبو التاريخ المصرى بحق . وكان كاهنا مصرياً من كبار العلماء ، وكان قد عاش فى زمن حكم البطالسة مصر ، فطلبوا إليه أن يضع تاريخاً لمصر باللغة اليونانية فرفضه وعليه اعتمد جميع المؤرخين من بعده .

أغاروا على مصر . ولكننا نحن نرى أن شامبوليون في غنى من هذا الدفاع ، وأن ليس عليه من حرج في إعطائه ذلك العهد لأنه لم يؤذ به أحدا ولم يفعل غير أن فتح به الطريق أمامه للبحث العلمى ولتبديد الخرافات من الأذهان .

وسافر شامبوليون إلى تورين ، وقرأ فيها كثيرا من الكتابات المصرية ، ولا سيما سلسلة الملوك الذين حكموا مصر . ثم انتقل إلى روما ، وفيها قابله الأب تيستا الذى تقدم ذكره في معركة البروج فرحب به ترحيبا وصفه شامبوليون نفسه في أحد كتبه فقال : « أستقبلنى باسطة ذراعيه وهنأنى بأن كنت مرسل الضربة الأخيرة للبروج » .

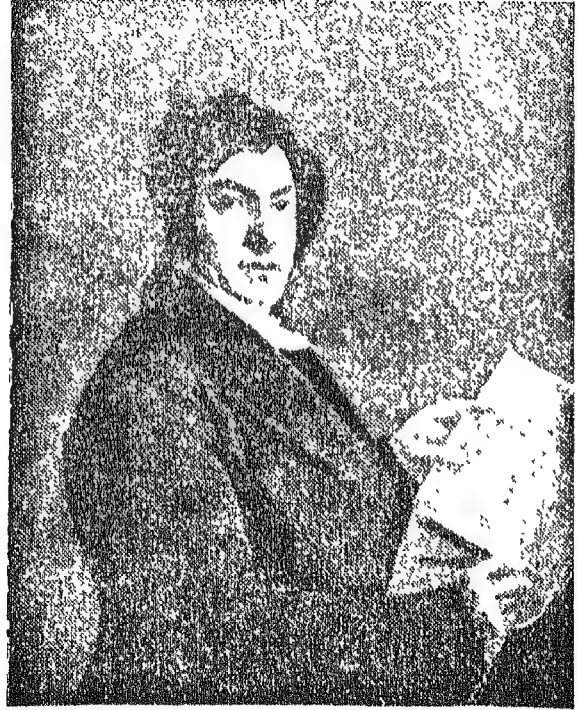
ثم قابل شامبوليون البابا ليون الثانى عشر ، ووصف هذه المقابلة في أحد كتبه أيضا فقال :

« تكرم قداسته بمقابلتى على الرغم من أنه مريض . وكان في حديثه ظاهر العطف والملاطفة . وقد قال لى بلغة فرنسية فصيحة ثلاث مرات متواليات إننى أديت بكشوفى خدمة جميلة ، وكبيرة ، وطيبة ، للديانة » .

ويرى من هذا أن الكنيسة ورجالها كانوا سعداء حقا بأن تخلصوا من كابوس البروج المصرية . ويرى منه أيضا أن شامبوليون نجح إلى الغاية القصوى في طمأنتهم من ناحيته .

وبعد هذا النجاح مع الأب تيستا ومع البابا ، جعل أعيان روما يتسابقون لمعرفة شامبوليون والحديث معه عن مصر والكتابات المصرية ، واقترحوا عليه إلقاء محاضرات فألقاها ، وصارت للحديث عن مصر فى صالونات روما ومجالسها لذة لا تعادلها لذة .

وأطلق على شامبوليون لقب « المصرى » ، وتنافس الناس فى تلقيب علماء آخرين فى فرنسا وإيطاليا والمانيا وانجلترا بمثل هذا اللقب فلقب العالم جومار « المصرى بمعنى الكلمة » ، ولقب العالم الانجليزى ينج



شامبوليون كاشف الحروف الهيروغليفية

وكان شامبوليون محتاجا فى أول أمره لرعاية ملك فرنسا لويس الثامن عشر ، فسمى له الدوق دى بلاكاس (Duc de Blacas) حتى حصل له عليها وعلى إذن بأن يزور متحف تورين والمتاحف الإيطالية الأخرى ليدرس مجموعات الآثار وأوراق البردى المصرية فيها . وكان الدوق من أنصار الكنيسة ومن محبى شامبوليون معا . فلما حصل شامبوليون على الاذن بدراسة الآثار المصرية فى متاحف إيطاليا اعتراه الخوف من أن يكون فى هذه المتاحف ما يخالف التوراة أو الديانة المسيحية ، فخلا به ورجا منه ألا ينشر شيئا يخالفهما إذا اتفق له أن عشر على شيء مخالف . ففعل شامبوليون وأعطى على نفسه عهدا بالذى يطلبه منه الدوق .

وهنا يقول المدافعون عن شامبوليون إنه أعطى هذا العهد لأنه كان ينوى العنسى ، بل لأنه كان يعتقد بنية حسنة أن جميع الآثار والأوراق المرققة فى القدم دمرت بفعل الزمن أو بفعل المفسرين الذين

شامبوليون يطلب العفو عنه ووده إلى منصبه ، فأجابه البابا إلى طلبه .

وعلى أثر ذلك كتب سفير فرنسا في روما إلى وزير خارجية الحكومة الفرنسية يصف هذا الفوز الذى فازه شامبوليون فقال :

« لقد شافهنى البابا بأنه يشكر لشامبوليون أعماله لأنها خدمت الديانة خدمة ذات أهمية . ومن قوله لى فى ذلك إن شامبوليون أسقط كبرياء تلك الفلسفة التى كانت تزعم أنها عثرت فى برج دندرة على تاريخ لخلق الإنسان أقدم من تاريخ الكتب المقدسة » .

ثم استمر السفير فقال :

« وقد استدعى البابا الأب فيستا وعرف منه جميع البراهين التى يثبت بها شامبوليون أولا أن برج دندرة صنع فى عهد الامبراطور كلود والامبراطور نيرون .

» وثانيا أنه لا يوجد أى أثر مصرى يمكن أن يرجع إلى أبعد من ٢٢٠٠ عام قبل ميلاد المسيح أى قبل عصر إبراهيم . وبهذا يبقى نحو ١٨٠٠ سنة لا يمكن الوصول إلى معرفة شىء منها إلا من الكتب المقدسة » .

ومن هذا يستطيع القارىء أن يعرف كيف كانت الكنيسة ترى أن البجدة التى أنجدها بها شامبوليون لهدم البروج كانت ذات قيمة كبيرة . ويستطيع القارىء أن يعرف أيضا أن مما كانت تحرص الكنيسة عليه ألا يوجد أثر من الآثار المصرية يرجع إلى أبعد من ٢٢٠٠ سنة قبل المسيح ، لأن هذه هى المدة التى كانت تقدر للزمن الذى بين المسيح وإبراهيم .

ورحل شامبوليون بعد ذلك إلى مصر ليرى بعينه مافيه من الآثار ويقرا ما على هذه الآثار من الكتابات . وقبل أن نخوض فى هذه الرحلة يحسن أن نعرف ماذا كان رأيه الداخلى فى اعتقادات الكنيسة . ويكفى بيانا لهذا أن نقول إنه لما قرأ فى متحف تورين بعض الأوراق البردية ، ورأى فيها سلسلة الملوك الذين حكموا مصر ، وعرف من هذه السلسلة أن عدد

(Young) (١) « المصرى بالتراكم » ، ولقب العالم جوليونوف « المصرى بالالهام » ، ولقب العالم الألمانى سيفارت « المتشبه بالمصرى » .

وبينما شامبوليون يتمتع بكل هذا المجد المصرى فى روما ، وبينما الكنيسة مطمئنة إليه ، إذا بصيحة خطيرة ترتفع آتية من مدينة تورين . وكان هذا الصائح أمين المتحف فيها . وكانت صيحته أن : دراسة الآثار والكتابات والعلوم المصرية تهدم الأسس التى تقوم عليها الديانة ، وتدمر سلطان التوراة » .

وفى الوقت نفسه برز الأب ميشيلانج لانسى فى روما ينذر بأن العلم المصرى الذى يعلمه شامبوليون للناس يخالف التوراة خاصة ، وتعاليم الكنيسة على العموم . وكان لانسى هذا قد تعلم اللغتين العربية والعبرية ، وعين أستاذا لهما فى إحدى كليات روما ، فأثرت صيحته بعض التأثير . وتشجع لانسى بذلك فجعل يطبع كراسات يعلن فيها مصر وعلومها لأنها شوشت الأذهان وأوقعت أوروبا فى حرب فكرية كانت فى غنى عنها ، ووصف الكتابات المصرية بأنها كاذبة ، ووصف الطريقة التى وضعها شامبوليون لقراءة الكتابة الهيروغليفية بأنها تلفيق .

ولكن شامبوليون كان ماهرا ، وكان حريصا على ألا يفقد ثقة البابا به وبالعلوم المصرية . وكان البابا لا يستطيع أن ينسى أنه هو الذى هدم البروج ، فأقنعه شامبوليون بأن صيحة الأب لانسى ناشئة من حسد فى نفسه لكاشف الحروف الهيروغليفية التى أدى كشفها إلى هدم البروج . وحينئذ أمر البابا بفصل الأب لانسى من منصبه ، فتقدم إليه

(١) العالم الانجليزى ينح هاليج كشف الحروف الهيروغليفية قبل شامبوليون بسنوات قليلة فنجح فى أربعة حروف أو خمسة ، وأخفق فى الباقي . وقد قام فى ذلك جدال بينه وبين شامبوليون . والانجليز يتعصبون له . وقد احتفلوا فى لندن سنة ١٩٢٢ بمرور مائة سنة على وفاته ، ووصفوه حينئذ بأنه كاشف الحروف الهيروغليفية . وهذا غير صحيح الا فى أربعة حروف أو خمسة كما نقدم .

النيات السيئة أن يذيعوه لغرض لا أريد أن أبحث فيه ، حول النتائج التي يؤدي إليها كسفى للحروف الهيروغليفية بأزاء الديانة ، ثم حول مبادئ السياسية . فأما الحروف الهيروغليفية فأمرها تاريخى محض ولن يكون لها مساس قط بالاعتقاد الدينى . وأما مبادئ السياسية فقد أرسدتنى من تلقاء نفسها إلى مايجب على احترامه وتأييده ، حتى من قبل أن يقوم فى نفسى شعور الاعتراف بالجميل لمسيديه فيجعل ذلك الواجب أعظم قوة وأشد تقديسا . فساكون دائما عندما يمليه هذا الشعور بلا أدنى تحفظ » (٣) .

وتعود بعد ذلك إلى رحلة شامبوليون إلى مصر (٤) ، فنقول إنه طاف فيها ، وقرأ الكتابات التى على آثارها ، ولا يهمنى هنا أن نعرض لطوافه هذا إلا من ناحية واحدة هى التى تمس الكنيسة وعقيدتها فى عمر الانسان . فنقول إنه لما طالعت

(٣) هذان الكتابان المتبادلان بين الدوق دى بلاكاس وشامبوليون فى ص ١٢٦ و ١٢٧ من المصدر السابق .

(٤) لما جاء شامبوليون إلى مصر كان من الضرورى له أن يستأذن وإلى مصر اذ ذاك محمد على باشا الكبير فى زيارة آثارها القديمة ، فسمى حتى قابله وأخذ منه الاذن الذى يريده . وقد كتب بعد ذلك إلى اخيه شامبوليون فيجاءك يصف هذه المفابلة فقال :

« نزلنا فى الدرج الكبير للديوان ، ثم دخلنا قاعة كبيرة مملوءة بالموظفين ، ومنها ادخلنا القاعة التى كان صاحب السمو (يربد محمد على باشا) فيها . وكان جالسا فى احدى زوايا القاعة ، بين نافذتين ، وفى ملابس بسيطة ، وفى يده « شبق » مطعم بالماس . وقد بدت لى قامته عادية ، وبدا لى فى مجموع مظهره ما يبعث انشراحا يدعو إلى الغرابة من عظيم مثله مشغول بأعمال عظيمة . وعيناه تنقدان ذكاء . ولحيته بيضاء ، جميلة ، تغطى صدره . فبعد أن سألنا من احوالنا بكرم فرحب بنا ، ثم سألنى عن خطتى فى رحلتى فشرحها لى بايجار ، وطلب الفرمات التى لا بد لى منها ، فمحنى أياها فى التو ، وأعطانى اثنين من قواصيه لمرافقتى فى كل مكان أذهب اليه . وبعد ذلك أمر لنا بالقهوة فشربتها ، ثم استأذنا من سموه فى الانصراف ، فودعنا مسلما علينا بيده ، مظهرا لنا كثيرا من العطف » .

وطلب محمد على باشا من شامبوليون أن يقدم له مذكرة عن تاريخ مصر القديم ومن الوسيلة التى يقترحها للمحافظة على الآثار المصرية القديمة فقدمها له .

الملوك الذين سبقوا الأسرة النامنة عشرة بزيد على المائتين ، كتب فى سنة ١٨٢٥ إلى اخيه شامبوليون فيجاءك (١) كتابا يقول فيه :

« ... لقد قام الدليل القاطع على أن المصريين كانوا فى عصور بعيدة فى القدم يعدون أكثر من مائتى ملك حكموا بلادهم قبل أن تحكمها الأسرة النامنة عشرة ... فهذا هو الدستور الذى يجب تقديمه للجمهور ، ولكن فى قفاز ملون بلون خاص » (٢) .

فهو إذن لم يكن يقول فى سريرته بقول الكنيسة . وإنما كان يصانعها حتى لا تضع العقبات فى سبيله . وكان يرى أن قدم المدنية المصرية إلى أبعد مما فهمته الكنيسة من التوراة ، هو :

« الدستور الذى يجب تقديمه للجمهور ، ولكن فى قفاز ملون بلون خاص » .

ومن الطيف ما يذكر من مصانعة شامبوليون للكنيسة أنه لما كان على وشك الرحيل إلى مصر خاف الدوق دى بلاكاس أن تؤدى رحلته هذه إلى ما ينافى عقيدة الكنيسة ، فكتب إليه فى ٦ يولييه سنة ١٨٢٦ يذكره بأن خصومه مازالوا يدعون أن العلوم المصرية تهدم الديانة . قال الدوق :

« حينما أبلغنى الدوق دى دودوفيل القرار الصادر بشأنك لم يخف عنى المعارضة التى كان عليه أن يقاومها لكى يحصل لك على هذا القرار . فسيكون عليك أنت أن تكذب ، بالأدلة المادية لا بالأقوال ، ما حاول ذوو النيات السيئة أن يحيطوا به عملك من ناحية ، والمبادئ السياسية التى تدين بها من ناحية أخرى » . فرد عليه شامبوليون فى ٢٥ يولييه من السنة نفسها بكتاب قال فيه :

« اسمح لى ياسيدى الدوق أن أقول لك إننى سأسارع إلى استخدام كل الوسائل التى ستعرض لى ، لكى أهدم ما حاول ذوو

(١) (Champollion Eligeac)

(٢) ص ١٢٨ من كتاب :

(Autour de la Pierre de Rosette)

سطع في سنة ١٨٤٦ عالما كبيرا من علماء
المصولوجيا . وكانت الحقائق العلمية قد تقدمت،
وكانت عقيدة الجماهير في أرقام الكنيسة قد بدأت
تتزعزع ، فلم يتردد دى روجى في أن يذيع في سنة
١٨٦٣ ترجمة لبعض الاوراق البردية التي في متحف
برلين وأن يجعل بعض عنوانها « قصص منذ ٤ آلاف
سنة » . فلما ظهرت هذه الترجمة هاج قسوس الكنيسة
وجعل بعضهم يكتبون إليه يتهمون به بالمرورق من الدين
فرد على واحد منهم في ١٧ ديسمبر سنة ١٨٦٣ بكتاب
قال فيه :

« لقد وجدت في الانجيل اسبابا قوية
للاعتقاد بتقديس المسيح، وهى في نظرى أسباب
كافية، فلست أجد معها محلا للبحث عن أسباب
أخرى . ولكن العلم يستطيع أن يسلك طريقه
من غير أن يمس عقيدتى المسيحية » .

وكتب أيضا فقال :

« يستخدم بعضهم كتابات المصريين القدماء
من غير أن يفهموها ، وهم لذلك يظنون أنهم
واجدون فيها قصصا من التوراة مشوهة تشويها
مكشوفاً (١) . فالتقديس السليم قد قضى منذ زمن
طويل على المؤلفات التي من هذا النوع والتي
قامت على أساس الرغبة في مسايرة الأوهام .
وهناك غير هؤلاء قوم لا يترددون في أن ينكروا
صراحة قواعد علمنا (٢) ، ويقولوا إنه وهم أو
أقل .

وبعد أن يتخلصوا بهذه الطريقة من هذا
العنصر المربك لهم يؤكدون بجرأة أنه لا يوجد
في مصر أى بناء أثري يمكن أن يكون أقدم من
سنة ١٠١٢ ق م (٤) . فعلى هؤلاء نرد بالكلمة

(٢) لعل دى روجى يشير بذلك الى الاب جيرين دى روشى
الذى تقدم أنه زعم أن الملك «منا» هو نوح ، وأن ملوك مصر الذين
ذكرهم مانيتون هم أولاد نوح الثلاثة ، وأن الفرعون موديس هو
مصرام حفيد نوح .

(٣) يريد بقوله « علمنا » علم الآثار المصرية .

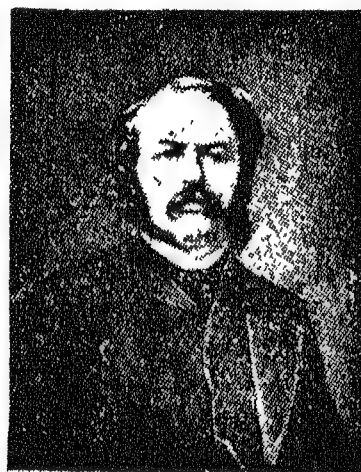
(٤) يشير بذلك الى كاتب انجليزى كان اسمه كرنوال ، وكان
قد وضع كتابا في سنة ١٨٦٢ ذهب فيه هذا المذهب .

تأملاته في الآثار والكتابات التي عليها ، لم يبق لديه
شك في أنه امام مئات من البراهين كل واحد منها
يهدم عقيدة الكنيسة ، ويتبث أن الحضارة المصرية
أقدم من التاريخ الذى ترى الكنيسة أن التوراة
حددت له لخلق الانسان ، ولنوح ، ولابراهيم . ولكنه
شاور نفسه في هل يعلن هذه الحقيقة او يسكت
عليها . فراى بعد كثير من التفكير أن يطوى جوانحه
على ما فيها ، وحينئذ كتب إلى أخيه في ٢٥ مارس
سنة ١٨٢٩ يقول :

« أقول لك ، فيما بينى وبينك ، إننى حصلت
على نتائج ، هى مربكة لى إلى الحد الأقصى من
وجوه عدة ، ولهذا يجب إبقاؤها في الكتمان .
وهذه النتائج لم تخالف في شيء ما كنت أتوقعه
وما كان يتوقعه معى « فوريى » ، وقد جلت
أمامى أشياء أخرى كثيرة كانت تتردد في نفسى
ترددا مبهما فصارت الآن عندى من الحقائق
التي لا يتطرق الشك إليها » .

ثم عاد شامبوليون إلى فرنسا ، وكان من المنتظر
أن يكتب تاريخا لمصر فلم يكتبه ، وعاجله الموت في
سنة ١٨٣٢ .

وبعد أن مات شامبوليون مضت فترة هدوء
ظن فيها كثيرون أن الأسرار التي طواها الموت بطيه
لن تعرف . ولكن اسم ايمانويل دى روجى (١) ،



ايمانويل دى روجى

(١) (Emmanuel de Rougé)

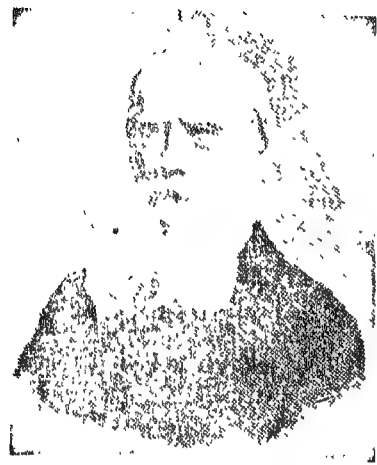
التوراة ترجع البصر فيها ، ففكرت وفكرت ، ثم اهتدت فجأة إلى أنها أخطأت في اعتبارها تلك الأرقام التي فيها مقدسة وفي استخراجها منها الحساب الذي استخرجته . ولا يتسع المقام هنا لشرح جميع الأسباب التي بنت الكنيسة عليها نظريتها في هذا الخطأ ، فيكفي أن نذكر منها سببين :

الأول : أن كل نسخة من نسخ التوراة الثلاث اختلفت الأرقام فيها عن الأخرى في جملتها وفي تفصيلاتها ، فهذا الاختلاف وحده يمنع من أن تكون مقدسة .

والثاني : أن التوراة حينما تقول إن فلانا ولد فلانا لا يكون مرادها أن الثاني ولد للأول من غير أن يكون بينهما جيل أو أجيال ، بل المراد فقط أن الثاني نسل للأول بحيث قد يكون حفيدا له أو أبعد من حفيد . وإذن يكون من الخطأ أن تجمع الأرقام التي في التوراة ليقال إن مجموعها هو الزمن الذي انقضى بين آدم ونوح ، ثم بين نوح وإبراهيم ، ثم بين إبراهيم وعيسى ، ثم ليقال في النهاية أن هذا هو الزمن الذي انقضى على خلق الإنسان .

وبهذا التفسير الأخير خرجت الكنيسة من التصادم مع العلم المصري . وبه أيضا أعلنت أنها كانت على خطأ في تحديد السنين التي كانت تحددها لخلق الإنسان . وبه أخيرا اعترفت بهزيمتها أمام الآثار المصرية . ولكن اعترافها هذا لم يأت إلا بعد معركة حامية شغلت بها أوربا كما رأيت من سنة ١٧٩٣ إلى سنة ١٨٨٠ .

ونقول بعد ذلك إن العلم الحديث دل على أن وجود الإنسان على الأرض يرجع إلى بضع عشرات الألوف من السنين . فبعضهم يقدر هذه المدة بنحو أربعين ألف سنة ، والبعض الآخر يقدرها بنحو خمسين ألف سنة ، وهناك من يقدرها بأكثر .



لى بيح رينوف

التي كتبها مصرولوجى انجليزى كبير (١) وهى : « ما أبعد الجاهل عن سبيل العذر في جهله إذا كانت الوسائل لمحو هذا الجهل في متناول يده » . ثم اشار دى روجى إلى الذين يرون بنية حسنة أن أرقام النوراة سور لا يصح تخطيه ، ثم قال :

« إن مبادئنا لا تسمح لنا بأن نتهم المسيحية بأنها تنزعزع أركانها من جراء تقدم علم أيا كان . ونحن على تمام اليقين من أن سلسلة التواريخ المصرية ، مهما يكن القدم الذي تنقلنا إليه ، ستأخذ مكانها في العلم الحديث ، بجانب العلم الذي يبحث في القوانين الخاصة بسير الكواكب ، وبجانب العلم الذي يبحث في كيفية تكوين طبقات الأرض ، من غير أن يكون ذلك مسيئا إلى الايمان المسيحى » .

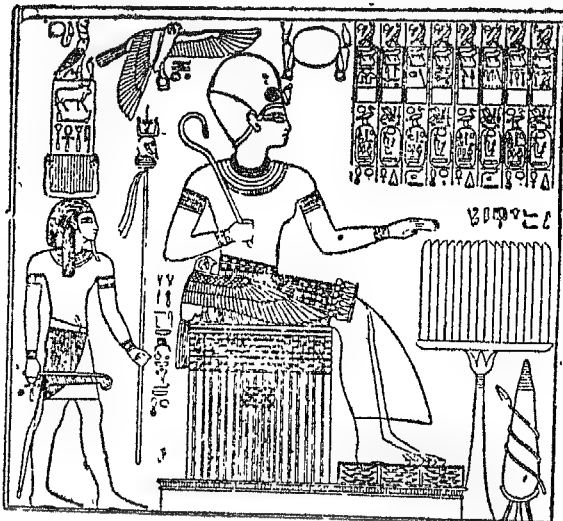
وبينما كانت هذه الصيحة تدوى في فرنسا كانت صيحة مثلها تدوى في إنجلترا على يد لى بيح رينوف ، وكان لبيسوس قد حمل علم المصروlogية في ألمانيا . ثم ظهر لينورمان في فرنسا في سنة ١٨٨٠ فعزز الحملة . وحينئذ لم تقو عقيدة الكنيسة على النبات فانهارت البقية الباقية منها .

ولما بلغ الأمر هذا الحد عادت الكنيسة إلى

(١) يريد لى بيح رينوف (Page Renouf) وسأنى ذكره .

عقيدة الحساب بعد الموت

وكانوا يقولون إن لكل إنسان شبيها به ، يولد معه ، ولا يرى ، ويسمى « كا » . ويبقى هذا الكا لابسا جسمه مادام حيا ، فاذا فارقه مات . ولم يكن الإنسان وحده هو الذى له كا ، بل الآلهة أيضا . وكانوا يرمزون لهذا الكا بذراعين مرفوعين لأنه قيل في أساطيرهم إن الآلهة رع حينما بدأ بخلق الآلهين الأولين شو وتفنيت وضع ذراعيه خلفهما فمسهما الكا الذى فيه ، فسرت فيهما الحياة (١) .



الملك سبتي الاول خالسا وامامه مائدة الفراين ومن خلعه روحه المسمى « كا » . وقد وجدت هذه اللوحة في أبيدوس حيث توجد الآن العراية المدونة

وللعلماء بحوث طويلة في هذا الكا وطبيعته ، وهم يرون فيه معانى مختلفة عدها بعضهم أربعة عشر (٢) ، ومن أبرز خصائصه أن انفصاله بالجسم يعطيه الحياة ، وأن انفصاله منه يؤدي به إلى الموت ، وأنه لا يموت بموت الجسم بل يبقى ويتردد على الميت في قبره .

(١) ص ٢٤٦ من كتاب (La Religion des Eg.) لاولدلف
أرمان الذى مر ذكره .
(٢) ص ٢٠٩ من كتاب (Les Mystères Egyptiens)
تأليف (A. Moret)

هل كان المصريون يعتقدون أن للإنسان روحا ؟ وهل كانوا يعتقدون أن هذا الروح لا يموت بموت الجسم ؟

وهل كانوا يرتبون على ذلك أن الإنسان يحيا بعد موته حياة أخرى يحاسب فيها على أعماله في الحياة الدنيا ، وتوزن فيها حسناته وسيئاته ، فمن رجحت حسناته استحق الثواب ، ومن رجحت سيئاته استحق العقاب ؟

وماذا كانوا يفهمون من الثواب والعقاب ؟ وكيف كانوا يتخيلون دار النعيم في الحياة الأخرى للأتقياء الصالحين ودار العذاب للأشرار المفسدين ؟

وهل عرفت أمة أخرى من الأمم ماعرفه المصريون من ذلك كله في الوقت الذى عرفوه فيه ، أم كانوا هم الذين سبقوا الأمم كلها إليه ؟

هذه هى الأسئلة التى سنجعل الجواب عليها مدار البحث في هذا الموضوع .

لا ريب في أن المصريين اعتقدوا منذ أقدم العصور أن للإنسان روحا ، وأن هذا الروح لا يموت بموت الجسم ، بل يحيا بعد ذلك حياة أخرى . وقد كان اعتقادهم هذا هو السبب الأول في أنهم عنوا عنايتهم الكبيرة ببناء القبور المتينة ، وتنسيق الأهرام الضخمة ، وتحنيط الجثة ، والاكتثار من التماثيل الحجرية مع الميت في قبره . فقد كان الغرض الأول من هذا كله حفظ الجثة من الفناء لكي يجدها الروح كلما دخل عليها القبر ، فاذا تعفنت مع ذلك واكلها البلى فالتمثال يقوم مقامها ، وإليه يرتاح الروح . وقد يفنى تمثال ويبقى آخر ، ولهذا استكثروا من التماثيل في القبور ، حتى إذا فنى بعضها بقى البعض الآخر .

ولا نطيل في هذا فهو معروف مشهور .

الجبل في موكب حافل بالنادبات والمشيعين ومظاهر التكريم ، ثم رأى في الوقت نفسه جنازة رجل فقير مدرج في حصير ، ولا موكب معه ولا مشيعين ، فالتفت إلى ولده وقال إنه يرجو أن يكون له في الدار الآخرة مصير كمصير ذلك الفنى لا كمصير هذا الفقير . فقال سينوزيريس إنه بالعكس يرجو له مثل مصير الفقير لا مثل مصير الفنى . فامتعض الوالد ، ولحظ الولد ذلك فأخذ بيد أبيه ليريه مصير الاثنين . ثم قرأ صيفا سحرية وذهب بأبيه إلى مكان في جبل ممفيس فنزل به إلى الدار التى يحاسب فيها الأموات (١) ، فاذا هما بسبع قاعات واسعة مملوءة بناس من جميع الطبقات ، فاجتازا نلتا من هذه الدور ثم دخلا الرابعة ، فاذا ناس يذهبون ويجيئون بينما هم تأكل من خلفهم ، ثم ناس غيرهم يشبون إلى طعام معلق فوق رؤوسهم فلا يدركونه ، فيشبون وينشون ، بينما حفارون يحفرون تحت أقدامهم ليزيدوا مسافة ما بينهم وبينه .

ثم دخلا القاعة السادسة فوجدا أرواحا من الأبرار لكل منها مكان تقيم فيه بينما في الباب أرواح متهمة فهي واقفة تتضرع . ثم رآيا رجلا منطرحا تحت الباب على ظهره ، ومحور هذا الباب مركز في عينه اليمنى يدور عليها كلما فتح أو أقفل ، وهو لا ينفك يفتح ويقفل ، والرجل لا ينفك يصيح من الألم .

ثم دخلا القاعة السابعة فوجدا آلهة الحساب جالسين والمنادين ينادون قضايا الأموات (٢) واحدة بعد أخرى ، والآله الكبير أوزيريس جالس على عرش من الذهب متوج بالتاج ذى الريشنين (٣) بينما الآله

(١) هذه الدار ليس لها اسم معين في النص المنشور في كتاب (Les contes populaires de l'ancienne Egypte) أو « الفصص الشعبية لمصر القديمة » تأليف ج . ماسبيرو من ص ١٣٠ إلى ص ١٣٨ من الطبعة الثالثة . ولكن هذه الدار تسمى « الجحيم » في النص الآخر المنشور في كتاب : (Causerie d'Egypte)

تأليف ج . ماسبيرو أيضا من ص ٢١٣ إلى ص ٢٢١ .

(٢) هؤلاء المنادون يشبهون محضرى المحاكم الآن .

(٣) بقول ماسبيرو في الحواشى التى وضعها لهذه القصة أن المصريين كانوا يسمون هذا التاج « يانف أو يوتف » وأنه مكون من قلنسوة بيضاء ومن ريشتين من ريش النعام احدهما في الجهة اليمنى والثانية في الجهة اليسرى .

هذا نوع أول من الروح . وهناك نوع ثان كانوا يسمونه « با » وكانوا يعتقدون أنه هو أيضا يفارق الجسم عند الموت ، ويطير في الجو ، ويصعد إلى السماء ، ويمكنه أن يتشكل في أشكال مختلفة . وكانوا يجعلون له وجهه صاحبه وجسم طائر . وهو أيضا لا يموت بموت الجسم بل يبقى ويتردد على الميت في قبره .

فقد اعتقد المصريون إذن أن للأنسان نوعين من الروح باقيين بعد موته . ولا نخوض هنا في طبيعة كل منهما ، لأن لذلك بحثا ما زال المتخصصون يعالجونه . والذى يهمنا نحن في بحثنا هذا هو أن المصريين لم يجعلوا الإنسان يفنى بموته ، بل جعلوا له روحين باقيين . فننتقل بعد ذلك إلى البحث في هل وقفوا عند هذا الحد أو مضوا إلى نتيجته الضرورية فرتبوا على بقاء الروح حياة أخرى يحياها الإنسان بعد موته ، وفيها يحاسب على أعماله في دنياه ، فيثاب على الحسنات ويعاقب على السيئات .

في سنة ١٩٠٠ عثر المصرو لوجى الانجليزى جريفت (F. L. Griffith) في المتحف البريطانى على ملف من ملفات البردى المصرية فترجمه إلى اللغة الانجليزية فاذا هو قصة طويلة تلخص في أن فرعوناً من فراعنة مصر اسمه أوزيريس كان له ولد يسمى ساتنى أو ساتنى تفقه في العلوم حتى كان الملوك يوجهون إلى أبيه أسئلة يطلبون منه الجواب عليها ، فان اجاب فذاك ، وإن عجز كان عجزه دليلاً على تفوق بلادهم على مصر . فكان ساتنى يجيب على هذه الأسئلة ويجعل لمصر التفوق على جميع البلاد . وتزوج ساتنى فلم يرزق ولداً فحزن وذهبت امراته إلى المعبد فصلت ودعت الله أن يرزقها بولد ، ثم نامت ليلتها في المعبد فرأت في نومها أن دعوتها ستجاب ، ثم رأت في ليلة أخرى هاتفا يخبرها بأن ابنها سيكون صاحب كرامات ويطلب منها أن تسميه سينوزيريس .

ثم جاء هذا الولد فحذق علوم الحكمة والسحر وهو لا يزال صبياً . وتطلع ساتنى ذات يوم من أعلى داره فرأى جنازة رجل غنى تسير من ممفيس إلى

الذى شاهده مخرجاً في حصر وليس في جنازته
احد من المنيعين . لقد جرى به إلى هنا ثم وزنت
سيئاته وحسناته فرجحت النانية الأولى . وكان
الاله توت قد سجل له في سجله أنه لم يتمتع على
الأرض بسعادة كافية ، فأمر أوزيريس أن يعطى كل
ما كان مجهزاً به ذلك الغنى الذى رأيت جنازته مشبعة
بمظاهر التكريم وأن ترفع منزلته بين الآلهة ، أما الغنى
فقد وزنت سيئاته وحسناته فوجدت الأولى ترجح
النانية فقيد إلى الجواز ، وهو الذى رأيت محور
الباب يدور على عينه اليمنى ، وسمعتة يصيح من
الآلم » .

وعلى هذه القاعدة ، قاعدة وزن الحسنات
والسيئات ، جعل الولد يفسر لأبيه كل ما يراه من
المنظر ، ثم أخذ بيده وعاد به إلى وجه الأرض من
حيث جاء (٢) .

وروى ديودور الصقلى فيما رواه عن محاكمة
الأموات في مصر ، أن المصريين كانوا كلما مات لهم ميت
أبلغوا موته ويوم دفنه لأقاربه ومعارفه ولقضاة مكلفين
أن يحاكموه ، فإذا جاء يوم الدفن حملت الجثة في قارب
يجتاز بها بحيرة ، وجلس القضاة والمعارف ينتظرونها
عند الشاطئ البانى ، فإذا وصلت إلى المرسى أيسح
لكل مدع على الميت أن يتقدم للقضاة بدعواه ، فإذا
ثبت أن الميت أساء في حياته حكم القضاة بحرمان
جنته من مدفنه ، أما إذا لم يتقدم أحد أو إذا ثبت
أن المدعى كاذب فأهل الميت يخلعون حدادهم ويثنون
على ميتهم ، فيجيب الجمهور بالتصفيق ويتمنى
للميت الخلود مع الأبرار . والعقاب الذى ينزله القضاة
بكل مدع كاذب في هذه الحالة عقاب شديد رادع .
هكذا روى ديودور ، وهو مخطئ ، وقد التبس
الأمر عليه ، فأخذ ما كان المصريون يعتقدونه حساباً
يؤديه الميت في الحياة الأخرى أمام قضاة من الآلهة ،
على أنه حساب يؤديه أمام قضاة من الأحياء قبل أن
يدفن . فما كتبه ديودور في هذا يجب أن يضاف إلى
الأشياء الكثيرة التى أخطأ المؤرخون اليونانيون
(٢) ليس ما أبتناه هنا ترجمة للقصة بل هو تلخيص لها كما
قلنا . والقصة طويلة فمن أرادها فليطلبها في المصدرين اللذين
أشرنا إليهما من قبل .



أوزيريس الاله الأكبر لمحاكمة الأموات

أنوبيس (١) واقف إلى يساره والاله توت (٢) إلى
يمينه والآلهة الآخرون الذين يتألف منهم مجلس
دار الحساب واقفون يمينا ويسارا والميزان منصوب
يزن السيئات والحسنات . فمن رجحت سيئاته
حسناته القى إلى الوحش أمييت (سيأتى تعريف
هذا الوحش) يفترسه ، ومن رجحت حسناته
سيئاته قيد إلى حيث الآلهة وصعدت روحه إلى
السماء ، أما من تعادلت حسناته وسيئاته فلا يفترسه
الوحش ولا ينضم إلى الآلهة بل يعين للخدمة .
ونظر ساتنى فرأى على مقربة من أوزيريس رجلاً
حسن البزة مرفوع المنزلة . فالتفت إلى أبيه وقال :
« اترى هذا الجالس بجانب أوزيريس ؟ إنه الفقير

(١) أنوبيس هو مدير دفن الأموات ودليلهم في الدار الآخرة .
(٢) توت أو تحوت هو المعروف عند اليونانيين باسم هرمس .
وكان المصريون يؤمنون أنه هو الذى علمهم الكتابة والقوانين
والحكمة وجميع المعارف . وهو الذى يقيد وزن قلب الميت في
محكمة أوزيريس ويقدم تقارير عن أعمال الميت إلى قضاة المحكمة .
وهو المعبود الأكبر في مدينة هرموبوليس أو الأشمونين .

ولا تفتح أمامه أبواب السماء إلا بعد أن يؤدي حساباً أمام محكمة رع عن أعماله في الحياة الدنيا ، وبعد أن تصدر المحكمة حكمها بأنه أحسن في أعماله هذه وصار يستحق الثواب .

وهنا يقول موري إن نصوص الأهرام صريحة في ذلك ، وهذه هي الفقرة ١٢٣٨ منها :

« إن اتوم يدعو الملك الى السماء ليحيى فيها . . . لقد فحصت أعمال الملك فلم يوجد فيها سوء . وهذه شهادة ذات معنى كبير أمام وجهك يا رع » .

ويضي موري بعد ذلك في ذكر النصوص في هذا الموضوع ، ومؤداها أن الملك أوناس (٦) يطلب حكم الآلهة على أعماله في الدنيا ، فتجتمع المحكمة وتصدر حكمها ، وهو يقضى ، كما تقدم ، بأن « أعمال الملك فحصت فلم يوجد فيها سوء » . وبناء على هذا صار الملك يستحق أن تفتح له أبواب السماء وأن يأخذ مكاناً له في سفينة رع .

وفي الفقرة ٣١٦ من هذه النصوص أنه لما مثل أوناس أمام الوحش الرابض في المحكمة اعتراه الخوف ، ولكنه خرج بعد ذلك ومعه الهة الحق والعدل ، ولم يلق في النيران . فمعنى ذلك أنه لو كانت المحكمة قد حكمت ضده لكان العذاب الذي ينتظره أن يترك للوحش يفرسه أو يلقى في النيران .

فهناك إذن ، منذ أقدم العصور ، حساب ثم ثواب أو عقاب . وهذا العقاب قد يكون في عذاب افتراس الوحش أو عذاب النار .

وقد قال بعض الباحثين في نصوص الأهرام هذه إنها ذكرت محاسبة الملك على أعماله في الدنيا وصعوده الى السماء ، ولكنها لم تذكر شيئاً مثل ذلك لأحد غير الملك . فكأن الملك هو وحده الذي يحاسب ويصعد الى السماء ، أما من عداه من أفراد الرعية فلا . ولكن ارمان أثبت من نصوص الأهرام نفسها أن هذا القول خطأ (٧) . لأن النصوص تذكر بالعكس في فقرات منها

(٦) الملك أوناس هو آخر ملوك الأسرة الخامسة . وقد ذكر اسمه في هذه النصوص لأنها منقوشة في هرمه ، ولأنها نقشت فيه من أجله .

(٧) ص ٢٤٥ من كتاب (La Religion des Ég.) لارمان .

والرومانيون فهمها في ما كتبه عن المصريين . ولكن خطأ ديودور لا يمنع من أن في روايته حقيقة بارزة هي أن المصريين كانوا يعتقدون أن الميت محاسب بعد موته على سيئاته وحسناته ، معاقب على الأولى ، مناب على الثانية . وهذه العقيدة هي بعينها التي رأيناها في قصة ساتنى وابنه سينوزيريس .

ونقول بعد ذلك إننا لم نسق هنا قصة ساتنى وولده ، ولا رواية ديودور ، لأنهما الدليل على عقيدة الحساب بعد الموت ، كلا فان الدليل على هذه العقيدة نصوص صريحة وجدت في قبور المصريين منذ أقدم العصور . وما ذكرنا قصة ساتنى وولده (١) إلا للدلالة على أن هذه العقيدة لم تكن فلسفة يتلقاها الكهنة في المعابد أو يطلبها طلابها في مصادرها الخاصة ، بل كانت شائعة في سواد الشعب تدبج حولها القصص والأحاديث .

فقد وجدت هذه العقيدة في نصوص الأهرام (٢) التي ترجع الى الأسرتين الخامسة والسادسة (٣) . وقد اتفق العلماء على أن هذه النصوص تترجم في الكثير منها عن عقائد وتقاليده نذهب في قدمها إلى أبعد من هاتين الأسرتين ، بل الى ما قبل عصر الأسر .

ففي هذه النصوص أن الملك بعد وفاته يصعد الى السماء ثم يأخذ مكاناً له في سفينة رع (٤) ليحجب السماء معه (٥) ، ولكنه لا يحصل على هذه المرتبة ، (١) هذه القصة وضعت في العصور الأخيرة للمدينة المصرية فهي حديثة .

(٢) نصوص الأهرام هي التي وجدت في أهرام الأسرتين الخامسة والسادسة . والذي وجدها هو ماسبيرو في سنة ١٨٨١ ثم ترجمها الى الفرنسية في سنة ١٨٨٢ . ومن بعده ترجمها الى الألمانية العالم الألماني سيث (Sethe) في سنة ١٩٠٨ . ثم ترجمها أيضاً العالم سبلرز (L. Spleers) . وصلى هاتين الترجمتين الأخيرين اعتمد موري لترجم الى الفرنسية ما اقتبس منها واعتمدت انا على ترجمه موري .

(٣) الأسرة الخامسة حكمت من نحو سنة ٢٦٨٠ الى نحو سنة ٢٥٤٩ ق م (بحساب التاريخ القصير) . والأسرة السادسة حكمت من نحو سنة ٢٥٥٠ الى نحو سنة ٢٢٦٠ ق م .

(٤) سفينة رع هي السفينة التي كانت الاساطير القديمة تقول ان الآله رع (الشمس) يخرق بها السماء كل يوم .

(٥) الفقرة ١١٧١ من نصوص الأهرام في ص ١٥٣ من الجزء الثاني من كتاب (Histoire de la Nation Ég.) لموري .

وفيما بين الدولة الوسطى والدولة الحديثة أخذ ينتشر ما سمي « بكتاب الموتى » حتى صار من العادات المرعية أن توضع نسخة منه مع كل ميت . وهذا الكتاب يشتمل على فصول مختلفة بعضها في خلق الكون ، وبعضها في بيان الأخطار التي يستهدف لها الميت بعد موته ، وبعضها تعاويذ سحرية كان الدين وضعوها يزعمون أنها تنفع الميت وتنقذه من الأخطار ، وبعضها - وهو ما يهمنا في موضوعنا هذا - في محاسبة الميت على أعماله في الدنيا أمام محكمة أوزيريس .

وكانوا يجسمون هذه المحاسبة فيضعون لها في كتاب الموتى ، وعلى التوابيت ، رسم محكمة ومحكمة وميزان . وفي هذه المحكمة يجلس أوزيريس على عرشه حاملا عصاه وكرابجه ، ومعه اثنان وأربعون قاضيا من الآلهة . ويلاحظ هنا أن مصر كانت مقسمة إلى اثنين وأربعين أقلية فكان كلا من القضاة يمثل أقلية من هذه الأقاليم . فإذا جرى بالميت تسلمه أنوبيس وأخذ قلبه فوضعه في إحدى كفتي ميزان ، ووضع في الكفة الأخرى تمثال الآلهة معات (إلهة الحقيقة والعدل) أوريشتها ، ثم وقف الآلهة توت بجانب الميزان وفي يده اليمنى قلم وفي يده اليسرى سجل يدون فيه نتيجة الميزان ثم يرفعها إلى أوزيريس . ويقف بالقرب من توت الوحش « أماييت » ، وهو وحش له رأس تمساح وجسم أسد ، متأهبا لأن يلتهم الميت الذي يصدر الحكم بالتهامه . وفي بعض الرسوم تضاف نيران إلى المحكمة في مكان خاص منها ، ليلقى فيها المذنبون . والقلب في الميزان يمثل أعمال الميت في حياته . وهو الذي يشهد بكل ما فعله صاحبه من خير أو شر .

وكتاب الموتى يدلنا على نوع الأعمال التي كان الميت يحاسب عليها أمام أوزيريس . فجدد في هذا الكتاب تضرع من الميت إلى قلبه حسيما يؤخذ منه ليوضع في الميزان . وهو يقول فيه :

« أيها القلب الذي أخذته من أمي ، وولدت به ، وعشت معه على الأرض ، لا تشهد علي . لا تكن خصمي أمام القوى المقدسة . لا تكن ثقيل الوزن ضدي » .

« الميت الذي يرقد تحت الأرض والتراب والرمل » ، فميت كهذا ليس له ضريح مبني بالطوب ولا هرم مشيد بالحجارة ، فهو ليس ملكا . وهناك فوق ذلك فقرة أخرى تذكر من مات هذا الميت أنه « لم يسب الملك قط » ، فبديهي أنه لا بد أن يكون شخصا غير الملك .

ولهذا يرى ارمان أن عقيدة الحساب كانت تشمل غير الملك .

على أنه في هذا الوقت نفسه كانت عبادة أوزيريس قد أخذت تنتشر وتصبح عبادة شعبية تقبل الطبقات كلها عليها . ونقول « في هذا الوقت نفسه » لأن نصوص الأهرام أشارت إليها ، فدللت بذلك على أن هذه العبادة كانت قد بلغت شأنا رأى معه كهنة هليوبوليس أن من الخير لهم أن يقحموها على عبادة رع وأن يمزجوها معا .

وعبادة أوزيريس ، أساسها الأول أن كل إنسان ، ملكا كان أو فردا عاديا ، مسئول بعد الموت عن أعماله في الدنيا أمام محكمة إلهية يتولى القضاء فيها أوزيريس نفسه ، ويساعده فيها توت وأنوبيس وحوريس ومعات واثنان وأربعون قاضيا . فإذا حكمت هذه المحكمة بأن حسنات الميت ترجح سيئاته كوفى بالنعيم الخالد وصار مثل أوزيريس . أما إذا حكمت المحكمة بأنه أساء في حياته فجزاؤه أن يفترسه الوحش ، أو أن يلقي في النار ، أو أن يضرب عليه نوع آخر من أنواع العذاب .

وقد راجت هذه العقيدة وراجت معها عبادة أوزيريس في زمن الدولة الوسطى ، ثم راجنا أكثر في زمن الدولة الحديثة ، لأن كل أحد صار يرجو أن يكون مثل أوزيريس في الحياة الأخرى . وكان أوزيريس قد نشأ في مدينة بوزيريس (وهي الآن بوسير أو أبو صير بمديرية الغربية) فانتقل إلى مدينة أبيدوس (وهي الآن العراية المدفونة بمديرية جرجا) فاعتبرت عاصمة له ومدينة مقدسة يرغب الملوك والأمراء وقواد الجيش والأعيان وغيرهم من سواد الأمة في أن يدفنوا فيها للتبرك بترابها ، فإذا لم يجدوا أرضا لهذا الغرض اكتفوا بأن يقيموا لأنفسهم في مقبرتها لوحة تذكارية من الألواح الحجرية التي تقام على القبور .

وهذا الدفاع يسميه شامبوليون « دفاعا
انكاريا » لأن الميت يعزو فيه لنفسه الحسنات
والفضائل في صورة انكار للسيئات والردائل .
ثم يخاطب الميت القضاة الاثني عشر والأربعين
فيقول (٢) :

« لكم الحمد أيها القضاة . إننى أعرفكم
وأعرف اسماءكم . لست أسقط أمام سيفكم .
انكم لا تعلنون شيئا ضدى لهذا الاله الذى أنتم
حاشيته . لا شأن لكم بى . إنكم تقولون الحقيقة
فى امرى أمام سيد كل شيء . لأننى اتبعت
الحق والعدل فى مصر ، ولم أجدف فى حق الاله ،
ولم يجد الملك المعاصر لى شيئا يأخذه على . لكم
الحمد أيها الآلهة الجالسون فى قاعة الحقيقتين (٤)
والذين ليس فيهم اثر من كذب ، وهم يعيشون
من الحقيقة أمام حوريس المستقر فى شمس .
أنقذونى من « باباى » (٥) الذى يأكل أحشاء
العظماء فى يوم الحساب الكبير . هاكم انظروا :
أننى آت اليكم بلا خطيئة ولا سوء . وقد فعلت
مابرضى الناس والآلهة . وارضيت الاله بما
يحب . وقد أعطيت خبزا للجائع ، وماء
للعطشان ، وثيابا للعارى ، وزورقا لمن ليس
له مركب . وقد قدمت قرابين للآلهة ، وهديا
جنازية للممجدين (٦) .

« أنقذونى واحفظونى ، انكم لا تتهموننى
أمام الاله العظيم . أننى رجل ذو فم طاهر ،
ويدين طاهرتين ، والذين يروننى يقولون لى :
مرحبا بقدومك ، مرحبا بقدومك » (٧) .

(٢) هذا الخطاب مترجم من كتاب :
(La Religion des Eg.)

ص ٢٦٦ و ٢٦٧ لمؤلفه ارمان .

(٤) المراد بالحقيقتين حقيقة الوجه القبلى وحقيقة الوجه
البحرى . وكانت محكمة أوزيريس تسمى قاعة الحقيقتين .
(٥) لفرأومان كلمة « باباى » هذه فغال . أن المراد منها رفيق
لاله الشر سبت أو سبت نفسه .

(٦) المجدون هم الاموات الذين كانوا صالحين فى الدنيا
وينالون هذه المنزلة فى الآخرة .

(٧) فى هذا الخطاب فضائل دينية وأخلاقية غير التى مرت
فى الدفاع الانكارى . وهذا يدل على أن هذا الدفاع الانكارى
لم يجمع كل ما كان المصريون يعتبرونه فضيلة وتهديبا نفسيا .
وستأتى شواهد أخرى تؤيد هذه الحقيقة .

ثم وجد فى كتاب الموتى أيضا دفاع يدافع به
الميت عن نفسه حينما يأخذ أنوبيس فى وزن أعماله .
وهو دفاع فيه معان سامية من معانى الأخلاق الفاضلة
المتأثرة بعقيدة الحساب بعد الموت . فى هذا الدفاع
يقول الميت كلمات تقديس يوجهها الى أوزيريس
والقضاة الذين معه (١) :

« لقد جئت إليك اجلب الحقيقة وأطرد
الخطيئة .

« إننى لم أقارف الشر ، ولم اعتد ، ولم
أسرق ، ولم أقتل غدرا ، ولم أمسس القرابين ،
ولم أكذب ، ولم أرسل دموع أحد ، ولم
أندنس ، ولم أذبح الحيوانات المقدسة ، ولم
أنلف أرضا مزروعة ، ولم أفدف ، ولم أترك
الغضب يخرجنى الى غير الحق ، ولم أزن ،
ولم أرفض أن أسمع كلمة العدل ، ولم أسوء
الظن بالملك ولا بأبى ، ولم ألوث الماء ، ولم أحمل
سيدا على أن يسوء الى عبده ، ولم أحلف
كاذبا ، ولم أغش فى الميزان ، ولم أمتع اللبن
عن أفواه الرضع ، ولم أصد طيور الآلهة ،
ولم ارد ماء حين الحاجة اليه ، ولم أسد قناة
رى على غيرى ، ولم أطفىء نارا يجب أن
تشغل ، ولم يخطر على بالى أن استخف
بالآلهة . إننى طاهر ، طاهر » (٢) .

(١) ترجمت هذا الدفاع عن كتاب :

(Le Nil et la Civilisation Eg.)

ص ٤٦٥ لمؤلفه مورى . وقد قال مورى أن هذا النص تليخيص
وليس ترجمة حرفية . ويوجد فى كتاب :

(La Religion des Egyptiens)

ص ٢٦٤ و ٢٦٥ لمؤلفه ارمان نص مماثل ولا يختلف عنه الا قليلا .
(٢) مما يستحق الملاحظة هنا أن هذه السيئات التى يشترط
منها الميت تنقسم الى انواع . فنوع منها خاص بالآلهة وهو
مس القرابين ، وذبح الحيوانات المقدسة ، وصيد طيور الآلهة ،
والاستخفاف بالآلهة . ونوع خاص بالملك وبالأب وهو سوء
الظن بهما . ونوع خاص بالسلوك مع الناس وهو مقارفة الشر ،
والاعتداء ، والسرقة ، والقتل غدرا ، وإسالة الدموع ، وإللاله
الأرض المزروعة ، والغدق ، والزنا ، والامتناع عن سماع كلمة
العدل ، وتلوين الماء ، وحمل السيد على أن يسوء الى عبده ،
والغش فى الميزان ، ومنع اللبن عن أنواء الرضع ، ورد الماء حين
الحاجة اليه ، وسد قناة الرى على الغير ، وإطفاء النار التى
يجب أن تشعل . وهناك نوع ثالث خاص بتهديب النفس قبل
أن يكون خاصا بالغير وهو الندنس ، وترك الغضب يخرج
الإنسان الى غير الحق ، والكذب ، والحلف كذبا . ويختص الميت
دفاعه بكلمة هى جماع الفضائل النفسية وهى قوله « أننى
طاهر ، طاهر » .

والولد ، وأعفيت الأهالي من جميع الضرائب المتأخرة عليهم والتي كان آبائى قد سجلوها في دفاترهم » (٣) .

وكتب حاكم لاقليم أدفو يسمى بيبى نيفرقصة حياته فذكر أن أباه أرسله الى بلاط الملك بيبى الأول ليتربى فيه مع أبناء حكام الاقاليم ثم عينه الملك مرنرع (هو احد ملوك الأسرة السادسة) أمينا لمحصلات الوجه القبلى ثم مديرا للمعابد في اقليم أدفو . وبعد ذلك أخذ بيبى نيفر يصف أعماله في مناصبه وسلوكه في حياته الشخصية فقال :

« من منتجات هذا الاقليم (إقليم أدفو) أطعمت الجائع ، وكسوت العارى ، ووزعت اقداح اللبن . ومن غلال الأوقاف الابدية (٤) . أعطيت الجائع وأصلحت شأن كل رجل وجدته عائشا من غلال غيره وجهزت للدفن كل ميت ليس له ولد .. وقد انقذت الفقير من يد الغنى وأصلحت بين الأخوة المتنازعين » (٥) . كل هذا في عهد الأسرتين الخامسة والسادسة . فنطوى الآن هذا العهد وننتقل الى عهد الأسرة الثانية عشرة (من سنة ٢٠٠٠ الى سنة ١٧٨٨ قبل الميلاد) . ففى عصر هذه الأسرة وفى عهد الملك امنمحت الأول كان حاكم الاقليم السادس عشر (حيث توجد الآن قبور بنى حسن فى مديرية المنيا) اميرا يسمى أمينى . وقد حدثنا هذا الحاكم فقال : إنه كان قائدا لجيش هذا الاقليم ، ثم قائدا لحملة حاربت فى النوبة ، ثم لما عاد عين حاكما للاقليم . وحينئذ أخذ يحدثنا بسيرته فى محكوميه فقال :

« بينما كان الاقليم كله فى حركة دائبة تدر الخير العميم ، وبينما كان زمام السلطة فى يدي ، لم اعتد على بنت من بنات الشعب ، ولم اضطهد أرملة ، ولم أرد زارعا ، ولم أحبس راعيا ، ولم يقع قط أن أجبرت عمالا على أن يتركوا عمل سيدهم ليعملوا عندي .

(٣) المصدر السابق ص ١٦٢ .

(٤) الأوقاف، الابدية هي الاملاك التى كانت محبوسة على المعابد والالهة وغير ذلك من الأغراض الدينية

(٥) كتاب (Le Nil et la Civilisation Egyptienne)

ص ٢٤٦ .

فذلك الدفاع الإنكارى الذى يدافع به الميت عن نفسه ، وهذا الخطاب الذى يوجهه الميت الى القضاة ، هما نتيجة مباشرة لعقيدة الحساب ، وفيهما الدليل القاطع على أن الميت يتقدم الى الحساب وهو ممتلىء خوفا من أن تكون أعماله فى الدنيا مؤدية به الى العقاب . ومن هذا الخوف تكون عقيدة الحساب أساس عمل الخير وتهذيب النفس والاسنقامة فى معاملة الغير .

ويحسن هنا أن نعرف كيف كان تأثير هذه العقيدة فى نفوس المصريين ، فلنستعرض شيئا مما كنبوه فى ذلك ، فى قبورهم ، تعريفا بأشخاصهم وبسلوكهم فى الحياة .

ففى عصر الأسرتين الخامسة والسادسة ، أى فى الوقت الذى كانت تنقش فيه نصوص الأهرام ، نقش احد الأعيان على لوحة حجرية نصبها لنفسه :

« لم أسئ الى أحد فى حياتى ، لأننى أريد أن تسير الأمور كلها سيرا حسنا حينما أكون امام الإله الكبير » (١) .

وظاهر من رغبته فى أن تسير الأمور كلها سيرا حسنا حينما يكون امام الإله الكبير ، أنه يريد أن تجد محكمة أوزيريس أنه لم يذنب فتجعل الثواب نصيبه .

وكتب حاكم إقليم من أقاليم الوجه القبلى يقول : « أطعمت الجائعين وكسوت العارين ، ولم أمس قط شيئا لغبرى بحيث لم يشكنى أحد قط الى اله مدينتى .. ولم يحدث فى عهدي أن شكا أحد الى الآلهة من اعتداء قوى عليه » (٢) .

وكتب حاكم لاقليم أسيوط يقول :

« كانت عندي غلال وافرة فلما حلت بالبلاد المجاعة ، وزعت منها على المدينة مكايل مكايل ، وسمحت لكل انسان بأن يأخذ غلالا من عندي وأعطيت الزوجة والأرملة

(١) ص ٦٨ من الترجمة الفرنسية لكتاب برستيد : (A History of Egypt.)

(٢) المصدر السابق جزء أول ص ٦٧ من الترجمة الفرنسية

كان البابليون والاسرائيليون (٢) في الوقت الذي اهتموا فيه المصريون الى هذه العقيدة ، ينزلون جميع الاموات في مكان مظلم لا تفريق فيه بين من احسنوا ومن اساءوا « (٢)

وننتقل بعد ذلك الى جانب آخر من جوانب هذا البحث ، وهو مصير الميت بعد مجازيته على اعماله في الدنيا .

لقد ظهر ان هذا المصير إما ان يكون الثواب أو العقاب . فعلى أية صورة من الصور كان المصريون يفهمون الثواب ، وعلى أية صورة أخرى كانوا يفهمون العقاب ؟

تقول نصوص الأهرام ان الثواب هو الصعود الى السماء بعد رحلة جمية المخاطر ، للاقامة فيها مع الآلهة ، أو للاقامة مع الاله رع في سيفينته . وهؤلاء الذين يثابون بالافامة في السماء يسمون « المجدين » أو « السعداء » . والمكان الذي يقيمون فيه من السماء هو جانبها الشرقي أو جانبها الشرقي البحري ، لأن المصريين كانوا قد لاحظوا في هذين الجانبين نجوما ثابتة ، فاطلقوا عليها اسم النجوم الخالدة ، وجعلوا عندها مكان النعيم الخالد للذين يصعدون الى السماء . ولم تكن نصوص الأهرام بهذا الإجمال في تصوير دار النعيم ، بل مضت الى التفصيل فذكرت أن المجدين يقيمون في جزر في السماء فيها حقل يسمى « حقل الطعام » . ومن هذا الحقل يتناول المجدون اطعمة شهية مختلفة تتجدد ولا تنفذ . وهناك حقل آخر يسمى « حقل يارو » (٤) ، وشجرة جميلة عالية تسمى « شجرة الحياة » يجلس اليها الآلهة ويأكلون منها ، هم والمجددون .

وليس هذا كله ما في النعيم السماوي ، بل فيه الى جانب ذلك أن السماء (نوت) والعجايب الذي يحمي الشمس يعطيان الصاعد الى السماء حين وصوله اليها ،

(٢) لعله يقصد اجداد الاسرائيليين .

(٣) المصدر السابق ص ١٧٦ .

(٤) يقول ادمان في ص ٢٥١ من كتابه :

(La Religion des Egyptiens)

ان كلمة « يارو » معناها في اللغة المصرية نبات الخيزران ، ويرى علماء آخرون ان هذا الحقل يسمى « حقل يالو » .

« لم يوجد في زمني بائس ولا جائع . وقد كنت في سنى الجذب أحرق جميع ارض الاقليم الى حدوده الجنوبية والشمالية وأحرص على أن أجعل اهله يعيشون ، وأسعى في إيجاد العيش لهم حتى لم يوجد جائع .

« وقد أعطيت الأرملة كما أعطيت المرأة المتزوجة . ولم احب كبيرا لأظلم صغيرا في كل ما أعطيته . وفي السنين التي كان النيل يأتي فيها كبيرا (أى عالى الفيضان) فيحمل للناس المحصولات والغنى ، لم أطالب بالتأخرات من الضرائب « (١)

وعند هذا الحد من نقل الشواهد نقف ، لأن ما نقلناه منها يكفي للفرض الذي نرمي اليه . وبحسبنا أن نقول ان هناك عشرات من أمثال ما نقلناه هنا يستطيع من يشاء أن يطلبها في مصادرها .

لم نقصد من هذه الشواهد أن نقول ان المجتمع المصري كان في العصور التي كتبت فيه مجتمع فضيلة كله ، بل لم نقصد أن هذه الشواهد نفسها خالية من الرغبة في الزهو والتمدد . لم نقصد هذا وليس يخطر في بالنا إلا أن المجتمع المصري كان كغيره من المجتمعات يعرف الفضيلة والرذيلة ، ويعرف العدل والظلم ، ويعرف البغى والتقوى . ولكن الذي نقصده ، والذي لم يبق فيه ريب بعد هذه الشواهد هو أن المجتمع المصري كان يدين بعقيدة الحساب بعد الموت ، ويدين بأن من وراء هذا الحساب ثوابا وعقابا . وكان يتأثر بهذه العقيدة الى حد بعيد ، وفي ذلك يقول برستيد :

« إن هذا الفهم لقواعد السلوك يبلغ من السمو حدا بعيدا ، وهو أول إبراز للفكرة القائلة بأن مصيرنا في الحياة الأخرى متوقف كله على اعمالنا في الحياة الدنيا . . . ومجموع هذا النظام القائم على الحساب بعد الموت يستحق أن ينوه به لأنه يسبق بألف سنة كل فكرة من هذا النوع عند أية أمة من الأمم الأخرى . فقد

(١) المصدر السابق ص ٢٧٨ . وكتاب :

(A. History of Egypt.)

لبرستيد ص ١٦٣ من الترجمة الفرنسية مع اختلاف في كلمات قليلة .

أو قطاة أو باشق أو مالك الحزين . . . وأن
يتكلم فمه ، وتمشي قدماه ، وتتحرك بداه ،
. . . وأن يكون قلبه قريبا منه ، وأن يصعد
الى السماء » .

وفي تمنيات أخرى يتمنى الميت أن تكون له حقول
وقطعان وعبيد من الرجال والنساء ، وأن يبعث في
الحياة الأخرى شابا موفور القوة والصحة .

هذه بالأجمال هي الصورة ، أو الصور ، التي كان
المصريون يتصورون بها دار الثواب ، أي الجنة .

ويلاحظ أنها تميل في كثير من جوانبها إلى جعل
الجنة على مثال السعادة التي يتمناها المصري لنفسه
في الدنيا . فحقول الطعام ذو الأطعمة الشهية التي
تتجدد ولا تنفذ ، وشجرة الجميز التي تسمى
شجرة الحياة ، والخبز ، والفطائر ، وحقول القمح
والشعير الذي يبلغ علو النبات فيه سبعة أذرع ،
هذه كلها صور متفرعة من الحياة المصرية . ولم
يكتف « ناخث - مين » بهذا ، فجعل يتمنى أن يجد
في الآخرة كل ما كان له في الدنيا من شجر وثمر
وبحيرة وحقول وخبز وشراب . يضاف إلى هذا كله
أن تكون للميت نساء يتمتع بهن وأن يبعث شابا وأن
يكون دائما في صحة جيدة . ولا نحتاج أن نقول إن
كثيرا من هذه الصور لا يزال باقيا إلى اليوم .

أما العقاب فقد تقدم أن من صورته وحشا له
راس تمساح وجسم أسد يلتهم المذنب ، ونارا
يلقى المذنب فيها . وهناك صورة أخرى هي أن
يبقى المذنب في قبره فريسة للجوع والعطش ،
محروما من رؤية الشمس . وفي بعض الأحيان يكون
مع القضاة الاثني والأربعين الذين يجلسون مع
أوزيريس في محكمته سيوف يضربون بها المذنبين (٢) .

وتدل قصة ساتني وولده التي أشرنا إليها من
قبل على أنه كانت توجد صور غير هذه أيضا
للعذاب ، منها تعذيب الميت تعديبا دائما بتركيز محور
باب على عينه ، وهذا الباب يفتح ويقفل ، والميت
يصيح من الألم كلما فتح أو أقفل . ومنها تعليق

(٢) سبقت الإشارة إلى هذه السيوف في خطاب الميت للنفاة
في هذا الكتاب .

تديهما ليرضع منهما ، فمتى رضع عاد صبيا .
وهو يأكل الخبز مع الآلهة ويشرب الخمر .
وصحته تزداد تحسنا على مر الأيام ، فهي اليوم
أحسن منها أمس ، وتكون غدا أحسن منها اليوم .

هذا موجز ما ذكرته نصوص الأهرام عن النعيم
الذي يثاب به المحسنون في الدنيا . أما كتاب الموتى
فيذكر من مظاهر الثواب أن الميت يجلس في قاعة
أمام أوزيريس ، ويخرج إلى حقل يارو ، ويأكل خبزا
وفطائر ، ويكون له حقل من القمح والشعير يبلغ علو
النبات فيه سبعة أذرع ، وخدام حوريس يحصدون
له هذا الزرع ليأكل منه . وله أن يدخل العالم
السفلى ويخرج منه . وله أن يقيم في حقل
يارو أو في حقل الطعام ، وفيهما يكون ممجدا يزرع
ويحصد ، وتكون له نساء يتمتع بهن ، ويعمل كل
ما كان يعمل على الأرض .

وقد ترك بعض المصريين كتابات عبروا فيها عما
يتمنونه من أنواع السعادة في الحياة الأخرى فقال
أحدهم ، ويسمى « ناخث - مين » في لوحة
محفوظة في متحف اللوفر ، إنه يتمنى أن يدخل قبره
ويخرج منه ، وأن يشرب كل يوم من ماء بحيرة كانت
له ، وأن يطير روحه فوق الأشجار التي زرعتها ، وأن
يستنشق النسيم الليل تحت شجر الجميز الذي
زرعه ، وأن يأكل من ثمر هذا الشجر ، وأن يكون له
فم يتكلم ، وأن يصعد إلى السماء وينزل إلى الأرض
من غير أن يقف في سبيله عائق ، ألا تسجن روحه ،
وأن يكون من المكرمين المدوحين ، وأن يحرق أرضه
في حقل يارو ، وأن يصل إلى حقل الطعام ، وأن يأتيه
الخدم بأنواع الخبز والشراب وجميع المأكولات التي
يأكل منها رب الأبدية ، وأن يأكل من اللحم الذي على
مائدة الإله العظيم .

وكتب أقارب رجل يسمى « با - هيري » كان
أميرا لمدينة الكاب يتمنون له في الحياة الأخرى :
« أن تكون له يد طويلة على الخبز والماء
والهواء ، وأن يتحول كما يريد إلى عنقاء (١)

(١) المراد بالعنقاء طير خرافي كانت الأساطير تزعم أنه يعيش
مئات من السنين .

للإنسان من غير أن يتعثر في سبيل البحث عنها ، بل التعثر هو السنة الطبيعية ، وقد جرت هذه السنة على المصريين ، فقام فيهم قوم يقولون إن الصيغ السحرية تستطيع أن تجنب الميت جميع المخاوف التي يستهدف لها بعد مماته ، وتستطيع أن تؤتيه الحكم بالبراءة من محكمة أوزيريس مهما تكن ذنوبه ، وتستطيع أخيرا أن تعطيه النعيم الخالد ولو كان لا يستحقه . وكانت الأمم كلها في ذلك الوقت تؤمن بالسحر وتكاد تراه في كل شيء . وكانت تجعل الساحر قدرة على تسخير الآلهة لارادته .

وكانت الصيغ السحرية التي من هذا النوع قليلة في نصوص الأهرام ، فصارت كثيرة في كتاب الموتى ، وصارت النسخ التي توضع مع الأموات في هذا الكتاب كثيرة أيضا ، فدل ذلك على أن تجارة هذا النوع من السحر راجت .

ولا نزاع في أن هذا السحر الذي يسحر الآلهة ، ويعطي الميت حكما بالبراءة لا يستحقه ، ونعيما خالدا لا يستحقه ، معطل للقوة التهذيبية التي لعقيدة الحساب بعد الموت . ولكن هل عطلها في الواقع ، فأفسد الإيمان الديني ، وأتلف الأخلاق ، وأباح لكل أحد أن يرتكب ما استطاع من المعاصي والآثام ؟ علينا أن نسمع في ذلك ما يقوله المصريون أنفسهم ، فقولهم هو الجواب الفصل .

كان من ملوك الأسرة التاسعة ملك عاقل حكيم ، أراد أن يترك لابنه الملك « مري - كا - رع » وصية ، فكتب فيها يقول :

« ليس لأحد على الأرض أن يقتل ، ولا أن يعمل بما يخالف العدل ، لأنه سيؤدي حسابا من أعماله » .
ثم استمر فقال :

« إن القضاة المقدسين الذين يحاكمون الميت لا يتسامحون في تطبيق الشريعة ، فويل حينئذ للميت من متهميه » .

والقضاة المقدسون هنا ، هم قضاة محكمة أوزيريس . والملك يقول إنهم لا يتسامحون ، ثم يقول فويل حينئذ للميت من متهميه . فهذا صريح في أن

طعام فوق رموس المدببن ، وهؤلاء المدبون يقفزون ليحاولوا الوصول إليه ، فكلما قفروا بعد الطعام عنهم .

ونصوص الأهرام ونصوص كتاب الموتى صريحة في أن النعيم الذي ينعم به المستحقون للثواب في الجنة هو نعيم خالد . فلسائل أن يسأل : وهل العذاب الذي يعذب به المدببون خالد أيضا ؟

والجواب على هذا أن قصة ساتنى وولده تقول إن الميت يصيح من الألم كلما أقفل الباب أو فتح على عينه . فمن البديهي أن استمرار الميت على الشعور بالألم يجب أن يفرض معه أن عينه تتجدد بعد كل دورة للباب أو دورات .

واستمرار العذاب مفهوم بسهولة في حالة الميت الذي يترك فريسة للجوع والعطش محروما من رؤية الشمس ، ومفهوم في حالة الميت الذي يعلق الطعام فوق رأسه فكلما قفز ليتناوله بعد عنه . أما الحالات التي تحتاج إلى شيء من التوضيح من هذه الناحية فهي حالة الميت الذي يلتهمه الوحش ، والميت الذي يلقي في النار ، والميت الذي يضربه القضاة بالسيوف . وعندى أن العذاب في هذه الحالات يجب أن يكون متجددا بعد الذي رأيناه في النص على خلود النعيم في الجنة ثم النص على تجديد العذاب في كثير من الحالات .

وهنا نقف لحظة لنشرف على هذا المجهود الجبار الذي بذله المصريون في القول بخلود الروح ، وبالثواب والعقاب بعد الموت ، فلا يسعنا إلا أن نعترف بأنه مجهود جبار خطأ بالإنسان خطوة واسعة في سبيل تهذيب النفس ، ووضع المعاملات والأخلاق على أساس من التقوى والخوف من الله ، في وقت كان للإنسان فيه لا يزال قريبا من الحياة الوحشية .

نعم هو مجهود جبار ، والعلماء الأجانب كلهم يعترفون به ، ويقدرّون فضل مصر فيه . ولكن هل كان ممكنا أن يسلم هذا المجهود من نقص يعلق به إلى أن يحصه الزمن فيسقط ويبقى الجوهر سليما ؟ ليس من سنن الأشياء أن تخلص الحقائق الكبيرة

الميت ، والشر والفساد يهلكانه ، وآلهة الحساب لايتخدعون ولا يظلمون .

وكتب « با - هيرى » أمير مدينة الكاب الذى من ذكره ، فرجا أن يصل إلى النعيم الخالد فى الحياة الأخرى ، ولكنه لم يبين رجاءه هذا على الصيغ السحرية ، بل على أعماله الطيبة وحدها ، ثم قال : « متى وضعت فى الميزان فسأخرج منه كاملا بغير نقص . . إننى لم أكذب قط على أحد . وقد عرفت الله الذى هو فى قلوب الناس (٤) . نعم عرفتته وخشيته ومزت الخير من الشر » . وفى عهد الأسرة الثامنة عشرة كتب حكيم يسمى « بيكى » يعظ الناس فقال :

« اجعلوا مسرتكم فى خدمة معات (إلهة الحق والعدل) كل يوم . إن معات لايصنع منها طعام ، ولكن الاله سيد أبيدوس (يريد أوزيريس) يتغذى بها كل يوم . فان أنتم فعلتم هذا فكنتم دائما فى أعمالكم على حق وعدل فسيعود عليكم ذلك بالنفع ، فتجتازون الحياة الدنيا بقلوب راضية مفتبطة وتذهبون الى الغرب الجميل (٥) ، حيث تكون لأرواحكم الحرية فى أن تدخل أو تخرج أو تتريض مع الالهة الخالدة » .

فهذا الحكيم لم يقل اعتمدوا على الصيغ السحرية تناولوا النعيم فى الحياة الأخرى ، بل قال اعتمدوا على أن تكون أعمالكم مطابقة للحق والعدل فى كل يوم . وظاهر أن قوله . « اجعلوا مسرتكم فى خدمة معات » تعبير مجازى معناه اجعلوا مسرتكم فى أن تكون أعمالكم مطابقة للحق والعدل . وقوله إن سسيد أبيدوس يتغذى بالالهة معات هو أيضا تعبير مجازى

(٤) قوله « عرفت الله الذى هو فى قلوب الناس » يلفت النظر ، لان معناه أن الله ليس المصنم الذى يعبد فى المعابد ، وإنما هو روح شائع فى قلوب الناس كما هو شائع فى كل شيء . وبرى بعض العلماء أن با - هيرى يريد بذلك الضمير الانسانى ، ويقولون ان هذا أول تعبير من هذا النوع . وقد يكون قولهم هذا صحيحا ، ولكن قد يكون صحيحا أيضا أن با - هيرى يريد ما يحسه الرجل الصالح فى قلبه من حب الله وتقواه والخوف من غضبه . (٥) تقدم أن المراد بالغرب الحياة الأخرى . أما المراد بالغرب الجميل فهو نعيم الجنة .

القضاة المقدسين لايتأثرون بالسحر ، ولا يعرفون غير الحق والعدل يقيمون عليهما الحساب . ثم استمر الملك فقال :

« لاأفتر بامتداد السنين ، فان حياة الانسان على الأرض ليست فى نظر القضاة المقدسين سوى لحظة قصيرة . سينشر الانسان حين وصوله الى الشاطئ الثانى (١) ، وستكون أعماله مجتمعة بجانبه . إنها الأبدية هناك لاشك فيها . فمجنون من يحتقرها . أما الذى يأتى بغير ذنوب فسيحيا فيها كما يحيا الآلهة » .

وهذا قوى الدلالة فى المعنى الذى نريده . واستمر الملك أيضا فقال :

« إن الحياة على الأرض تمضى على عجل . . . وامتلاك الألوف من الرجال لا يميز مالكم . فمن أتقى وعاش عيشة الفضيلة كان نصيبه الخلود فى الحياة الأخرى . من جاز الحساب امام أوزيريس مضى إلى الحياة الأخرى ، أما من تساهل مع نفسه فى الحياة الدنيا فلا مفر له من التدمير » (٢) .

ثم انظر ماذا قال أيضا . قال :

« إن الفضيلة التى يتحلى بها الرجل العادل أفضل فى عين الله من الثور الذى يدبجه الرجل الشرير قربانا له . على أنه ينبغى مع ذلك للرجل أن يفعل ماينفع روحه فى الحياة الأخرى ، فيقدم القرابين لله . فان الله يعرف من يفعل له شيئا » (٣) .

وفى هذا كله لا يظهر أثر للسحر يمكن التعويل عليه وقت الحساب . وإنما المعول عليه هو عمل الانسان على الأرض . فالتقوى والفضيلة ينجيان

(١) الشاطئ الثانى هو تعبير كان المصريون يريدون منه الحياة الأخرى .

(٢) هذا النص ، الى هنا ، مترجم من ص ٢٩٧ من كتاب موى (Le Nil et la Civilisation Egyptienne)

(٣) هذا النص مترجم من ص ١٩٢ من كتاب ارمان (La Religion des Egyptiens.)

ونبدأ بالمدينة الكلدانية ثم نشئ بالمدينة اليونانية .
فأما المدينة الكلدانية فقد نقدم أن برستيد عرض
لمركزها ومركز مصر من عقيدة الحساب فقال :

« إن هذا الفهم (أى فهم مصر) لقواعد
الساوك يبلغ من السمو حدا بعيدا . وهو
أول إبراز للفكرة القائلة بأن مصرنا في الحياة
الأخرى متوقف كله على أعمالنا في الحياة
الدنيا ومجموع هذا النظام القائم على
الحساب بعد الموت يستحق أن ينوه به ، لأنه
يسبق بألف سنة كل فكرة من هذا النوع
عند أمة من الأمم الأخرى . فقد كان
البابليون (أى الكلدانيون) والاسرائيليون ، في
الوقت الذى اهتدى فيه المصريون الى هذه
العقيدة ، ينزلون جميع الأموات في مكان مظلم
لا تفريق فيه بين من أحسنوا ومن أساءوا » .

وهذا صحيح فان الروح عند الكلدانيين كان
ينتقل الى مكان مظلم يسمى « أراو » موجود تحت
الأرض في رأى البعض منهم ، وموجود في الجانب
الشرقى من السكون في رأى البعض الآخر (٢) . وفى
هذا المكان تتولى الالهة « آلات » محاكمة الأموات .
وفى ذلك يقول ماسبيرو :

« لم يكن للخير أو الشر الذى فعله الميت
في حياته قيمة كبيرة في تقدير أعماله . وإنما
كان التقدير كله لما أظهره الانسان على
الأرض من التعلق بالآلهة عامة ، وبالآلهة
« آلات » خاصة ، بتقديم قرابين الدبايح
والهدايا وتقديم أسباب الفنى للمعابد » .

وبذلك لا يكون هذا الحساب حسابا على أعمال
الانسان في الدنيا ، بل على تقديم الهدايا للمعبودات
والمعابد ، أى للكهنة الذين لابد أن يكونوا هم الذين
وضعوا هذه العقيدة لمنفعتهم .

وأما المدينة اليونانية فيحسن قبل الخوض في
موقفها من عقيدة الحساب ألا ننسى أن بين شئ

(٢) ص ٦٣٠ كتاب ماسبيرو :

Histoire Ancienne des Peuples de l'Orient Classique

معناه أن الحق والعدل عنصران من عناصر أوزيريس
وان أوزيريس بطالب الناس بأن يكون هذان العنصران
أساس سلوكهما في الحياة .

وفى العصور الأخيرة للمدينة المصرية كتب واحد
من الأعيان على قبره يقول :

« قلب الانسان هو إلهه . وقلبي راض
عما فعلته حينما كان في جسمى . فلاكن مثل
الاله » (١) .

وقصة ساتنى وولده ليس فيها أن أحدا من
الأموات حصل على الثواب بقوة الصيغ السحرية ،
وإنما فيها أن كل ميت أثيب أو عوقب على حسب
أعماله في الأرض .

والكتابات التى ذكرناها فى الصفحتين ١٠٥ و ١٠٦ ،
وهى كتابات موزعة بين عصور الدولة القديمة
والدولة الوسطى والدولة الحديثة ، تضاف الى
الكتابات المماثلة لها هنا فنؤدى كلها معنى واحدا هو
أنه يكون من المجازفة أن يقال إن الصيغ السحرية
عطلت القوة النهديية التى اعقيدة الحساب ، وربما
كان الأصح أن يقال إن هذه الصيغ لم تؤثر الا فى
النفوس التى يجعلها ميلها الى الشر مستعدة لهذا
التأثير . وهذه النفوس موجودة فى كل زمان ومكان .
وتصديق السحر موجود فى زماننا هذا .

والآن نسأل ماذا عرفت المدينيات القديمة ، فى غير
مصر ، من عقيدة خلود الروح والحساب بعد الموت ؟

(١) ص ٧٦ من كتاب (Le Nil et la Civ. Eg.) لورى .

وظاهر أن المراد بقوله « قلب الانسان هو إلهه . وقلبي راض
عما فعلته حينما كان فى جسمى » أن قلب الانسان هو قاضيه
المقدس الذى يحاكمه فى الحياة الأخرى . لأنه متى كان القلب محل
الرضا وعدم الرضا عن الأعمال فى الحياة الدنيا ، فقوله أن هذا
القلب هو إله الانسان ينصرف الى أن القلب هو القاضى الذى
يتولى المحاكمة فى الآخرة .

أما قوله « فلاكن مثل الاله » فقد يكون المراد به أن أعماله
الصالحة فى الحياة الدنيا تجعله يطمع فى أن يكون مثل الاله فى
الحياة الأخرى مملا بالعقيدة التى كانت تقول أن الرجل الصالح
الذى يصدر الحكم بإمراده أمام محكمة الحساب يصير مثل الاله
أوزيريس . أو قد يكون المراد أن اتصاله بالاله اتصالا صوفيا يجعله
مثله . وهذا المعنى هو الذى عبر عنه العلاج فى قوله « أنا الله »
يريد أنه امتزج بالاله فصار منه (٢)

وهنا ملاحظات :

أولها : أن عوليس ينزل الى الجحيم في قصة هومير ،
وساتنى وولده ينزلان الى الجحيم في القصة المصرية .

وثانيها : أن مينوس يقبض بيده على صولجان من
الذهب في جحيم هومير . وأوزيريس يقبض بيده على
صولجان في العقيدة المصرية .

وثالثها : أن الأموات يعرضون قضاياهم على مينوس
في جحيم هومير . والأموات يناديهم المنادون لعرض
قضاياهم على أوزيريس في القصة المصرية .

ورابعها : أن الأموات واقفون أو جالسون في دور
الهاديس ذات الأبواب الواسعة . والأموات واقفون
أو جالسون في سبع قاعات في القصة المصرية .

فجحيم هومير هذه هي بعينها الجحيم المصرية ؟
ولكن مع فارقين أحدهما في الشكل والثاني في الجوهر .
فأما في الشكل فالأموات في جحيم هومير يعرضون
قضاياهم على مينوس بأنفسهم وبغير أن يكون لهذا
العرض نظام . بينما الجحيم المصرية فيها منادون
ينادون القضايا واحدة بعد أخرى . فالأمر في الأولى
فوضى وفي الثانية منظم . وفارق آخر في الشكل هو
أن في الجحيم المصرية ميزانا يصدر الحكم تبعاً لنتيجته ،
وليس في جحيم هومير سوى مينوس يقضى بأرادته .

وأما الفارق في الجوهر فهو أن هومير يقول : إن
مينوس « يقضى بين الأموات » وإن هؤلاء الأموات
« يعرضون عليه قضاياهم » . وهذا معناه في رأي
مورى (٤) - وهو مصيب فيه - أن القضايا منازعات
بين الأموات بعد الموت كالمنازعات التي تكون بين الأحياء ،
وليس حساباً يؤديه الأموات عن أعمالهم في الحياة .

إذن ليست جحيم هومير دار حساب عن أعمال
الناس في الحياة ، بل هي دار حساب عن مشاجرات
ومنازعات بعد الموت . وإذن تفقد جحيم هومير كل
القيمة التهذيبية التي للجحيم المصرية . وأذن يحق
لنا أن نقرر هنا أن هومير أراد أن يقتبس قصة
ساتنى وولده المصرية ومحكمة أوزيريس المصرية ،
فقصر لأنه اقتبس بعض الشكل وفاته كل الجوهر .

(٤) كتاب (Rois et Dieux d'Egypte) ص ٢٥

هذه العقيدة في مصر وبين نصوص المدينة اليونانية
أكثر من ألف سنة على أساس التاريخ القصير . أما
ألف السنة التي قال برستيد إن العقيدة وجدت
بعدها في بلاد غير مصر فليس المراد بها اليونان وإنما
المراد بها بلاد شرقية أخرى .

وأول مظهر من مظاهر المدينة اليونانية نلمح فيه
أثر العقيدة هو أوديسة هومير (١) ، وذلك أن عوليس
ينزل الى الجحيم وحينئذ يقص فيقول :

« رأيت مينوس جالسا والصولجان الذهب
في يده ، وهو يقضى بين الأموات ، وهؤلاء
مجتمعون حوله يعرضون قضاياهم عليه
جالسين أو واقفين في دور « الهاديس » (٢)
ذات الأبواب الواسعة » (٣) .

ومينوس الذي يذكره هنا هومير على لسان عوليس
كان ملكاً قديماً من ملوك جزيرة كريت ، وكان اليونانيون
يزعمون في ذلك الوقت أنه يجلس على عرش الحكم
في الجحيم ومعه أخواه أيبالك وردامانت .

(١) هومير من أقدم وأكبر الشعراء اليونانيين . وقد عاش في
القرن التاسع قبل الميلاد . وتعزى إليه قصتان شعريتان أحدهما
تسمى الأوديسة والثانية تسمى الإلياذة . وتعزى إليه أيضاً
قصائد أخرى منها واحدة عنوانها « طيبة » ولكنها ضاعت .
وفي وجود هومر خلاف بين الباحثين في تاريخه لأن كثيراً منهم
يتوالمون أنه لم يوجد وأن القصائد التي عزيت إليه هي أغان جمعت
ونسبت إليه .

ويتأخص موضوع الأوديسة في أن عوليس ملك مقاطعة في اليونان
التدريسة كانت تسمى إيتاك اشترك في حرب طروادة ، ثم لما انتهت
هذه الحرب لم يعد الى مملكته بل نزل في جزيرة كاليسو وأحب
المعبودة التي كانت فيها . غير أنه كان يستأق الى مملكته ففر من
الجزيرة لكي يعود إليها فالفته عاصفة على سواحل جزيرة أخرى .
وبعد بشع سنين وحوادث كثيرة استطاع أن يعود الى بلده في ذي
متسول .

وفي خلال ذلك كانت امرأة عوليس ، واسمها بنيلوب ، قد انتظرت
مودة زوجها فلما طالبت فيبته تقدم لها أربعة يطلبون يدها ويلحون
عليها في أن تخار واحدًا منهم . وكان تليماك بن عوليس قد خرج
يبحث عن أبيه فطاف في جزر كثيرة ثم عاد الى إيتاك وقابل أباه
وهو في ذي متسول فعرّفه وانفق الاثنان على أن ييفيا متتكرين
ليلةً على حقيقة ما فعلته بنيلوب في غيابهما . وأخيراً انتقم عوليس
من الأربعة الذين كانوا يطلبون الزواج من بنيلوب بأن قتلهم ثم
أظهر نفسه هو وتليماك فعرّفتها بنيلوب .

(٢) الهاديس هي دار الأموات أو دار الجحيم في الأساطير
اليونانية . وبعضهم يطلق هذا الاسم على ملك دار الأموات .

(٣) الجزء الحادي عشر من الأوديسة ، الأبيات ٥٦٧ و ٥٦٨ و ٥٦٩ و ٥٧٠

اليوناني ، بل نحن بالعكس نرد الحق إلى صاحبه
فنتقول : إن أول من لاحظها هو العالم دى ويت
(De Witte) (٤) فى سنة ١٨٤٥ ، ثم أيدته فيها
بعد ذلك مورى فى سنة ١٩٢٥ . وهذا نص ماقاله
دى ويت :

« ليس فى إلياذة هومير شىء يدل على أن
الغرض من الميزان يتعلق بالحياة الأخرى ، أى
بالعقاب والنواب للذين ينتظرون الإنسان فيها
... وإنما الغرض الوحيد من الميزان هو القضاء
فى النهاية التى تنتهى بها معركة ... فوزن
الحظوظ والأرواح لايراد منه على هذا سوى
خلاف مادى ... والكفة الراجحة هى التى تعين
صاحب الحظ الفائز » .

وهذا كله صحيح ، وهو يدل كما قلنا على أن
هومير لما أراد أن يقتبس الميزان المصرى بعد الفى
سنة أخذ الشكل وفاته الجواهر .

وتمضى بعد هومير عدة أجيال حتى نصل إلى
الشاعر اليونانى بندار (Pindare) فى أوائل القرن
الخامس قبل الميلاد - وهومن شعراء الطبقة الأولى -
فنسمعه يقول فى قصيدته الأولمبية الثانية :

« سيجد العظماء فى الأرض قاضيا فى
الجحيم ، فالذين ارتكبوا منهم أعمالا محرمة
تحاكمهم الالهة أناكى » .

فهنا ظهرت لأول مرة فى الآداب اليونانية فكرة
محاسبة الأموات على أعمالهم فى الحياة ، ولكنها تظهر
مبهمة كما يلاحظ العالم الالماني روهل (Ruhl)
لأن الشاعر بندار لا يقول لنا كيف تجرى المحاسبة ولا
على أية قاعدة تجرى .

وكان من الضرورى للمدينة اليونانية ، وقد خطت
هذه الخطوة فى اقتباس الفكرة المصرية ، أن تخطو

(٤) هو عالم بلجيكي اشتهر بميله الى دراسة الآثار القديمة
والآثار المصرية خاصة وله فيها رسائل ومؤلفات وقد توفى سنة
١٨٨٩ .

ولكن هل وقف هومير عند هذا الحد ؟
كلا ، لانه ضمن إلياذته (١) : شيئا من الفكرة
المصرية ، غير انه قصر فى هذه المرة أيضا ، فأخذ بعض
الشكل وفاته كل الجواهر .

وذلك انه يحدثنا فى إلياذته بأن الاله ذفس (وهو
كبير الآلهة عند اليونانيين) يريد أن يقضى فى مصر
إحدى المعارك بين اليونانيين وأهل طروادة فيضع
حظ الأولين فى كفة ميزان وحظ الآخرين فى الكفة
الأخرى ، ثم يأخذ الميزان من منتصفه ويرفعه فتبهط
كفة اليونانيين الى الأرض وتعلو كفة الطرواديين الى
السماء (٢) ، فيكون هذا قضاء للأولين بالنصر وعلى
الآخرين بالهزيمة .

ثم يحدثنا هومير أيضا بأن ذفس يقضى مثل هذا
القضاء نفسه وبهذه الطريقة نفسها فى معركة حاسمة
بين آشيل وهكتور (٣) فتعلو كفة آشيل فينتصر على
هكتور ويقتله .

فالاله اليونانى ذفس ينصب هنا ميزانا للقضاء
كالميزان الذى ينصبه الاله المصرى أوزيريس . ولكن
هذا الشبه قائم فى الشكل فقط ، أما فى الجوهر فان
أوزيريس ينصب ميزانه ليزن به حسنات الميت
وسيئاته فى الحياة ثم ليثيبه أو يعذبه تبعا لنتيجة
الميزان ، بينما ذفس يزن بميزانه حظوظ المتعاركين فى
المعركة . فالميزان المصرى له كل معناه التهذيبى ، أما
الميزان اليونانى فليس فيه هذا المعنى .

وما نحب هنا أن نتحل شيئا ليس لنا فندعى
أنا أصحاب هذه المفاضلة بين الميزان المصرى والميزان

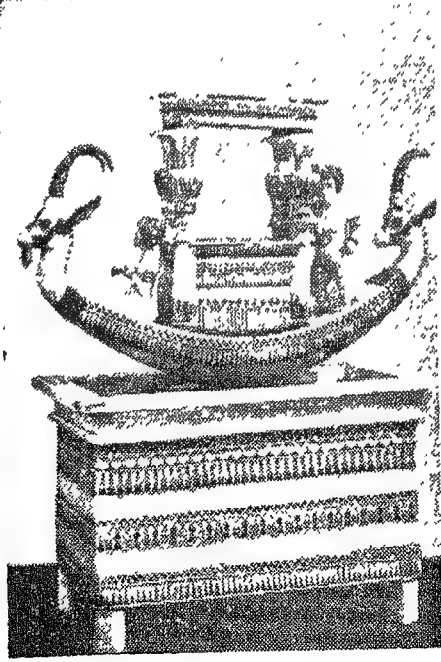
(١) إلياذة هى قصة شعرية قص فيها هومير ما وقع من
المحادث فى حرب شنّها اليونانيون على مدينة طروادة . وهى
مدينة قديمة كانت على سواحل آسيا الصغرى .

(٢) إلياذة - الجزء التاسع منها - الأبيات من ٦٩ الى ٧٤ .

(٣) آشيل هو قائد يونانى يعتبر أعظم أبطال إلياذة . وتروى
هذه إلياذة انه نازل هكتور أعظم قائد طروادى فى أثناء حصار
طروادة فقتله ولكن قائدا طرواديا آخر اسمه بارى رماه بسهم
مسموم فأصابه فى عقب قدمه .

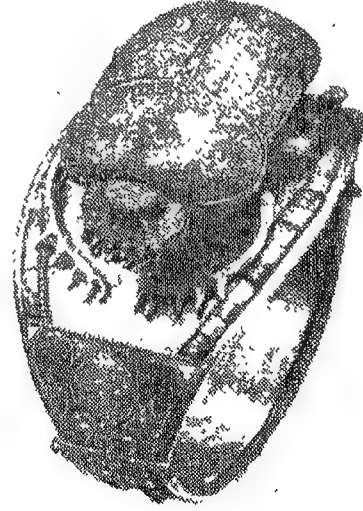
وهذا القضاء بين آشيل وهكتور بواسطة الميزان المذكور فى
الجزء العاشر من إلياذة فى الأبيات من ٢٠٩ الى ٢١٢ .

من آيات الصانع المصري



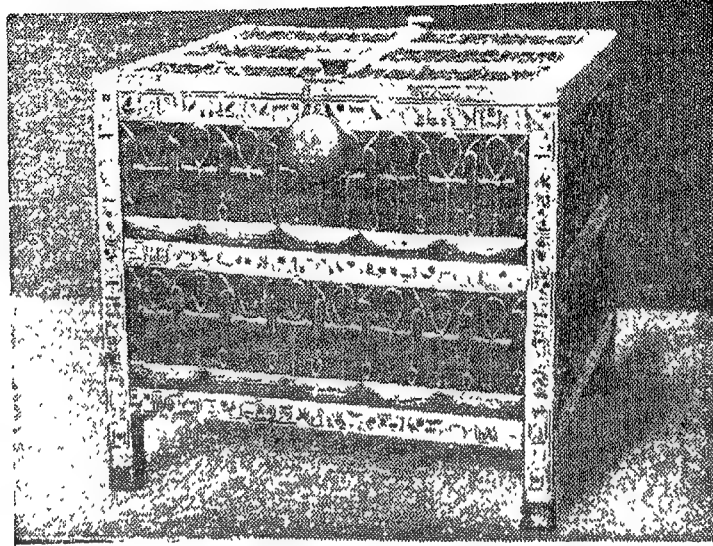
مثال مصغر لسفينة

وقد صنع - هو وقاعدته - من الجص . أما قرون الوعل
فهي قرون طبيعية . وبحرس الخزانة التي تحملها السفينة قرم
يزين رأسه شعر مستعار .



سوار من الذهب

وقد رصع بجمران من حجر اللازورد (Lapis - Lazuli)



صندوق للمجوهرات

مصنوع من الخشب ومزين بالماج . وقد قسم داخله تسعة أقسام .

التي تقع اليوم في الأحكام هو أن محاكمتهم تتم وهم غير مجردين من ملابسهم (المراد بالملابس هنا ما يلبسه الروح وفي مقدمته الجسم) لأنهم يحاكمون وهم أحياء فينشأ من ذلك أن يكون كثيرون ممن فُسدت أرواحهم لابسين أجساما جميلة من النبل والغنى ... ثم يتقدم جمهور من الشهود يشهد لهم فينخدع القضاة . ثم إن هؤلاء القضاة أنفسهم يحكمون وهم غير مجردين من ملابسهم ، وبينما كل كتلة أجسامهم قائمة أمام أرواحهم ... فمنذ اليوم أريد أن تكون محاكمة الناس وهم عرايا مجردون من كل ما يحيط بهم ، ولهذا أريد أن تكون بعد موتهم . ويجب أيضا أن يكون القاضي قد ترك كل هذه العدة في الأرض كي يكون حكمه عادلا .

« لقد جاءني خبر هذا الظلم فأمرت ثلاثة من ابنائي بأن يتولوا القضاء : اثنين منهم لآسيا وهما مينوس وردامانت ، والثالث لأوربا وهو إيباك . فمتى ماتوا فسيصدرون أحكامهم في المرج في المكان الذي تنتهي إليه ثلاثة طرق : أحدها يؤدي إلى الجزائر السعيدة ، والثاني إلى قاع الجحيم وسيتولى ردامانت محاكمة أهل آسيا . وسيتولى إيباك محاكمة أهل أوربا . وسأجعل مينوس سلطة الفصل نهائيا في الحالات التي يرتبك فيها واحد منهما » .

ثم يقول أفلاطون :

« فإذا جاء الأموات أمام قاضيهم دعاهم ردامانت إلى القرب منه ، ثم فحص روح كل واحد منهم من غير أن يعرف لمن هي ... فإذا وجدها مملوءة فسادا وخبثا وكانت قد عاشت بعيدا عن الحقيقة ، بعث بها إلى السجن لتتلقى فيه العقاب الذي تستحقه ... » .

ثم يقول أفلاطون :

« إن الذين تكون ذنوبهم مما يمكن التكفير عنه ، يكفرون عن ذنوبهم بالآلام . أما الذين ارتكبوا أعظم الجرائم فلا تطهير لهم . وحينئذ يكون عقابهم الذي لا فائدة لهم منه عبرة لغيرهم .

الخطوة المكملة لها ، وهذا ما فعله بعد ذلك الفيلسوف أفلاطون (١) .

كتب أفلاطون كتابه الذي جعل عنوانه « مدح سقراط » فذكر فيه أن في الجحيم قضاة يحكمون بالعدل هم « مينوس وردامانت وإيباك وتريبوليتيم وجميع أنصاف الآلهة الذين كانوا في حياتهم عادلين » ، ثم عاد إلى هذه الجحيم وقضاتها في كتابه « جورجياس » (٢) ففصلها تفصيلا نقله هنا عن موري (٣) .

قال أفلاطون :

« حينما كان الحكم لساتورن (أى زحل) ، وفي السنين الأولى من حكم جوبتير (أى المشتري) كانت محاكمة الناس تجري وهم أحياء ، وعلى يد قضاة أحياء ، فكان هؤلاء القضاة يقضون في مصائر الناس في اليوم الذي يموتون فيه . وكان في هذه الأحكام كثير من الخطأ فذهب بلوتون (هو ابن ساتورن وملك الجحيم) وحكام الجزائر السعيدة (هى الجنة عند اليونانيين) إلى جوبتير وقالوا إن القضاة يبعثون إليهم برجال لا يستحقون الثواب الذي يكتب لهم ولا العقاب الذي ينزل بهم » .

أفقال جوبتير :

« سامع هذا الظلم . إن السبب في الأخطاء

(١) من المحقق أن أفلاطون زار مصر وأقام فيها زمنا غير قصير كان يتردد فيه على مدارسها وكنبستها . وقد روى أن هؤلاء الكهنة قالوا عن اليونانيين في ذلك الوقت : « أيها الناس . انكم لستم سوى أطفال ، وليس بينكم شيوخ » . والتعبير هنا مجازي يعنى انكم أطفال في المعرفة وليس بينكم شيوخ فيها .

راجع في ذلك ص ٤٩ من مقدمة الجزء الأول من كتاب (Histoire de la Nation Eg.) بقلم هانوتو أحد أعضاء الأكاديمية الفرنسية . وهذا الجزء من الكتاب مطبوع في سنة ١٩٢١ م .

وسياتي فيما بعد أن كلا من ديودور الصقلي وهيرودوت أثبتا في كتبه وجود أفلاطون في مصر وتردده الكثير على أستاذ مصرى في معبد هليوبوليس (٤) .

(٢) كتاب « جورجياس » هو كتاب جعله أفلاطون محاورات بين باحث يوناني كان يسمى جورجياس وبين سقراط وفلاسفة آخرين . (٣) كتاب (Rois et Dieux d'Egypte) ص ١٢٦ وما يليها .

ثم يقول :

« وردامانت يرسل المحكوم عليهم إلى قاع الجحيم بعد أن يسلمهم بمسهم تبعا لقابليتهم أو عدم قابليتهم للطهر ، أما الروح الذي يرى أنه عاش في الطهر وفي الحقيقة فإنه يبتهج به ويرسله إلى الجزائر السعيدة » .
ويقول أفلاطون بعد ذلك :

«إن أيباك يفعل في الذنوب يحاكمهم كما يفعل ردامانت . ثم يقول إن كل قاض من هؤلاء القضاة الثلاثة يمسك في يده صولجانا » .

بهذا صور أفلاطون عقيدة الحساب بعد الموت ، والناظر في ماكتبه يرى أنه استبقى الآلهة الثلاثة الذين ذكرهم هوميرو وهم مبنوس وإيباك وردامانت ، ولكن هؤلاء الذين كانوا عند هوميرو يقضون بين الأموات في منازعات تجد بينهم بعد الموت ، صاروا يحاسبون الأموات على أعمالهم في الحياة كما تفعل الآلهة المصرية أوزيريس وتوت وأنوبيس .

ولهذا الحساب عند أفلاطون نتيجة من نتائج ثلاث : الأولى أن يثاب الميت بارساله إلى الجزائر السعيدة ، والثانية أن يعذب في قاع الجحيم إلى الأبد إن كانت ذنوبه كبيرة ، والثالثة أن يعذب إلى وقت ليكفر عن ذنوبه إن كانت مما يمكن التكفير عنه . وهذه النتائج الثلاث هي بعينها نتائج الحساب في العقيدة المصرية . والقضاة عند أفلاطون يمسك كل واحد منهم صولجانا . وأوزيريس يقضى في يده دائما صولجانا . فعقيدة الحساب عند المصريين هي إذن عقيدة الحساب عند أفلاطون . وأفلاطون يكمل بذلك مبادئ هوميرو فقصر فيه . ولكن يلاحظ مع هذا أن أفلاطون لم يذكر ميزانا ولا وزنا في دار حسابه ، بينما الميزان والوزن عنصران بارزان في دار الحساب المصرية . فان قلنا إن أفلاطون يكمل ما بدأه هوميرو - وهذا هو الراجح - فالميزان والوزن مذكوران عند هوميرو ، وإن قلنا إنه لا يكمل فهو حينئذ يترك الآلهة أن يحاسبوا الأموات تبعا لما يرونه هم عدلا لا تبعا لميزان العدل أي للعدل المطلق .

من هذا نخرج بأن فكرة المصريين في دار الحساب وفي العقاب والتواب ، ظهرت بعد ألفى سنة عند اليونانيين على يد هوميرو ، بيد أنها ظهرت حينئذ ناقصة مقتصرة على الشكل دون الجوهر ، ثم جاء بندار فسد شيئا من هذا النقص ، ثم جاء أفلاطون الذي لاشك في أنه تعلم في مصر فسد ما كان باقيا من النقص . وكان من الضروري أن يستبفى أفلاطون الآلهة اليونانية فاستبقاها ، وكان من الضروري أيضا أن يصيغ الفكرة بصفة الأساطير اليونانية فصبغها بها . ولكن الفكرة بقيت مع ذلك مصرية بطل مسن ننايا صبغتها اليونانية .

وما أقول هذا وحدي ، ولا أقول به من عندي ، بل بقوله معنى ثلاثة من كبار العلماء الذين نعرغوا لدرس العلوم والآثار اليونانية والمصرية ، وقد ذكرت أسماءهم من قبل وهم روهل الألماني ، ودي ويت البلجيكي ، وموري الفرنسي .

ولك أن تقول ، إن شئت ، إن المدنية اليونانية اهتدت من تلقاء نفسها إلى الفكرة كما اهتدت إليها من تلقاء نفسها المدنية المصرية ، فليس الأمر أمر نقل وإنما هو أمر اهتداء إلى فكرة سليمة يقوم عليها صلاح العالم . لك أن تقول هذا ، فان قلته فلا ننس أولان اليونانيين في عهد هوميرو وعهد بندار وعهد أفلاطون كانوا على أوتق اتصال بمصر ، ولا ننس نائبا أن أفلاطون أقام في مصر زمنا وانسل بمدارسها واهتمها ، ثم لانتس أخيرا أن أفيباس المديني اليونانية من المدينة المصرية هو حقيقة يراها العلماء الآن في جميع مابقى من آثار الفن والصناعة وهندسة البناء في المدينتين .

وليكن الأمر مع ذلك بعيدا عن النقل ، وليكن اهتداء إلى فكرة واحدة ، فان من الفضل لمصر أنها كانت أول بلاد عرفت هذه الفكرة في العالم كله ، وان ألف سنة يجب أن تمضي على وجودها في مصر كي يمكن أن نجد شيئا منها في بلاد أخرى كما يقول برستيد .

ومن الفضل لمصر أيضا أن فكرتها هذه عمت كل الأمم المحيطة بها ، حتى قصة سائني وولده في نزلها إلى دار الحساب عمت أكثر الآداب ، فهي في الآداب

برستيد أن تقول: « إن عقيدة الحساب تثبت أن مصر
أول بلد في العالم استيقظ فيه ضمير الإنسان » .
وحق للعالم المؤرخ لافيس ، العضو في الأكاديمية
الفرنسية ، أن يهد لتاريخ اليونان فيقول « إن اليونان
التي سنعرض في الصفحات التالية لتاريخها المجيد ،
تعلمت كثيرا من مصر . إن مصر كانت المعلمة الأولى
للإنسانية (١) » .

(١) كتاب (Histoire de France) ص ١٩ تأليف
(H. Lavis)

اليونانية يصورها هوميرو في نزول هوليس إلى الجحيم ،
وهي في الآداب الرومانية يصورها هوراس (Horace)
وفرجيل (Virgile) ، وهي في الآداب العربية
يصورها أبو العلاء المعري في رسالة الغفران ، وهي في
الآداب الإيطالية يصورها دانتي الجيري (Danti)
(Alégriere) في الكوميديا المقدسة ، وهي في الآداب
الفرنسية يصورها فنلون (Fenelon) في قصة تليماك ،
وقس على هذا آداب كثير من الأمم .
ولهذا ، ولغيره ، حق للعالم الأمريكي هنري



المدنية اليونانية وأثر المدنية المصرية فيها اقتباسات هوميرو من الأساطير والآداب المصرية

فقارئ العلوم والآداب اليونانية لا يجد فيها ذكرا لعلوم أو آراء مقتبسة من مصر ، ولا يقف فيها على أسماء العلماء مصريين ولا على نتائج كان لهم في علم أو فن أو أدب (١) ، مع أن قارئ العلوم والآداب العربية لا يكاد يمر بها حتى يجد أسماء صولون وسقراط وأبقراط وأفلاطون وفيثاغورس وأرسطو وعشرين أو ثلاثين غيرهم - كل منهم برأيه ونتائج ذهنه ، وكثير منهم يكتبه معربة كلها أو تكاد . وقد نشأ من ذلك اعتقادان : أولهما أن المدنية المصرية لم تنتج ما يستحق أن يذكر ، والثاني أن المدنية اليونانية ابتكرت كل علومها وكل فلسفتها ، وكل آرائها في الحياة والاجتماع ونظام الحكم ، وابتكرت كل دياناتها وآدابها ، حتى يقال إن الفكر الانساني يبدأ منها ، وإن كل ماسبقها لم يكن سوى فوزى فكرية كفوضى الطفولة يجب أن تسقط من الحساب .

والعلماء والكتاب اليونانيون انفسهم لا يمارون في هذا بل يقولونه ، وهم يسمون كل من عداهم من الشعوب « البربر » (٢) ، لا يستثنون المصريين ولا الكلدانيين ولا الفنيقيين ولا الفرس ولا غيرهم من اصحاب المدنيات التي سبقتهم . ومن أطف ما يذكر هنا أن المصريين القدماء كانوا يسمون من عداهم من الشعوب « البربر » لأنهم حينما ازدهرت مدنياتهم منذ أكثر من ٥ آلاف سنة على عهد الملك منا لم يجدوا حولهم إلا شعوبا يطلق عليها هذا الاسم بحق . أما

(١) يمكن أن يستثنى من ذلك كتاب واحد هو كتاب « ايليس وأوريس » الذي وضعه الكاتب اليوناني بلوطرك (Plutarque) فشرح فيه عبادة ايليس وأوريس لأنها كانت في ذلك الوقت قد انتقلت الى اليونان وليست لوبا يونانيا . ولكن هذا الاستثناء منصب على عبادة دينية ، أما العلوم والآداب فليس في الكتب اليونانية شيء منها .

(٢) كتاب (Causeries d'Egypte) لاسبيرو - ص ١١ من الطبعة الرابعة .

كتبت في « البلاغ الأسبوعي » في ١١ مارس سنة ١٩٢٧ لاحظ أن المدنية العربية نقلت إلى العالم كثيرا من علوم المدنية اليونانية نقل صراحة وامانة ، فعزت كل رأى إلى صاحبه ولم تعز لنفسها الا الذى زادته على هذه الآراء ، حتى كانت الفلسفة اليونانية لا تعرف في أوربا في العصور الوسطى وفي أوائل العصر الذى يسمى في أوربا عصر النهضة (Renaissance) إلا في الكتب العربية ، ولم تدرس في كتبها اليونانية إلا بعد ذلك . وكتب ابن رشد التى ترجم فيها ما ترجمه من مؤلفات أرسطو ، هى التى حملها بعض تلاميذه إلى أوربا بعد أن نكبه المنصور ، فنقلت منها الى اللاتينية ، ومنها عرف الأوروبيون في ابتداء نهضتهم أرسطو وآراءه ، ثم استمروا يدرسون فيها هذه الآراء إلى أن اهتموا بعد زمن الى كتب أرسطو في لغته اليونانية .

ولكن المدنية اليونانية جاءت تالية للمدنية المصرية ، وأنت مع ذلك تمر بكل ما ألفه علماءها فلا تجد ذكرا لعلوم أو آداب مصرية ، ولا لعلماء أو أدباء مصريين . اللهم إلا ما كتبه هيكاني دى ميلى وهيرودوت وأمثالهما من المؤرخين والسائحين الذين زاروا مصر كما زاروا غيرها من البلاد ، فكتبوا عنها كما كتبوا عن غيرها من الناحية الوصفية . ولسنا ننكر أن ما كتبه هؤلاء الرحالون كان ولا يزال ثمينا ، ولكنهم كتبوه كما قلنا وصفا لما شاهدوه وسمعوه ، لا نقلا لعلوم ولا ذكرا لعلماء . وكتب الرحلات والتواريخ غير كتب العلم والآداب .

كتبت ذلك في مارس سنة ١٩٢٧ ، والآن وقد مضت ثلاث عشرة سنة قرأت فيها ما قرأته من الكتب ، وتوفرت على ما تيسر لى أن أتوفر عليه من البحث ، لا أرى ما يحملنى على نقض ملاحظتى هذه أو تعديلها ، بل أرى بالعكس أن الأدلة كلها تنهض على صحتها .

(حيث توجد الآن صا الحجر بمديرية الغفيرية)، وحتى كان الجيش المصرى فى زمن الفراعنة : بساماتيك الأول وأبريس وأمازيس وبساماتيك الثالث مؤلفا من فرق مصرية وفرق مستأجرة يونانية وغير يونانية ، على رأس بعضها قواد يونانيون (٢) .

بهذا كله يحدثنا التاريخ الصادق ، كما يحدثنا بأن اليونانيين كانوا ينظرون إلى مصر ودياناتها بعين الدهشة والاكبار ، ويرون فى مدارسها ينبوع للحكمة والعرفان ، ويجدون من الخير لهم ولبلادهم أن يربطوا معبوداتهم بمعبوداتها ، وأساطيرهم بأساطيرها ، وأن يحتذوا فى هذه وتلك مثالها (٣) .

وكثير من فلاسفة اليونان وشعرائها وكتابها الذين

(٢) كان وجود هذه الفرق المستأجرة نكبة على مصر ، لأن الفرق المصرية والشعب المصرى ثارا عدة ثورات بسبب وجود الأجانب فى الجيش والامتيازات التى كانت تتمتع بها الفرق اليونانية والمدن اليونانية . ثم ان بعض القواد اليونانيين خانوا مصر . ومنهم القائد فانيس الذى كان قائدا للجيش المصرى فى عهد بساماتيك الثالث ، ثم لما علم أن جيش قمبيز قادم لغزو مصر فر اليه وقابله فى سوريا وانضم اليه . وكان قمبيز واقفا موقف الارتباك أمام صحراء سيناء فشجعه فانيس ودله على الوسائل التى يجتاز بها الصحراء واستاجر له رؤساء البدو من سكانها يمدون جيشه بالماء والجمال . وكان لفانيس أولاد لابزالون فى مصر فلما علم المصريون بخيانة أبيهم ذبحوا هؤلاء الأولاد على مرأى منه فى ميدان القتال . ثم فتح قمبيز مصر . وقد ذكر هيرودوت هذه القصة مفصلة .

(٣) أثبت عالم من العلماء المتخصصين فى درس المدنية اليونانية بسمى فوكار (M. Paul. Faucart) فى كتابهسمى : *Recherches sur l'origine et la nature des mystères d'Eleusis* - والمطبوع فى سنة ١٨٩٥ - أثبت هذا العالم أن عبادة إيلوزيس التى كانت منتشرة فى اليونان منقولة من عبادة إيزيس وأوزيريس المصرية فى طقوسها وتقاليدها ورموزها .

ومعروف أن كبير الآلهة فى الأساطير اليونانية كان يسمى زفوس (Zeus) . فهذه الكلمة معناها فى اللغة اليونانية « الذى يخفى نفسه » ، وهذا هو بعينه معنى كلمة أمون التى كانت تطلق على كبير الآلهة فى طيبة . وقد ذكر ذلك الفيلسوف والمؤرخ اليونانى بلوطرك (Plutarque) فى الفقرة ٩ من كتابه الذى وضعه باسم « إيزيس وأوزيريس » ، وترجمه الى الفرنسية (Mario Meunier) ، وطبعه فى سنة ١٩٢٤ ، وهذه الترجمة هى آخر ترجمة لهذا الكتاب ، وهى التى اعتمدت عليها هنا .

وقد قال بلوطرك فى الفقرة التى أشرنا إليها : أن كلمة أمون معناها فى اللغة المصرية « الذى يخفى نفسه » وأن هذا هو بعينه معنى كلمة زفوس التى اختارها اليونانيون لكبير آلهتهم . ومعروف أن ثوت هو الإله الذى يعزو المصريون اليه أنه ملهم الكتابة والعلوم والفنون . وقد قاس اليونانيون على هذا فجعلوا فى أساطيرهم الها يسمى هرمس ملهم الكتابة والعلوم والفنون . فتوت المصرى هو هرمس اليونانى .

اليونانيون فقد جاءت مدنيتهما بعد ذلك بنحو ٣ آلاف سنة كانت قد وجدت فيها مدنيات عدة .

وقد سرى الاعتقاد بأن المدنية اليونانية انتكرت كل دياناتها وأدائها وفلسفتها ، إلى كل الذين أغرموا بدرس هذه المدنية من جميع الأمم . فصارت الكلمة المتفق عليها بين هؤلاء المغرمين أن المدنية اليونانية لم تقتبس علما ولا فنا ولا أدبا من أية مدنية سبقتها، مع أن التاريخ الصادق يحدثنا بأن المصريين وصلوا إلى اليونان فى زمن الأسرة الثامنة عشرة ، أى قبل نشوء المدنية اليونانية بنحو ألف سنة . وهذا التاريخ نفسه يحدثنا بأن اليونانيين اتصلوا بعد ذلك بمصر وانكبوا عليها ، حتى كانت لهم فيها منطقة خاصة بهم فى شمال الدلتا عامرة بالمدن (١) ، وحتى كانوا يقولون إن هذه المنطقة امتداد لليونان ، وإن مصر الحقيقية لا تبديء من سواحل الدلتا ، بل من مدينة سايس

(١) نذكر من هذه المدن مدينة نوكراتيس ومدينة انتيلا ومدينة اركندروبوليس . وقد ذكر هيرودوت هذه المدن الثلاث . والأولى أشهرها وكانت واقعة على الفرع الكانوبى من فروع النيل القديمة ، حيث توجد الآن قرية كوم جميع جنوبى دمنهور بمديرية البحيرة . أما المدينتان الأخرى فلم يعين مكانهما بعد . وكان الفرعنة حينما ضعفت شوكتهم قد إباحوا لليونانيين سكنى هذه المنطقة وخصوصهم فيها بامتيازات تجارية تجعل تجارة مصر مع جميع البلاد الواقعة على البحر الأبيض المتوسط احتكرا لهم . وقد قال هيرودوت فى ذلك فى الفقرة ١٧٨ من كتابه :

« كان أمازيس يحب اليونانيين ، فأعطى بعضا منهم دلائل على وعابته لهم . نذكر من هذه الدلائل أنه أعطى الذين يقدون عليها منهم بقصد الإقامة مدينة نوكراتيس ليقبضوا فيها . أما الذين لم يكونوا يقصدون الإقامة ، بل كانوا يجيئون لقصد التجارة ، فقد أعطاهم أماكن ينشئون فيها مذابح ومعابد لآلهتهم . وكان أعظم هذه المعابد وأشهرها وأعمرها بالناس يسمى هليون . وقد اشتركت فى الأموال اللازمة لبنائه مدن يونانية عدة ... » .

وهنا ذكر هيرودوت أسماء هذه المدن وقال : أن أمازيس سمع لها بتأليف شرطة يونانية كانت تراقب أسواق التجارة وتؤدى عمل الشرطة فى مدينة نوكراتيس وتفضى بين التجار . ثم قال : « وكانت نوكراتيس الميناء الوحيد المفتوح للتجارة البحرية . ولم يكن فى مصر ميناء آخر له هذه الميزة . فكان الواصل من البحر الأبيض إلى مصر ، إذا وصل بسفينته إلى مصب فرع من فروع النيل غير الفرع الكانوبى (الذى تقع عليه نوكراتيس) طوبل بأن يحلف أنه لم يصل اليه باختياره . وبعد أن يحلف يكون عليه أن يتجه بسفينته إلى المصب الكانوبى . فإذا كانت الرياح تجعل هذه الرحلة مستحيلة فعليه أن ينقل محمول سفينته على مراكب مصرية تدور بهذا المحمول حول ساحل الدلتا حتى تصل إلى المصب الكانوبى ومنه إلى نوكراتيس . وكان هذا من الامتيازات التى أعطيت لهذه المدينة » .

ثم الشاعر هومير ، وليكوج الاسبارطى (٦) ،
وضسولون الاتينى (٧) ، وافلاطون (٨)
الفيلسوف . ويذكر الكهنة المصريون ايضا
فيثاغورس (٩) ، ابن جزيرة ساموس ،
وايدوكس (١٠) الرياضى ، وديموكريت (١١) ،
ابن مدينة ابيدير ، واينوويد (١٢) ، ابن جزيرة
صاقر « (١٣) » .

ذلك ما قاله ديودور الصقلى ، أما بلوطرك (١٤) فانه
بعد أن بين ، كما تقدم ، فى الفقرة التاسعة من كتابه

(٦) (Lycurgue) هو مشرع القوانين لمدينة اسبارطة فى
اليونان القديمة . وقد عاش فى القرن التاسع قبل الميلاد .

(٧) (Solon) هو واضع القوانين لمدينة اثينا القديمة .
وقد عاش بين سنة ٦٤٠ وسنة ٥٥٨ ق م .

(٨) هو خليفة الفيلسوف سقراط . ولكنه اشتهر بعد ذلك
بفلسفته الخاصة . وقد ذكرنا فيما تقدم انه زار مصر وكان يتردد
على كهنة هليوبوليس ، وأنه روى أن هؤلاء الكهنة ذكروا له مواظنيه
اليونانيين فقالوا :

« أيها الناس . أنكم لستم سوى أطفال . وليس بينكم شيوخ » .

(٩) (Pythagore) فيلسوف ورياضى يونانى مشهور .
عاش فى القرن السادس قبل الميلاد . ويؤكد كثير من العلماء انه
أقام فى مصر حوالى عشرين سنة كان فيها يتردد على مدارسها .
وهو الغالب بكروية الأرض ، وقد عالج أن يفهم نظام الكون فقال
انه على شكل كرة فى مركزها النار ، وأن أجراما عشرة تحرك حول
هذه النار أولها الأرض ثم القمر ثم الشمس ثم الخمسة المتحركة
(أى الكواكب السيارة) ثم النجوم التوات . وقال : أن جميع
هذه الاجرام تدور حول النار المركزية . فلو أنك وضعت فى هذا
النظام الشمس بدل النار لوجدت فكرة كوبرنيك التى تعد من
اعظم كشوف العصور الحاضرة .

(١٠) (Eudoxe) فلكى يونانى عاش بين سنة ٤٠٩
وسنة ٣٥٦ ق م .

(١١) (Democrite d'Abdère) هو فيلسوف يونانى عاش
فى القرن الخامس ق م . وهو معروف فى الكتب العربية باسم
ديموقراطس . وهو صاحب نظرية الجزء الذى لا يتجزأ أو الجوهر
الفرد .

وأبيدير التى هو من أهلها مدينة كانت من مدن مملكة تراس
واقعة على بحر ايجة .

(١٢) (Enopide de Chis) عالم يونانى قديم

(١٣) راجع فى هذا الموضوع ايضا كتاب (J. A. Faure)
من أعمال الفلاسفة اليونانيين قبل سقراط بمصر . وهو مطبوع
بباريس فى سنة ١٩٢٣ .

(١٤) (Plutarque) كاتب وفيلسوف يونانى زار مصر فى نحو
سنة ١٢٠ بعد الميلاد . ومن كتبه المشهورة كتابه عن عبادة
« ايزيس وأوزيريس » .

ظهروا حين نشوء المدنية اليونانية ، والذين ظهروا
حينما كانت هذه المدنية فى أوجها ، زاروا مصر وتلقوا
العلم فى مدارس مصر . وقد يحسن أن نذكر هنا
بعضاً منهم معتمدين فى ذلك على المصادر اليونانية
القديمة التى لا يمكن أن تتهم بمحاباتها مصر .

فديودور الصقلى (١) يقول :

« يؤكد الكهنة المصريون ، استناداً إلى كتبهم
المقدسة ، أنهم شاهدوا فى بلادهم أورفى (٢) ،
وموزى (٣) ، وميلامپوس (٤) ، وديدال (٥) ،

= وهناك اقتباسات دينية أخرى .

ويقول هيروdot فى الفقرة ٥٠ من كتابه :

« وتؤكد جميع الشخصيات المقدسة فى اليونان أن تكون مأخوذة
من مصر . نعم أن بحوثى الخاصة دلتنى على أن هناك شخصيات
مقدسة أخذتها اليونان من البلاد المتبربرة ، ولكنى أرى أن أكثر
الشخصيات مأخوذة من مصر خاصة . فانه فيما عدا بوزيدون ،
وديسكور ، اللذين أشرنا اليهما فيما مضى ، وفيما عدا هيرا وهستيا
ونيميس وشيميت وتربيد ، فإن جميع الشخصيات المقدسة اليونانية
موجودة فى مصر » .

ثم عاد هيروdot فأكد هذا المعنى مرة أخرى فى الفقرة العاشرة
قائلاً :

« لقد تلقى اليونانيون من المصريين العادات التى أشرنا اليها ،
كما تلقوا منهم عادات أخرى سنتكلم عنها فيما بعد » .

(١) (Diodore de Sicile) هو مؤرخ يونانى قديم زار مصر
بين سنة ٦٠ وسنة ٥٧ ق م ووضع عنها كتاباً وصفيًا .

(٢) (Orphée) كان ابناً لملك مقاطعة يونانية تسمى تراس .
وهو أشهر موسيقى يونانى . وقد زار مصر وأقام فيها زمناً .
وتقول الأساطير اليونانية أن أنغامه كانت تسنوف الوحوش نحت
قدميه ، وأن ثعباناً لدغ زوجته فى ليلة زفافها اليه فماتت ، فنزل
الى الجحيم وفتن ألبها بأنغامه فردت زوجه اليه واشترطت عليه
الا ينزل الى الخلف الا بعد أن يخرج من مملكة الظلام ، فخالف
أورفى هذا الشرط ونظر الى الخلف ليرى زوجه فعوقب بأن فقد
الأحاسيس ثم مرق .

(٣) (Musée) شاعر وموسيقى يونانى قديم يعتبر تلميذاً
للموسيقى أورفى الذى تقدم ذكره . وهناك شاعر يونانى آخر
يسمى بهذا الاسم عاش فى القرن السادس قبل الميلاد .

(٤) (Mólampos) طبيب يونانى اشتهر بالطب والسحر وعاش
فى العصر الذى يعرف فى تاريخ اليونان بمصر الألهة والأبطال
الغرافيين . وقد كتب عنه هومير الشاعر المعروف فقال انه تعلم
بعض العقائد الدينية المصرية وأنه هو الذى أدخل عبادة باكشوس
اله الخمر فى اليونان .

(٥) (Dédale) مهندس بناء يونانى زار مصر وأقام فيها زمناً .
وقد اشتهر فى اليونان بأنه هو الذى بنى اللابيرنت أو قصر التيه
فى جزيرة كريت على مثال القصر الذى عرف بمثل هذا الاسم
للملك أمنمحتب الثالث فى اللاهون . وتقول الأساطير اليونانية أن
قصر التيه فى كريت بنى ليسجن فيه وحش نصفه الأعلى ثور
ونصفه الأسفل رجل ، ولكن كان الذى أمر ملك كريت بسجنه فيه
هو ديدال نفسه . وحينئذ صنع ديدال لنفسه جناحين من الشمع
وطار بهما فأتى نفسه .

فهؤلاء هم مشرعون وفلاسفة ورياضيون وشعراء وموسيقيون يونانيون تلقوا علومهم في مصر ، ومنهم اثنان كان لهما الفضل الأكبر في وضع الحجارة الأولى لبناء المدينة اليونانية وهما المشرعان ليكورج وصولون ، ومنهم أيضا الشاعر الكبير هومير ، وثلاثة من كبار الفلاسفة الذين ظهروا حينما كانت المدينة اليونانية في أوجها وهم افلاطون وديموكريت وفيثاغورس . ولم يقتصر الأمر على المشرعين والشعراء والفلاسفة ، بل شمل - كما رأيت - أطباء وبنائين وفلكيين ورياضيين وموسيقيين ، وبالأجمال كل العناصر التي تقوم بها المدينة . فلا ريب إذن في أن اليونانيين اتصلوا بمصر حين نشوء مدنيتهما وبعد نشوئها اتصال اقامة وتعلم ، ولكن العلماء اليونانيين لم يحملوا الى العالم شيئا من علوم مصر ، كما حمل العرب علوم اليونان الى أوروبا .

يضاف الى ذلك أن مدرسة الاسكندرية التي انشأها البطالسة اخرجت علماء يونانيين كثيرين . وقد كان هؤلاء العلماء محتكين بمصر بطبيعة إقامتهم في الاسكندرية ، ومع ذلك لم يرد أحد منهم أن يحمل الى العالم في كتبه شيئا من العلوم المصرية والآداب المصرية . نعم إن مصر كانت قد دب فيها سوس الانحطاط إذ ذاك ، وإن الوهن كان قد خيم على مدارسها القديمة ، ولكن هذه المدارس كانت مع ذلك لانزال موجودة ، وإذا نحن فرضنا أنها كانت قد انجطت إلى حد أنها لم تكن تستحق أن يؤخذ منها شيء فقد كانت الكتب المصرية موجودة ، وليس يمكن عقلا ولا عملا أن تنهض مدرسة جامعة كمدرسة الاسكندرية على أساس علمي صحيح إلا إذا كان من مهمتها أن تضم الى دراساتها الحديثة ماسبقها من الدراسات القديمة ، ولا سيما دراسات مدنية عاشت أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، كالمدينة المصرية . نعم لا يمكن هذا ، ولا محل لتصوره ، ولكن العلماء السكندريين لم يروا أن يقولوا لنا شيئا عن علوم كانت لمصر ، ونظريات كانت لمصر ، وآداب كانت لمصر . وقد يقال هنا إن مكتبة الاسكندرية أحرقت ، ولو أنها بقيت لوجد العالم فيها كثيرا من علوم مصر وآدابها ، وهذا عذر قد يكون صحيحا ، ولكن من

« إيزيس وأوزيريس » أن كلمة ذفس اليونانية تنفق في معناها مع كلمة أمون المصرية ، قال في الفقرة العاشرة :

« وهذا ما يؤكد اعظم اليونانيين المتنورين ، وهم صولون ، وتاليس (١) ، وأفلاطون ، وأيدوكس ، وفيثاغورس . ويؤكد أيضا ، على قول بعضهم ، ليكورج نفسه . وذلك أن هؤلاء اليونانيين المتنورين كانوا قد زاروا مصر وعاشوا فيها على أوثق اتصال بكهنتها . فمن ذلك أنه يقال إن أيدوكس تلقى العلم على يد شونوفيس الممفيسي (Chonophis de Memphis) ، وإن صولون (٢) تلقاه على يد سونشيس (Sonehis) في سايس (صالحجر) ، وإن فيثاغورس اتصل باينووفيس (Enuphis) في هليوبوليس (٣) ، وكان فيثاغورس خاصة عظيم الاعجاب بالاساتذة المصريين الذين كانوا هم أيضا يعجبون به ، فحاول أن يقلد طريقتهم في كتاباتهم الرمزية وتعاليمهم السرية ، فأحاط نظرياته بالألغاز . وفي الواقع إنه لا يوجد أى فارق بين النصوص الهيروغليفية المصرية والكثير من التعاليم الفيثاغورية » .

ثم مضى بلوطرك يدل على هذا التشابه ، فذكر أمثلة عديدة من تعاليم فيثاغورس وما يشابهها من التعاليم المصرية .

(١) (Thalès) فيلسوف يوناني عاش بين سنة ٦٤٠ وسنة ٥٤٨ ق م .

(٢) تكلم هيرودوت في الفقرة ١٧٧ من الرخاء الذي تمتعت به مصر في عهد الملك أمازيس ثم قال :

« وأمازيس هو الذي فرض على المصريين قانونا يقضى على كل واحد منهم بأن يبين لحاكم الإقليم الذي هو فيه الوسائل التي يعيش منها ، فمن خالف أو لم يثبت أنه يعيش من موارد شريفة موقب بالموت . وقد نقل صولون الاثيني هذا القانون من مصر وسنه في أثينا . وأهل أثينا يحافظون عليه ويعتبرونه قانونا أخلاقيا كاملا » .

وقد علق مترجم هيرودوت (Ph. El. Legrand) على ذلك في ص ٣٧ من مقدمة الترجمة فقال : أن القانون المصري لم يكن الفرض منه اثبات الموارد الشريفة ، بل كان الفرض منه الإحصاء لأجل جباية الضرائب .

(٣) هذه أسماء ثلاثة أساتذة مصريين تلقى العلم عليهم ثلاثة من كبار الفلاسفة اليونانيين . والذي يقرر ذلك هو بلوطرك الكاتيب والفيلسوف اليوناني «

وعرف أيضا أن كثيرا من المصنوعات اليونانية هي بعينها المصنوعات المصرية لم يدخل عليها إلا تهذيب قضى به اختلاف البيئة واختلاف الزمن .

عرف هذا منذ مائتي سنة أو أكثر لان التصوير والنقش والأعمدة والمصنوعات في مصر وفي اليونان ، كانت في متناول كل من يريد أن يدرسها وأن يوازن واحدة منها بالأخرى . أما العلوم والآداب والديانات المصرية فكانت إلى زمن قريب مجهولة ، ولهذا كانت موازنتها بمشيلاتها اليونانية مستحيلة . ولا يزال أكثرها مجهولا إلى اليوم لأن ماعرف لايزيد على جوانب من الديانات لا يزال في بعضها غموض ، ثم طرف صغير من الآداب ممثل في بضعة قصص وأناشيد وأشعار . أما العلوم ، وخاصة العلوم الفلسفية ، فلم يعرف بعد شيء منها .

ولهذا كان السؤال الذي تساءل فيه الباحثون منذ أربعين سنة ، أى منذ شاعت ترجمة أوراق البردى المصرية هو : « هل في الآداب والديانات اليونانية أثر من الآداب والديانات المصرية ؟ وهل هذا الأثر واضح بحيث يمكن تعيينه أو هو مبهم غير واضح ؟ » . وسنمر نحن هنا بشيء مما وقف عليه الباحثون . وسنخص بالذكر شاعر اليونان الكبير هوميرو صاحب الأوديسة والإلياذة .

من الذين تفرغوا لدراسة الآداب اليونانية وعرفوا بحبها والاعجاب بها عالم فرنسي هو فيكتور بيرار (Victor Berard) . وبهمنى هنا أن يكون بيرار هذا من المتفرغين للآداب اليونانية والمعروفين بحبها لأنه إذا شهد بأن بعض هذه الآداب مقتبس ، أو أكثر من مقتبس ، من الآداب المصرية ، فشهادته لا ترمى بالتحيز لمصر .

وقد درس بيرار إلياذة هوميرو وأوديسته فوضع فيهما الشروح والمصنفات . وهوميرو هو أعظم شاعر يوناني ، ومنزلته في الآداب اليونانية أعظم من منزلة امرئ القيس في الآداب العربية ، وإن كان كل منهما يختلف عن الآخر منزعا وتفكيراً .

وبما أننا سنعرض هنا للأوديسة وما دخل فيها

الصحيح أيضا أن علماء الاسكندرية هؤلاء نشروا كتباً تعد بالعشرات في العالم المتحضر إذ ذاك ، وقد بقيت كتبهم هذه إلى اليوم ، وليس في واحد منها ذكر لعلوم مصرية ولا لآداب مصرية ، كلا ولم يقل واحد منهم إنه اقتبس فكرة معينة من المدارس المصرية والكتب المصرية أو المدنية المصرية وبنى عليها نظرية له الفضل فيها (١) .

وقد كان من نتيجة هذا الصمت عن علوم مصر وآدابها ، أنه لما دمرت الغزوات والخراب والكتب المصرية ، وضاعت اللغة بانقراض عارفها ، أسدل حجاب كثيف على كل ما يسمى علما مصرية . ولولا أنه كانت توجد آثار مادية كالأهرام والمعابد والمسلات وقبور الملوك تنطق بعظمة ذلك العلم لما فطن إليه أحد . بل لعل الدين وجهوا همهم إلى كشف اللغة المصرية وقراءة خطوطها الهيروغليفية والديموطيقية والهيراطيكية ، ما كانوا يعنون بها ويكشفون غطاءها ، وإذن كانت تبقى مصر القديمة غارقة في ظلمات الماضي ، وتبقى علومها غارقة معها في هذه الظلمات إلى الأبد .

اتصل اليونانيون بمصر وتعلموا فيها ولكنهم لم يذكروها فيما كتبوه ، فهل هم مع ذلك اقتبسوا منها ؟ إن العقل يجيب على هذا فيقول أن الاقتباس في هذه الحالة أمر لا مفر منه ، لأن المدنيات المختلفة ليست سوى حلقات متتالية في سلسلة واحدة هي سلسلة الإنسانية . فكل مدنية تصوغ نفسها من المدنيات التي سبقتها ثم مما تزيده عليها ، وبهذا يتحقق تقدم الإنسان وتقدم العمران .

هذا هو جواب العقل ، فما هو جواب الواقع ؟ جواب الواقع هو بعينه جواب العقل ، فقد عرف منذ مائتي سنة أو أكثر أن التصوير اليوناني والنقش اليوناني والأعمدة اليونانية هي اقتباس من التصوير المصري والنقش المصري والأعمدة المصرية مع شيء من التنويع .

(١) لأنرى أن نورد هنا أسماء علماء الاسكندرية ونظرياتهم العلمية والكتب التي نشروها لأن ذلك يخرجنا من موضوعنا الذي نحن فيه .

الاقتباس واضح لا يصح أن يختلف فيه اثنان ، وأن الشاعر اليوناني هوميرو أخذ بعض ما في قصته من الكتاب المصريين .



ولكى يقف القارئ على طرف من هذا الاقتباس ، أو قل هذا النقل ، نذكر أن مما اشتملت عليه قصة الأوديسة حديثا طويلا يدور بين تليماك والملك منلاس ، وفي هذا الحديث يقص الملك منلاس أن الآلهة غضبوا عليه في ماضيه فحجزوه مع رفقاء له عشرين يوما في جزيرة على سواحل مصر تسمى فاروس ، ثم ظهرت له ابنة شيخ من شيوخ البحر ونبي من أنبياء مصر يسمى « بروتي » فقالت إن أباه يخرج من الأمواج كل يوم ثم يمضي إلى مغارة في الجزيرة فيتمدد فيها ثم تنام حوله كلاب بحر تخرج هي أيضا من الأمواج فالوسيلة التي يستطيع بها منلاس أن يخرج من الجزيرة هي أن يفاجيء « بروتي » ساعة نومه ويشد عليه بقوة ، وحينئذ يحاول « بروتي » أن يتخلص فيتحول إلى كل نوع من أنواع الحيوانات الراحفة على الأرض ثم إلى ماء ، ثم إلى نار ، فإذا بقي منلاس قابضا عليه ولم يدعه يغفل فسيعود إلى شكله الانساني ثم يكلمه ، فعلى منلاس حينئذ أن يسأله بأى وسيلة يخلص من الجزيرة .

وبعد ذلك غابت البنت بين الأمواج ثم ظهرت ومعها جلود أربعة من كلاب البحر فلبسها منلاس وثلاثة من رفقاءه الأشداء وكنوا كذلك إلى أن ظهر « بروتي » وعرض كلابه ومن بينها منلاس ورفقاؤه دون أن يفطن اليهم . ثم نام فهجم عليه منلاس ورفقاؤه وشدوا عليه بأيديهم فتحول إلى أسد ثم إلى ثنين ثم إلى خنزير كبير ثم إلى ماء ثم إلى شجرة ، ثم لما استنفد كل سحره على غير جدوى تكلم فسأله منلاس ، فعلم منه أن ذفس ، كبير الآلهة ، غاضب عليه لأنه لم يقرب له ضحايا قبل ركوبه البحر ، وأنه لن يرضى عنه ولن يأمر الرياح بالاعتدال له إلا إذا قرب له الضحايا . ثم أخبره « بروتي » بكثير من أخبار أصدقائه وبلاده . ثم قال : إن القدر لم يكتب له أن يموت في مدينة أرجوسي التي فيها حقه بل ستقوده الآلهة إلى الأليزيه (الأليزيه كانت في الاساطير اليونانية

من الآداب المصرية ، يحسن أن نقول قبل ذلك ما هي الأوديسة .

فالأوديسة هي قصة شعرية موضوعها أن البطل اليوناني عوليس أمير مقاطعة يونانية تسمى إيتاك اشتترك مع غيره من الأمراء اليونانيين في محاصرة مدينة طروادة (على ساحل آسيا الصغرى) ، ثم لم يعد إلى إمارته فخرج ابنه تليماك يبحث عنه فذهب إلى مدينة اسبارطة وسأل فيها الملك منلاس عن أبيه . وفي أثناء ذلك كان عوليس في جزيرة الآلهة كاليبسو واقفا في حبها ، ثم تحرك فيه الشوق إلى بلده ففر من الجزيرة ، فهبت عليه في البحر عاصفة فأغرقت مركبه وألقته الأمواج على شاطئ جزيرة شيري (١) ، وعلى أرض فيها تسمى أرض فياسي . وفي هذه الأرض ، قابل نوزيكا ابنة الملك السبنوس فسأعده وقربته من أبيها . وقص عوليس على الملك الأهوال التي وقعت له في بحار كثيرة ركبها وجزائر عدة التجأ إليها . ثم عاد عوليس إلى بلده إيتاك فتذكر في زى متسول وقابل ابنه تليماك الذي كان قد عاد هو أيضا من اسبارطه . وكانت امرأة عوليس ، وهي تسمى بنيلوب ، قد بقيت وفية له طول غيابه ، ولكن كان أربعة من الأمراء قد تقدموا إليها ليخطبها كل واحد منهم لنفسه فظهر لهم عوليس وقتلهم هو وابنه تليماك ثم ظهر لامراته وعاد إلى عرش إمارته . تلك هي قصة الأوديسة وهي مقسمة إلى أربعة وعشرين كتابا أو جزءا . وما من لغة في أوروبا الا وقد نقلت إليها .

وقد نقلت إلى اللغة الفرنسية من زمن طويل ، ولكن العلماء الفرنسيين مازالوا يضعون لها ترجمات جديدة ، وما زالوا يدرسونها دراسات جديدة ، ومن هؤلاء فيكتور بيرار الذي تقدم ذكره ، درسها مرة ثم ترجمها ودرسها مرة ثانية هي التي طبعها حديثا في سنة ١٩٢٥ . وقد أتيح له أن اطلع على قصص وأشعار مصرية كان ماسبيرو وغيره من علماء المصولوجيا قد نشروها فدهش إذ رأى في الأوديسة آثارا من تلك القصص والأشعار ، فعكف على موازنة إحداها بالأخرى ، فكانت النتيجة التي خرج بها أن

(١) هي جزيرة خرافية تخيلها هوميرو

عند المصريين وكانوا يريدون منها تخزين النهر أو
عجل النهر .

ثم إن جميع حوادث هذه القصة وأسماؤها أشخاصها
موجودة في القصص المصرية بما فيها القبض على
« بروتى » وخيانة بنته له .

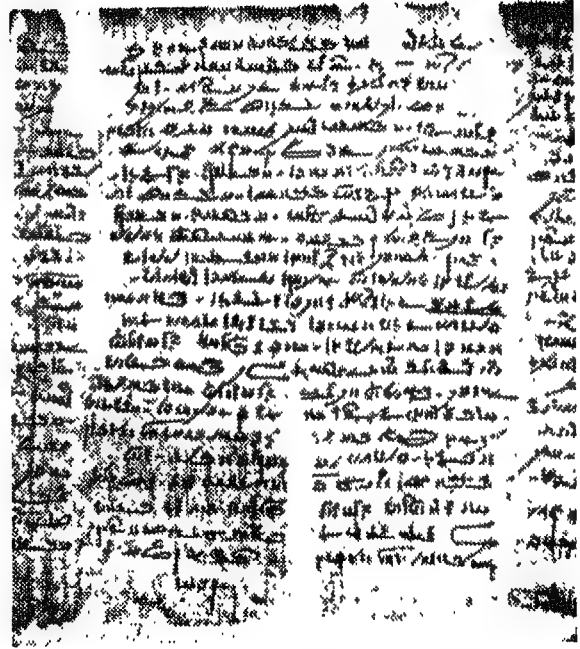
ثم إن اسم « بروتى » هو اسم فرعون كما أثبتته
ماسبيرو في تحليله العلمى .

ثم إن المصريين كانوا يحبون القصص التى تتكلم
فيها الحيوانات .

ثم إن دار النعيم أو (الأليزيه) الموصوفة هنا هى
دار مصرية ولا يمكن أن تكون دارا يونانية . إذ مصر
هى التى ينطبق عليها أنها لا تلج فيها ولا مطر ، وأن
البرد فيها غير قارس ، أما اليونان فالمطر فيها غزير ،
والبرد قارس ، وفيها تلج في بعض الأحيان ، وريح
الشمال التى يقول هوميرو إنها تهب على دار النعيم
لا تدع شكا في أن الدار مصرية لا يونانية ، لأن هذه
الريح تهب في مصر من الشمال فتكون علية
تستروحها النفوس ، أما في اليونان فان هذه الريح
نفسها تكون في شكل عواصف . والمصريون
يحبون هذه الريح واليونانيون يخشونها . أما الإله
رادامانت الذى يقاد إليه منلاص في دار النعيم فهو
إله المصريين أوزيريس على عرشه في الحياة الأخرى .

هذه هى شهادة فيكتور بيرار ، ونحب نحن أن
تكون منصفين فنقول إن الاقتباس هنا يظهر في صورة
إدخال حوادث مصرية وأشخاص مصريين يتخيلهم
هوميرو في ثنايا قصة الأوديسة ، ولا يظهر في صورة
اقتباس قصة معينة . وهذا الذى فعله هنا هوميرو
يفعله كل الشعراء وكل الكتاب فلا يؤخذ عليهم أنهم
يحكمون المحاكاة بل الذى يؤخذ عليهم هو أنهم
يقصرون في المحاكاة .

فما لم يظهر في المستقبل أن في الآداب المصرية
قصة معينة كهذه التى قصها منلاص عن وجوده في
جزيرة فاروس ، فليس لقائل أن يقول إن هوميرو سطا
في هذه القصة على شيء من تلك الآداب . ولكن يقال
من ناحية أخرى إن موضوع البحث ليس أن يكون



الخط الديموطيقى المصرى

دار النعيم التى يقيم فيها الصالحون) في آخر الأرض
عند الإله رادامانت (١) ، حيث الحياة هنا ما تكون
وحيث لا يوجد تلج ولا برد قارس ولا مطر ، وحيث
لا توجد عواصف بل توجد ريح الشمال . وبعد ذلك
القى « بروتى » بنفسه بين الأمواج فغاب فيها .

فهذه القصة التى قصها الملك منلاص على تليماك ،
علق عليها فيكتور بيرار فقال في الصفحات ٩٥ و٩٦ و٩٧
والصفحات التى تليها (٢) ، ما ملخصه أنها قبل كل
شيء تشبه في مجموعها القصص المصرية التى جمعها
ماسبيرو في كتابه « القصص الشعبية في مصر
القديمة » (٣) ، وهى قصص ترجع الى ٥٠٠ أو ٨٠٠
سنة على الأقل قبل عصر هوميرو .

ثم إن شيخ البحر يسحر نفسه أسدا وتخزيروا
وماء ونارا مقدسة ، والسحر على هذا الشكل تفيض
به القصص المصرية .

ثم إن من الحيوانات التى يتحول شيخ البحر إليها
الخنزير الكبير ، والخنزير الكبير تسمية كانت شائعة

(١) ردامانت هو في الأساطير اليونانية أحد أبناء ذلس .

(٢) كتاب (L'Odyssée — Traduction nouvelle) جزء

أول طبعة سنة ١٩٢٥ .

(٣) (Les contes populaires de l'Égypte Ancienne)

مكتبات بتروغراد (العاصمة القديمة لروسيا) ، وهو ملف مكتوب بالخط الهيراطيقى في زمن الأسرة الثانية عشرة (١٨٠٠ سنة قبل الميلاد) فإذا به قصة مصرية في بعض فصولها أن سائحا مصرية ركب البحر لم غرقت مركبه وقذفت به الأمواج الى جزيرة خرافية ، ثم إذا بهذا الفصل موجود في الاوديسة ، لا بمعناه فحسب ، بل بسياقه ، وبكل ما فيه من الأوصاف ، وبالكثير مما فيه من التعبيرات .

ولم يكد جولنيشيف يقف على هذه الحقيقة حتى اذاعها في رسالة ذكر فيها نصوص ورقة البردي ، وذكر الى جانبها النصوص المماثلة لها من الاوديسة . فوصلت هذه الرسالة الى موري في باريس فدرس ملف البردي الذي ترجمه جولنيشيف وكتب في كتابه (Rois et Dieux d'Egypte) المطبوع في سنة ١٩٢٥ ، في صفحة ٢٤٠ والصفحات التي تليها يؤيد ما أثبتته جولنيشيف ويزيد عليه . ولا يتسع المقام هنا لسرد كل ما كتبه هذان العالمان في موازنة النصوص المصرية بنصوص الاوديسة فنكتفى بأن ننقل طرفا من هذه الموازنة .

الموضوع في القصة المصرية هو كما قلنا غرق سفينة لسائح مصري ، وفي الاوديسة غرق سفينة عوليس والد تليماك الذي مر ذكره . فالكاتب المصري يقول في قصته على لسان بطله :

« ركبنا البحر في سفينة طولها ١٥٠ ذراعا وعرضها ٤٠ ذراعا ومعى ١٥٠ رجلا من أفضل البحارة في مصر . وكان هؤلاء البحارة قد عرفوا السماء وعرفوا الأرض ، وكان في قلوبهم من البأس أكثر مما في قلوب الأسود . ثم كانوا إلى جانب ذلك يتنبأون بالعاصفة قبل هبوبها وبالأعصار قبل ثورانه . وبينما نحن في البحر هبت علينا العاصفة فجأة . وكنا قرييين من الأرض ، فدفعت بنا الرياح نحوها واثارت أمواجها كانت ترتفع إلى ثمانية أذرع . ورايت على مقربة منى قطعة من الخشب فالتقيت بنفسى عليها وركبتها . ومات كل الذين بقوا في السفينة ولم ينج منهم أحد .

« وقذف بى الموج إلى جزيرة فقضيت فيها

هومير قد سطا أو لم يسط على الآداب المصرية ، بل أن يكون لهذه الآداب أثر ظاهر في شعر هومير . فمن هذه الناحية تكون شهادة فيكتور بيرار سليمة ويكون الأثر المطلوب قائما في تلك المحاكاة .

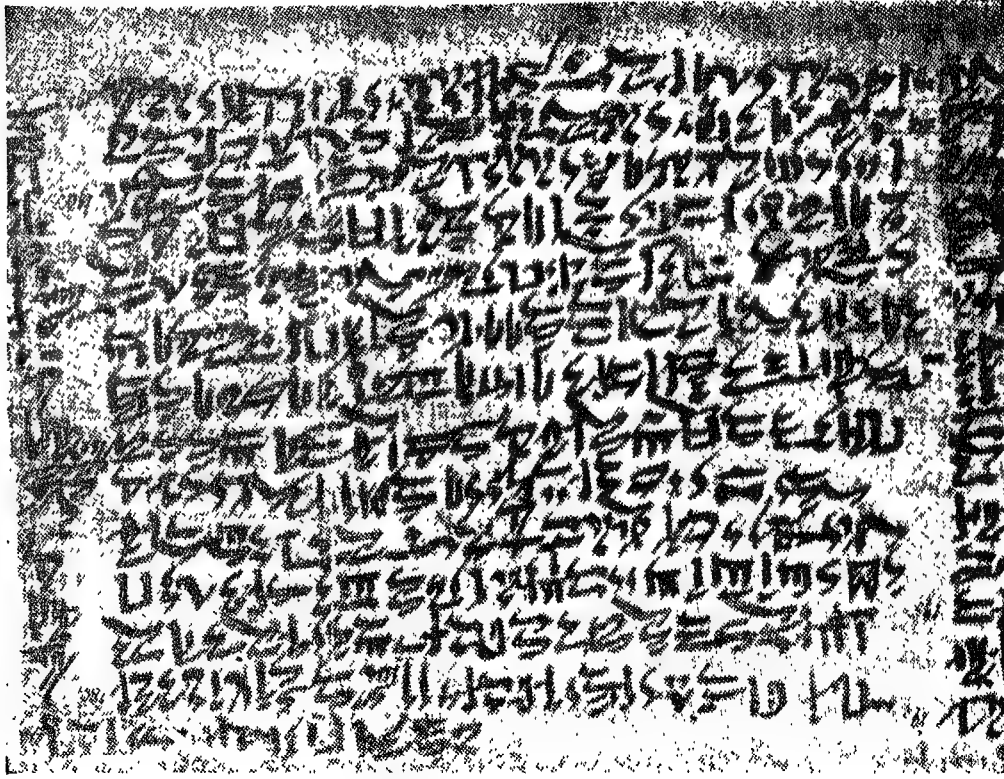
والآن ننتقل الى شهادة أخرى ليس الأمر فيها أمر محاكاة لحوادث مصرية يدخلها هومير في شعره ، بل الأمر فيها أمر قصة مصرية معينة أثار عليها هومير وأدخلها في الاوديسة بعد أن حاول أن يلبسها ثوبا يونانيا ، فبقى الثوب شفافا تطل القصة المصرية من ثنياءه ، بموضوعها وسياقها ونصوصها .

هذه الشهادة الثانية هي شهادة عالم من علماء المصولوجيا في روسيا هو الأستاذ جولنيشيف (M. W. Golénicheff) ، ويؤيده فيها عالم فرنسي هو الاستاذ موري .

فقد حدث من بضع سنين أن ترجم جولنيشيف ملفا من أوراق البردي المصرية المحفوظة في إحدى



الخط الهيراطيقى المصرى أو الخط المقدس (قطعة من كتاب الموتى)



الخط الهيراطيقي المصري
صفحة من ورقة بردى محفوظة في متحف برلين

الذي يعقد المقارنة ويؤدي الشهادة عالما فرنسيا .
قال هذا العالم بعد أن أورد النص الذي ذكرناه :
« والآن فلننقل إلى عوليس . بعد أن ترك
عوليس جزيرة كاليسو ركب السفينة وحده
فبقى في البحر ثمانية عشر يوما لم يحدث فيها
حادث ثم طلعت لعينه جبال فياسى بفباتها .
وحينئذ انار ذفس (تقدم أنه كبير الآلهة في
الاساطير اليونانية) العاصفة فارتمت على
عوليس موجة عالية فكسرت سفينته وفرقت
أخشابها . قال هومير : « حينئذ ركب
عوليس قطعة من الخشب وقادها كما يقود
الانسان جوادا » . واستمر عوليس عائما في
هذه الحالة ثلاثة أيام بلياليها . قال هومير :
« ولم يكن عوليس ينفك في اثناء ذلك عن أن
يثناقش مع قلبه » . وقال أيضا : « وأخيرا
جاءت موجة كبيرة ودفعت به نحو الشاطئ
الوعر » .

ثلاثة أيام لا رفيق لى فيها غير قلبى . ونمت
في غابة تشبه المخبأ فكان ظلها يحيط بى . ثم
مددت ساقى (١) أبحث عن شيء أضعه في فمى .
فوجدت تينا وعنبا وكل أنواع الكراث الجميلة
وبلدورا وشماما هو من الكثرة كأنما يصنع
صنعا . ووجدت أسماكاً وطيورا . وبالأجمال
لم يكن شيء إلا وهو في ذلك المكان . فاكلت
حتى شبع ، ثم وضعت على الأرض بعض
ما كانت يداى تمثلتان به ، ثم حفرت حفرة
واشعلت نارا وجعلت ألقى فيها مما هنالك ،
قربانا يصل بواسطتها إلى الآلهة » .

هكذا كتب الكاتب المصري قصته ، وسنعرّب
هنا ماكتبه مورى مقدما للموازنة بينه وبين ماكتبه
هومير في قصته عن عوليس . ونكتفى بأن يكون
نصيبنا التعرّب حتى لا يكون مصرى هو الذى يعقد
الموازنة ويؤدي الشهادة فيها للكاتب المصرى بل يكون

(١) المراد بقوله « مددت ساقى » أنه جعل يمشى .

(ورابعا) إن الكاتب المصرى عبر عن وحدة بطله فى الجزيرة وحدينه مع نفسه حينما صعد إليها بأنه لم يكن له رفيق فيها غير قلبه . فقال هومير إن عوليس حينما كان على قطعة الخشب كان يتناقش مع قلبه .

(وخامسا) إن الكاتب المصرى قال إن بطله بقى فى الجزيرة ثلاثة أيام وحيدا . فقال هومير إن عوليس بقى على قطعة الخشب ثلاثة أيام بلياليها

(وسادسا) إن الكاتب المصرى قال إن بطله التجأ إلى غابة فى الجزيرة تشبه المخبأ . فقال هومير إن عوليس التجأ إلى غابة وصنع لنفسه نحت شجرتين مأوى يأمن فيه من الرياح والمطر والشمس .

(وسابعا) إن الكاتب المصرى قال إن بطله نام فى الغابة التى التجأ إليها وإن ظلها كان يحيط به . فقال هومير إن عوليس نام فى المأوى الذى صنعه لنفسه وإن أوراق الأشجار كانت تخبئه .

(وثامنا) إن الكاتب المصرى قال إن بطله بحث بعد ذلك فوجد أنواعا كثيرة من النباتات والفاكهة والبذور . فقال هومير إن عوليس بحث بعد ذلك فوجد كثيرا من الأنسجار والفاكهة .

(وتاسعا) إن الكاتب المصرى قال إن بطله أراد أن يشكر الآلهة فأسفل نارا وجعل يلقي فيها قربانا تنكفل النار بإيصاله إليها . فقال هومير فى مكان آخر من قصته ، وفى حديثه عن عوليس نفسه : إن عوليس ورفقاه أشعلوا نارا وقدموا بواسطتها قربانا للآلهة .

تلك هى أوجه الاتفاق فيما كتبه الكاتب المصرى وما كتبه هومير . وهو اتفاق يكاد يكون فى التعبيرات .

ولم تنته الموازنة بعد لأنها طويلة وهى كلها على هذا المنال فلنستمر .

وانتهى عوليس بأن وصل إلى هذا الشاطئ ثم استطاع بعناية الآلهة أن يلتجئ إلى غابة . قال هومير : « وصنع عوليس لنفسه تحت شجرتين صغيرتين مأوى يأمن فيه من الرياح والمطر والشمس » . ثم نام « تخبئه أوراق الأشجار » . ويمضى هومير بعد ذلك فى الأوديسة فيجمل عوليس يصف النباتات الرائعة التى تغطى أرض فياسى المباركة . يقول هومير : « فى هذه الأرض أشجار كبيرة باسقة بعضها يثمر الكمثرى والرمال وبعضها يثمر البرتقال الجميل والتين اللذيل والزيتون الأخضر والعنب الناضج » .

« أما القربان الذى قدمه السائح المصرى للآلهة بواسطة النار فهو غير موجود فى هذا المكان من قصة عوليس ، ولكن الاستاذ جولنيسيف لاحظ أن هومير نقله إلى مكان آخر من قصة عوليس نفسها هو المكان الذى يتحدث فيه عن مقام عوليس عند الوحش بوليفيم (١) ، وذلك أن عوليس ورفقاه يشعلون حينئذ نارا ليقدموا بواسطتها قربانا للآلهة بعد أن طعموا من الجبن الذى وجدوه فى مغارة الوحش » .

ذلك ما كتبه مورى ، وقبل أن نمضى فى موازنات أخرى يحسن أن نقول نحن كلمة فى إبراز وجوه الاتفاق بين ما كتبه هومير وما كتبه الكاتب المصرى :
(فاولا) إن العاصفة تهب على السفينة فى القصتين .

(وثانيا) إن عوليس يركب قطعة من الخشب كالتى يركبها السائح المصرى .

(وثالثا) إن السائح المصرى قذفت به موجة إلى الجزيرة ، وعوليس دفعت به موجة إلى شاطئ الجزيرة .

(١) بوليفيم هو فى الأساطير اليونانية ابن نبتون إله البحر وهو فى صورة وحش ذى عين واحدة . وفى الأساطير اليونانية وحوش كثيرة على هذا الشكل تسمى سيكلوب وأكبرها واشدها هو بوليفيم .

« وهذا الملك ينهض عوليس بيده من جانب
الوقد ليجلسه على عرش يراق ، والشعبان في
القصة المصرية ينهض السائح من جانب الموقد
ويجلسه في المكان الذي يقيم فيه . ويضيف
جولنيشيف إلى كل هذا أن عوليس يسأل في
أرض فياسى مرتين كما يسأل السائح في القصة
المصرية مرتين ، وذلك أن الملكة أريتى تسأل
عوليس : « من أنت ، ومن أين تأتي ؟ » وبعد
هذا يسأله الملك السينوس مثل هذا السؤال .
وحينئذ يأخذ عوليس في أن يقص كما يقص
السائح المصرى الأحوال التى وقعت له » .

ونعود مرة ثالثة إلى القصة المصرية . إن الشعبان
يعطف على السائح ويتفاعل له فيقول :

« لاتخف شيئا ، لاتخف شيئا أيها الصغير ،
ولا تدغ الحزن ينتشر على وجهك . لقد وصلت
إلى ، لأنه كتب لك أن تعيش وأن تصل إلى
هذه الجزيرة السعيدة ستقيم هنا
شهرًا بعد شهر ، إلى أن تضى أربعة أشهر ،
ثم تأتي سفينة فيها بحارة عرفتكم ، وستسافر
معهم . وستموت في مدينتك ستضم
إلى صدرك أولادك ، وستستعاقب امراتك ،
وستتري دارك ، وذلك خير من كل شيء .
ستصل إلى بلادك وستكون فيها بين إخوانك » .
فبكلمات مثل هذه الكلمات يستقبل عوليس في
قياسى . وذلك أن نوزيكا تقوله له .

« إن ذفس هو الذى كتب عليك ما أنت
فيه . فيجب أن تتحمله » .

ثم تقول له إن جميع الأعراب والفقراء قرييون
من ذفس ، وإن ذفس سيرده إلى بلاده . وحينئذ
يتمنى عوليس أن يجد امراته في داره في صحة
جيدة ، وأن يجد أصدقاءه في صحة جيدة أيضا .
فتدعو له نوزيكا ويدعو له أبوها السينوس بأن
ينعم برؤية امراته وأولاده وأصدقائه وداره في بلاده .
وهذا كله شبيه بما في القصة المصرية ، لا يكاد يختلف
عنه إلا في بعض الألفاظ .

يذكر الكاتب المصرى أن بطله أو سائحه نام ، ثم
يقول على لسانه :

« ولم أشعر بعد ذلك إلا وقد سمعت دويًا
كدوى الرعد ، فاستيقظت وكشفت عن وجهي
فرايت شعبانا هائلًا يتقدم نحوى . . .
ثم قال لى هذا الشعبان : « من أتى بك ،
من أتى بك ؟ أيها الصغير من أتى بك ؟ » . ثم
وضعن فى فمه ونقلنى إلى المكان الذى كان
يقيم فيه . . .

ثم قال لى مرة أخرى : « من أتى بك ،
من أتى بك ؟ أيها الصغير من أتى بك إلى هذه
الجزيرة التى تغوص شواطئها فى الأمواج ؟ »
فيجب السائح على هذه الأسئلة فيقص قصة
سفينته وغرقها كما رأينا .

وهنا نرجع إلى عوليس ، وهنا أيضا نعرّب الموازنة
كما كتبها مورى . قال :

« إن الذين يستقبلون عوليس فى أرض
فياسى هم نوزيكا وأبوها الملك السينوس
ورعيته ، أى أنهم أناس لا وحوش . ولهذا
لا يوجد دوى رعد فى قديمهم إليه . ولكن
هومير لم يفته هذا الرعد فى الفصل الخاص
ببوليفيم لأن هذا الوحش يأتى ويأتى معه دوى
كدوى الرعد إلى المغارة التى التجأ إليها عوليس .
وقد قال جولنيشيف إن هذا الموضوع من
القصة المصرية انتقل فى شعر هومير إلى مكان
آخر . وهو مصيب فى ملاحظته هذه . ويقول
جولنيشيف أيضا : إن فى شعر هومير شيئا
يستوقف النظر هو أن السائح فى القصة المصرية
يكشف عن وجهه حينما يستيقظ لكي ينظر ،
فرقاء عوليس النائمون على رمال الشاطئ
يكشفون هم أيضا عن وجوههم حينما
يستيقظون من نومهم على نداء سيدهم . وتلى
ذلك مشابهة أخرى هى جلسة السائح المصرى
متربعا بالقرب من النار لتقديم القران وجلسة
عوليس متربعا بالقرب من موقد الملك
السينوس » .

منها ، لأن الآلهة بوزيدون ينتقم من الفياسين فيعطيه
ويغطي أرضهم بصخرة .

وملك الجزيرة في القصة المصرية ، أى الشعبان ،
ينبىء السائح بمصر الجزيرة بعد سفره منها .
وملك الجزيرة أيضا في القصة الهوميرية ، وهو
السينوس ، يخبر عوليس بمصر الجزيرة بعد
سفره منها .

ومرة سادسة .

حينما يسافر السائح المصرى من الجزيرة التى
هو فيها يودعه الشعبان بهذه التمنيات :

« صحة جيدة ، صحة جيدة أيها الصغير
حتى تصل إلى دارك . سترى أولادك ،
ولكن اسمك مذكورا بالخير في مدينتك » .
ثم يعطيه هدايا . وبعد ذلك يتجه السائح
إلى الساحل ، ويشكر الشعبان ، ثم يركب السفينة .

وعوليس حينما يسافر ، يتمنى له الملك السينوس
الصحة ويعطيه هو والفياسيون هدايا ، وحينئذ
يشكرهم عوليس ويحييهم .

ومرة سابعة .

تصل السفينة بالسائح المصرى الى وطنه فتجرح
ويرتطم مقدمها بالساحل . كذلك سفينة الفياسين
تجرح وترتطم حتى يكون نصفها على الساحل ونصفها
الآخر في الماء .

ويدخل السائح المصرى على فرعون فى شكل رجل
« رأى أشياء كثيرة ومرت به محن كثيرة » .
وعوليس يقول :

« أنا الذى مرت به كثير من المحن فى مجاربتى
للرجال والأمواج . أنا الذى رأى المدن وعرف
طبائع كثير من الناس وتألم فى قلبه من آلام عدة
عاناها فى البحر » .

وفرعون يقول للسائح المصرى :

« كن خادما بصيرا فطنا » .

وتعود الى القصة المصرية مرة رابعة .

يملك الفرع السائح المصرى حين يسمع من الشعبان
أنه سيعود الى بلاده ، وسرى أولاده وأمراته وداره ،
فيقول له :

« سأصف أرواحك لفرعون ، وسأخبره
بمجدك ، وسأجلب لك زيوتا مقدسة وطيبا
مما يقدم لكل إله . . . وسأحضر لك سفنا
مملوءة بكنوز من مصر كما يفعل الناس لآله » .
فعوليس أيضا يشكر السينوس فيدعو له
بمجد لا يفنى بالقرب من ذفس ثم يسكر نوزيكا فيؤلى
على نفسه أن « يدعو لها كما يدعو لآلهة » .

وتعود مرة خامسة .

يجيب الشعبان فيقول للسائح المصرى :

« إننى ملك بلاد بونت (١) ، فبعد أن تفارق
هذا المكان لن ترى هذه الجزيرة أبدا لأنها
ستتحول إلى أمواج » .
ثم يتحدث السائح عن الجزيرة فيقول إنها
« أرض بعيدة لم يعرفها الناس » .
كذلك أهل فياسى يقيمون فى جزيرة شبرى
بعيدا من الناس المتدينين » .

وتحدث نوزيكا عن هذه الجزيرة فتقول : « إنها
فى أطراف الأرض ، فى وسط البحر المضطرب ، بعيدة
من الناس » .

والشعبان فى القصة المصرية يقول إنه « ملك بلاد
بونت » ، أى أنه وهو فى الجزيرة التى يحدث فيها
السائح المصرى لا يقيم فى بلاده التى هو ملك عليها
بل يقيم فى جزيرة بعيدة منها . وأهل فياسى فى
القصة الهوميرية ليسوا من أهل جزيرة شبرى التى
يستقبلون فيها عوليس بل هم من أهل هيبيريا .

والجزيرة فى القصة المصرية تختفى بين الأمواج
بعد سفر السائح المصرى منها ، وجزيرة شبرى فى
القصة الهوميرية نصيبها التدمير بعد سفر عوليس

(١) بلاد بونت هى البلاد التى كان المصريون يجلبون منها
الطيب والنباتات ذات الرائحة الزكية . وبعض الباحثين يرجح أن
المقصود بها بلاد الصومال .

وهوليس يقول مثل هذه الكلمة أيضا .

ونقف عند هذا الحد من الموازنة . ونحسب أن في ما تقدم كفاية للقول بأن في أوديسة هوميروا واسعا من القصة المصرية التي اشتملت عليها ورقة البردى رقم ١١٥ في مكتبة بتروغراد . بل نحسب أن هنالك أكثر من الأثر الواسع يراه كل من ينظر في فكرة القصتين وفي صياغتهما . ولسنا نحكم بهذا وحدنا بل يحكم به معنا العالمان جوليئشيف ومورى . وإليك ماكتبه هذا الأخير في صفحة ٢٤٩ من كتابه الذى مر ذكره بعد أن عرض وجوه الموازنة بأوسع مما عرضناها هنا . قال :

« من كل هذه الموازنات التى أبرزها جوليئشيف بدقة تامة ، يتضح لى ، كما اتضح له ، أن « هناك فى الواقع أكثر من مشابهة عرضية بين القصة المصرية وقصة هوليس عند الفياسيين » (١) ، وليس ذلك مقتصر على الجزئيات التى يمكن أن توجد على أفراد فى كل قصة يدور الكلام فيها على سائح ينجو من الفرق . بل المجموع يدل أيضا على أن الفكرة فى القصتين واحدة » .

وهذه الورقة التى ترجمها جوليئشيف هى واحدة من عشرات من أوراق البردى التى بقيت بعد خمسة آلاف سنة تقلبت على مصر بالخير تارة وبالشقاء تارة فأمكن أن تنجو من التدمير . فانظر أى أثر كنا نجده لمصر فى الآداب والعلوم اليونانية لو أن آداب مصر وعلومها بقيت ، ولو أن المكتبات التى ثبت أن مصر كانت تعمّر بها منذ الأسرة السادسة (أى منذ خمسة آلاف سنة) بقيت ولم تعد عليها عوادي البلى والنهب والحريق .

وننظر الآن فى اقتباس آخر اقتبس هوميروا من أسطورة إيزيس وأوزيريس المصرية .

(١) هذه الجملة التى تبدى بكلمة « هناك » وتنتهى بكلمة « الفياسيين » وضمت بين أقواس للدلالة على أنها مقتبسة بنصها مما كتبه جوليئشيف .

تتلخص الأسطورة المصرية فى أن سيت قتل أخاه أوزيريس والقى فى النيل بالصندوق الذى يحتوى جثته ، فعام الصندوق من النيل الى البحر الأبيض المتوسط ، ثم وصل الى ثغر ببلوس (جيبيل) على سواحل سوريا . ووقفت به الأمواج عند جذع شجرة أثل ، فنمت هذه الشجرة حتى طوت الصندوق فى جوفها . وراها بعد ذلك ملك المدينة فأعجبته ، وأمر فنزعت من الأرض وأقيم جذعها عمودا لقصره . وعلمت إيزيس بذلك كله فجاءت الى ببلوس وجلست بالقرب من ينبوع ماء تبكى ، ثم مرت بها جوار هن فى خدمة الملكة ، فحيتهن برفق ، وعرضت عليهن أن تضفر شعورهن وأن تمسح أجسامهن بمثل الرائحة الزكية التى تفوح من جسمها .

فلما فعلت وعاد الجوارى سألتهن الملكة فأنبأتهن بنبا المرأة التى ضفرت شعورهن وطيبتهن ، فاستقدمتها الملكة وجعلتها مربية لطفلها .

وهنا نعرب ما كتبه بلوطرك تكملة لسياق الأسطورة ، قال (٢) :

« وكانت إيزيس كلما أرادت أرضاع الطفل وضعت له أصبعه فى فمه . فاذا جاء الليل أشعلت النار فيما يحتويه جسمه من عناصر الغناء . ويقال إنها كانت فى بعض الأحيان تتشكل فى شكل قطاة وتطير حول العمود الذى فيه صندوق أوزيريس صالحة ناشجة . فراقبتها الملكة ذات ليلة . فلما رأتها تلقى بطفلها فى النار ، صاحت وانتشلت ، فحرمته بذلك من نعمة الخلود . وحينئذ كشفت إيزيس عن نفسها فى صورة إلهة وطلبت أن تأخذ العمود . ثم نزعته بغير عناء ، وقطعته حتى ظهرت قطعة الخشب التى فيها الصندوق ، ففطنتها بنسيج رقيق من الكتان ، وطيبتها برائحة زكية . . . الخ » .

فهذا الجانب من الأسطورة المصرية أخذه هوميروا ونقله فى شعره الى الأسطورة اليونانية التى وضعت

(٢) الفقرة ١٦ ، والصفحة ٦٥ من كتاب (Isis et Osiris) ترجمة (Mario Meunier) الطبعة السابعة .

فمن هو الذى يقرأ هذا الذى كتبه هوميرو في
أسطورة ديميتير اليونانية ولا يرى فيه أثر الاقتباس
من أسطورة إيزيس المصرية . فديميتير دعيت لتكون
مربية لطفل الملكة ، كما دعيت إيزيس لتكون مربية
لطفل الملكة . والطفل في يد ديميتير لا يتغذى باللبن ولا
بالخبز ، كالطفل في يد إيزيس كلما أرادت أرضاعه
وضعت له إصبعه في فمه . وديميتير تدهن للطفل
جسمه بالعنبر ، كما دهنت إيزيس جوارى الملكة
وشعورهن بالطيب . وأهم من هذا كله وأقوى أن
ديميتير تضع الطفل في النار بقصد أن تحرق ما في
جسمه من عناصر الفناء فيصير خالداً ، وإيزيس
تفعل في الطفل ذلك بعينه وللقصد عينه . وأم الطفل
في الأسطورتين تراقب المربية فتراها وهي تضعه
في النار فتزعج وتزعجه ، فتحرمه بذلك على غير
علم منها نعمة الخلود .

لا جرم أن القصةين متشابهتان في هذا الجانب
منهما ، بحيث لا يقبل العقل إلا أن تكون واحدة منهما
قد اقتبست من الأخرى ، ولما كانت الأسطورة
المصرية أقدم من شعر هوميرو بقرون وقرون ، فلا
نراع في أن هوميرو هو الذى اقتبس .

وقد تظن أن هذا الذى عرضناه عليك هنا هو
كل ما وجدته العلماء من أثر مصر في شعر هوميرو ،
فكلا ، وأعلم إذن أن هوميرو وجد هذا الأثر أيضاً في
إلياذته (٥) ، فعقد له فصلاً خاصاً من صفحة ٢٥١
إلى صفحة ٢٧٣ من كتابه (Rois et Dieux
d' Egypte) أثبت فيه أن كثيراً مما في إلياذة مقتبس
من قصص مصرية أو رسوم مصرية ، بكل ما فيها
من الحوادث والتفصيلات والأوصاف ، كما رأينا في
قصة عوليس . وأعلم أيضاً أن عالماً آخر يسمى
هلبيج (Helbig) بحث هذا البحث نفسه ، وانتهى
إلى هذه النتيجة نفسها . ومن أراد فليرجع إليهما .

ولمصر أثر آخر في المدلية اليونانية أثبتته البحث في

(٥) إلياذة هي مجموعة من الشعر قص فيها هوميرو حوادث
حرب اليونانيين لمدينة طروادة ، وهي والأوديسة تعتبران أدنى
الشعر اليوناني القديم .

لإلهة يونانية تسمى « ديميتير » (١) ، فقال : إن هذه
الإلهة لما علمت بخطف بنتها كورى « حز الألم في
قلبها ، ومزقت يديها الشرائط التى تمسك شعرها ،
والقت على نفسها رداء أسود » .

والأسطورة المصرية تقول : إن إيزيس لما علمت
بقتل أوزريس « قطعت خصلة من شعرها ولبست
ثوب حداد » وجعلت « تجول في كل مكان فريسة
لأعظم ما يمكن من الحزن » (٢) .

فقد يقال إن شبهة الاقتباس في هذا التشابه
الضعيفة لأنه من الطبيعي أن تحزن ديميتير وتلبس
لباس الحداد حينما تعلم بخطف بنتها كما حزنت
إيزيس ولبست لباس الحداد حينما علمت بقتل
زوجها . وقد يكون من الطبيعي أيضاً أن تمزق
إحداهما شرائط شعرها كما قطعت الأخرى خصلة
من شعرها . ولكن أنظر ماذا قال هوميرو بعد ذلك (٣) .

قال إن ديميتير تعبت في البحث عن بنتها ، فوقفت
في قصر ملك يسمى كليوس لتستريح ، فاستدعتها
زوجة هذا الملك وعهدت إليها أن تقوم على تربية
طفلها ، فبما هذا الطفل بين يدي مربيته هذه
الجديدة « كأنه إله من غير أن يرضع لبناً أو يأكل
لخبزاً » وكانت ديميتير تدهن جسمه بالعنبر وتمسكه
بين يديها وتنفض عليها أنفاسها برفق ، فإذا جن الليل
خباها في النار وهو كالجلدة ، وراقبتها أم الطفل
فراحتها ذات مرة وهي تضعه في النار فذمرت
وانزعته ، وبذلك حرمته ، على غير علم منها ، نعمة
الخلود ، لأن النار التى كان يوضع فيها كل ليلة كانت
هى التى تطهره من عناصر الفناء وتجعله بعد ذلك
خالداً (٤) .

(١) (Déméter) هى من أكبر الآلهة في اليونان
القديم . وكانت تمثل الأرض ، والقوى الطبيعية ، وتعتبر الهة
للزراعة ، وحامية للزواج . وتلخص أسطورتها أن لها بنتاً
تسمى كورى خطفها هاديس فجعلت تجوب الأرض بحثاً عنها ،
فلما وصلت إلى أرض في اليونان تسمى ايلوزيس رحب بها
ملكها فعلمته الزراعة ، وصارت هذه الأرض مركزاً لعبادتها .
(٢) الفقرة ٦٥ من كتاب (Isis et Osiris) الذى من ذكره

(٣) من المصدر السابق .

(٤) راجع في ذلك تعليق هاريو مونى (Mario Meunier)

على الفقرة ١٦ من ٦٥ من كتاب (Isis et Osiris) .

معروفا الى سنين ولكنه الآن يبدو كلما ترجم العلماء أوراق بردي مصرية ، وكلما تعمقوا في موازنة آثار مصر بآثار اليونان . ولهذا أخذ يتزعزع الاعتقاد القديم القائل بأن المدنية اليونانية أول عهد الانسان بالتفكير العلمى وأن المدنيات التى سبقتها لم تكن سوى فوضى فكرية لا تستحق أن يحسب لها حساب . ونقول « أخذ بتزعزع » ولا نقول انهدم ، لأنه لا يزال قائما ولا يزال فويا ، ولكن التصدع أخذ بدب فيه . ومن أعجب الأشياء أن عشاق المدنية اليونانية القديمة هم الذين يخرج منهم أمثال فبكتسور بيرار وفوكر ، فيظهرون ما فى ذلك الاعتقاد من الزيف ، ويشهدون بالفضل السابغ لمصر على المدنية اليونانية .

وليس يمكن أن يحكم العقل والمنطق بغير هذا ، ونحن نعرف كما قلنا أن كثيرا من علماء اليونان تعلموا فى مصر ، وأن اليونانيين اختلطوا فى مستهل مدنيتههم بالمصريين حتى كانت لهم فى مصر المدن اليونانية وكان الجبش المصرى بعضه مصريا وبعضه يونانيا مأجورا . ليس يمكن أن يحكم العقل والمنطق بغير هذا ، وها هو ذا البحث العلمى يكشفه الآن يوما فيوما ، أفلا يكون مما يلفت النظر بعد ذلك أن يقرأ الانسان العلوم والآداب اليونانية فلا يجد فيها صدق لعلوم وآداب مصرية ، ولا ذكرا لعلماء وكتاب مصريين ... !!

السنين الاخيرة أيضا وهو أوضح وأعم وأعمق بكثير مما وجدناه فى شعر هوميروس . وهذا الأثر الذى نريده هو ما اقتبسته ، أو فل ما نقلته الأساطير والديانات اليونانية من الأساطير والديانات المصرية . وقد أسرنا الى هذا من قبل فلا يفوتنا هنا أن عالمنا من عشاق المدنية اليونانية هو بول فوكر (Paul Foucart) (١) أثبت أن ما يعرف فى الديانات اليونانية باسم « عبادة إيلوزيس » (Eleusis) (٢) ، ليس سوى عبادة إيزيس المصرية لابسة ثوبا يونانيا . وقد أقره على ذلك وأيده فيه ماسبيرو فى بحث عقده فى كتابه (Causeries d'Egypte) فى الصفحات من ٥٩ إلى ٦٩ .

ولا يفوتنا أيضا أن هذين العالمين أثبتا أن الاله اليونانى ديونيسوس (Dionysos) ليس سوى الاله المصرى أوزيريس لابسا ثوبا يونانيا .

فأثر مصر فى المدنية اليونانية يتضح إذن على ضوء البحث العلمى شاملا كل مناحيها . وهو لم يكن

(١) يصف معجم لاروس العالم فوكر بأنه عالم فرنسى من المحبين للمدنية اليونانية والمشتغلين بالآثار القديمة ، وقد ولد فى باريس فى سنة ١٨٢٦ .

(٢) هى عبادة كان طلابها يتلفونها فى معبد بالقرب من أثينا . وكانت لها مواسم تحتفل بها فيها اليونان كلها .



قصة الغريب

قال الخادم الماهر :

ليطب قلبك يا رئيسي ، فقد وصلنا إلى الوطن ،
وأخذ الرجال المطرقة ، ودقوا الوتد ، وجعلوا مؤخر
السفينة حيال الشاطئ ، وهتفوا ، وصلوا للآلهة ،
وأخذوا يتعاقنون ..
وقد عاد بحارتنا في صحة جيدة ، ولم ينقص منا
جندي واحد .

لقد وصلنا في رحلتنا إلى آخر بلاد واوات (٢)
ومررنا بسانمويت (٣) وعدنا الآن في سلام ، ووصلنا
إلى وطننا .

اللق لي سمعك يا رئيسي ، فلست رجل حيلة .
اغسل جسمك ، وصب الماء على أصابعك ، وصل ،
ثم أفض بما في قلبك للملك . وأحرص على رباطة
جأشك حينما تتكلم ، فانه إن كان لسان الرجل
منقذه فقد يكون كلامه قاضيا عليه بأن يغطي وجهه (٤)
افعل ما يرشدك إليه قلبك ، وليكن ما تقوله أداة
سلام لك .

سأقص عليك بالحق ما وقع لي أنا نفسي . كنت
قاصدا إلى مناجم الملك فركبت البحر في سفينة طولها
مائة وخمسون ذراعا وعرضها أربعون ذراعا (٥) ومعى

(٢) يقول ماسبيرو أن بلاد واوات هي التي كانت واقعة فيما
وراء الشلال الثاني من بلاد النوبة .

(٣) سانمويت اسم يطلق على جزيرة في النيل تسمى الآن
بيجه ، وهي واقعة أمام جزيرة فيله عند الشلال الأول .

(٤) كانت العادة جارية بتغطية وجه المجرم المحكوم عليه بالعقاب ،
فالكاتب يريد أن يقول أن كلام الرجل قد يجعله من المجرمين
الذين يقضى عليهم بتغطية وجوههم .

(٥) أن كان المقصود بالدراع هنا الذراع الملكي فطولُه ٥٢ سم ،
ويكون طول السفينة حوالي ٧٨ مترا وعرضها ٢١ مترا . ويرى
ماسبيرو أن هذين المقياسين مبالغ فيهما لأن السفن التي أرسلتها
الملكة حتشبسوت إلى بلاد بونت لم يكن طول الواحدة منها يتجاوز
٢٢ مترا ، ولم يكن عدد الرجال في كل واحدة منها يزيد على ٥٠
رجلا . ويظهر أن هذه المبالغة في حجم السفينة وفي عدد رجالها
مقصودة لأن الأمر امر قصة خرافية يجب أن يصاحبها التهويل .

بعد أن أشرنا في البحث السابق إلى « قصة
الغريب » المصرية وما اقتبسها هومير منها ، يحسن
أن ننشر هنا ترجمة عربية لهذه القصة .

كان الذي عثر على هذه القصة هو الأستاذ
جولنيشيف (١) المصروولوجي الروسي كما تقدم . وقد
عثر عليها في محفوظات الدير الامبراطوري في بتروغراد
في سنة ١٨٨٠ . ولم يعرف أحد إلى الآن كيف وصلت
إلى هذا الدير ، ولكنها وجدت في محفوظاته في ملف
من البردي لم يكن قد فتح ، فلما فتحه جولنيشيف
وجده مكتوبا بالخط الديموطيقي المصري فترجمه
إلى اللغة الفرنسية ، وأذاع خبره في مؤتمر عقد
للمستشرقين في برلين سنة ١٨٨١ ، ثم طبع الترجمة
ونشرها من غير أن ينشر النص الديموطيقي . وفي
سنة ١٨٩١ عاد فترجمه مرة ثانية ، إلى اللغة الفرنسية
أيضا ، ولكنه في هذه المرة نشر الترجمة الجديدة
ونشر معها النص الديموطيقي .

وهذه القصة هي إحدى القصص القليلة التي
وجدت سليمة وكاملة . ويرى العلماء في اللغة المصرية
القديمة أنها وضعت في عهد الأسرة الثانية عشرة .

وقد أخذ موري بالترجمة الثانية التي وضعها
جولنيشيف . وكان ماسبيرو قد أخذ بها هو أيضا
فنقلها في الطبعتين الأوليين من كتابه « القصص
الشعبية لمصر القديمة »

(Les Contes Populaires de l'Anciens Egyptiens)

ولكنه لما طبع الطبعة الثالثة من كتابه هذا ، كان قد
قرأ النص الديموطيقي الذي نشره جولنيشيف فوضع
ترجمة نشرها فيه . وهي لا تختلف عن ترجمة
جولنيشيف إلا في مواضع قليلة والفاظ قليلة ،
وهذه هي القصة :

(١) (M. Woldemar Golénicheff)

طولها على ذراعين (٥) ، وجسمه مرصع بالذهب ، ولونه كلون اللازورد . ثم وقف هذا الثعبان أمامي ، وفتح فمه في وجهي ، بينما كنت قد انطرحت على بطني ، ثم تكلم فقال :

« من أتى بك ؟ من أتى بك ؟ أيها الصغير (٦) من أتى بك ؟ إن أنت تأخرت عن أن تقول لي من أتى بك إلى هذه الجزيرة فسأعرفك من أنت (٧) . فاما أن القيك في النار فتختفي فيها ، أو تقول لي ما لم اسمعه ولم أعرفه قبل رؤيتك » .

ثم حملني في فمه ، ونقلني إلى المكان الذي يقيم فيه ، من غير أن يصيبني أذى . وكذلك انتقلت سليما معافى لم ينقص مني شيء . ثم قال لي مرة أخرى :

« من أتى بك ؟ من أتى بك ؟ أيها الصغير من أتى بك إلى هذه الجزيرة التي تغوص شسواطتها في الأمواج ؟ » .

وكنت إذ ذاك منبطحا على بطني ويدي مرسلتان أمامه فأجبت قائلا :

« أردت السفر إلى المناجم بأمر من الملك فركبت سفينة طولها مائة وخمسون ذراعا وعرضها أربعون ذراعا ، ومعى فيها مائة وخمسون من نخبة البحارة في مصر . وكان هؤلاء البحارة قد عرفوا السماء وعرفوا الأرض ، وكان في قلوبهم من البأس أكثر مما في قلوب الأسود . ثم كانوا إلى جانب ذلك يتنبأون بالعاصفة قبل هبوبها وبالعاصر قبل ثورانه . وكان كل واحد منهم أقوى من أخيه قلبا وذراعا . ولم يكن بينهم جبان . وبينما نحن في البحر هبت علينا العاصفة »

« هو ذا دوى موجة من أمواج البحر » ثم خفت الأشجار ، وارتجت الأرض ، فكشفت عن وجهي فأريت ثعبانا يتقدم نحوي . وقول السائح « كشفت عن وجهي » معناه أنه لم يدع شيئا يحجب نظره إلى الامام . أو لعل السائح كان قد فطى وجهه قبل ذلك ، ولكن ليس في سياق النص ما يدل على أنه كان قد فعل .

(٥) كان من المؤلف عند المصريين أن يجعلوا للآلهة لحى ، وأن يرسموا الملوك بلحى مستعارة منى أرادوا تصويرهم في صورة الآلهة . فالمفهوم من قول السائح هنا أن الثعبان ذو لحية يزيد طولها على ذراعين أن هذا الثعبان اله .

(٦) في ترجمة ماسبيرو توجد كلمة « التابع » يدل كلمة « الصغير »

(٧) علق ماسبيرو على هذه الجملة فقال أنها تتردد كثيرا في النصوص المصرية القديمة ، وأن المراد بها « سأعرفك مجزأ من مقاومة قدرتي » . ولقول نحن أن هذا الثعبان لا يزال مستعملا في مصر بهذا المعنى إلى اليوم .

مائة وخمسون من نخبة البحارة في مصر . وكان هؤلاء البحارة قد عرفوا السماء ، وعرفوا الأرض ، وكان في قلوبهم من البأس أكثر مما في قلوب الأسود . ثم كانوا إلى جانب ذلك يتنبأون بالعاصفة قبل هبوبها وبالعاصر قبل ثورانه (١) . وبينما نحن في البحر هبت علينا العاصفة فجأة ، وكنا قريبين من الأرض فدفعت بنا الرياح نحوها ، وأنارت أمواجها كانت ترتفع إلى ثمانية أذرع . ورأيت على مقربة منى قطعة من الخشب فألقيت بنفسى عليها وركبتها . ومات كل الذين بقوا في السفينة ولم ينج منهم أحد .

وقدفت بى موجة إلى جزيرة (٢) ، فقضيت فيها ثلاثة أيام لا رفيق لي فيها غير قلبي . ونمت في غابة تشبه المخبأ فكان ظلها يحيط بى . ثم مددت ساقى أبحت عن شيء أضعه في فمى فوجدت تينا ، وعنبا ، وكل أنواع الكراث الجميلة ، وبندورا ، وشماما هو من الكثرة حتى لكأنما يصنع صنعا (٣) ، ووجدت أسماكاً وطبورا . وبالأجمال لم يكن شيء إلا وهو في ذلك المكان . فأكلت حتى شبعت ، ثم وضعت على الأرض بعض ما كانت يداى تمتلئان به ، ثم حفررت حفرة واشعلت نارا ، وجعلت القى في النار مما هنالك ، قربانا يصل بواسطتها إلى الآلهة .

ولم أشعر بعد ذلك إلا وقد سمعت دويا كدوى الرعد ، فكشفت عن وجهي ، فأريت ثعبانا هائلا يتقدم نحوي (٤) ، طوله ثلاثون ذراعا ، ولحيته يزيد

(١) في الترجمة التي وضعها ماسبيرو : « وكان هؤلاء البحارة قد تنبأوا بأن لا عاصفة ولا نكبة » يدل « ثم كانوا إلى جانب ذلك يتنبأون بالعاصفة قبل هبوبها وبالعاصر قبل ثورانه » .

(٢) في ترجمة ماسبيرو : « ولكن العاصفة هبت ونحن في البحر ، وقبل أن ندرك الأرض . ثم اشتدت الريح فأنارت موجة ارتفعت إلى ثمانية أذرع ، فنزعت لوحا من الخشب ، وهلك كل الذين كانوا في السفينة . أما أنا فاني وصلت إلى جزيرة بعد أن دفعني موجة إليها » .

(٣) كلمات « هو من الكثرة حتى لكأنما يصنع صنعا » ليست موجودة في ترجمة ماسبيرو ، وإنما الموجود في مكانها « شماما من كل نوع » .

(٤) يلاحظ هنا أن هذا الثعبان لم يظهر إلا بمسد أن أحرق السائح القرين في النار ، مع أن السائح كان قد مكث قبل ذلك ثلاثة أيام . فكأنما أحرق القرين هو الذى دما الثعبان إلى الظهور ، مثل ذلك كمثال الأعمال السحرية التي لا بد فيها من إحراق البغور لأجل الاتصال بالقوى الخفية . وفي ترجمة ماسبيرو :

« ولم أشعر بعد ذلك إلا وقد سمعت دويا ، فقلت في نفسى =

« وبعد ، فأقول لك إنك إن كنت شجاعا ،
وكان قلبك قويا فستضم إلى صدرك أولادك ،
وستعانق امرأتك ، وسترى دارك ، وذلك خير من
كل شيء . ستصل إلى بلادك ، وستكون فيها بين
إخوانك » .

وحينئذ انبطحت أرضا على بطنى وقلت :
« دونك الآن ما أريد أن أفضى به إليك . سأصف
أرواحك (٣) لفرعون ، وسأخبره بمجدك ، وسأجلب
لك زيتا مقدسة ، وطيبا ، ودهانا ، وصندوقا
للخاترك المقدسة ، وبخورا للمعابد مما يعجب كل
إله . وسأقص على فرعون ما أتيح لى أن أراه هنا ،
وسيعبدك الناس في مدينتك بمحضر أعيان الأرض
جميعا (٤) . وسأذبح لك ثيرانا ثم أحرقها في النار .
وسأخلق لك طيورا (٥) . وسأحضر لك سفنا مملوءة
بكنوز من مصر ، كما يفعل الناس لاله محب لهم في
بلاد بعيدة لا يعرفونها » .

فضحك منى ومن كلامى ، ثم قال لى :
« ليس عندك من كثير (٦) ، وكل لديك بخور .
أما أنا فانى ملك بلاد بونت ، وعندى من . والشئ
القليل وحده في هذه الجزيرة هو الزيت المقدس (٧) .
على أنك متى فارقت هذه الجزيرة فلن تراها لأنها
ستتحول إلى أمواج » .
فلما جاءت السفينة ، كما كان الشعبان قد أخبرنى ،
صعدت فوق شجرة عالية وجعلت أرقب الذين
فيها . ثم ذهبت إلى الشعبان وأبلغته الخبر فوجدته
يعرفه ، وحينئذ قال لى :

(٣) كانت الاساطير تقول ان لكل اله سبعة أرواح .
(٤) المراد بالأرض جميعا مصر . ويلوح أن المراد بقوله
« وسيعبدك الناس في مدينتك » أن السائح بعد الشعبان بأن تكون
له عبادة في مصر ومدينه يعبد فيها كما كان رع يعبد في هليوبوليس
وبتاح في ممفيس وتوت في الأشمونين وأمون في طيبة . . . الخ .
(٥) المراد بقوله « وسأخلق لك طيورا » أنه سيقدم له قرايين
من الطيور .

(٦) معروف أن نبات المر اذا احرق نشر رائحة زكية . وقد
كان المصريون يجلبونه من بلاد بونت (التى يقال انها بلاد الصومال
كما يقال انها جنوب بلاد العرب) ليقدّموا منه هدايا للالهة .
(٧) ترجم ماسبيرو « الزيت المقدس » على انه « طيب التهليل »
وقال انه يسمى « هاكاتو » ولم يعرف العلماء شيئا عن تركيبه
ولكنهم يعرفون أنه واحد من زيوت سبعة كانت تقدم للالهة ،
وفي الحفلات الجنائزية .

نجاة » وكنا قريبين من الأرض فدفعت بنا الرياح
نحوها وأثارت أمواجا كانت ترتفع إلى ثمانية أذرع .
ورأيت على مقربة منى قطعة من الخشب فالتفت
بنفسى عليها وركبتها . ومات كل الذين بقوا في
السفينة ولم ينج منهم أحد . وقد انقضت على
ثلاثة أيام ، والآن هانذا قريب منك ، وأنا الذى
دفعتنى موجة إلى هذه الجزيرة » .

فقال الشعبان :

« لا تخف شيئا ، لا تخف شيئا أيها الصغير ،
ولا تدع الحزن ينتشر على وجهك . لقد وصلت إلى
لأنه كتب لك أن تصل إلى هذه الجزيرة السعيدة (١)
التي فيها كل شيء ، والتي هى مملوءة بالاشياء
الطيبة . ستقيم هنا شهرا بعد شهر إلى أن تمضى
أربعة أشهر ، ثم تأتى سفينة فيها بحارة عرفتهم ،
وستسافر معهم ، وستموت في مدينتك .

« إن مما يوجب ارتياحى أن أطلع رجلا عانى الآلام
مثلك على ما هنا . فسأخبرك إذن بما في هذه
الجزيرة لا أنقص منه ولا أزيد .

« إننى أعيش في هذه الجزيرة بين أخوتى وأبنائى .
وعددنا خمسة وسبعون شعبا . وعدا ذلك توجد
فتاة جاءتني من طريق السحر ، وذلك أن نجمة
سقطت ، فخرج منها الذين كانوا في نارها ، وظهرت
الفتاة من غير أن أكون مع الكائنات التى خرجت من
النار أو بينها ، وإلا فلو أننى كنت مع هذه الكائنات
أو بينها لمت . وقد وجدت الفتاة بعد ذلك ميتة
وحدها (٢) » .

(١) في ترجمة ماسبيرو أن هذه الجزيرة تسمى « جزيرة الأرواح
السعيدة » .

(٢) يعلق ماسبيرو على حكاية هذه النجمة فيرجع أن المقصود
بها شهاب من الشهب التى تظهر في الجو أو صاعقة . ويقول ان
هذه هى الإشارة الوحيدة التى وجدت في النصوص القديمة لمثل
هذا المعنى .

ويقول ماسبيرو أيضا : أن النص الديموطيقى مبهم في هذه
النقطة وأن جولنيشيف ترجمه على أن الفتاة ميتة لأن نار الشهاب
أو الصاعقة أحرقتها . ولكنه هو - أى ماسبيرو - يرى أن النص
معناه أن الفتاة حية وأن الشعبان لا يعرف كيف ولدت ، وقد رأى
هذا الشعبان الشهاب حينما سقط ثم رأى النار التى اضطربت
بعد سقوطه فلم يقترب منها بل انتظر حتى خمدت ثم اقترب
فرجد الفتاة بين البحث من غير أن يعرف كيف جاءت .

انتهت القصة من بدايتها إلى نهايتها كما وجدت مكتوبة . والذي كتبها هو الكاتب « أموني - أماناوو » ذو الأصابع الماهرة ، له الحياة والصحة والقوة .

هذه هي قصة الغريق ، ويفهم من مقدمتها أنها رفعت من مرؤوس إلى رئيسه . ويقول الكاتب : « ليطب قلبك يا رئيسي فقد وصلنا إلى الوطن » ثم يقول : « أغسل جسمك ، وصب الماء على أصابعك ، وصل ، ثم أفض بما في قلبك للملك . واحرص على رباطة جأشك حينما تتكلم ، فانه إن كان لسان الرجل منقذه فقد يكون قاضيا عليه بأن يغطي وجهه » . فهل يفهم من ذلك أن الرئيس الذي رفعت إليه القصة كان مع مرؤوسه في الرحلة التي يتبر إليها في قوله : « لقد وصلنا في رحلتنا إلى آخر بلاد واوات ومررنا بسامويت وعدنا الآن في سلام لا » ، أو هذا الرئيس لم يكن في الرحلة ثم لما عاد المرؤوس وجب أن يقدم إليه تقريراً عما فعله ، كما يقدم الآن كل قائد بحري تقريراً إلى وزير البحرية عن رحلة أمر بها فادها وعاد منها ؟

ليس في القصة جواب على هذا . وكل ما يفهم من المقدمة أن الرئيس الذي قدمت القصة إليه كان عليه أن يقابل الملك ، وأن يتحدث إليه في أمر قد تكون فيه مؤاخذة له ، ولذلك يوصيه الكاتب بأن يظهر وينشجع ويحرص على اجتناب الزلل في الكلام . ويضيف الكاتب إلى ذلك في ختام قصته كلمة يطمئنه بها ، وهي قوله « لقد قال لي فرعون ، كن خادما بصيرا فطنا يا صديقي » ، فمن الذي يسقى الطير في بكور اليوم الذي ينوي أن يذبحه فيه .

أما القصة نفسها فهي من القصص الشعبية ، ومن الطبيعي أن تظهر فيها صور من الأساطير والعادات الدينية القديمة ، لأنها بغير ذلك تكون غريبة عن رمانها

= الجملة تقع في الأذن كما يقع المثل فلعلها كانت مثلا مصرية . أما معناها فهو أن الرجل الذي يسقى طيره في بكور النهار يدل بذلك على أنه لا ينوي أن يذبحه في هذا النهار نفسه ، وإن كان يكون للطير الذي سقى أن يطمن في نهاره كما يكون لكل رجل ناله خير من سيد قادر أن يطمن إلى هذا الخير والا يتوقع من ورائه شرا عاجلا من هذا السيد نفسه .

« صحة جيدة ، صحة جيدة أيها الصغير حتى تصل إلى دارك . ستري أولادك . وليكن اسمك مدغورا بالخير في مدينتك . تلك هي أمانى لك » . فانبطحت على بطنى أمامه ، وأرسلت يدي ، فأعطاني من الهدايا مرا ، وزيتا مقدسا ، ودهانا ، وهندودا ، وفلغلا ، ومسحوقا ، وكحلا ، وسروا ، وبخورا ، وذيول حيتان ، وأنياب قيلة ، وكسلايا سلوكية ، وقرودا ، وغير ذلك من كل ماهو ثمين (١) . فحملت هذه الهدايا إلى السفينة ، ثم انبطحت على بطنى وعبدت الثعبان ، فقال لي :

« ستعمل إلى بلدك بعد شهرين ، وستضم أولادك إلى صدرك ، وبعد ذلك تمضي إلى قبرك لتجدد شبابك (٢) » .

فسرت إلى الشاطئ حيث السفينة ، ودعوت الجنود الذين فيها ، وصليت على الشاطئ لسيد الجزيرة وللذين يقيمون فيها .

ولما عدنا إلى مدينة الملك جنحت السفينة وارتطم مقدمها بالساحل . ووصلنا إلى قصر الملك في الشهر الثاني ، كما كان الثعبان قد تنبأ . فمثلت أمام الملك وقدمت له الهدايا التي جلبتها من الجزيرة ، فشكرني أمام اعيان الأرض جميعا . ثم أدخلت خدمة الملك وصرت متصلا بكبار حاشيته .

والآن فخفض نظرك لي ، فقد عدت إلى أرض مصر ، بعد أن رأيت أشياء كثيرة ، ومرت بي محن كثيرة . اصغ إلى فان الاصغاء نافع . لقد قال لي فرعون « كن خادما بصيرا فطنا يا صديقي » ، فمن هو الذي يسقى الطير في بكور اليوم الذي ينوي أن يذبحه فيه (٣) .

(١) خلق ماسبيرو على هذه الأنواع من الهدايا فقال انها هي بمعناها التي جلبتها من بلاد بونت الحملة البحرية التي أرسلتها بعد ذلك الملكة حتشبسوت ، بحيث لا يوجد بين هذه وملك الاختلاف قليل .

(٢) الظاهر أن قوله « تمضي إلى قبرك لتجدد شبابك » محمول على أن المصريين كانوا يعتقدون أن الموت ليس فناء للإنسان ، وإنما هو النقال من حياة إلى أخرى . وكانوا يعتقدون أيضا أن الرجل الصالح يبعث في الحياة الأخرى شابا . وقد تقدم هذا كله في البحث الخاص بعبقدة الحساب بعد الموت .

(٣) علق ماسبيرو على قول الكاتب « فمن هو الذي يسقى الطير في بكور اليوم الذي ينوي أن يذبحه فيه » فقال أن هذه =

وتنتهى القصة بالعبارة الآتية :

« انتهت القصة من بدايتها الى نهايتها كما وجدت مكتوبة . والذي كتبها هو الكاتب « أمونى - أماناوو » ذو الأصابع الماهرة ، له الحياه والصحة والقوة » .

فهل « أمونى - أماناوو » هذا هو واضع القصة، أو هو نساخ وجدها مكتوبة فنسخها ؟

إن قوله « كما وجدت مكتوبة » قد يشير الى أنه ليس سوى نساخ ، ولكن قوله « والذي كتبها هو أمونى - أماناوو » قد يكون معناه أن هذا الأخير هو الذى وضعها وأن النساخ شخص آخر لم يذكر اسمه .

والقصة ساذجة كما رأيت ، ولعلها كانت فى لغتها الأصلية تكسب قوة من حسن انتقاء الالفاظ والبراعة فى التعبير . ولكن هذه القوة تضعف كلها فى الترجمة ، وخاصة إذا كان المترجم قصة وضعت منذ أربعة آلاف سنة ، لعصر غير عصرنا ، وبيئة غير بيئتنا ، وتقاليده غير تقاليدنا ، وعقليته غير عقليتنا . إذ مما لا شك فيه أن العصر والبيئة والتقاليد والعقلية تضى على الكتابة قوة خاصة تبقى ببقائهما ، فإذا زالت ، صارت الكتابة ، التى كانت تشبه الشجرة الحية المورقة ذات الزهر اليناع ، كأنها خشب جاف لا ورق فيه ولا زهر ولا حياة .

وللكاتب مع ذلك عذر فى سداجة قصته ، هو أنه كان يكتب فى وقت كان العقل الانسانى فيه يخطو خطواته الاولى فى سبيل التفتح ، ومن الظلم أن يطلب من كاتب هذا شأنه أن يكون ككاتب يكتب فى وقتنا هذا .

على أن الفكرة الأساسية فى القصة ، وهى الرحلة فى البحر ثم الاشراف على الفرق ، ثم النجاة إلى جزيرة أو أرض ذات عجائب ، ثم العودة إلى الوطن بعد مكابدة هذه العجائب ، نقول إن هذه الفكرة انتقلت بعد ذلك إلى الأدب العربى على يد كاتب مصرى ، كان هو الذى وضع قصة « السندباد

وبيئتها . ولكن من الخطأ أن يظن أنها وضعت للتعبير عن فكرة دينية معينة .

وقد كانت عامة المصريين تقبل على هذا النوع من القصص ، كما تقبل عليه الآن . ولذلك وجد فى قصص عدة ، بعضها يقص سياحات فى سوريا (١) ، وبعضها يقص رحلات فى البحر الأبيض المتوسط (٢) ، وبعضها يقص رحلات فى النوبة (٣) ، ثم قصتنا هذه تقص رحلة فى البحر الأحمر .

وقبل أن تعرف هذه القصص كان الاعتقاد عاما بأن المصريين القدماء كانوا يكرهون ركوب البحر والخروج من بلادهم ، وكان الكتاب اليونانيون والرومانيون هم الذين أنشأوا هذا الاعتقاد ، لأنهم ادعوا هذه الدعوى ثم غالوا فيها فزعموا أن المصريين كانوا يستأجرون بحارة فينيقيين لسفنهم كلما أرادوا أن تشق سفينة لهم عرض البحر أو أن يقاتلوا أعداء لهم فى البحر . فلما عرفت هذه القصص ، كان فيها وفى النقوش التى وجدت فى المعابد ، تكذيب كاف لتلك الدعوى . إذ السائح الغريق هنا مصرى ، والابطال فى قصص الرحلات الأخرى مصريون جميعا ، وهم يقصون حوادث لا يختلف اثنان فى أنها مصرية ، بروحها وأساطيرها وما تشتمل عليه من العادات والتقاليد .

وقد كان عجيبا حقا أن تقع مصر على البحر الأبيض من ناحية والبحر الأحمر من ناحية أخرى ، ثم يكره أهلها ركوب الماء . وكان عجيبا أيضا أن تستهدف مصر لغزوات جيرانها الطامعين فى خيراتها ، فى مدى أربعة آلاف سنة أو تزيد ، ثم يجهل أهلها بلاد هؤلاء الجيران . نعم كان هذا عجيبا ، ولكن الكتاب اليونانيين والرومانيين قالوه ، وأكدوه ، الى أن كذبتهم النقوش التى فكت وموزها ثم جاءت القصص فهدمت زعمهم من أساسه ودلت على أن الرحلات فى البحار وفى البلاد المجاورة كانت بعض ماشغف به المصريون .

(١) منها قصة « سينوهيت » (سنوحى) التى وقعت حوادثها فى زمن الاسرة الثانية عشرة .

(٢) منها قصة « أونامونو » ورحلته الى ببلوس .

(٣) منها قصص مختلفة لأمرء ايلفنتين ورحلاتهم فى النوبة .

« وكان بعد ذلك أنه (شمشون) أحب امرأة في وادي سورق تسمى دليلة . فصعد إليها أقطاب الفلسطينيين وقالوا لها : تملقيه وانظري بماذا قوته العظيمة ، وبماذا نتمكن منه لكي نوثقه لاذلاله ... فقالت دليلة لشمشون : أخبرني بماذا قوتك العظيمة ، وبماذا توثق لاذلالك ؟ » .

فهنا كررت على لسان دليلة لشمشون نفس الالفاظ التي قالها أقطاب الفلسطينيين لدليلة . ثم استمر كاتب السفر فقال :

« فقال لها شمشون : إذا أوثقوني بسبعة أوتار طرية لم تجف أضعف وأصير كواحد من الناس . فاصعد لها أقطاب الفلسطينيين سبعة أوتار طرية لم تجف فأوثقته بها والكمين لاثب عندها في الحجرة . فقالت له : الفلسطينيين عليك يا شمشون . فقطع الأوتار ... فقالت دليلة لشمشون : قد ختلنتي وكلمتني بالكذب ، فأخبرني الآن بماذا توثق ؟ فقال لها : إذا أوثقوني بحبال جديدة لم تستعمل أضعف وأصير كواحد من الناس . فأخذت دليلة حبالا جديدة وأوثقته بها ، وقالت له : الفلسطينيين عليك يا شمشون . والكمين لاثب في الحجرة . فقطعها عن ذراعيه كخيوط . فقالت له دليلة : حتى الآن ختلنتي وكلمتني بالكذب ، فأخبرني بماذا توثق ؟ فقال لها : إذا ضفرت سبع خصل رأسي مع السدى فمكنتها بالوتد وقالت له : الفلسطينيين عليك يا شمشون . فانتبه من نومه وقلع وتد النسج والسدى . فقالت : كيف تقول أحبك وقلبك ليس معي . هو ذا ثلاث مرات قد ختلنتي ولم تخبرني بماذا قوتك العظيمة ... الخ » .

ففي هذه الأسطر القليلة من القصة كرر شمشون غير مرة قوله « أضعف وأصير كواحد من الناس » . وكررت دليلة غير مرة أيضا قولها « قد ختلنتي وكلمتني بالكذب ، فأخبرني بماذا توثق » ، ثم قولها « بماذا قوتك العظيمة » ، ثم قولها « الفلسطينيين عليك يا شمشون » .

البحري » في قصص « ألف ليلة وليلة » . فمصرى إذن هو الذي وضع في الأدب المصرى القديم « قصة الغريق » ، ومصرى أيضا هو الذي وضع بعد ذلك في الأدب العربى قصة « السندباد البحري » . ولم تقف الفكرة عند هذين الأدبيين ، بل انتقلت إلى الأدب الانجليزى ، في قصص نعرف باسم « روبنسون كروزو » (١) .

ويلاحظ في أسلوب الكاتب المصرى أنه قص قصة السفر والإشراف على الفرق والنجاة إلى الجزيرة ، ثم لما طلب الثعبان من السائح أن يخبره من أين جاء وكيف جاء ، وشرع هذا السائح يجيب ، قص القصة نفسها ، بالفاظها ، مرة ثانية فقال : « أردت السفر إلى المناجم بأمر من الملك ، فركبت سفينة طولها مائة وخمسون ذراعا ، وعرضها أربعون ذراعا ، ومعى فيها مائة وخمسون من نخبة البحارة في مصر . وكان هؤلاء البحارة قد عرفوا السماء ، وعرفوا الأرض ... الخ » .

وهذا هو بعينه ولفظه ما كان قد قصه من قبل ، لا يختلف عنه إلا في كلمات قليلة . وكان أولى لو أنه استغنى عن هذا التكرار المبتذل بجملته موجزة يقول فيها : إنه أجاب الثعبان فأخبره بكل ما كان من أمره . غير أن هذا التكرار الذي يراه كتاب اليوم مبتذلا ، كان سائغا منذ أربعة آلاف عام . وقد استعمل أكثر من مرة في قصة « الملك خوفو والسحرة » (٢) ، وفي قصص أخرى . ولم يكن هذا الأسلوب مستعملا في مصر وحدها ، بل كان مستعملا في غيرها من البلاد أيضا ، وقد جاءت التوراة بعد « قصة الغريق » بأكثر من ألف سنة فلم يستطع الدين كتبوها أن يتخلصوا من أسلوب التكرار ، ونسوق هنا أمثلة تدل عليه .

ففي الأصحاح السادس عشر من « سفر القضاة » حكاية عن شمشون ودليلة ، ما يأتى :

(Robinson Crusoe) (١)

(٢) موضوع هذه القصة أن الملك خوفو دما أولاده وطلب أن يقص عليه كل واحد منهم أعجب ما عرفه أو سمع به من أعمال السحر والحكمة ، فأجابوا وقصوا أشياء كثيرة .

ففى هذه الأسطر من تكرار الالفاظ ما يستطيع القارئ أن يتبينه بسهولة .
وفى الاصحاح السابع من هذا السفر نفسه ما يأتى :

« فجاء الملك وهامان ليشربا عند أستير الملكة .
فقال الملك لأستير فى اليوم الثانى أيضا عند شرب الخمر : ما هو سؤلك يا أستير فيعطى لك ، وما هى طلبتك . ولو إلى نصف المملكة تقضى ؟ فأجابت أستير الملكة وقالت : إن كنت قد وجدت نعمة فى عينيك أيها الملك وإذا حسن عند الملك ، فلتعط لى نفسى بسؤلى وشعبى بطلبتى ... الخ » .

وهنا أيضا تكرار لنفس الالفاظ التى مرت فى الاصحاح الخامس ، وقصص التوراة مشحونة بكثير من هذا النوع من التكرار .

والذى يوازن أسلوب الكاتب المصرى فى التكرار بأسلوب التوراة ، يحكم للأول بأنه لم يلجأ إلى التكرار إلا فى موضع واحد من قصته بينما أسلوب التوراة يكثر منه فى كثير من المواضع حتى لتكاد كلمات بعينها تتكرر كلما مضت أسطر تعد على الأصابع .

وفى الاصحاح الخامس من سفر أستير ما يأتى :
« وفى اليوم الثالث لبست أستير ثيابا ملكية والملك جالس على كرسى ملكه فى بيت الملك مقابل داخل البيت . فلما رأى الملك أستير الملكة واقفة فى الدار نالت نعمة فى عينيه . فمد الملك لأستير قضيب الذهب بيده ، فدنت أستير ولمست رأس القضيب . فقال لها الملك : مالك يا أستير الملكة ما هى طلبتك . إلى نصف المملكة تعطى لك ؟ فقالت أستير : إن حسن عند الملك فليأت الملك وهامان إلى الوليمة التى عملتها له . فقال الملك : أسرعوا بهامان . ليفعل كلام أستير . فأتى الملك وهامان إلى الوليمة التى عملتها أستير . فقال الملك لأستير عند شرب الخمر : ما هو سؤلك فيعطى لك وما هى طلبتك . إلى نصف المملكة تقضى ؟ فأجابت أستير وقالت : إن سؤلى وطلبتى إن وجدت نعمة فى عينى الملك وإذا حسن عند الملك أن يعطى سؤلى وتقضى طلبتى أن يأتى الملك وهامان إلى الوليمة التى أعملها لهما ، وغدا أفعل حسب أمر الملك » .



رسائل سياسية وغير سياسية

في عهد الأسرة الثامنة عشرة

ولم يفهما كيف يمكن أن يوجد مستودع لكتابات بهذا الخط في مصر . ثم أرسلنا ما اشتريناه من الطوب إلى عالين خبيرين بالخط المسماري هما الأستاذ أوبري في باريس والأستاذ سابس في لندن ، فلم يجدوا هذان العالمان مناصا من القول بأن الكتابة بابلية . ولكن الخبر لم يكذب يداع حتى قبل بالدهشة في جميع الدوائر العلمية ، ثم تحولت الدهشة إلى ريبة ، والريبة إلى سخرية وإنكار ، وخرج العلماء من هذا كله بأن قالوا : إن مازحا غشاشا أراد أن يضحك منهم ومن الناس كافة فصنع الطوب وقش عليه مانقش ثم وضعه في تل العمارنة ليداعب به الفلاحين المصريين أولا ، وتجار العاديات المصرية ثانيا ، والعلماء أخيرا . وهكذا انكر العلماء طوب تل العمارنة ، وانكروا أن يوجد طوب بابلي في مصر على صورة من الصور . ولكن قوالب هذا الطوب كانت كثيرة ، وقد أخذت كثرتها هذه تظهر شيئا فشيئا ، فلم يكن بد من أن يبدو غريبا أن يكون ذلك المازح الغشاش الذي نقش الطوب ودفنه في خرائب تل العمارنة كلف نفسه كل هذه المشقة لغير غرض سوى الفس والمزاح .

وعندئذ أخذ الشك يعلق بذلك الإنكار . ثم ازداد الشك حينما قيل : إن قوالب الطوب ليست خمسين أو ستين بل قد يبلغ عددها بضعة الوف (سياتي أن عددها الصحيح كان ستمائة تلف منها في أيدي العلماء ثلثمائة) . وحينئذ اشترت متاحف مصر ولندن وبرلين وفيينا قليلا منها ، واشترى بقيتها طبيب كان معروفا في الاسكندرية يسمى دانيوس باشا وجامع آثار قديمة كان يسمى جراف . وعرف متحف برلين قيمة هذه القوالب ، وعلم أن جراف ودانيوس باشا لا يكرهان أن يبيعا مالهيهما فاشتراه منهما . وأكب العلماء على قوالب الطوب يحاولون قراءة ما فيها ، ففي أبريل سنة ١٨٨٨ قرأ سايس

في سنة ١٨٧٧ كان جماعة من أهالي قرية الحاج قنديل يحفرون في تل العمارنة ، أو قرية بنى عامر ، ليجثوا عن طوب وحجارة لمساكنهم . وكان أهل هذه القرية وأهل القرى المجاورة لها قد الفوا من أزمنة بعيدة أن يلتمسوا في تل العمارنة هذا ما يريدونه من سمد لحقولهم وأدوات لمبانيهم . فبينما كان أصحابنا هؤلاء بهدمون جدارا سميكا وينقضونه حجرا حجرا إذا بفؤوسهم تعثر في جوانبه على قوالب من الطوب سليمة ، فتناول واحد منهم قالبا ونظفه من التراب المتراكم عليه ، فما أشد مادهمش أذ رأى عليه نقوشا تملأ جانبيه وتنتظمها صفوف لا عوج فيها ولا انقطاع . فعرض الأمر على زملائه فنظفوا هم أيضا قوالب أخرى فظهر لهم فيها مثل ماظهر لزميلهم من النقوش ، وظهر إلى جانب ذلك أن من الطوب ماهو اسود ومنه ماهو أصفر ومنه ماهو أحمر . فلم يسبق لديهم شك في أنهم عثروا على لقية من اللقى الأثرية التي يزدهم بها جوف الأرض في مصر . فعادوا يحفرون ، ولكن بحذر واحتياط في هذه المرة ، فوجدوا حفرتين عميقتين صفت فيهما قوالب من ذلك الطوب الملون المنقوش ، وكانت حميرهم تنتظرهم فلم يحملوا عليها مواد البناء التي جاءوا في طلبها ، بل حملوا تلك القوالب وعادوا إلى قريتهم غانمين فرحين .

ولم تمض على ذلك أيام حتى كانت هذه القوالب قد انتقلت من أيدي أصحابنا هؤلاء إلى أيدي تجار الآثار في أخميم والأقصر والقاهرة . ثم وصل خبرها إلى مدير مصلحة الآثار المصرية حينذاك مسيو جريبو وإلى مدير المدرسة الفرنسية في القاهرة مسيو نورمان ، فاشترى بعضا منها وأخذوا يفحصان النقوش التي عليها ، فلم يستطيعا قراءتها ولكنهما أدركا أنها تشبه الخط المسماري ، خط الكتابة البابلية القديمة

الرابع قد أسسها وسمها « خوتاتون » — أى أفق قرص الشمس — وانتقل من طيبة إليها وجعلها عاصمة الامبراطورية المصرية (١) ، بعد أن ثار على عبادة المعبود آمون وأقفل معابده وشتت كهنته ودعا إلى عبادة « أتون » — أى قرص الشمس — وسمى نفسه « ايخون أتون » ، أى « قرص الشمس مغتبط » ، ويسميه كثير من كتاب التاريخ المصرى « اخناتون » على سبيل التخفيف .

وليس المقام هنا مقام شرح هذه الثورة والأسباب التى دعت إليها . وإنما يكفى أن نقول انها أول ثورة كبيرة على الكهنة وعلى المعتقدات الدينية التى كانت فاشية فى ذلك الوقت ، وإن من اكبر الأسباب التى حملت امينوفيس الرابع عليها رؤيته نفوذ الكهنة يطفى على نفوذ الفراعنة ورؤيته الأموال التى تجبى للكهنة باسم المعابد والمعبودات تطفى على الأموال التى تجبى لخزانة الدولة . ويضاف الى ذلك ان صيرورة مصر امبراطورية يمتد حكمها الى شعوب مختلفة فى النوبة والسودان من ناحية ، وفى فلسطين وسوريا وسواحل الفرات وآسيا الصغرى من ناحية ثانية ، وفى الجزر المنتشرة فى الجانب الشرقى من البحر الأبيض المتوسط من ناحية ثالثة . هذه الامبراطورية لا يلائمها ان تتعدد فيها المعتقدات الدينية وتتعدد المعبودات ، بل الذى يلائمها ويوحد هواها جميعا هو ان يكون لها معتقد دينى واحد ومعبود واحد ، ولم يكن هذا المعبود فى نظر امينوفيس الرابع غير الشمس لأنها ترسل النور والحرارة والحياة الى جميع أنحاء

(١) كانت مصر فى ذلك العهد امبراطورية تمتد من الشلال الرابع فى السودان الى ماوراء الفرات والى المنطقة التى تعرف الآن باسم لواء الاسكندرونة فى آسيا الصغرى ، ثم الى أرخبيل ايجيه فى البحر الأبيض المتوسط . وقد وجدت فى بعض القصور فى جزيرة كريت وفى بلاد اليونان اختام باسم الملكة تى بى والدة امينوفيس الرابع وزوجة ابنيه الملك امينوفيس الثالث ، ففتح ذلك بابا للقول بأن حكم مصر امتد فى ذلك العهد الى كريت والى سواحل اليونان ، ولكن هذا القول لا يزال محتاجا الى أدلة أخرى وان يكن من المؤكد ان نفوذ مصر الأدبى والتجارى كان شامعا اذ ذاك فى كريت وفى اليونان .

وهذه البلاد التى ذكرناها هنا هى التى كانت مصر تحكمها حكما مباشرا ، ومما ذلك كانت توجد بلاد أخرى فى آسيا الصغرى ترتبط مع مصر بمعاهدات تشبه بمعاهدات الحماية .

الذى تقدم ذكره أسماء الملوك بابلين وحكام سوريين . وقفى على أثره عالم المانى من كبار العلماء فى المصولوجيا هو أدولف إرمان الذى ذكرناه فى بحوث سابقة فقرأ اسم الفرعون امينوفيس الثالث والفرعون امينوفيس الرابع مكتوبين بالخط المسمارى . ثم تضافر أربعة من العلماء هم الأستاذ ايل (١) ، والأستاذ ونكلير (٢) فى برلين ، والأستاذ بيزولد (٣) ، والأستاذ بودج (٤) فى لندن ، على طبع صورة النقوش التى على الطوب وإذاعتها فى جميع الدوائر العلمية لتكون فى متناول كل من يعرف شيئا من الخط المسمارى . واستطاع عالم فرنسى بعد ذلك هو الأستاذ هاليفى (٥) ، أن يضع ترجمة لمجموعة كبيرة من هذه النقوش باللغة الفرنسية ، فكانت ترجمة يخللها النقص فى مواضع ، والخطأ فى مواضع ، ولكنها كانت أول محاولة أعطت فكرة عامة عن القوالب وما فيها . وحينئذ عرف أن هذه القوالب تحوى رسائل سياسية بين فراعنة مصر من جانب وملوك بابل وآسيا الصغرى وحكام سوريا من جانب آخر ، ووضح فى الوقت نفسه أن هذه الرسائل أقدم مكاتبات سياسية يعرفها العالم ، وأن فيها من البيانات ما يكشف عن العلاقات التى كانت بين مصر وجيرانها فى عهد الأسرة الثامنة عشرة أى فى حدود ألف وخمسمائة سنة قبل الميلاد ، فهى لهذا تعد فى الطبقة الأولى بين الوثائق التاريخية .

والآن يحسن بنا ، قبل المضى الى الأمام فى درس هذه الرسائل السياسية ، أن نقول ما هو تل العمارنة الذى وجد فيه ذلك الطوب .

فتل العمارنة هو اسم يطلق على خرائب تقوم بالقرب منها الآن قرية صغيرة تسمى قرية بنى عامر على الشاطئ الشرقى من النيل فى الطرف الشمالى من مديرية أسيوط بين ملوى وديروط . وهذه الخرائب هى بقايا مدينة قديمة كان الملك امينوفيس

- (١) (Abel)
- (٢) (Winckler)
- (٣) (Bezold)
- (٤) (Budge)
- (٥) (Halévy)



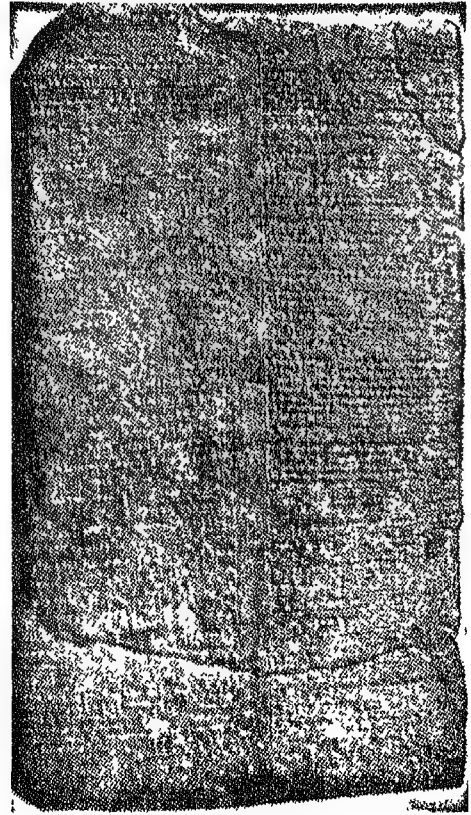
الامبراطورية المصرية في آسيا

يجمع العلماء على أن الامبراطورية التي أنشأتها مصر في عهد الأسرة الثامنة عشرة هي أولى الامبراطوريات في العالم كله . وكانت تمتد من الشلال الرابع في النوبة ، أو من خلفه بقليل ، الى ما وراء نهر الفرات . وكانت تدخل تحت حمايتها مملكة الازيا ومملكة ميتاني ومملكة نحارينا . ثم كانت مملكة آشوريا ومملكة كاردونياش (أو مملكة الكلدان) تعيشان في ظل الصداقة معها وتقدير الهدايا لفرعون . ثم كانت هذه الامبراطورية تبسط جناحها على الجزر المنتشرة في الجانب الشرقي من البحر الأبيض المتوسط الذي كان يسمى البحر الأخضر الكبير . وكانت مملكة خيتاس ، واهلها هم الذين تسميهم التوراة الحيثيين ، هي التي عقدت مع رمسيس الثاني معاهدة صداقة وتحالف بعد حرب طويلة . وتبين الخريطة الجزء الاسيوي من الامبراطورية المصرية ، وهذا الجزء هو الذي تبادل ملوكه وحكامه رسائل تل العمارنة مع أمينوفيس الثالث وأمينوفيس الرابع .

حجرا ليأخذوا منه ما يصلح لبانيهم ، لم يكن شيئا سوى سور قصر الملك محيطا بالقصر وبالدار ، وذلك الطوب الذي عتروا عليه وأدركوا بغريزتهم أنه لقية أنرية لم يكن شيئا غير كب كبها ملوك بابل وآسيا الصغرى وحكام سوريا وفلسطين الى فراغة مصر . وبعبارة أخرى ان المنطقة التي وجد فيها الطوب كانت دارا مخصصة لمحفوفات وزارة الخارجية المصرية . وسيأتى ان الرسائل التي اشتمل عليها هذا الطوب دلت على أنه كان لهذه الدار موظفون يتولون إدارتها وتنظيم الرسائل فيها بحيث يسهل عليهم الرجوع الى ما يريدون الرجوع اليه فيها . وكان من هؤلاء الموظفين مترجمون يعرفون اللغة البابلية وخطها السامري ، ومترجمون آخرون يعرفون لغات أخرى ليكونوا جميعا مسنعين لترجمة أية رسالة تتلقاها وزارة الخارجية المصرية وللأجابة عليها .

ومتى عرفنا هذا لايسعنا إلا أن نأسف لأن الطوب الموجود الآن — وهو كما قلنا موزع بين متاحف مصر وبرلين ولندن وباريس وفيينا — ليس سوى نصف الطوب الذى عثر عليه الفلاحون فى تل العمارنة . أما نصفه الآخر فقد هلك فى أيدي العلماء حينما كانوا يرفضون أن يعترفوا له بقيمة أنرية وكانوا يقولون إنه تزوير مزور ومزح مازح . فقد كان عدد القوالب التى وجدها الفلاحون يقرب من ستمائة فلم يبق منها غير ما يقرب من ثلاثمائة . والله وحده يعلم أية خسارة خسرها التاريخ بهلاك هذه القوالب . والله وحده يعلم أيضا أية فائدة كان التاريخ يستفيد منها لو أن محفوفات وزارة الخارجية الفرعونية وجدت سليمة كلها ولم تعد عليها عوادي النديم منذ هجرت مدينة خوتاتون أى منذ ٣٤ قرنا .

ترجم علماء اللغة البابلية القديمة جميع الرسائل التى احتواها طوب تل العمارنة فبان فى الحال أنها ليست رسائل متفرقة بغير نظام ولا تتابع . بل هي رسائل متتابعة كانت منظمة فى مستودعها على أساس هذا التتابع . فمنها ٦ رسائل من ملك بابل و٩ من



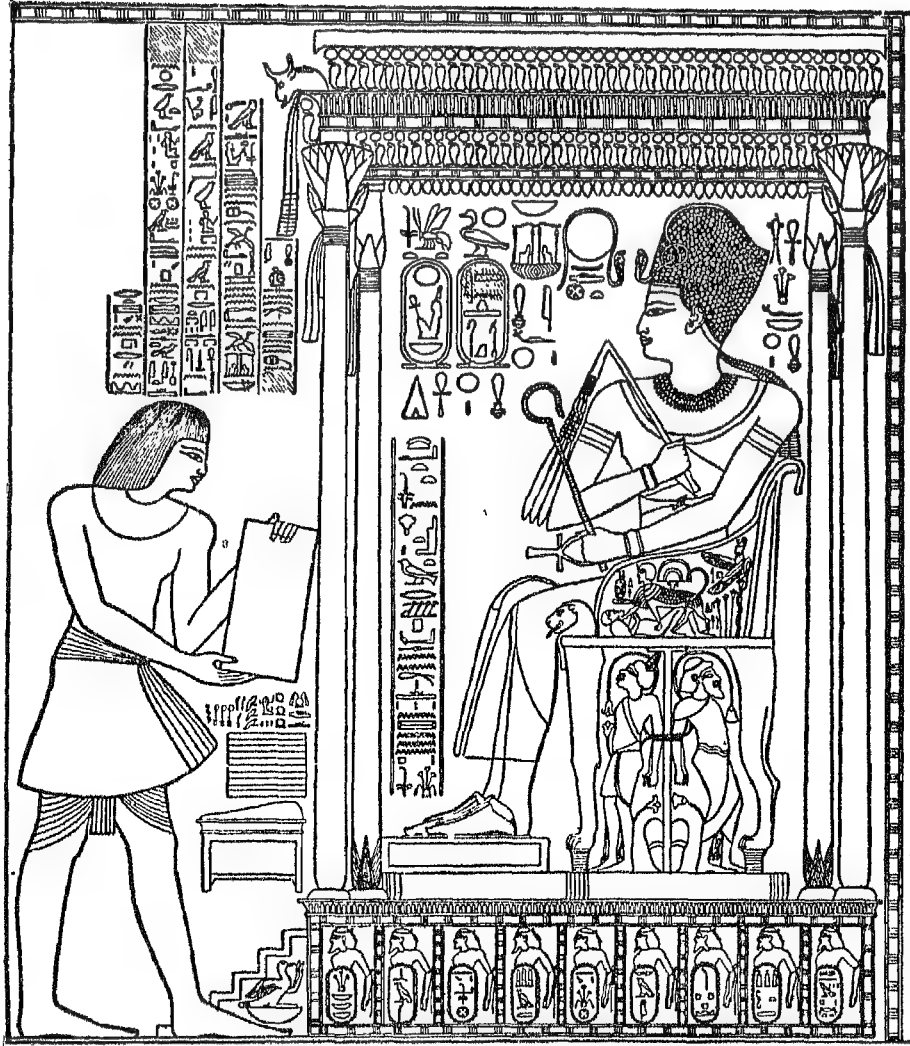
رسالة من رسائل تل العمارنة . وهى تحتوى على تفاصيل
مهر الأميرة تادوخيبا بنت دوشرانا ملك ميتانى وقد تزوجها
الملك أمينوفيس الثالث

العالم ، فهى لهذا جديرة بأن تكون معبودا للشعوب
جميعا .

ولما أنشأ أمينوفيس الرابع أو أخناتون مدينة خوتاتون ونقل إليها عاصمة الملك ، أنشأ فيها القصور والمعابد . ثم انتقل إليها معه رجال الدولة فبنوا فيها هم أيضا قصورا لأنفسهم ، ولم تمض سنوات تعد على الأصابع حتى صارت خوتاتون تضارع طيبة فى عظمتها وجمالها . وكانت فى طيبة دار تحفظ فيها المراسلات الخارجية فبنيت فى خوتاتون دار لهذا الغرض ملحقة بقصر الملك ونقلت إليها المراسلات التى كانت محفوظة فى طيبة .

وهذه الدار هى بعينها التى أدى الاتفاق بمعاول الفلاحين من أهالى قرية الحاج قنديل الى أن تعمل فيها فى سنة ١٨٧٧ ، وذلك الجدار السميكة الذى شر به أولئك الفلاحون وجعلوا ينقضونه حجرا

من آيات الصانع المصري



الملك أمينوفيس الثالث

الملك أمينوفيس الثالث جالسا على عرشه ، وفي يده الصولجان والسوط وقد تقدم له وزيره ببيان الجزيات التي جاءت من بلاد كوش (النوبة) ونحارينا وبلاد اسيوية اخرى خاضعة لمصر . ويلاحظ ان العرش الذي يجلس عليه أمينوفيس الثالث مرسوم على جانبه أسيران اسيويان مستودان بحبل ، وفي أسفل قاعدته تسعة اسرى اسيويين شد كل منهم إلى حبل خلفه وكتب اسم بلده على صدره .
وتشير امثال هذه الرسوم إلى البلاد التي كانت تحكمها مصر في آسيا والتي كانت تؤدي الجزية لامينوفيس الثالث .

في الوقت الذي كتبت فيه الرسائل التي نحن في صددنا هنا لم تكن قد حملتهم بعد على استبدال الكتابة المصرية بالكتابة البابلية ، واستبدال الكتابة على الورق بالكتابة على الطوب ، على الرغم مما في ذلك من اليسر والسهولة .

وإنما اقتبست شعوب سوريا وآسيا الصغرى الكتابة على ورق البردي المصري بعد ذلك بنحو مائة وعشرين سنة ، أي في عهد رمسيس الثالث مؤسس الأسرة العشرين .

وكل من يقرأ تواريخ الأمم التي عاصرت الحضارة المصرية في نشأتها ، أو التي ظهرت بعد دخول المدينة المصرية في سن الشيخوخة ، ثم يزن مسلك هذه الأمم مع الشعوب المغلوبة لها بمسلك المصريين هذا مع الشعوب المغلوبة لهم ، لا يسهه إلا أن يعترف بأن الحكم المصري كان حكم سياسة ولين بينما كان حكم الأمم الأخرى حكم قسوة تبلغ حد الوحشية . فالأشوريون مثلا - وهم لم يظهر لهم سلطان إلا بعد دخول الحضارة المصرية في سن الشيخوخة - لم يكونوا يعدون للأسرى في الحرب غير القتل مع التمثيل ، وكان من المألوف عندهم أن يعلقوا الأسرى عشرات عشرات في خوازيق في ميدان القتال على مرأى من أعدائهم ليقفوا الرعب في قلوبهم ، في حين كان المصريون يمتنعون عن قتل الأسير (٧) ، ولم يعرف عنهم أنهم قتلوا أسرى إلا في

(٧) كتب في هذا الموضوع حول بابيه (Jules Baillet) في كتابه « النظام الفرعوني في ملاناه بتطور التهذيب النفسى في مصر » .

(Le Régime Pharaonique dans ses rapports avec l'évolution de la Morale en Egypte.)

في ص ١٥٩ و ١٦٠ و ١٧٠ من الجزء الأول ، فذكر أن العرف كان جاريا منذ الشعوب كلها بأن للمنتصر أن يذبح الأسرى وينهب أموالهم ، بل كان جاريا بأن له أن يتصرف كما يشاء في أرواح أهالي البلاد الغزوة وأموالهم . ولم يخرج على هذا العرف إلا المصريون ، لأنهم امتازوا وحدهم - ولا سيما بعد تقدم مدنيتهم - بمعاملة الأسرى وأهالي المدن الغزوة معاملة إذا قيسست بالعرف الذي كان جاريا كان فيها كثير من الرأفة والرفق . فهم لم يحرقوا المدن الغزوة ، ولم يسلخوا رجالها ونساءها وأطفالها للسيرف ، كما كان غيرهم يفعلون . كلا ، ولم يذبحوا الأسرى ، ولم يمثلوا بهم ، بل كان كل الذي فعلوه أن ساقوا هؤلاء الأسرى إلى مصر واستخدموهم ، كما كانوا يستخدمون العمال المصريين في أعمال البناء والصناعة والمنافع وأشباهها .

قال بابيه : « لم يعرف من المصريين أنهم استخدموا التعذيب »

ملك الأزيا (١) ، و٤ من ملك ميتاني (٢) ، و٤٦ من حاكم من حكام سوريا يسمى ريبأدي (٣) ، ونحو مائة رسالة أخرى من حاكم لمدينة أورشليم (القدس الآن) يسمى أرادهييا (٤) ، وحاكم لمدينة في سوريا يسمى أزيرو (٥) ، ومن غيرهما من الحكام في سوريا وفلسطين . وهذه الرسائل كلها موجهة إلى فرعونين اثنين هما : امينوفيس الثالث وامينوفيس الرابع . ويقدّر العلماء المدة التي كتبت فيها هذه الرسائل بخمس عشرة سنة أو عشرين سنة (٦) .

ويرى من هذا البيان أن ملوك بابل وملوك آسيا الصغرى وحكام سوريا وفلسطين ، كانوا في ذلك الوقت يكتبون فراعنة مصر بالخط المسماري البابلي لا بالخط المصري . وأنهم كانوا جميعا يستخدمون في كتابتهم قوالب الطوب لا الورق الذي كان المصريون يكتبون عليه . ومعنى هذا أن الرسول الذي كان كل واحد من أولئك الملوك والحكام يرسله برسالة إلى مصر كان يسير بحمولة من الطوب ثقيلة ولكنه متى عاد بالجواب بعد ذلك لم يكن يحمل إلا ورقة مطوية في قمطر .

ويحسن بنا هنا أن نقول إن مملكة بابل كانت قد غزت سوريا قبل أن تغزوها مصر بأجيال . ولهذا انتشرت فيها العادات البابلية واللغة البابلية والخط البابلي ، فلما غزاها المصريون بعد ذلك - أي بعد طرد الهكسوس - اكتفوا بأن تخضع لهم وأن تؤدي لهم الجزية ، ولم يحاولوا أن يفرضوا عليها لغتهم ولا عاداتهم ولا تقاليدهم ولا ملابسهم ، بل تركوا لأهلها وللممالك المجاورة لهم أن يأخذوا من حضارتهم ما يريدون وينسلكوا ما يريدون . وبعبارة أخرى إنهم تركوا حضارتهم تؤثر فيهم وفي غيرهم تأثيرها الطبيعي من غير أن يحملوهم على اقتباسها كرها . وقد أثرت فيهم هذه الحضارة مع الزمن تأثيرا عميقا ، ولكنها

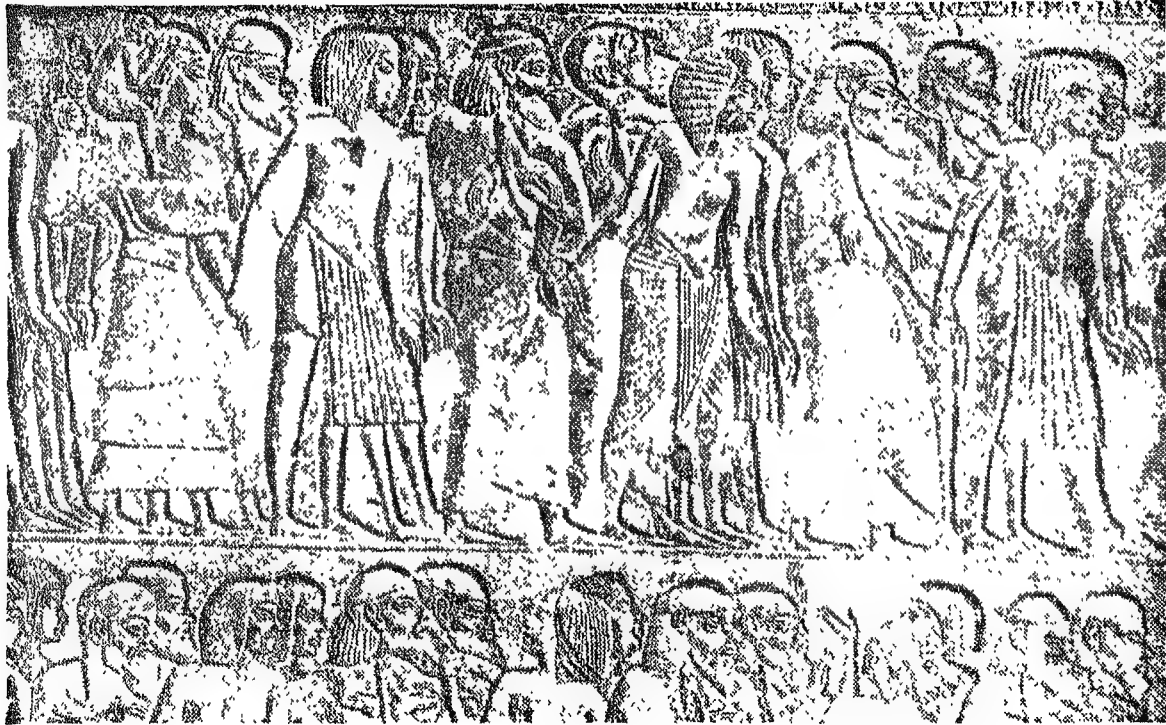
(١) الأزيا (Alasya) هي مملكة كانت توجد في المنطقة الشمالية بين الساحل ونهر أورونت ، وهو يسمى الآن نهر العاصي .
(٢) ميتاني (Mitanni) هي مملكة كانت واقعة في شمالي مملكة الأزيا وهي في المنطقة التي يوجد فيها الآن لواء الاسكندرون .

(٣) (Rib-Addi)

(٤) (Arad-Hiba)

(٥) (Aziro)

(٦) كتاب (Causeries d'Egypte) لما سيرو ص ٣ .



أسرى أسيريون في مصر . وهم يعرفون لحاهم وملابسهم الثقيلة . وفي مؤخرتهم أسيرة سورية تحمل طفلها على كتفها
وهم موثقو الأيدي ، ويقودهم مصريون . وفي الصف الأدنى أسرى أسيريون أيضا .

وانما قطع رهوس جثثهم وعلفها على جدران الكرنك .
ومن هذا الرأي أيضا ارثر ويجل (Arthur Weigall)
في كتابه « تاريخ مصر » ص ١٢٧ من الترجمة الفرنسية التي مر
ذكرها . وهنا يضع ويجل موازنة تلفت النظر فيقول : ان التوراة
تقص علينا في الاصحاح الحادى والعشرين من سفر صمويل الثانى
قصة سبعة من الامراء سلمهم الملك داود للجميونيين ، فقتلهم
وصلبوهم قربانا لله كى تذهب بقتلهم مجاعة كانت فاشية ويحل
محلها الرخاء . وقال ويجل : ان هذا كان بعد عهد امينوفيس
الثانى باكثر من ٤٠٠ سنة .

ونذكر نحن هنا نص ماقالته التوراة في ذلك . قالت :
« وكان جوع في ايام داود ثلاث سنين سة بعد سنة ، فطلب
داود وجه الرب فقال الرب هو لاجل شاول ، ولجل بيت الدماء
لانه قتل الجميونيين . فلما الملك الجميونيين وقال لهم ماذا
افعل لكم ؟ وبماذا اكفر ؟ فتباركوا نصيب الرب... فقالوا للملك :
الرجل الذى افنانا والذى تآمر علينا ليبيدنا لكيلا نقيم في كل
تخوم اسرائيل ، فلنعط سبعة رجال من بنيه فتصلبهم للرب في
جبعة شاول مختار الرب . فقال الملك : انا اعطى ... فاخذ الملك
ابنى وصفة ... وبنى ميكال ابنة شاول الخصمة ... وسلمهم
الى يد الجميونيين نصلبوهم على الجبل امام الرب فسقط السبعة
معا وقتلوا في ايام الحصاد في اولها في ابتداء حصاد الشعير ...
وبعد ذلك استجاب الله من اجل الارض . »

ويقول ويجل في هذه الموازنة : ان امينوفيس قتل السبعة الامراء
في نفس هذه المنطقة التى كان فيها الجميونيون ، ثم حمل جثثهم
الى مصر . ويستمر ويجل بعد ذلك فيقول :

« ان مصر لم تكن تعرف ذبح الادميين قربانا للالهة . ولكن
هذا النوع من القربان كان معروفا في سوريا وبلاد اخرى ، فاذا
صح ان الامراء السبعة الذين جاء ذكرهم في عهد امينوفيس الثانى
قد ذبحوا قربانا دينيا فيجب ان نرى في ذلك مثلا من امثلة تأثير
سوريا في الروح المصرى . »

= او النفس في القسوة في معاملة المغلوبين في الحروب ، كما كانت
تفعل الشعوب الاسيوية . فليس في تاريخهم شيء عن الاسرى الذين
يغززون غزرا في الخوازيق وهم احياء ، ولا عن سمل عيونهم ، ولا
عن كسر اذانهم ، ولا عن قطع اذانهم ، ولا عن قتل النساء والاطفال او حرقهم ،
وارجلهم وايديهم ، كلا ، ولا عن قتل النساء والاطفال او حرقهم ،
ولا عن سمل جلود الملوك والرؤساء وهم احياء ، ولا عن صلبهم ،
ولا عن ربطهم وهم احياء بين ألواح من الخشب ثم شقهم بالنشار .
وقد صدق باييه فليس في تاريخ المصريين شيء من هذا ، ولكنك
تقرأ تاريخ آشور نازربال ، وسالامازار الثالث ، وتجلالالازار
الثالث ، وسارجون ، وسناخریب ، وأشور بانابال ، من ملوك
آشور ، فتجد الكثير من هذه الفطائع في معاملتهم الاسرى والمغلوبين
في الحرب .

ولقد قلنا ان المصريين قتلوا بعض الاسرى في حالات قليلة .
فمن أبرز هذه الحالات ان الملك امينوفيس الثانى أسر كثيرا من
امراء سوريا (٥٠٠ امير و ٢٤٠ امرأة من نسايتهم على مايقول
برستيد ص ٣٣٤ من الترجمة الفرنسية) الذين كانوا قد ناروا
عليه بعد موت ابيه تحوتمس الثالث ، فعاد بهم الى مصر ، وعلق
سبعة منهم في مقدم سفينته حين وصوله الى طيبة ، ثم قتل ستة
من هؤلاء السبعة امام المعبد آمن في معبد الكرنك ، وعلق رهوسهم
وايديهم على جدران المعبد ، ثم أرسل بالسابع الى مدينة ناباتا
(حاصمة النوبة) فجرى عليه فيها مثل ما جرى على زملائه .

وقد حلق باييه على هذا الحادث فقال (ص ١٦٥ من كتابه
الذى مر ذكره) يجب ان يلاحظ ان هؤلاء الامراء السبعة كانوا
اسيويين ، وان العادة كانت جارية في آسيا بقتل الاسرى ، بل بما
هو أشنع من قتلهم .

ثم قال باييه : على ان العلماء ليسوا متفقين جميعا على قراءة
النص الخاص بهذا الموضوع ، لان منهم من يقرأ بما يفهم منه ان
امينوفيس الثانى لم يعلق الامراء في سفينته احياء ، بل طلق جثثهم
التي كان رجاله قد التقطوها من ميدان القتال . فهو اذن لم يذبحهم

العلماء أن الاسم الأول مصرى لأنه يشبه الاسماء المصرية من جميع الوجوه ، والثانى بابلى لأنه يشبه الاسماء البابلية من جميع الوجوه (٢) .

وعشر فلندرز بترى حينما نقب في تل العمارنة في سنة ١٨٩١ على اسم آخر مكتوب بالحبر على قطعة من الحجر باللغة المصرية هكذا : « الكاتب الملكى رع أبينى » . ويظن بترى ، ويؤيده العلماء في ظنه ، أن هذا الكاتب الملكى كان مديرا لدار المحفوظات أو كان على الاقل رئيسا لإدارة من الادارات في دار المحفوظات ، وأن «شاماس - نيكى» ومساعدته «تيتو - نو» كانا مرعوسين له .

وعشر بترى ايضا على بقايا طوب مكتوب ، فلما درسها ودرسها معه العلماء في اللغة البابلية ، اذا هى معجم وضع ليتعلم فيه من يريد تعلم اللغة البابلية والخط المسمارى من المصريين ، أو لعل هذا المعجم وضع ليرجع اليه الموظفون المصريون في وزارة الخارجية كلما اشكلت عليهم كلمة . ووجدت على هامش قطعة من قطع هذا الطوب الكلمات الآتية «بأمر ملك مصر» ، فالعنى المتبادر الى الذهن من ذلك أن ملك مصر هو الذى أمر بوضع المعجم .

وقوالب الطوب التى فيها هذا المعجم ينقسم سطحها الى ثلاث خانات عمودية متساوية : الأولى فيها الكلمة باللغة المصرية ، والثانية فيها امامها الكلمة باللغة البابلية ، والثالثة فيها أيضا نطق الكلمة في اللغة البابلية مكتوبا باللغة المصرية . ثم تتوالى الكلمات في الخانات الثلاث على هذا النظام .

ويقول هنا بترى إن هذا المعجم يدل على أن ملك مصر لم يكن يكتفى من الموظفين المصريين بأن يترجموا له الكلمات البابلية ، بل كان يطلب منهم فوق ذلك أن يحدقوا هذه اللغة في نطقها وفي جميع خصائصها .

ويظهر أن ملوك مصر كانوا في بعض الاوقات يحبون أن يعرف ملوك آسيا أن فى استطاعتهم أن يردوا عليهم بلغتهم ، ولهذا وجد كتاب طويل كتبه امينوفيس الثالث باللغة البابلية والخط المسمارى

حالات قليلة ، ولم يعرف قط أنهم استعملوا في القتل خوازيق أو أى نوع آخر من أنواع التعذيب والتمثيل . وقد يقال هنا إن جدران المعابد المصرية تزدحم بصور الملوك المصريين والأسرى راكعون أمامهم ، وهم قابضون على رؤوسهم متأهبون لضربهم ، فنقول جوابا على ذلك إن هذا التصوير لم يكن المراد منه قتل الأسرى قربانا للمعبودات ، ولا التمثيل بهم على نحو ماكان الآشوريون يفعلون ، بل كان المراد منه التحدث بما فعله هؤلاء الملوك من قهر أعدائهم وإخضاعهم لسلطانهم . وهذا شيء ، وقتل الأسرى والتمثيل بهم شيء آخر .

والآن نأخذ في درس تلك الرسائل ، فنبدأ بالقاء نظرة عامة عليها ثم نشفع هذه النظرة بتعريب بعض منها .

وجدت على أحد قوالب الطوب كلمات « مكان المحفوظات من القصر الملكى » . ووجدت في إحدى الرسائل كلمة يطلب كاتبها من فرعون مصر أن يرجع إلى الرسائل المحفوظة في مكانه . فهاتان الاشارتان دليل قاطع على أن المستودع الذى وجدت فيه قوالب الطوب كان دارا لمحفوظات وزارة الخارجية المصرية .

ووجد على هامش من هوامش أحد القوالب ، تأشير بالخط المصرى مؤداه أن دار المحفوظات هذه كانت في طيبة ، ثم لما هجرها الملك امينوفيس وطلق عبادة المعبود آمون ، وأنشأ مدينة خوتاتون ونقل إليها عاصمة الملك ودوائر الحكومة ، نقل إليها أيضا المحفوظات السياسية وجعل مقرها في دار داخلية في قصره في العاصمة الجديدة .

ووجد في أحد القوالب خاتم منقوش باسم « تيتو - نو ، رجل ، شاماس - نيكى » فها هنا رجلان احدهما « تيتو - نو » ، والثانى « شاماس - نيكى » والثانى رجل الأول ، أى تابع له (١) . ويرى

(١) هكذا في الأصل . وهناك تناقض لم يستقم لنا معه فهم أى الرجلين كان تابعا للآخر ، ولو أن الأرجح أن المصرى كان تابعا أو مساعدا للبابلى ، كما يفهم من الفقرة التالية . فإذا صح هذا ، فإنه يقوم دليلا على أن الدولة - في ذلك العهد - لم تكن ترى ضيرا في أن يكون الموظف المصرى مساعدا لموظف غير مصرى اذا استدعت حاجة العمل ذلك . كتاب الشعب

والثاني قسم الرسائل الواردة من حكام البلاد التي كانت تحكمها مصر حكما مباشرا في فلسطين وسوريا . وبعضها وارد من مدن في سوريا كانت متمتعة بالحكم (الذاتي) وكان نظام الحكم فيها جمهوريا .

ومن هذا التقسيم يتضح ، كما يقول موري ، أن سياسة الحماية المستترة بسستار المحالفة ليست اختراع العصر الحديث ، بل هي سياسة كان المصريون يعرفونها ويجرون عليها في علاقاتهم مع بعض الأمم المجاورة لهم . ونضيف نحن أنه يتضح من هذا التقسيم أيضا ، كما يتضح من الرسائل التي سيأتي تعريبها ، أن نظام الحكم الذاتي ونظام الحكم الجمهوري اللذين يعتقد كثير من الباحثين أنهما ابتداء المدنية اليونانية ، ليسا من ابتداء هذه المدنية ، وإنما هما نظامان عرفهما المصريون وطبقوهما على بعض المدن الخاضعة لحكمهم في سوريا ، قبل أن توجد المدنية اليونانية بنحو ٨٠٠ سنة .

ونأخذ الآن في درس رسائل القسم الأول وتعريب بعض منها . والمصادر التي اعتمدنا عليها في ترجمة الرسائل كلها هي :

(أولا) مجموعات من مجلة (Journal

Asiatique) في سني ١٨٩١ و ١٨٩٢ و ١٨٩٣ و ١٨٩٤ و

١٨٩٩ .

(ثانيا) كتاب (Au Temps des Pharaons)

لموري من ص ٤٩ إلى ص ٨٧ .

(ثالثا) الترجمة الفرنسية لكتاب :

(A History of Egypt)

لبرستيد من ص ٣٩٠ إلى ص ٤٠٠ .

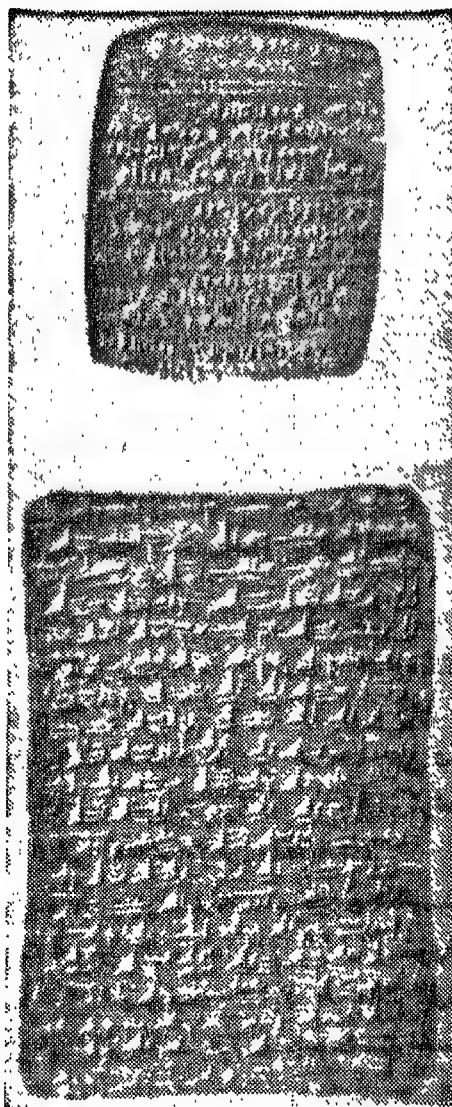
(١)

كتب ملك الأزيا :

« إلى ملك مصر ، وأخي ، أقول : أنا ملك الأزيا ، أخوك ، صحتي جيدة ، وإنني أبعث بأفضل تحياتي إليك ، وإلى أقاربك ، وإلى خادمتك ، وإلى ابنائك ، وإلى زوجاتك ، وأبعث أيضا بتهنئاتي لك على عرباتك العديدة (٢) ،

(٢) المقصود بالعربات هنا العربات الحربية وكانت ذات شهرة

واسعة .



رسالتان مرقومتان بالخط المسماري

على قوالب من الطوب يرد به على كتاب جاءه من ملك بابل .

وتنقسم رسائل تل العمارنة إلى قسمين : أولهما قسم الرسائل الواردة من ملوك مستقلين ولكنهم مرتبطون مع مصر بروابط التحالف أو روابط الصداقة ، وهي روابط يختفى خلفها في كثير من الأحيان معنى الحماية . وأصحاب هذه الرسائل هم ملوك كاردونياش (١) واشور (٢) وميتاني ونحارينا .

(١) (Kardounyash) هو الاسم الذي كانت تعرف به

مملكة بابل في ذلك الوقت .

(٢) اشور مملكة كانت على نهر الدجلة .



قطعتان من أرض قصر الملك أمينوفيس الثالث والملكة تي بي في طيبة ، وهما تمثلان طيرا من الاوز بين أزهار اللوتس

وهذه الوحدة في الاسلوب بين كتب مختلفة من ملوك مختلفين تدل على أنه كانت توجد في ذلك الوقت قواعد وتقالييد معينة لمكاتبات الملوك ، وأن هذه القواعد والتقاليد كانت تراعى بدقة ، وهى تسمى في العرف الحديث «بروتوكولا» ، وأن كانت قواعد اليوم وتقاليده غير قواعد الأمس وتقاليده .

ويؤيد وجود هذه القواعد والتقاليد في المكاتبات أن من بين رسائل تل العمارنة صورة رسالة كتبها الملك أمينوفيس الثالث الى ملك كاردونياش فجرى فيها على الأسلوب نفسه والنسق نفسه .

ولا يفوتنا بعد ذلك أن نوجه النظر إلى أن هؤلاء الملوك جميعا كانوا شرقيين ، وأنهم مع ذلك كانت تقاليدهم في المكاتبات تسمح لهم ، أو تقضى عليهم ، بأن يبعث كل واحد منهم بتحياته إلى زوجات الملك الذى يكتب إليه . وقد لا يلفت النظر كثيرا أن يبعث الملك دوشراتا بتحياته إلى زوجات الملك أمينوفيس الثالث بسبب المصاهرة التى كانت بين الاثنين ، ثم لأن بنت الملك دوشراتا كانت إحدى الزوجات اللواتي يذكرهن في كتابه . ولكن الذى يلفت النظر حقا هو أن ملك الازيا يهدى هو الآخر ، تحياته إلى زوجات ملك مصر ، وهذا لا يكون إلا إذا قلنا إن «البروتوكول» كان يسمح بهذه التحيات .

ولا حاجة لأن نقول بعد ذلك إن هذا النوع من

وخيولك ، كما أبعث بتمنياتي لبلادك مصر » .
وكتب ملك ميتانى :

« إلى أمينوفيس . ملك مصر العظيم ، وأخى ، وصهرى الذى أحبه ويحبني أقول : أنا دوشراتا ملك ميتانى العظيم ، وأخوك ، وحموك الذى يحبك . صحتى جيدة ، وإنى أبعث بتحياتي إليك أنت أخى وصهرى ، وإلى أقاربك وزوجاتك وإبنائك ورجالك » .

ومن هذا الكتاب ، ومن كلمة « حموك » التى فيه يعرف أن أمينوفيس الثالث والد أمينوفيس الرابع ، الذى وجه إليه هذا الكتاب ، كان قد تزوج من بنت دوشراتا ملك ميتانى .

وكتب ملك اشور :

« إلى أمينوفيس الرابع أخى أقول : أنا أشورو باليت ، ملك اشور ، وأخوك الملك ، أدعو بالسلام لك ، ولأقاربك ، ولبلادك » .

ويلاحظ في هذه الكتب الثلاثة أنها مكتوبة بأسلوب واحد ، والفاظ تكاد تكون واحدة على الرغم من أن أصحابها مختلفون ، وأنها كتبت في أوقات مختلفة وبلاد مختلفة . ففيها كلها تلقب بالأخوة وإخبار بصحة الملك صاحب الكتاب ، ثم إهداء تحيات أو دعوات إلى ملك مصر وأقاربه وزوجاته وأبنائه . ويريد ملك الازيا فيهدى التحيات إلى خادmate .

« البروتوكول » اختفى من الشرق وانتقل إلى الغرب .

(٢)

وكتب الملك بوونار بورياش ملك كاردونياش إلى ملك مصر ، فابتدأ بديباجة كالتى رأيناها فى الكتب السابقة ثم قال :

« لقد انحرقت صحتى منذ اليوم الذى جاء فيه رسول أخى . ولم يشجعنى أخى فى طول المدة التى بقيت صحتى فيها منحرفة . ولهذا استأت من أخى وقلت : ألم يسمع أخى أننى مريض . لماذا لم ينبعث لى رسولا ولم يظهر اهتماما بى .

« وقد أجب رسول أخى على ذلك بقوله : إن مصر ليست قريبة لكى يسمع أخوك بمرضك ويرسل إليك رسولا يستعلم أخبارك .

« وفى الواقع اننى استفهممت بعد ذلك من رسولى ، فقال لى : « إنها رحلة طويلة جدا » . فمئذ سمعت ذلك لم يبق فى نفسى استياء من أخى » .

ففى هذه الرسالة نرى ملك بابل يتحرق شوقا الى كلمة طيبة تأتية فى مرضه من ملك مصر ، ولا يكاد يصبر على هذا السوق إلا بعد أن يعلم أن الشقة بين البلدين بعيدة ، وأن ملك مصر معذور لهذا السبب إذا هو لم يرسل اليه يستعلم أخباره .

وفى هذه الرسالة نوع من الجهل يستوقف النظر هو أن ملك بابل لم يكن يعرف بعد ما بين بلاده ومصر إلا بعد أن سأل فى ذلك رسول مصر ثم رسوله .

وأسلوب الكتابة فى هذا يلفت النظر لأنه يكرر كلمة « أخى » ست مرات فى سبعة أسطر فهو يشبه أسلوب التوارىخ الذى أشرنا إليه فى تعليقنا على « قصة الفريق » .

(٣)

وكتب دوشراتا ملك ميتانى الذى تقدم ذكره إلى أمينوفيس الرابع يصف له الحزن الذى استولى عليه حينما جاءه الخبر بوفاة أمينوفيس الثالث فقال :

« حينما أشرف والدك على الموت ... فى ذلك اليوم بكيت وسقطت مريضا وأشرفت على الموت ... ولكنى علمت بعد ذلك بأن أكبر انجال الملك أمينوفيس والملكة تى بى جلس على العرش ... وقد قلت حينئذ أن أمينوفيس لم يمت ... » .

هذا الكتاب مبتور لم توجد منه غير الكلمات التى عربناها هنا ولكن الباقى منه كاف للدلالة على المعنى المقصود منه .

والقارىء يذكر من غير شك أن دوشراتا كان حما الملك أمينوفيس الثالث . فهو هنا يعبر عن الحزن الذى استولى عليه حينما بلغه موت زوج ابنته .

ويذكر الملك دوشراتا فى كتابه هذا الملكة تى بى زوجة أمينوفيس الثالث ، وأمر هذه الملكة مشهور فى كتب التاريخ لأنها كانت ذات نفوذ كبير على زوجها وكان لها أثر ظاهر فى سياسة الامبراطورية المصرية . وقد ذهب بعض العلماء الى أنها بنت الملك دوشراتا التى تزوج بها أمينوفيس الثالث ، وأنها لذلك تكون سورية الأصل . وبشوا على هذا زعما آخر هو أن الثورة الدينية التى ثارها أمينوفيس الرابع على عبادة آمون كانت بتأثير أمه تى بى فى نفسه ، وإذن تكون هذه الثورة راجعة فى كثير منها الى عوامل سورية .

ولكن ماسبيرو أثبت من مومياء الملكة تى بى (١) ، ومن تابوتها ، ومن النقوش التى وجدت عليه ، ثم من قبر والد هذه الملكة ، أن هذا القول خطأ ، وأن تى بى مصرية ، لم تكن من الدم الملكى بل كانت من عامة الشعب ، فأحبها الملك وجعلها زوجته الأولى ، وهى أم أمينوفيس الرابع .

وقول دوشراتا « إن أمينوفيس لم يمت » لأنه يحيا فى ابنه ، هو من الأقوال التى ما زالت الى وقتنا هذا متداولة بين الكتاب .

(٤)

هذا الكتاب الذى نعرض له هنا لم يعرف كاتبه لأن ديباجته مبتورة ولكن الباقى منه ذو أهمية

(١) كتاب (Causeries d'Egypte) ص ١٤٨

بابل وملك آشور يتنافسان في اكتساب عطف مصر
والتحالف معها .

كتب بورنا بورياش ملك بابل الذي تقدم ذكره
الى الملك امينوفيس الرابع فقال بعد الدبلوماسية :

« حينما كان والدى كوريغالزو حيا ارسل
اليه ملك كنعان رسولا قال له : « هيا فلندخل
مدينة كارميشات ، ولنحارب فرعون معا » .
فبعث إليه أبى يقول : « لا تفكر في الاتفاق معى .
فان كنت تريد معاداة ملك مصر فابحث لك عن
حليف غيرى . أما انا فانى لا أسير في هذا ولا
أدمر بلاد ملك مصر لأنه حليفى » . وهكذا رفض
والدى أن يصفى الى ملك كنعان حبا فيك .

« والآن فان ملك آشور تابع لى . ولست في
حاجة لأن أقول لماذا هو يطلب صداقتك .
فان كنت تحببني فلا تعقد معه معاهدة واطرده
بعيدا جدا » .

وإذن كان ملك آشور وملك بابل يتسابقان الى
التحالف مع ملك مصر لأن كلا منهما كان يرى فيه
امانا لنفسه وعضدا لبلاده . ولم يكن ذلك في عهد
الملك بورنابورياش فقط ، بل كان في عهد أبيه من
قبله أيضا ، وكان أبوه هذا يقول لمن يدعوه الى
معاداة ملك مصر : « ابحث لك عن حليف غيرى » .

ولعل القارئ يرى من فحوى هذا الكتاب ما يؤيد
الظن الذى ذهبنا إليه اذ رجحنا ان يكون الكتاب
السابق الذى لم يعرف صاحبه صادرا من ملك
بابل .

وبعد هذا لا بد من سؤال وهو : ماذا فعل ملك
مصر في هاتين اليدين اللتين مدتا إليه من ملك آشور
وملك بابل ؟

إن من حسن الحظ أن في استطاعتنا أن نجيب
على هذا السؤال لأن ماعشر عليه من محفوظات وزارة
الخارجية المصرية يسمح لنا بالجواب .

والجواب أن امينوفيس الرابع — أو اخناتون —
حالف كلا من الملكين ، ولم يقبل أن يكون لواحد
منهما على الآخر ، وقد رضى الملكان بذلك .

سياسية . وهو موجه الى امينوفيس الرابع .
وهذا نصه :

« ... والآن يامليكى وقد جلست على عرش
أبيك فلنتبادل ، انا وانت ، الصداقة الدائمة
كما كنت اتبادل مع أبيك الهدايا . فاقبل هذه
الأمينة التى كنت قد وجهتها الى أبيك ، ولنعمل
معا على تحقيقها بيننا » .

فكاتب هذا الكتاب لابد أن يكون واحدا من ملوك
البلاد المستقلة ، لا واحدا من حكام سوريا ، لأنه
يطلب تبادل الصداقة . ولكنه مع ذلك يخاطب ملك
مصر بقوله « يامليكى » رغبة منه في استمالة قلبه .
وهو يلح في تبادل الصداقة والهدايا ، ويسمى هذا
التبادل « أمينة » له . لأن صداقة مصر كانت في
ذلك الوقت أمز أمنية يسعى إليها الملوك .

ويغلب على الظن أن صاحب هذا الكتاب هو ملك
بابل لأن في الكتب الآتية كتبنا منه تتفق مع هذا
الكتاب في معناه .

(٥)

بهذا الكتاب الذى تعرض له الآن ندخل في صميم
المكائبات السياسية ، ونرى كيف كان كل من ملك



قطعة من سقف غرفة في قصر الملك امينوفيس الثالث
والملكة تي بي في طيبة

من آيات الصانع المصري



تمثال نصفى للملكة نفرتيتى

وهذا التمثال موجود فى متحف القاهرة وهو غير التمثال الذى فتن به « هتلر »
وكان يحتفظ به فوق مكتبه . والملكة نفرتيتى هى زوج أمينوفيس الرابع أو اخناتون .



امرى نوبيون في مصر في عهد الاسرة الثامنة عشرة

منك ، فليس معروفا هل هي الآن حية أم ماتت » .

وهناك رسالة من « كاليئاسن » يرد بها علي امينوفيس فيذكره بأنه كان قد أرسل رسولا يري هل اخته لاتزال حية أم ماتت ، فأمر امينوفيس بإدخاله قصره ، فأدخل الى حيث نساء القصر مجتمعات وقيل له « هاهي سيدتك بين هؤلاء » فلم يميز الرسول واحدة منهم ولم يعرف من هي سيدته .

وعلى هذه الرسالة أجاب امينوفيس الثالث فقال :

« إنك لم ترسل رسولا كفؤا عرف اختك من قبل وحادثها ليمكن أن يعرفها الآن ويتحدث معها . بل الرسل الذين جاءوا من عندك كانوا من طبقة وضيعة ، ويكفى أن أضرب لك مثلا رسولاك « زاجارا » الذي هو راعي ماشية قليلة . وليس بين رسلك واحد كان قد اقترب من أبيك » .

أفرد كاليئاسن فقال :

« إنها أمة امرأة من بنات النبلاء هي التي رآها رسلتي عندك . إذ من يقول لهم انها اختي » .

فرد امينوفيس فقال :

« هب أن اختك ماتت فلماذا أخفى موئها منك ؟ » .

(٦)

إلى هنا رأينا كيف كانت نكتب ديباجة الرسائل بين الملوك ، ثم رأينا نوعا من هذه الرسائل دل على أن ملوك البلاد المجاورة للامبراطورية المصرية كانوا يحرصون على أن ينالوا شرف الارتباط برباط المحالفة أو الصداقة مع ملك هذه الامبراطورية .

فالآن نخوض في نوع آخر من الرسائل خاص بمصاهرة ملك مصر لأولئك الملوك ، وما كان لهذه المصاهرة من التأثير في العلاقات السياسية .

كانت هذه المصاهرة تعتبر متممة لمعاهدات التحالف ، فكان ملك مصر يري أن زواجه من بنت الملك المجاور له أو من اخته - وفي بعض الاوقات منهما معا - ضمان على أن هذا الملك لا يخرج عليه . وكان هذا الملك يري من ناحيته أن هذا الزواج نفسه ضمان له على أن يبقى متمتعا برعاية ملك مصر . ولهذين السببين نجد ذكر المصاهرة يتردد في كثير من رسائل تل العمارنة .

وقد رأينا فيما تقدم أن الملك امينوفيس الثالث صاهر الملك دوشراتا ملك ميتاني بأن تزوج بنته واخته ، فنضيف هنا الى ذلك أن زواج هذه الاخت لم يكن سهلا على ما يظهر لأن امينوفيس الثالث طلبها ست مرات حتى اعطيت له . ولسنا نعرف إيهما هي التي تزوجها قبل الأخرى .

وكما تزوج امينوفيس الثالث اخت ملك ميتاني وبنته ، تزوج اخت الملك « كاليئاسن » ملك بابل في عهده ، ثم طلب أن يتزوج بنته وكانت تسمى « زوهارتى » فتزوجها ودارت في ذلك رسائل عدة .

وليست هذه الرسائل موجودة كلها ولكن ما هو موجود منها يدل على باقيها . فقد وجدت رسالة من امينوفيس الثالث الى « كاليئاسن » يقول فيها :

« ... اطلعت على الأقوال التي بعثت بها إلى . انك تقول لى : كيف تطلب بنتى للزواج منك على حين أن اختى التي أعطاك إياها والدى لاتزال عندك ، وما من أحد رآها بعد أن زوجت

قوالب الطوب المحفوظة الآن في متحف برلين - بيان
طويل بمهر الأميرة « تادوخيا » هذه التى تزوجها
أمينوفيس الرابع .

ويظهر أن دوشراتا كان يطمع في هدايا جمة من
وراء هذا الزواج ، وأنه لم يكتف بما جاءه منها ،
ولهذا جعل يشكو في إحدى رسائله من أن الهدايا
التى وعد بها لم تصل إليه .

(٧)

وكانت الأميرة التى يتزوجها ملك مصر تخرج من
بلادها في جمع كبير ، بل في جموع كبيرة ، من النساء
والخدم . وكان هؤلاء النساء والخدم يرافقونها الى
مصر ويقيمون معها حاشية لها مدة من الزمن . فقد
وجد منقوشا على جدران من عهد أمينوفيس الثالث
أن ٣١٧ امرأة رافقن « كيلاجيا أميرة ميتانى » التى
تزوجها أمينوفيس الثالث .

وقد مر أن أمينوفيس الثالث تزوج أخت الملك
دوشراتا وبنته ، فالأميرة كيلاجيا هذه هى إحدى
هاتين الزوجتين .

وكان من العادات المألوفة في ذلك الوقت أن
تصنع جعارين باسم عروس الملك كلما تزوج . وكان
نساء الأغنياء يتخذن من هذه الجعارين حليا لهن .
ولهذا وجدت جعارين باسم الملكة تى بى حينما
تزوجها أمينوفيس الثالث . ووجدت جعارين باسم
كيلاجيا التى تقدم ذكرها . ووجدت جعارين باسم
غيرهما .

وليتصور القارئ بعد ذلك ٣١٧ امرأة قادمات مع
كل عروس من بنات الملوك المجاورين لمصر تزف الى
فرعون . وإذا كان عدد القادمات من النساء ٣١٧
فكم يكون عدد القادمين من الرجال والعلماء لخدمتها
وخدمتهن جميعا ! . وإذن ليتصور القارئ كيف
يكون القصر أو تكون القصور التى يجب أن يقيم فيها
هؤلاء الجموع مع أميرتهم !

وليس ريب في أن أكثر هؤلاء النساء والرجال كانوا
يعودون الى بلادهم بعد أن يحضروا حفلة الزفاف
وبعد أن يقيموا بالقرب من أميرتهم وقتا ما ، ولكن

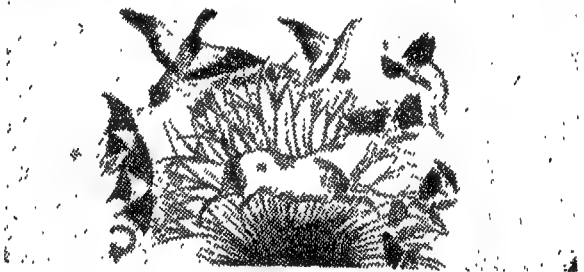
هذا ما في رسائل تل العمارنة عن زواج أمينوفيس
الثالث . أما ما فيها عن زواج ابنه أمينوفيس الرابع
فهو أن أمينوفيس هذا طلب الأميرة « تادوخيا »
إحدى بنات الملك دوشراتا ، أى نفس الملك الذى كان
أبوه قد تزوج من أخته ومن إحدى بناته ، فأجاب
دوشراتا على عجل يقول :

« تطلب ابنتى ؟ إننى أعطيك إياها » .

ولم يكن أمينوفيس الرابع قد تولى الملك حينما
طلب هذا الطلب ، بل كان لا يزال أميرا وكان أبوه
لا يزال حيا . والذى حمل هذا الطلب من مصر الى
مملكة ميتانى هو سفير مصرى يسمى « مانى »
وحمل معه هدايا وكتبا من أمينوفيس الثالث يقول
فيه :

« إن ما أبعث به إليك الآن من الهدايا ليس
شيئا ... فان أنت أعطيت الفتاة التى أطلبها
فسأبعث إليك بهدايا أكثر » .

وبعد أن قابل دوشراتا هذا السفير وقبل الهدايا
التى حملها اليه ، كتب الى أمينوفيس الرابع يقول :
« إن صداقة متينة تربطنى بوالدك ، فالآن
ستكون محبتي لك ، أنت ولده ، أمتن » .
وفي إحدى الرسائل - أو بعبارة أخرى في أحد



قطعة من أرض القصر الذى بناه لنفسه الملك اخناتون
(أمينوفيس الرابع) في مدينة اخناتون (تل العمارنة)

حينما كاشفتنى برغبتك فى أن تعقد
بينى وبينك رباط زواج ، أجبك الى ماتريد ،
وأظهرت فى ذلك كل الطيبة التى يكنها
أخ لآخيه . والآن يا أخى ، وقد كاشفتك
برغبتى فى رباط زواج بينى وبينك ، لماذا تأبى
بنتك على ؟ لماذا ترفض أن تعطىها لى ؟ لو
أننى كنت قد رفضت إجابتك الى رغبتك
لكان الرفض من جانبك الآن مفهوما . ولكن
بناتى كن رهن امرك ، وأنا لم أرفض لك طلبا .

وقد علق الأستاذ مورى على هذه الرسالة فقال :
إن الفراعنة كانوا يأبون بناتهم وأخوانهم على حلفائهم
ملوك آسيا ، لأنهم كانوا يرون أن بنات «الدم المقدس»
أرفع من أن يهبطن إلى مضاجع هؤلاء الملوك .

ومما يظهر ظهورا جليا فى رسائل تل العمارنة أن
الملوك المجاورين للإمبراطورية المصرية كانوا يلحون على
فرعون فى طلب هدايا من الذهب فيقولون مثلا :
« ان الذهب عند ملك مصر كثير كتراب الأرض » .
من عندك . . . لقد كان أبوك يرسل إلى أبى كثيرا من
الذهب . . . فيجب أن ترسل لى مثل ماكان أبوك
يرسل إلى أبى » .

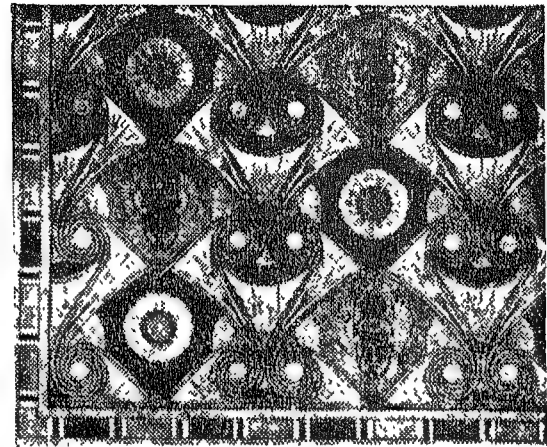
وكان من الأقوال الشائعة فى الممالك الآسيوية إذ ذاك
« أن الذهب عند ملك مصر كثير كتراب الأرض » .

ومن الكتب التى كتبها الملك بورنابورياس إلى
أمينوفيس الرابع كتاب يقول فيه :

« جاء الرسول الذى بعثت به إلى ومعه



سيدات مصريات فى حفلة . وترى المائدة وعليها أصناف
المأكولات ، وفتاة تقدم لاحدى السيدات اناء صغيرا فيه شراب،
واحدى السيدات تلبس الى جاريتها وتقدم لها زهرا ذا رائحة
زكية . (هذه اللوحة موجودة فى المتحف البريطانى بلندن)



ستف تبر لرجل من الكبراء يسمى راميس بالقرب من طيبة
(الأسرة الثامنة عشرة)

ليس ريب أيضا فى أن بعضا منهم كانوا يستوطنون
مصر معها .

رأبنا فراعنة يتزوجون بنات الملوك المجاورين لهم
وأخواتهم ، فهل كان هؤلاء الملوك يتزوجون من بنات
الفراعنة وقربائهم ليتم التبادل بين الفريقين ، ام لم
يكن هذا التبادل موجودا ؟

هذا السؤال تجيب عليه رسالة كتبها ملك بابل
الى أمينوفيس الثالث وفيها يقول :

« حينما طلبت يد ابنتك أرسلت إلى تقول :
« لم يحدث قط أن أعطيت بنت ملك مصر الى
أجنبى » (١) ، فلما بلغتني هذه الكلمات أرسلت
إليك أقول : « اذا أنت بعثت بها الى و أنت آسف
فخير عندى ألا تبعث بها » . إنك لاتنظر الى بعين
العطف الأخوى ، وانت تعلم مع ذلك أنك

(١) النص الفرنسى الذى لدينا لهذه الفقرة من هذا
الكتاب هو :

(Jamais la fille du roi d'Egypte n'a été donnée à
personne.)

وتعريبها الحرفى هو :

« لم يحدث قط أن أعطيت بنت ملك مصر الى أحد » .
ولكننا وجدنا كلمتى « الى أحد » هنا لاندلان على المقصود ،
اذ بنات ملوك مصر كن يتزوجن فى مصر ، فالقول بأنهن لم يعطين
قط الى أحد هو قول لا يمكن أن يكون مرادا للملك أمينوفيس
الثالث . وانما المراد أنهن لم يعطين لأحد من الأجانب . وسياق
الرسالة كلها يجعل هذا المراد متعينا . واغلب الظن أن هنا
خطا فى الترجمة من اللغة البابلية .

منهم يشمل في بعض الأوقات عدة مدن وعدة حكومات . وكان فرعون يشير إليهم في رسائله فيقول : إنهم « عيون الملك وأذانه في البلاد الأجنبية » . وهذا تعبير لا يزال مستعملا إلى اليوم (١) .

وكان هؤلاء المندوبون مرهوبى الجانب حتى كان أحد الحكام « الخازانو » يكتب إلى فرعون فيقول :

« ليسأل مولاي الملك جميع مندوبيه يعرف إلى أي حد أنا خادم له أمين » .
وكان غيره يكتب فيقول :

« ليسأل مولاي مندوبه يعرف هل ما أقوله صدق أم كذب » .

ولم تكن المدن كلها محكومة بهذا النوع من الحكم ، بل كانت توجد مدن لها حكم من نوع آخر ، يشبه الحكم الجمهوري (٢) ، ومن هذه المدن مدينة «أراد» ومدينة «تونييو» ، ولهذا سيأتى أن أعيان كل واحدة من هاتين المدينتين كانوا يخاطبون فرعون ويعرضون عليه في رسائلهم ما يعرضونه من شئون مدينتهم .

ولما كان الحكم الجمهوري لا يتحقق إلا بأن يكون هناك نوع من الاستقلال ، كانت كل واحدة من هاتين المدينتين حاصلة في عهد أمينوفيس الثالث وأمينوفيس الرابع - أى في العهد الذى كتبت فيه رسائل تل العمارنة - على مايسميه الانجليز الآن (Self government) أو الحكم الذاتى .

ولهذا قلنا في ما تقدم إن المصريين عرفوا نظام الحكم الجمهوري الذى يظن كثير من الناس أنه لم

(١) ذكر في حجر محفوظ في متحف اللوفر يسمى « حجر انتيف » اسم ضابط بالفصر الملكى كان مناديا فوصف بأنه « لسان الملك » .

وفي أحجار أخرى وصف أشخاص أنفسهم بأنهم « عينا الملك » أو « عينا الملك في الأرض كلها » أو « عينا الملك اللتان تنفدان إلى الاحشاء » .

ويقول المؤرخ اليونانى كزينفون (Xénéphon) : أن ملوك الفرس كانوا يوفدون ضباطا يجولون في الولايات الواقعة تحت حكمهم ويراقبون أعمال الولاة فيها ، وأن هؤلاء الضباط كانوا يسمون « عينا الملك وأذانه » .

وواضح أن المصريين هم أول من استعمل هذا النوع من التعبير .

(٢) كتاب (Au temps des Pharaons) لمورى ص ٦١

عشرون وزنة من ذهب غير نقى ، فلما وضعت في البوتقة لم يخرج منها سوى خمس وزنات من ذهب نقى » .

ويظهر الملك بورنابورياش أنه من ذلك ، ويطلب إرسال ذهب آخر . وفي كتاب آخر يقول الملك بورنابورياش :

« إن سبائك الذهب التى لم يفحصها أخى قبل إرسالها إلى ، بعثت بها لتذاب في البوتقة فردوها إلى ولم يقبلوها » .

وفي كثير من كتب الملك دوشراتا ، ملك ميتانى ، يتكرر أيضا الالاحاح في طلب الذهب من ملك مصر .

إلى هنا فرغنا من الرسائل الخاصة بالملوك المجاورين للإمبراطورية المصرية ، فنأخذ الآن في درس الرسائل الخاصة بحكام فلسطين وسوريا .

كانت فلسطين وسوريا في الوقت الذى كتبت فيه رسائل تل العمارنة جزءا من الإمبراطورية المصرية . ولم تكونا ولاية واحدة أو ولايتين ، بل كانتا ولايات عدة يحكم كل ولاية منها حاكم مولى من قبل فرعون فهو يحكم باسمه ويدفع له الجزية . وكان هذا الحاكم يسمى « خازانو » . ويذهب بعض العلماء الذين كتبوا في هذا الموضوع إلى أن حملة هذا الاسم لم يكونوا مصريين بل كان الفراعنة يختارونهم من الأسر القديمة ذات النفوذ في البلاد التى هم حكام عليها ، وكثيرا ماكان الفراعنة يفتحون المدن فيقدم لهم حكامها بالطاعة والولاء فيقرونهم في حكوماتهم .

ولكن الفراعنة كانوا يطلبون من هؤلاء الحكام أن يرسلوا أبناءهم إلى طيبة ليعلموا فيها ثم ليكون وجودهم في الحاشية الفرعونية ضمانا - إلى حد ما - على ولاء آبائهم . فإذا توفى هؤلاء الآباء خلفهم أبناءهم الذين تربوا في الحاشية الفرعونية . وعلى هؤلاء أن يرسلوا إلى مصر أبناءهم لينربوا مثل تربيتهم .

وكان يوجد بجانب «الخازانو» مندوبون عن فرعون يراقبون سير الحكومات ويبلغون أوامر فرعون إليها . وهؤلاء المندوبون كانوا مصريين وكان اختصاص الواحد

ويحسن أن نقول أيضا إن «بروتوكول» المقابلات لفرعون كان يجعل الناس طبقات . فمنهم من إذا أذن لهم بالدخول الى مجلسه كانت تحييتهم له أن يخروا الى الأرض أمامه . ومنهم من كانوا ينحنون انحناء الركوع . ومنهم من كانوا يكتفون بأن يحنوا رءوسهم . وكان أغلب حكام سوريا يندمجون في الطبقتين الأولى والثانية .

ومن رسائل تل العمارنة رسالة كتبها حاكم صيدا فقال فيها :

« أخبر مولاي الملك أن عبدته التي جعلها وديعة في يدي ، وهي مدينة صيدا ، هادئة . وحينما وصل الى الأمر الذي أرسله مولاي الملك امتأد قلبي فرحا . وقد رفعت رأسي وقاض النور على وجهي وعيني حينما قدم أمر مولاي الملك . إن خادمك يبعث اليك مائة ثور ، ويبعث أيضا رقيقات . وهذا إخبار بذلك للملك مولاي وشمس السماء » .

فهذه الرسالة تدل على أن الجزية التي كان حكام سوريا يرسلونها إلى فرعون كانت تختلف باختلاف البلدان . فهي لبعض منها مصنوعات من المعادن الكريمة كما يرى في كثير من النقوش التي على الآثار المصرية ، ولبعض آخر ثيران ورقائق .

وكتب حاكم آخر فقال :

« أرسل إلى مولاي الملك ، وشمس السماء ، الرسول «هامايا» فهأنذا أقول : لقد أصغيت لأمر الملك بأعظم اهتمام . . . وقد سرت أنا وجنودى وعرباتى وإخوانى الى مقابلة رماته في المكان الذي عينه الملك » .

فيؤخذ من هذا أنه كان على الحاكم واجب نحو كل رسول لفرعون يجتاز أرضه ، وهذا الواجب أن يرافقه في أرضه بجنوده لأجل مساعدته ، إذا دما الأمر إلى مساعدة .

أما إذا كان فرعون نفسه هو الذى يجتاز أرضا في سوريا فان مايفعله حاكم هذه الأرض يظهر من الرسالة الآتية :

يعرف قبل المدنية اليونانية . نعم إنهم طبقوه في بلاد أجنبية ولم يطبقوه في مصر ، ولكنهم عرفوه على كل حال . وهم قد عرفوا أيضا نظام الحكم الذاتى الذى يظن كثيرون أنه من اختراع العصور الحديثة .

ولست أنا الذى أقول هذا فأؤدى به شهادة لوطنى ، بل يقوله قبلى مورى ، في كتابه الذى أشير اليه في هامش هذه الصفحة .

وأول مايرز في رسائل الحكام (أى الخازانو) هو إظهار العبودية في الفاظ ومعان ليست مألوفة لأبناء العصور الحديثة . فواحد منهم يكتب :

« أنا خازانو مدينة . . . خادمك ، وتراب قدميك ، والأرض التي تدوسها وخشب المقعد الذى تجلس عليه ، وكرسی قدميك (١) ، وحافر جوادك . إننى أتمرغ سبع مرات بطننا لظهر في تراب قدمى الملك ، مولاي ، وشمس السماء » .

وحاكم آخر يكتب :

« أنا خادم الملك ، وكلب بيته . إننى أحفظ البلد هنا لمولاي الملك » .

وحاكم ثالث يسمى نفسه «خادم جواد فرعون» . في مثل هذه الألفاظ كان كثير من الحكام يكتبون . فملك مصر ليس سييدا فقط بل هو إله وشمس ، والحاكم لايتقدم إليه بأقل من أن يكون تراب قدميه وحافر جياده والمتمرغ سبع مرات بطننا لظهر في تراب قدميه .

ويحسن أن نقول هنا إن فرعون كان ملكا وسليلا آلهة في آن واحد ، وإن الشمس كانت أحد الآلهة المصرية . فالمعبود رع هو الشمس ، والمعبود أمون هو الشمس ، والمعبود أتون هو قرص الشمس . والفراعنة كانوا أبناء الدم الشمسى ، فليس مستغربا أن يخاطب الحاكم فرعون فيقول إنه إلهه وشمسه .

(١) المراد بكرسى القدمين هنا الكرسي الصغير الذى يوضع أمام الكرسي العادى ليضع الجالس قدميه عليه . ويرى من ذلك أن هذا النوع من الكراسي كان مستعملا في مصر في ذلك الوقت .

موجودة ولكنها لم تكن في كل مدينة ولا عند كل حاكم ، بل كانت في أماكن قليلة متباعدة ، فلم يكن من السهل أن يلجأ الحكام إليها كلما اختصموا ، وهم في كل يوم يختصمون ، وكان من الضروري مع ذلك أن يلجأوا إلى فرعون لأن الحاميات لم يكن لها أن تنصر واحدا منهم على آخر بغير أمر منه . وفي بعض رسائل تل العمارنة ما يؤيد رأينا هذا .

وعلى كل حال فإن الشواهد تدل على أن قلة الحاميات المصرية في سوريا كانت نقطة من نقط الضعف في الحكم المصري ، وأن هذه القلة كانت السبب في احتياج الفراعنة إلى سوق الجيوش من وقت إلى وقت لاطفاء ثورة أو لرد هجوم على الحدود أو لغير ذلك من الأعمال الحربية .

والآن ننتقل إلى مأساة تدل عليها رسائل تل العمارنة ، وهي انحلال الأطراف الآسيوية من الإمبراطورية المصرية في عهد اخناتون بسبب انصرافه إلى ثورته الدينية ، وانقسام البلاد من جراء هذه الثورة .

حينما صعد أمينوفيس الرابع إلى العرش كانت مملكة في آسيا الصغرى تسمى مملكة خيتاس ، أو مملكة الحيثيين ، قد امتد سلطانها بجانب الممالك المحالفة لمصر . ولكن ملك هذه المملكة - ويسمى « سبلل » - كان يسعى إلى اكتساب صداقة مصر فأرسل إلى أمينوفيس الرابع حين توليه العرش رسالة يهنئ به . ثم لما انتقل أمينوفيس إلى عاصمته الجديدة اخناتون وسمى نفسه اخناتون ، أرسل إليه سبلل رسالة أخرى يسأله فيها لماذا قطع مراسلته .

فهذا السؤال من الملك سبلل يحملنا على الظن بأن اشتغال اخناتون بثورته الدينية لم يكن يدع له وقتا للاهتمام بعلاقاته مع الملوك .

وعلى أثر هذه الثورة أو بعدها بقليل شرعت قبائل من الحيثيين بغير على الحدود السورية ، وشرع بعض حكام سوريا يتآمرون مع الحيثيين . وكان من هؤلاء الحكام حاكم لمدينة عمورية يسمى

« حينما علمت أن الملك عائد بجنوده العديدين إلى بلاده أرسلت إلى جيشه العظيم كثيرا من المشاشية وكما من الزيت » .

فإذا كان الحاكم فقيرا أو كانت بلاده فقيرة فإنه يقدم ما يقدر عليه ثم يعتذر فيقول :

« ليعت مولاي الملك من يأخذ الزيت . فليس عندي خيول ولا عربات أسير بها إلى مقابلة الملك ، وقد أرسلت ابني إلى بلاد مولاي الملك » .

ويلاحظ في هذه الرسالة ، كما يلاحظ في الرسائل الأخرى ، وكما يلاحظ في رسائل ملوك بابل وأشور والآزيا وميتاني التي مرّت ، أن أصحابها قلما يستعملون ضمير الغائب حينما يشيرون إلى فرعون ، بل هم يكررون في كل مناسبة كلمة « الملك » أو كلمتي « مولاي الملك » أو كلمة « أخى » .

وكانت الخصومات بين حكام سوريا قائمة قاعدة فكان بعضهم يعتدى على أراضي البعض الآخر ورجاله ، وحينئذ كان كل من المعتدى والمعتدى عليه يسارع فيشكو إلى فرعون ويطلب منه نجدة .

كتب أحدهم فقال :

« ليعلم مولاي الملك أن النهابين أثاروا هذه المدن ضدى ... إننى الآن أشبه طائرا في فخ أو في قفص ... ليرسل لى مولاي رماة مصريين » .

ولم تكن النجدات التى يطلبها هؤلاء الحكام كثيرة ، فحاكم « مجدو » (١) يطلب راميين اثنين ، وحاكم « صور » (٢) يطلب عشرين ، وحاكم « ببلوس » يطلب أربعة ومعهم عنرون عربية . ولا تزيد أعظم نجدة طلبها واحد منهم على مائتين .

ويقول مورى هنا إن هذه الطلبات تدل على أن ملوك مصر لم تكن لهم في سوريا حاميات مصرية . ويخالفه في ذلك برستيد فيذكر أنهم كانت لهم حاميات . وربما كان الصواب أن الحاميات كانت

(١) (Mageddo) (٢) (Tyr)



فنانان مصريتان ترقصان وتضربان بعض الآلات الموسيقية في حفلة
بينما سيدة من سيدات الحفلة جالسة وفناة تقدم لها شراباً

لم يرد عليه بالرفض بل كتب الى فرعون يقول إنه
سيقدم اليه مع ابنه . ثم مضت أيام ولم يقدم ،
فكتب يقول إنه فادم . ثم مضت أيام أخرى ولم
يقدم ، فكتب يقول إنه تحرك للقدوم ، ولكنه أضاف
الى ذلك أن الحيثيين يهاجمون مدينة « نونيبو »
وتسأل من يدافع عنها في غيابها . قال :

« إننى أنا وابنى خادمان وفيسان للملك
فسنساغر أنا وابنى فى الحال . . ليكن مولاي
الملك على ثقة من أننى اسارع الى إطاعة أوامره
ولكن الملك كلفنى ان ادافع عن اراضيه وها هو
ملك الحيثيين قد صار فى ارض نوحاسى وفى
مدينة تونيبو . . إننى خائف على بلاد مولاي »
وبينما كان عزيزو يكتب هذا كان اعيان مدينة
تونيبو يكتبون الى فرعون رسالة بعد رسالة
مستصرخين مستغيثين ، لأن عزيزو يداهمهم ويضيق
الخناق عليهم باتفاقه مع الحيثيين . قال هؤلاء
الاعيان فى إحدى رسائلهم :

« الى مولانا ملك مصر . نحن أهل تونيبو
عبيدك ندعو لك بالسعادة الكاملة ونسقط على
قدميك . . . مولانا : إن خادمك مدينة تونيبو
تقول : من هو الذى كان يستطيع فيما مضى
أن ينهب تونيبو من غير أن يجازيه
« مناخيريا » (٤) يمثل ما فعل فيها .

(٤) يرجع برستيد أن يكون اسم « مناخيريا » هذا لقباً
لتحتوسى الثالث .

« عزيزو » ، فأغار باتفاقه مع الحيثيين على الأراضى
المجاورة له وقتل ثلاثة من الحكام . ثم لما علم أن
خبره وصل الى اخناتون أراد أن يخدعه فكتب اليه
رسالة يتبرأ فيها من تهمة الخيانة ويؤكد أنه لا يزال
وفياً لفرعون ويسلر بأنه لم يفعل غير أن دافع عن
نفسه ويقول :

إن أعيان مدينة « سومورى » (١) هم الذين
لم ينركونى فى سلام . فأنا لم أقترف وزراً فى
حق مولاي .

وفى رسائل تل العمارنة جواب على هذه الرسالة
ليس من اخناتون بل من شخص آخر (لم يوجد
اسمه) يتبدى فى مخاطبة عزيزو بقوله :
« باسم الملك مولاك ، حاكم مدينة
عمورية » .

ومن هذه الكلمات يرى أن اخناتون لم يجب بنفسه
بل كلف شخصاً من المقربين اليه أن يجيب باسمه ،
ويرى أيضاً أن هذا الجواب كتب من صورتين أحدهما
أرسلت الى عزيزو والثانية حفظت فى وزارة الخارجية
الفرعونية وهى التى توجد الآن بين أيدينا .
وفى هذا الجواب يقول الكاتب :

« لاشك أنك لست مع الملك مولاك . فان
أردت أن تخضع للملك فستكون مكافأك عند
الملك عظيمة . أما اذا بقيت على ما أنت عليه
فالعصيان فى قلبك وستموت أنت واهلك .

« اخضع للملك مولاي لتعيش . . . إنى أقول
لك : أترك قمة هذا الجبل (٢) وأمضى الى مقابلة
الملك مولاك ، أو أرسل ابنك الى الملك . ليس
لك ابن يمكن أن يذهب اليه . . . اعلم أن الملك
قوى كالشمس فى السماء وأن جنوده وعرباته
عديدة فى البلاد العالية والبلاد الواطئة (٣) ومن
مشرق الشمس الى مغربها » .

وكان عزيزو ذا دهاء ومكر فلما تلقى هذا الجواب

(١) لم نجد لهذه المدينة (Soumouy) موقعا فى الخرائط
القديمة التى بين أيدينا ولعلها سامراء .

(٢) يظهر من هذا أن عزيزو كان قد احتفى فى قمة جبل .

(٣) لعل المراد بالبلاد العالية الجبال وبالبلاد الواطئة السهول .

« والآن فان مدينتك تونيبو نبكى ، ودموعها
تجرى ، وليس من ينصرنا .
» لقد كتبنا عشرين رسالة الى مولانا ملك
مصر ولم يأتنا رد واحد من عند مولانا » .

وسقطت مدينة تونيبو من غير أن يتحرك أختاتون
لينجدها . وزحف عزيرو بعد ذلك على ببلوس مع
الحيثيين ، فكتب حاكمها الى اخناتون رسالة بعد
رسالة . وثار حكام آخرون ، وتحالفوا مع
الحيثيين فدارت المعارك بين الحيثيين وهؤلاء
المتأمرين من جانب ، ومع الحكام الباقين على الولاء
لمصر من جانب آخر ، ففاز الأولون وانهزم الآخرون
وفقدت مصر كل أملاكها في سوريا وأكثر أملاكها
في فلسطين دون أن ينهض أختاتون للدفاع عنها .
ثم لما نهض بعد ضياع الفرصة لم يقدر مدى موقع
فارسل قوة صغيرة فلم تكد تظهر في الميدان حتى
انهزمت .

« إن آلهة سيدنا ملك مصر وتمائيله موجودة
في تونيبو . ليسال مولانا في ذلك من هم لديه
من الشيوخ يعرف هل الذى نقوله هنا صحيح
أولا . . اذا لم تدركنا جنود مولانا ملك مصر
وعرباته قبل ضياع الوقت فان عزيرو يعاملنا
كما عامل مدينة « نى » . وحينئذ لانبكى وحدنا
بل يبكى ملك مصر معنا من جرائم عزيرو . لأن
عزيرو سيدير يومئذ ذراعه ضد مولانا ومتى
دخل مدينة سومورى فسيفعل بنا ما يشاء »

وفي رسالة أخرى قال اعيان تونيبو :

« من هو الذى ميز تونيبو ورفع قدرها ؟
اليس هو أمينوفيس الثالث ؟ . . لقد أرسلنا
من قبل عشرين رسالة الى مولانا الملك وبقي
رسلنا عند مولانا » .



General Secretary
of the
Egyptian
Antiquities
Service
Cairo
Egypt

طليعة الوعي الصاعد تترا كتاب الشعب

- | | |
|--|--|
| <p>٧</p> <p>الطبعة الأولى : ١٩٥٧
الطبعة الثانية : ١٥ سبتمبر ١٩٥٧
الطبعة الثالثة : ٢٥ سبتمبر ١٩٥٧</p> | <p>١</p> <p>الطبعة الأولى : ١٩٥٧
الطبعة الثانية : ١٥ سبتمبر ١٩٥٧
الطبعة الثالثة : ٢٥ سبتمبر ١٩٥٧</p> |
| <p>٨</p> <p>الطبعة الأولى : ١٩٥٧
الطبعة الثانية : ١٥ سبتمبر ١٩٥٧</p> | <p>٢</p> <p>الطبعة الأولى : ١٩٥٧
الطبعة الثانية : ١٥ سبتمبر ١٩٥٧</p> |
| <p>٩</p> <p>الطبعة الأولى : ١٥ نوفمبر ١٩٥٧
الطبعة الثانية : ٢٠ ديسمبر ١٩٥٧</p> | <p>٣</p> <p>الجزء الأول : ١٩٥٧
الجزء الثاني : ١٩٥٧</p> |
| <p>١٠</p> <p>الطبعة الأولى : ١٩٥٧
الطبعة الثانية : ١٥ سبتمبر ١٩٥٧</p> | <p>٥</p> <p>الطبعة الأولى : ١٩٥٧
الطبعة الثانية : ١٥ سبتمبر ١٩٥٧</p> |
| <p>١١</p> <p>الطبعة الأولى : ١٩٥٨
الطبعة الثانية : ١٥ سبتمبر ١٩٥٧</p> | <p>٦</p> <p>الطبعة الأولى : ١٩٥٧
الطبعة الثانية : ١٥ سبتمبر ١٩٥٧</p> |

مائة الشعب
كتاب كل ربة بيت
ومن تعد نفسها لتكون ربة بيت

يصدر في أول فبراير سنة ١٩٥٨

كتاب الشعب
١٤

الأسلاف في المشارق والمغرب

دكتور جمال الدين الرمادي

مطابع الشعب
١٩٦٠



ومالطة وكريت وقبرص ورودس . وكذلك دخل
الاسلام أمريكا الشمالية ، وأمريكا الجنوبية ،
وانتشر في شتى البقاع والأصقاع .

وستتناول في هذا البحث الاسلام في مختلف
القارات ، مبيين فضله على الحضارة الأوروبية ،
وأثر علماء الاسلام وفلاسفته وحكمائه وعباقرته
في الثقافة الغربية .

وجدير بالذكر أن الاسلام دين الحرية والاخاء
والمساواة ، لا يعرف الظلم الى مبادئه سيلا ، ولا
الظغيان الى تعاليمه طريقا ... فهو دين السماحة
وسجاجة الخلق وصفاء الطبع ونقاء الطوية ، ولم
يكن حد السيف أو أسنة الرماح سببا لانتشاره
في يوم من الأيام فالرسول قد كتب الى مختلف
الملوك والأقيال والأمراء يدعوهم الى الاسلام .

ويقال ان الكتاب الذي أرسله الرسول صلى
الله عليه وسلم الى هرقل كان كما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد بن عبد الله ورسوله الى هرقل

« السلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، أسلم
تسلم ، وأسلم يؤتلك الله أجرك مرتين ، وان
تتول ، فان اثم الأكارين (الأريوسيين) عليك » .

كما أرسل الرسول الى المقوقس عظيم القبط
الكتاب التالي :

« أما بعد ، فاني أدعوك بدعاية الاسلام ،
فأسلم تسلم ، وأسلم يؤتلك الله أجرك مرتين

بدأ الاسلام في بقاع مكرمة تقع في الجانب
الغربي من الجزيرة العربية ، ولكن هذه المنطقة
الضيقة ما لبثت أن اتسعت ، وانتشر نورها حتى
شمل الجزيرة العربية برمتها شمالا وجنوبا ، شرقا
وغربا . ومن هذه الجزيرة انتقل الاسلام الى شتى
الأقطار والأمصار في العالم .

ففي آسيا شمل بلاد الشام والعراق وما اليهما
في الشمال ، ثم اتجه الى الشرق حتى عم إيران ،
ومن الجزيرة العربية كذلك وغيرها من الأقطار
الاسلامية حتى بلغ الهند والصين وأندونيسيا
والملايو واليابان .

وفي أفريقيا شملت الدولة الاسلامية مصر
والسودان والحبشة وغيرها ، كما شملت طرابلس
وتونس والجزائر ومراكش وكثيرا من الأقطار في
شرق أفريقية وغربها .

وفي أوروبا امتد الاسلام عبر جبل طارق في
أسبانيا حتى وصل الى جنوب فرنسا ، ثم الى
البلقان وسواحل أوروبا من طريق البوسفور
والدردنيل وبحر مرمرة ، كما نفذ اليها من طريق
سيبريا الغربية حين تدفقت الشعوب التركية
والمغولية الاسلامية ، وسيطرت على الأناضول
وحوض الفولجا وسهولها والطرف الجنوبي الشرقي
من روسيا والسواحل الشمالية لبحر قزوين والبحر
الأسود . وما لبث نور الاسلام أن عم أكثر
جزر البحر الأبيض المتوسط ، وفي مقدمتها صقلية

أحدهم أنه بالمدينة . واستبشر الجمع بما ينوي كسرى فارس صنعه ، ورفع أحدهم صوته قائلاً : « أبشروا فقد نصب له كسرى ملك الملوك ، كفيتم الرجل » .

ومضى الرجلان يضربان في فجاج الأرض حتى وصلا إلى الرسول الكريم فأخبراه أن كسرى يطلب مقابلته ، ويرغب في حضوره . فصرفهما الرسول على أن يلتقي بهما في الغد ... وهبط الخبر من السماء على رسول الله المصطفى أني الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله .

وحال موعده الرجلين ، فذهبا لمقابلة الرسول الكريم ... ولشده ما كاث دهشتها عندما فاجأها بمصرع كسرى بيد ابنه شيرويه ، فطار ليهما وطاش عقلهما ، وكذا يصعقتان من هول المفاجأة ... وملك أحدهما أعصابه ، وقال موجها الخطاب إلى النبي الكريم : « ألا لقد ظلمنا عليك ما هو أشر من هذا ، أفنكتب هذا عنك ونخبر به الملك ؟ » . فأجاب النبي محمد : « أخبراه ذلك عنى » وقولا له ان ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى ... وقولا له انك ان أسلمت أعطيتك ما تحت يديك ، وملكتك على قومك من الأبناء .

فرجع الرسولان إلى باذان ، وأخبراه بما قصه عليهما الرسول . فاشتدت دهشة باذان ، وتملكه الذهول واستبد به العجب ، وقال : « والله ما هذا بكلام ملك ، وأنى لأرى الرجل نبيا كما يقول . ولننظر فيما قال ، فلئن كان هذا حقا فإنه لنبي مرسل ، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا » .

ولم تلبث الأيام أن جعلت الخبر المصروع حقيقة ملموسة ، تراها العين كما تسمعها الأذن ، ووافى باذان كتاب « شيرويه » وفيه يقول : « أما بعد ، فإني قد قتلت كسرى ، ولم أقتله إلا غصبا لفارس لما استحل من قتلى أشرافهم . فإذا جاءك

« يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

أما كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى كسرى ملك الفرس فقد جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس » سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله . وأنى رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيا ، أسلم تسلم ، فإن أبيت فعليك أثم المجوس » .

كما أرسل الرسول الكريم إلى النجاشي ملك الحبشة كتابا آخر ، منفصلة في الصدقات عن الاسلام في الحبشة .

وهكذا تبين لنا أن الرسول الكريم لم يكن يفرض الاسلام على الناس قرضا ، إنما كان يدعوهم بالتى هى أحسن ... بل الله — صلوات الله عليه — قاسى من أجل هذه الكتب التى أرسلها إلى الملوك والأقباى ضروبا من الهوان ، وضنوا من العذاب .

ومن ذلك أن كسرى فارس ثارت ثائرة ، واشتد ضيقه ، وعظم حنقه عندما تسلم كتاب الرسول ، وأرسل إلى عامله على اليمن — وهو « باذان » — يأمره بأن نهض لتأديب هذا الرجل ، وجاء إلى البذار « ابعت إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جليدين فليأتياى به » :

وأرسل « باذان » ، امتثالا لأمر كسرى ، رسولين من قبله إلى الرسول يدعوانه إلى المثل بين يديه ، ووصل الرسولان إلى الطائف ، وقابلا نفرا من قريش ، فسألاهم عن الرسول ، فأخبرهما

فلنتبعه فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا . فقالوا : نحن نكون تحت يدى العرب ، ونحن أعظم الناس ملكا وأكثرهم رجالا وأفضلهم بلدا ؟ قال : فهل فأعطه الجزية فى كل سنة أكسر عنى شوكته ، وأستريح من حربه بمال أعطيه إياه . قالوا : نحن نعطي العرب الذل والصغار بخراج يأخذونه منا ، ونحن أكثر الناس عددا وأعظمهم ملكا وأمنهم بلدا ؟ لا والله لا نفعل هذا أبدا . قال : فهل فلأصلحه على أن أعطيه أرض سورية ويدعنى وأرض الشام . فقالوا له : نحن نعطي أرض سورية ، وقد عرفت أنها سره الشام ؟ والله لا نفعل هذا أبدا ... فلما أبوا عليه قال : أما والله لنرون أنكم قد ظفرتم اذا امتنعتم منه فى مدينتكم . ثم جلس على بغل له ، فانطلق حتى اذا أشرف على الدرب استقبل أرض الشام ثم قال : السلام عليكم أرض سورية تسليم الوداع . ثم ركض حتى دخل القسطنطينية .

وقد تمتشت هذه الكتب مع ما جاء فى القرآن الكريم من دعوة الى نشر الاسلام بين العالمين ، كقوله تعالى : « قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » ، وقوله : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . وقوله تعالى : « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا » .

والرسول — قبل هذا كله وبعد هذا كله — لم يجبر غير المسلمين على الاسلام اجبارا ، انما جعل لهم الخيار بين الاسلام أو دفع الجزية . وقد قال الله تعالى فى كتابه الكريم : « ولا يجرمكم شنان قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » . فأرست هذه الآية الكريمة أساس التزام عام شامل يقضى بتحري العدالة المطلقة مع غير المسلمين على

كتابى هذا فخذلى الطاعة ممن قبلك ، وانظر الرجل الذى كان كسرى كتب فيه اليك (يعنى الرسول عليه الصلاة والسلام) فلا تهجه حتى يأتيك أمرى فيه » . فلما انتهى كتاب شيرويه الى ياذان قال : « ان هذا الرجل لرسول » . فأسلم وأسلم من كان معه من الفرس ببلاد اليمن .

وهكذا كان الرسول الكريم يرسل الكتب الى الملوك والأكاسرة والأقيال من أجل هداية الناس ونشر الاسلام ، ولم تكن هذه الكتب وسائل عنف وارهاب ، أو ذرائع للبطش والتنكيل ... انما كان يدفع بالتى هى أحسن ، بل كان — كما أسلفنا القول — يتحمل ألوانا من العسف والضيق ، وضروبا من الوعيد والتهديد من جانب هؤلاء القوم .

وكان صلوات الله عليه يقابل هذا كله بصدر رحب ونفس راضية مرضية ، تستمرىء العذاب فى سبيل الاسلام ، وتتحمل الصعاب فى سبيل نشر الرسالة الربانية بين العالمين . وقد كان عليه الصلاة والسلام ينتصر على خصومه بما أوتى من طهارة نفس وصفاء قلب . وكان سبحانه وتعالى ينفث فيه سره ، فاذا العصى من الأمور سهل ، واذا القصى من الطلاب دان ، واذا الحق منتصر على الباطل ... ان الباطل كان زهوقا .

وتقول بعض الروايات العربية ان هرقل ملك الروم كان يميل الى الاسلام ، ومن ذلك ما رواه الطبرى فى الجزء الثالث من تاريخه ، من أنه لما وصل اليه كتاب الرسول ، وهو بالشام يريد العودة الى القسطنطينية ، جمع الروم وقال لهم :

« يامعشر الروم ، انى عارض عليكم أمورا فانظروا فيما قد أردتها . قالوا : وما هى ؟ قال : تعلمون والله ان هذا الرجل لنبى مرسل . انا نجده فى كتابنا ، نعرفه بصفته التى وصف لنا ، فهل

بكى عليه اليهود ، ووقف النبي على قبره وعزى ابنه ، وألبسه قميصه . وقد قام المسلمون بأعمال دفنه ، وظل الرسول في أثناء ذلك واقفا صامتا لا يتحرك من مكانه حتى امتلأ الضريح بالتراب وتوارت الجثة عن العيون ، وأخذ بنو قينقاع وغيرهم من اليهود ينثرون التراب على رؤوسهم من شدة الحزن والألم كما يقول الواقدي .

وعندما بعث أبو بكر الصديق الجيوش لفتح الشام تحت إمرة أسامة بن زيد ، عملا بوصية الرسول الكريم ، أمر الجند بتجنب السلب والمخادعة ونقض العهود والتمثيل بأحد ، وأوصاهم ألا يقتلوا طفلا أو شيخا فانيا أو امرأة ، وألا يجثوا انخيل ولا يحرقوه ، ولا يحطموا أية شجرة مشمرة ، ولا يذبحوا شاة ولا بقرة ولا جملا الا لصد غائلة الجوع ، وأخبرهم أنهم سيجدون رهبا ن يتعبدون في أديرتهم ، وأمرهم أن يتركوهم وشأنهم ولا يمسوهم بسوء .

أما عمر بن الخطاب فقد منح اليهود حماية دينهم ، وأمنهم على حياتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم . فلا تهدم كنائسهم ، ولا تتخذ منها منازل ، ولا يمسها أحد بسوء ... وكل ما ورد في هذا العهد مخفوف باسم الله ورسوله وخلفائه والمسلمين عامة ، على شرط أن يدفع الناس الجزية بانتظام .

وعاهد خالد بن الوليد أهل الحيرة في جو من الحرية ، بلا تهديد ولا وعيد ... فجاء في هذا العهد : « هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد تقباء أهل الحيرة ، ورضى بذلك أهل الحيرة وأمرهم به . عاهدهم على مائة وتسعين ألف درهم تقبل في كل سنة جزاء على أديبهم في الدنيا ، رهبا نهم وقسمهم ، الا من كان منهم على غير ذى يده ، حبيسا عن الدنيا

وجه عام ، سواء كانوا أصدقاء أم أعداء ، من أهل الذمة أم من المحاربين .

وجاء في آية أخرى « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » . ومعنى هذا أن على المسلمين أن يلتزموا أدق قواعد العدالة والانسانية والاستقامة حتى في قتالهم مع من يعتدون عليهم للقضاء على الاسلام نفسه .

ويروى أن النبي عند ما أرسل أحد جيوش المسلمين الى القتال قال : « انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله ، ولا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا صغيرا ولا امرأة ، ولا تغلوا وضموا غنائمكم وأصلحوا ، وأحسنوا ان الله يحب المحسنين » .

وفي حديث آخر نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل الكهنة والرهبان المتعبدين في الأديرة والصوامع .

وبذلك تنحصر اباحة القتل في رجال العدو القادرين الذين يدخلون بالفعل الى ميدان القتال ... والقتال نفسه لم يكن المسلمون ينفرون اليه الا تأمينا لدعوتهم ، أو درءا لخطر داهم أو شك أن يحقق بهم ، ويهدد مصالحهم ، ويكاد يعصف بحياتهم ، ويدمر بيوتهم ومساجدهم ... ومخافة أن يتمكن العدو منهم فيستبيح أموالهم ومحارمهم ، وينهب ديارهم ومنازلهم .

وعند ما وقع الرسول الكريم الصلح مع يهود ر أعظاهم صحائف التوراة معززة مكرمة ، مما ، على كرم خلاله وحسن سجاياه ، وتزوج من سفية بنت حبي بن أخطب حفظا لكرامتهم ، استبقى اليهود في الأرض ، وحقق دماءهم ، يعاملهم معاملة طيبة .

ويذكر صاحب تاريخ الخميس أن النبي كان يترحم على بعض اليهود مثل عبد الله بن أبي الذي

وسقيهمها وبريشها وسائر ملتها : أله لا تسكن
كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من حيزها ،
ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا
يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا
يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود ...

« وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى
أهل المدائن ، وعليهم أن يخربوا منها الروم
واللصوص^١ ، فمن خرج منهم فله آمن على نفسه
وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن
وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ، ومن
أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم
ويطلى بيوتهم وصلبهم ، فانهم آمنون على أنفسهم
وعلى بيوتهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن
كان بها من أهل الأرض ، فمن شاء منهم فعد وعليه
مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ، ومن شاء سار
مع الروم ، ومن شاء وجع الى أهله ... وأنه
لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصانهم ، وعلى
ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء
وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذي عليهم من الجزية » :

وقد كتب ههنا العهد في العتاق الخامس عشر
للهمزة ، وفهنا عليه : خالد بن الوليد ، عمرو بن
العاص ، عبد الرحمن بن عوف ، معاوية بن أبي
سفيان ،

وعندما انتشر نور الاسلام الى شتى الاقطار
والامصار ، كانت الشريعة الاسلامية كعادتها تكفل
لغير المسلمين كافة الحقوق . فالاسلام لا يعرف

(١) يقبض من هذا ان نشر الاسلام في ربوع الشرق كان من
اهدافه الجوهرية تحرير ارض الشرق من يدوان ابناء الغرب .
من الروم واللصوص . فمن ابي القام مواليا ، خرج وهو آمن
على نفسه وماله . ومن اقام مواليا ، اقام وهو آمن . ، وآية
ولائه دفع الجزية - او الضريبة - التي لا يرى مواطن في
ذمتها ضريبة .

تاركاً لها ... وعلى المنعة ، وان لم يستعهم فلا شيء
عليهم حتى يستعهم .

ولم يكتف بذلك بل قال : « وجعلت لهم ايما
شيء ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات ...
ان كان غنيا فافتقر ، وصار أهل دينه يتصدقون
عليه ، طرحت جريته ، وعيل من بيت المسلمين
وهياله ما أقام بدار الهجرة ودار الاسلام ! » .

ويذكر التاريخ أن المسلمين كانوا يعرضون
الناس عن الضرر الذي يلحقهم خطأ من المسلمين .
ومثال ذلك أن ذميا جاء الى عمر بن الخطاب في
أثناء فتوح الشام ، وشكا اليه أن بعض المسلمين
قد قطعوا عضا من كرومه دون إذن منه ، فخرج
عمر من المعسكر فاذا به يرى مسلما خارجا من
الكرم وقد حمل بعض العنب على درعه ، فصاح
به في غضب وحدة : « وأنت أيضا قد شرعت تركب
مثل هذه الحماقات ؟ » . فاعتذر الرجل بأنه لم
يفعل ذلك الا لاشتهاء جوعه ، فأمر عمر بأن يعرض
الرجل عما فقد من عنبه حتى أوفاه .

وعندما شرع عمر بن الخطاب ينظم ادارة العراق
عقب فتحها ، استدعى زعماء البلاد غير المسلمين الى
المدينة ليستشيرهم ويستأنس بأرائهم . وجاء في
المقريزي أنه كان يفعل كذلك فيما يتعلق بتقوى
فاستشار المقوقسي عظيم القبط في أمور شتى :

وعند ما فتح عمر بن الخطاب الشام ضاحك أهل
« ايلياء » ، وأمن أهلها على أنفسهم وأموالهم
وكنائسهم وصلبانهم ، وأعطاهم عهدا بذلك ، وهو
المعروف بالعهد العبري ، وقد أوردتها محمد بن
حريز الطبري في تاريخه ، وهذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله
عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان ، أعطاهم
أمانا لأنفسهم وأموالهم ، وكنائسهم وصلبانهم ،

وهذه الحقائق كلها تدل دلالة واضحة على أن الاسلام لم يضطهد في وقت من الأوقات المسيحية أو اليهودية أو غيرهما من الأديان ... انما كان يرعى معتنقيها ، ويعاملهم باللين والرفق والعدل ، ولم يستخدم يوما وسائل العنف أو القسوة مع أصحاب المذاهب الأخرى ... بل على العكس من ذلك كان يستعين بهم في كثير من الأمور والمهام ، ولم تكن هذه الأمور بسيطة أو طفيفة ، انما كانت أحيانا أمورا تتصل بالوزارة أو الولاية أو نحو ذلك من المناصب الكبرى في الدولة .

ولم تكن الضريبة التي يدفعها المسيحيون أو أهل الذمة في صورة « جزية » تعنى فرض سلطة القوى على الضعيف ، أو الظافر على الخاسر ، أو المنتصر على المخذول ... انما كانت تدفع مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين . ولما قدم أهل الحيرة هذه الجزية ذكروا صراحة عند تقديمها أنهم انما دفعوا الجزية على شريطة « أن يمنعونا هم وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم » . وكذلك سجل خالد في المعاهدة التي أبرمها مع بعض أهالي المدن المجاورة للحيرة قوله : « فان منعاكم فلنا الجزية ، والا فلا » .

وقد حدث أن رفع هرقل راية العصيان ضد المسلمين ، ورغب في الاتقضاض عليهم وأخذهم بالعدو والخيانة . فلما علم أبو عبيدة قائد العرب بذلك ، كتب الى عمال المدن المفتوحة في الشام يأمرهم برد ما جبي من الجزية في المدن ، وكتب الى الناس يقول : « انما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع . وانكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم ، وانا لا تقدر على ذلك . وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ، ونحن لكم على الشرط ... وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم » . وبذلك ردت مبالغ طائلة من مال الدولة ،

التعصب ولا الظلم ، بل يفسح صدره للأقليات التي لا تدين به ، ويأمر برعايتها وحمايتها .

وتوسع معاوية (٤١ - ٦٠ للهجرة ، ٦٦١ - ٦٨٠ للميلاد) في إلحاق المسيحيين بخدمته ، وحذا حذوه أفراد كثيرون من البيت الأموي . وطالما شغل المسيحيون مناصب عالية في بلاط الخليفة . ومثال ذلك : الشاعر الأخطل — وهو عربي نصراني — كان شاعر البلاط الأموي ، وأبو القديس يوحنا الدمشقي ، مستشار الخليفة عبد الملك . كما كان في خدمة الخليفة المعتصم أخوان مسيحيان : أحدهما يسمى « سلمويه » كان اليه الحل والربط في كثير من أمور الدولة ، والثاني ابراهيم ، وكان يحفظ خاتم الخليفة ، وعهد اليه بخزانة بيوت الأموال في البلاد .

واختار الخليفة عبد الملك عالما مسيحيا من مدينة الرها ، يدعى أنثاس ، مؤدبا لأخيه عبد العزيز . وقد وافق أنثاس تلميذه الى مصر عندما عين واليا عليها ، وجمع ثروة طائلة من الأموال ، وقيل « انه امتلك أربعة آلاف من العبيد ، كما ملك كثيرا من الدور والبساتين ، وكان الذهب عنده كأنه الحصى ، وكان أولاده يأخذون من كل جندي ديناراً عند ما يتسلم راتبه » .

وفي عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ ، ٨٩٢ - ٩٠٢ م) كان عمر بن يوسف والي الأنبار مسيحيا . وقد وافق الخليفة على هذه الولاية ولم يجد في ذلك غضاظة .

بل اننا نجد في عهد صلاح الدين الأيوبي ، الذي كان يكيل الضربات تلو الضربات للصليبيين ، وزيروا مسيحيا هو ابن مماتى ، وكان صلاح الدين الأيوبي لا يجد مانعا من الاستعانة بخبرته والاستفادة بجهوده ، والرجوع اليه في كثير من الأمور .

موعدهم الجنة » . ولما مات ياسر من العذاب أغلظت امرأته سمية القول لأبى جهل ، فطعنها بحرية قضت عليها ، فكانا أول شهيدين في الاسلام ، ثم أمعن المشركون في تعذيب ابنهما عمار بالحر تارة ، وبوضع الصخرة على صدره تارة ، ثم بالتغريق تارة أخرى .

ولم يكن المسلمون يفعلون مع المذاهب الأخرى ما فعلته قريش مع المسلمين من أجل الايمان بالأوثان ، وعبادة الأصنام ، والكفران بالواحد القهار ... بل كانوا على النقيض من ذلك كما رأينا ، يتخذونهم اخوانا ، ويعاملونهم معاملة طيبة كريمة . وكل هذه الحقائق تنهض أدلة ناصعة ، وحججا دامغة على أن الاسلام لم يكن في فترة من الفترات دين عنف أو قسوة ، أو بغى وتسلط . حقا كان لابد للمسلمين أن يعملوا على نشر الدعوة ، وحقا كان لابد لهم من حماية جانبهم ، وصيانة موقفهم والذود عن حياضهم ومن أجل ذلك قاموا ببعض الفتوح ، بيد أن هذه الفتوح كلها لم تكن للبطش والارهاب ، وانما كانت للهداية والايمان .

وجدير بالذكر أن الجزية التي كان يدفعها أهل الذمة في هذه الفتوح كانت تعفيهم — فضلا عن النواحي سالفة الذكر — من الخدمة العسكرية الاجبارية التي كانت فرضا واجبا على المسلمين الذين يؤدون في الوقت نفسه فرض الزكاة من أموالهم . وهذا دليل قاطع على أن الاسلام لم يحاب فريقا دون فريق وكانت الزكاة تنفق في وجوه البر والخير وعلى الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ، ولم يعف الاسلام قادرا من أدائها .

فالمسلمون لم يبح لهم أن ينعموا ويعنموا في الوقت الذي يتعذب فيه اخوان لهم . والمسلمون لم يبح لهم أن يسعدوا ويهنأوا في الوقت الذي يشقى فيه اخوان لهم ... لأن الاسلام دين التعاطف

قد دعا المسيحيون بالتركعة لرؤساء المسلمين وقالوا : « ردكم الله علينا ونصركم عليهم (أى على الروم) ، فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا ، وأخذوا كل شيء بقي لنا » .

وليس من شك في أن هذه القصة التي رواها أبو يوسف في كتاب الخراج ، تدل دلالة واضحة على أن المسلمين لم يكونوا ينوون للمسيحيين أو غيرهم من الطوائف شرا ، ولم يكونوا يتهبون منهم أموالهم ، أو يستلبون منهم حقوقهم ... انما كانوا يفرضون الجزية عليهم حتى يدافعوا عنهم ، ويحموا جانبهم من غائلات المعندين الأثيم ، ويقفوا لأعدائهم بالمرصاد ... فكانوا يحصنون المدن والشعور ، وينون القلاع والحصون ، ويرابطون في عدتهم وسلاحهم للدفاع عنهم ، وحماية حقوقهم بالنفس والنفس .

والسيف لم يكن مصلتا على رأس أحد من الناس ليكون مسلما ، ولم يكن المسلمون يلجأون الى وسائل التعذيب التي لجأ اليها المشركون لصرف الناس عن الاسلام ... لم يكن المسلمون يصنعون صنيع المشركين عندما أحضروا بلالا مؤذن الرسول وألقاه خلف الجحشى في الرمضاء على وجهه وظهره في وقعة الظهيرة ، ثم أمر بالصخرة الكبيرة فألقيت على صدره ووقف يتشفى فيه قائلا له : « هكذا حتى تموت ، أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى » . وكان ورقة بن نوفل يمر به وهو يقول : « أحد . أحد . أحد » ، فيقول ورقة : « أحد . أحد . والله يا بلال » . ولم يزل على هذا العذاب الأليم حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه .

ولم يصنع المسلمون بمخالفهم في الدين صنيع المشركين بعمار بن ياسر وأبويه ، اذ كانوا يخرجونهم الى الأسطح اذا حميت الرمضاء ويعذبونهم بحرهما ، فيهر بهم الرسول فيقول : « صبرا آل ياسر »

وقد ظل الاسلام راسخا في البلاد التي أخذته مأخذ العقيدة والايمان ، فآمنوا به بعد بحث طويل ، ونظر عميق ، وتأمل كثير ... ولكنه انحسر عن البلاد التي لم يأخذها أهلها مأخذ الجد . زد على ذلك أن قوى الشر قد تضافرت على محاربة الاسلام ، فما لبث أن انسحب من صقلية وإيطاليا وأسبانيا ، بيد أنه ترك فيها حتى اليوم آثارا هيبات أن تمحوها الأيام .

وقد توغل الاسلام في أوروبا عن طريق صقلية والأندلس . وضرب المسلمون في هذه البلاد المثل الأعلى للسماحة ونبل الخصال ، وعدم التعصب أو الانحياز . وقد ذكر الكونت « هنري دي كاستر » في كتابه « الاسلام : خواطر وسوانح » أن محاسنة المسلمين للمسيحيين زادت في بلاد الأندلس حتى صار سكانها في حالة أهنأ من التي كانوا عليها منذ أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين الذين يقال لهم « القوط الغربيون » .

ويقول دوزي : « ان هذا الفتح لم يكن مضرا بالأندلس ، وما حصل من الاضطراب والهرج بعده لم يلبث أن زال باستقرار الحكومة الاسلامية في تلك البلاد . وقد أبقى المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم ، وقلدوهم بعض الوظائف ، حتى كان منهم موظفون في خدمة الخلفاء ، وكثيرون منهم تولوا قيادة الجيوش . وتولد عن هذه السيادة الرحيمة أن انحاز عقلاء الأمة الأندلسية الى المسلمين ، وحصل بينهم زواج كثير . وكم من أندلسي بقى على دينه ، ولكنه أعجبه طلاوة التمدن العربي فتعلم اللغة العربية وآدابها ، وأصبح القسس لومونهم على ترك ألحان الكنيسة والتعلق بأشعار الفاتحين ...

« وكانت حرية الأديان بالغة منتهاها ... لذلك لما اضطهدت أوروبا الموسويين ، لجأوا الى

والتألف والأخوة والمودة والتراحم . وهذه الضريبة كان يدفعها أهل الذمة مساهمة في توطيد أركان هذا الصرح العظيم ... صرح الانسانية التي ترغب في بناء عزتها ومجدها على أسس من التضامن الاجتماعي ، والتواصل الروحي ، والترابط الأخوي بين الطوائف المختلفة دون ضن ولا بخل ، ودون تردد ولا احجام .

وهنا يجب أن نوضح أن الاسلام لم يهدف الى الاستعباد أو الاستعمار ، انما كان يهدف الى حماية الحقوق وصيانة الحريات ... فهو يحتم على المسلم أن يدافع عن الذمي ويحميه — ولو ببذل نفسه — من غير أن يتعرض الذمي لخطر ولا قتال ... ولا يكلف هذا الذمي سوى قليل من المال على هيئة جزية . وشتان بين ما يلجأ اليه الاستعمار في العصر الحديث وما اتبعه الاسلام من نظم سوية وقوانين عادلة ... فالاستعمار في العصر الحديث يعمد الى تجنيد أهل المستعمرات وتعريضهم للاخطار ، ويرغمهم على القتال دفاعا عن مستعمرى بلادهم .

الاستعمار الأوربي يضحي بالقادرين من أهل مستعمراته دفاعا عن نفسه ، وليبقى أهل المستعمرات خاضعين له . فهو يذلهم ويستعبدهم في سبيل تفوقه وانتصاره ، وتحقيق أهدافه ، والوصول الى أغراضه . أما الاسلام فلم يكن ولن يكون فيه شيء من هذا ، فهو يسوي بين المحكومين والحاكمين في الحقوق والواجبات ... لا يعرض أهل الذمة لخطر ولا لقتال ، ولكن بدفع عنهم الخطر ، ويبعد عنهم الأذى ، ولا يكلفهم الا دفع ضريبة ضئيلة ، مساهمة في الاستعداد لدرء الخطر ، وسياسة أمور الدولة ، واقامة حدود الله بين الناس في ظل المحبة والعدل والرحمة ... دون كبر ولا استعلاء ، ودون عجرفة ولا رياء ، ودون امتهان القوى للضعيف ، واحتقار الغنى للفقير .

الوضوء من الأسباب الداعية الى نظافتهم ... زد على ذلك أن الشعور بالقيم الأخلاقية بدأ يتجسم ويتضح ، واختفت وسائل السلب والنهب التي كانت متفشية بين القبائل الزنجية ، وأصبح المسجد قبلة أنظار الزوج يؤدون فيه فرائضهم ، ويصلون فيه صلواتهم الحمس في جو يسوده الجلال والوقار .

وقد كتب « ميك » في كتابه « قبائل نيجيريا الشمالية » يقول . « ان الاسلام لم يترك أثرا عميقا في التركيب الجنسى لهذه الشعوب فحسب ، بل انه جاء بحضارة جديدة أتاحت للشعوب الزنجية طابعا حضاريا متميزا لا يزال واضحا حتى اليوم ، مؤثرا في نظمهم السياسية والاجتماعية ... ذلك أن الاسلام حمل الحضارة الى القبائل المتبربرة ، وجعل من المجموعات الوثنية المنعزلة المتفرقة شعوبا ، وجعل تجارتها مع العالم الخارجى ميسورة فقد وسع آفاقهم ، ورفع من مستوى الحياة بحلق مستوى اجتماعى أرقى ، وخلع على أتباعه الكرامة والعزة واحترام الذات واحترام الآخرين . لقد أدخل الاسلام فن القراءة والكتابة ، وحرّم الحمر وأكل لحوم البشر والأخذ بالثأر ، وغير ذلك من العادات الوحشة ، وأتاح للزنجى السودانى الفرصة لأن يصبح مواطنا حرا في عالم حر » .

وليس من شك في أن هذا الاعتراف الصريح الذى ذكره ميك في كتابه ، يقف بجانب الاسلام في دعوته أنه دين مبادئ تهوى اليها النفوس من كل جانب ، لا دين سيف مصلت على رقاب الضعفاء ليرغمهم على اعتناقه عنوة وفهرا .

أما الاسلام في آسيا فقد توغل في الصين والهند والملايو وأندونيسيا والفلبين وغيرها من البلاد الآسيوية ، وشعر أهل هذه البلاد — وكلهم من

خلفاء الأندلس في قرطبة ولما دخل الملك كارلوس الى سرقسطة أمر جنوده بهدم جميع معابد اليهود ومساجد المسلمين ... قال : ونحن نعلم أن المسيحيين أيام الحروب الصليبية ما دخلوا بلادا الا وأعملوا السيف في يهودها ومسلميها ، وذلك يؤيد أن اليهود انما وجدوا مجيرا وملجأ في الاسلام ، فان كانت لهم بقية حتى الآن فالفضل فيها راجع لمحاسنة المسلمين ولين جانبهم » .

وقد تمكن الاسلام من التوغل في أفريقيا لأنه لم يفرق بين الأبيض والأسود .. فالناس جميعا سواسية كأسنان المشط . ولم يتخرج المسلمون من الزواج من الزنوجيات ، وانجبوا منهن عددا كبيرا من الأطفال المسلمين الذين لم يكادوا يبلغون سن الشباب حتى ازدادت حميتهم ، واشتد دفاعهم عن الاسلام . وذهب بعض الزوج الى أن الاسلام دين السود ، وأن المسيحية هي دين البيض وقد جاءهم هذا الاعتقاد لأن الاسلام سهل لهم أمور العبادة ، ومكنهم من الوصول الى أرقى الدرجات .

وورد في القرآن ما يفيد أن بعض الأنبياء كانوا سود الوجوه ، ومن ذلك موسى عليه السلام الذى جاء في وصفه في سورة طه « واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء » ، كما جاء في سورة الأعراف « ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين . قال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم » . وقد أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اسمعوا وأطيعوا ولو ولى عليكم عبد حبشى » .

وكان من نتيجة دخول الاسلام في أفريقيا الاستوائية أن تهابت نفوس الزوج ، وامتنع المسلمون منهم عن أكل لحم البشر ، وارتدوا ما يستر عوراتهم ، والأهالى الذين لم يكونوا يغتسلون قط أقبلوا على التطهر والاعتسال ، وكان

النفوس تفتحت لعقائد الاسلام الشريفة ، وعرفت مزاياه الكثيرة ، واستجابت لدعوة الداعين اليه ، فعمت بها كفه للمسلمين من حقوق رفيعة . فالمسألة لم تكن مسألة هزيمة ولا اندحار ، انما كانت مسألة استمالة واقتناع أولا وقبل كل شيء ... ذلك أن السيف لو استطاع أن يترك أثرا فإن أثره لا يلبث أن يندمل أو يسلم الى الهلاك . والدين الذي يتوارثه الناس كابرا عن كابر ، وجيلا بعد جيل ، لابد أنه متغلغل في القلوب ، مستنقر في النفوس ، وأنه يسرى في الصدور مسرى الدماء في العروق . وقد استنقر الاسلام في آسيا وغيرها من القارات عشرات القرون ، ولو كان السيف وسيلته لاختفى باختفاء السيف ، ولزال بزوال السلطان . فالدليل على أنه عقيدة وایمان أنه استمر هذه المئات من السنين دون أن يعتريه ضمور ولا اضمحلال ، ودون أن يدركه فتور ولا خور ، أو تزغزعه أى قوة وتطوح به ... بل على النقيض من ذلك نجد في الهند والصين وأندونيسيا وغيرها من البلاد الآسيوية مسلمين يتمسكون بالعقائد الاسلامية تمسكا شديدا ، ويعانون المشاق والمتاعب من أجل السفر الى بيت الله الحرام وتأدية فريضة الحج . وهم لا يعبأون بما يتجشونه من صعب ، وما يكابدونه من آلام ، لأنهم يعتقدون كغيرهم من المسلمين في الثواب والعقاب ، ويؤمنون بان في أداء هذه الفريضة ثوابا عظيما وأجرا جزيلا .

الشعوب الصفراء — بأنهم لا يختلفون في قليل أو كثير ولا يفترقون من قريب أو بعيد عن الشعوب البيضاء . وقد كان التعليم والاقتناع وجدهما الوسيلة التي استخدمها الدعاة المسلمون في نشر الاسلام . ولم يلبث الاسلام أن وجد تربة خصبة في هذه البلاد .

وقد شجع الخليجيون — وهم أسرة آسيوية عاشت في القرن الثالث عشر للميلاد والربع الأول من القرن الرابع عشر — أهل آسيا على اعتناق الاسلام . وفي ذلك يقول الرحالة « ابن بطوطة » في رحلته : « انهم قد سئوا عادة تقديم الشخص الذي دخل حديثا في الاسلام الى السلطان الذي كان يكسوه كسوة حسنة ، ويعطيه قلادة وأساور من ذهب بحسب قدره ومنزلته » .

كما شجع الأمير شاه تغلق (١٣٥١ — ١٣٨٨ م) الهنود على اعتناق الاسلام ، وقال في مذكراته : « لقد شجعت رعاياي الكفار على اعتقاد دين النبي ، وأعلنت لهم أن كل شخص يترك هذه العقيدة ويصبح مسلما يعفى من الجزية أو ضريبة الرأس . ولما تقدم هذا النبا بمسامع الناس ، تقدم الهندوس زرافات ووحدانا ، وسمح لهم بأن ينالوا شرف الاسلام ، ومن ثم أخذوا ينشالون من كل حذب وصوب . ولما اعتنقوا الاسلام أعفوا من الجزية ، ومنحوا الهدايا ومظاهر التكريم » .

وهكذا كان للأمرء والحكام دور كبير في نشر الاسلام بين الرعية . زد على ذلك أن كثيرا من



الإسلام في آسيا

محدودة من أهله وأقاربه الى جزيرة العرب كلها ، ثم الى شتى الأقطار والأمصار في العالمين . وقد توالى على الجزيرة العربية حكم الخلفاء الراشدين : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ابن أبي طالب . ولما قامت الدولة الأموية اتخذت دمشق عاصمة لها ، فانتقل بذلك المركز السياسى من الحجاز الى الشام ، وأصبحت هذه البلاد ولاية تابعة للخلافة ، بعد أن كانت مركزا تتبعه الولايات . وكان يتولى ادارتها من الأمويين أمراء ينفذهم الخلفاء من دمشق ... فطورا يجمع الأمير بين ولايتى مكة والمدينة ، وطورا يكون لكل منهما أمير . وكذلك كانت حال الجهات الأخرى من هذه البلاد : فأحيانا تتبع الحجاز ، وأحيانا يتبع قسمها الشرقى العراق . وفيما عدا الفترة التى كان فيها الحجاز حكومة مستقلة أيام الحسين ابن على بن أبى طالب ، وعبد الله بن الزبير ... فان ادارة الأمويين للبلاد لم تتغير .

وحين انتقلت الخلافة الى العباسيين ، أسس المنصور مدينة بغداد ، وجعلها عاصمة لمملكه . وقد اهتم العباسيون عامة بالحرمين الشريفين والأماكن الموصلة اليهما . أما الأنحاء الأخرى ، فانهم أهملوا شأنها ، وتركوها على حالتها البدوية الأولى .

وقد سقطت مكة فى أيدي القرامطة عام ٣١٧ للهجرة ، ونزع الحجر الأسود من مكانه فى البيت الحرام ، ونقل الى واحة القطيف ، ووضع فى مسجد الضرار ، لكى ينصرف الناس اليه عن مكة . والقرامطة شيعة ينتسبون الى شخص يسمى

الإسلام فى المملكة العربية السعودية

العربية السعودية منبع الاسلام ، ومهد العرب . وقد شعت من ربوعها الرسالة الربانية التى حملها الرسول الكريم محمد الأمين ، صلوات الله وسلامه عليه .

وقد كان أهل الجاهلية — قبيل الاسلام — يدعون أنهم على دين ابراهيم الخليل ، وهو الدين الحنيف الذى دعاهم اليه اسماعيل ... بيد أنهم كانوا يحددون عن تعاليم هذا الدين ، وينغمسون فى عبادة الأصنام ، ولا يحافظون من الدين القديم الا على بعض المراسم والمناسك — مثل الحج والطواف والسعى — أما فيما عدا ذلك فكانوا يحرصون على عبادة الأوثان . وقد نصبوا على الكعبة أصنامهم ، وعلقوا عليها قصائدهم أو معلقاتهم .

وكانت اليهودية منتشرة فى الجزيرة العربية — ولا سيما فى يثرب وخيبر وفدك وتيماء — كما انتشرت الديانة النصرانية التى وفدت الى الجزيرة العربية عن طريق الحبشة ، وطريق الرومان . فلما جاء الاسلام ، وانبثق نور الهداية ، حمل الرسول الكريم الدعوة ، وظل يكافح فى سبيلها دون كلال ولا ملال ... لا يقعه ارباب ، ولا يثنيه تعذيب أو يفت فى عضده تشكيل ... بل صابر وثابر على حمل هذه الرسالة الربانية ، حتى تمكن من أن ينتقل بالدعوة من السر الى العلن ، ومن جماعة

وهو يرجع الى مذهب أهل السنة والجماعة ، وصاحبه هو محمد بن عبد الوهاب المولود عام ١١١٥ هـ (١٧٠٣ م) ببلدة العيينة بالقرب من مدينة الرياض . والدعوة الوهابية تهدف الى التمسك بهدى السلف الصالح ، واقتفاء أثر الرسول الكريم والصحابة ، ونبذ الخرافات والبدع ، وحظر الاستعانة بغير الله ، ومنع التمسح بالقبور والتعبد عند مقامات الأولياء ... ولذلك يسمون المذهب الوهابي عقيدة السلف ، ويلقب الوهابيون أنفسهم سلفيين . وأكثر اعتمادهم في الاجتهاد على الامام أحمد بن حنبل ، والامام بن تيمية وتلميذه بن القيم الجوزية .

ويحرص الوهابيون حرصا تاما على الاعتصام بأركان الدين وفروضة وقواعد الآداب ، كالصلاة والصوم وغير ذلك . ويحرمون اتخاذ الملابس الحريرية ، والتأنيق في الأطعمة ، وشرب الخمر والقهوة والأفيون والتبغ ... بل لقد عد بعض الوهابيين المباني الدينية المزخرفة مما نهى عنه الاسلام ، فهدموا قبة الرسول في المدينة المنورة ، ودمروا مآذن المساجد .

غير أن المذهب الوهابي تطور مع الزمن ، فأبرم الملك عبد العزيز آل سعود — وقد كان رحمه الله زعيم الوهابيين وامامهم — معاهدة صداقة ومودة مع الامام يحيى ملك اليمن — وهو زعيم الشيعة الزيدية — في عام ١٩٣٤ م . وهذه المعاهدة تخالف تعاليم الوهابيين الأوائل ، الذين ينكرون أن يتقلد الحكم امام على غير مذهب أحد الأئمة الأربعة : مالك ، وأبي حنيفة ، والشافعي ، وابن حنبل .

ومن الأماكن المقدسة في المملكة العربية السعودية : غار حراء ، وهو المكان الذي كان يتعبد فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، ومساحته

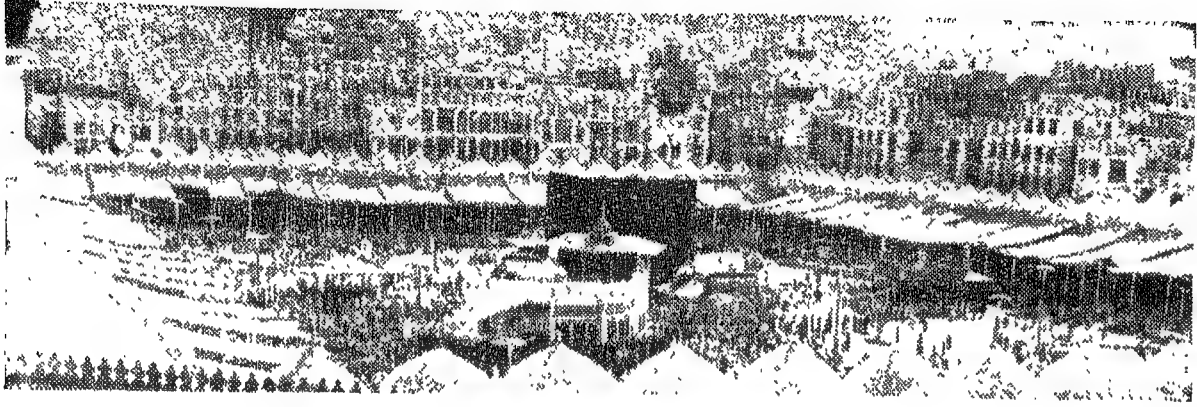
حمدان بن قرمط ، يمانى الأصل ، غالى في التشيع لأهل البيت ، ودعا الناس الى اتباع دعوة دينية ، سرعان ما انقلبت الى دعوة سياسية .

ولما زالت قوة القرامطة ، وأعيد الحجر الأسود الى مكة عام ٣٣٩ هـ ، أصبحت مكة خاضعة لحكم ملوك الطوائف . ولما استولى الفاطميون على مصر ، حاولوا أن يخضعوا أهل الحرمين لسلطانهم . ولكن أهل الحرمين امتنعوا عن قبول الحكم الفاطمي لصلة الفاطميين في أفريقيا الشمالية بالقرامطة ، وفضلوا الحكم العباسي .

وقد قام الأيوبيون بدور كبير في حماية الحجاج الى بيت الله . وكان الشريف الحسنى في مكة ، والأمير الحسيني في المدينة ، خاضعين لحكم الأيوبيين ... الا أنهما كانا يتصرفان في أحوال أهل مكة والمدينة ، وفي شئون الحجاج ، على النحو الذي يروقهما .

أما الماليك فقد حاولوا تعمير الحرمين ، وأنشأوا بعض المدارس والتكايا ودور الاحسان . وخضع الحجاز بعد ذلك لسلطان آل عثمان . ثم نشبت الحرب بين آل الرشيد وآل السعود ، وانتهت بانتصار آل الرشيد وانسحاب السعوديين من نجد . غير أن هذا الانتصار كان وقتيا ، فلم يلبث أن انتصر آل السعود بعد ذلك . واضطر الملك حسين أن يتنازل عن العرش لابن السعود ، ثم نودي به في ٢٢ من جمادى الآخرة ١٣٤٤ هـ (٨ يناير عام ١٩٢٦ م) ملكا على البلاد الحجازية . واحتفل بعد ذلك بتنصيبه ملكا على الحجاز ونجد ، فاتخذ جلالته القرآن الكريم دستورا لمملكته .

وبعد وفاة الملك عبد العزيز تولى على العربية السعودية الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود . وينتشر في السعودية العربية المذهب الوهابي .



الكعبة الشريفة ... قبة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها

حواله ، وزاد فيه عبد الله بن الزبير عندما بنى الكعبة ، وأقام ما كان تهدم فيه . وكذلك زاد فيه الوليد بن عبد الملك ، وهو أول من نقل اليه أساطين الرخام . ولما حج الخليفة محمد المهدي العباسي ، رأى أن البيت ليس في وسط المسجد ، فاشتري كثيرا من البيوت المجاورة ، وزادها في مساحة المسجد . وأدخل عليه كثيرا من التحسينات على مر العصور .

وللحرم المكي اثنان وعشرون بابا في واجهاته الأربع ، بعضها ذو مدخل ، وبعضها ذو مدخلين أو ثلاثة أو خمسة ، ومجموع مداخلها تسعة وثلاثون مدخلا . وله ست منارات : منارة باب العمرة ، وهي من أعمال الخليفة المنصور العباسي في عمارته للمسجد سنة مائة وثلاثين ، ومنارة باب السلام ، ومنارة باب علي ، ومنارة الحزورة ، وهي من أعمال المهدي العباسي في عمارته للمسجد سنة مائة وثمان وستين ، ومنارة باب الزيادة وهي من أعمال المعتضد العباسي سنة مائتين وأربع وثمانين ، ومنارة السلطان قايتباي . وقد حصلت فيها كلها ترميمات وزيادات .

وبالحرم سقائف على أعمدة من الرخام : الشمالية منها مصلى الامام الحنفي ، والغربية مصلى الامام المالكي ، والجنوبية للامام

نحو ثلاثة أمتار في مترين . والغار في قمة جبل النور على يسار السالك الى عرفة ، وفيه نزل الوحي عليه صلى الله عليه وسلم أول مرة . ومنها جبل ثور في الجنوب ، وفيه الغار الذي اختفى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر ، حين قصد الهجرة الى المدينة ، ومساحته نحو مترين مربعين . ثم المعلا ، وهي مقبرة مكة خارج بابها الشرقي ، وفيها ضريح السيدة خديجة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو داخل قبة تجددت عام ١٢٩٨ هـ . وفي القبة مقصورة من خشب الجوز أقيمت على قبرها الشريف . ومن المزارات في مكة أيضا : مسجد الحبة ، ومسجد الراية ، ومسجد الاجابة ، ومسجد البيعة ، ومسجد أبي بكر ، ومسجد عمر ، ومسجد بلال ، ومسجد انشقاق القمر ... وغيرها من المساجد والزوايا .

ويدرس في الحرم الشريف بعض العلوم العربية والتفسير على الطريقة القديمة في التعليم في الأزهر .

وكان الحرم المكي أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حدوده القديمة من عهد ابراهيم عليه السلام . فلما كثر زوار المسلمين زاد فيه عمر وعثمان مساحة من الدور التي اشتريها

وتعلوه قباب مرتكزة على أقواس ، قامت على عمد من الصوان المكسو بطبقة من المرمر الموشى بماء الذهب . أما الصحن — ويسمونه الحصوة — فهو مستطيل الى الباب الشامي ، ويحيط به من جهاته الثلاث أروقة ثلاثة ، فيها أعمدة تحمل أقواسا رفعت عليها قباب مرتفعة جدا . وأعمدة الحرم الشريف — بما فيها الملتصقة بحوائطه — ثلاثمائة وسبعة وعشرون عمودا ، منها اثنان وعشرون داخل المقصورة الشريفة .

والروضة الشريفة في غرب المقصورة ، وقد كتبت فيها ربعات قرآنية كثيرة . وفيها عدد كبير من المصاحف مختلفة أحجامها : بعضها مطبوع ، وبعضها مكتوب بخط جميل . وكتب دينية موقوفة من الزوار . وفي غرب الروضة الشريفة القبلة ، وهي آية الآيات في كمال بهجتها وجمال صنعها . وغرب القبلة المنبر الشريف ، وهو من الرخام المنقوش بالذهب ، أرسله السلطان مراد الثالث العثماني هدية الى الحرم سنة ثمان وتسعين وتسعمائة للهجرة ، فوضع في مكان المنبر الذي أحضره قايتباي ، وهو المكان الذي كان به منبر الرسول عليه الصلاة والسلام .

وفي المدينة وضواحيها مزارات أخرى كثيرة ، أشهرها : مسجد قباء ، ومسجد حمزه ، والبقيع . وفيها بيته عليه الصلاة والسلام ، وهو أكثر بساطة من مسكنه في مكة .

وهكذا حفلت مكة والمدينة وضواحيهما بكثير من الأماكن المقدسة التي يؤمها الحجاج من كل فج عميق . وهي تحمل بين جنباتها تفحات الاسلام وعطره الفواح وأريج الزكي العاطر . ومن هذه الديار المقدسة شع الاسلام ، وانبثق نور الهداية ، وانبليج شعاع الحق . وقد شاء الله أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

الحنبلى أما الامام الشافعى فكان يصلى في مقام ابراهيم . وللحرم صحن كبير غير مستوف تقطعه مماش محجورة . والكعبة تتوسط صحن المسجد بميل الى الجنوب ، يليها من الشرق مقام ابراهيم . وفي جنوبه الشرقى قبة زمزم التي بناها أبو جعفر المنصور في سنة مائة وخمس وأربعين ، وفرش أرضها بالرخام ، وعمقها الرشيد . أما الشبكة التي على فوهتها فقد أمر بصنعها السلطان أحمد العثماني .

والكعبة مربعة تقريبا ، ومبنية بالحجارة الزرقاء الصلبة . وهي ذات زوايا أربع حتى تتكسر عليها تيارات الهواء ، فلا يؤثر ضغط الرياح على كتلتها . ويسمون زوايا البيت الخارجية « الأركان » : فالشمالي منها يسمى الركن العراقى ، والغربى يسمى الشامى ، لأنه متجه ناحية الشام . والقبلى يسمونه اليماني لاتباعه الى اليمن ، وفيه حجر يسمونه الحجر الأسود . والشرقى يسمونه الركن الأسود ، وهو حجر مصقول بيضى غير منتظم ، ولونه أسود مشوب بحمرة ، وفيه نقط بيضاء وتعاريج صفراء ، وقطره نحو ثلاثين سنتيمترا .

أما الحرم المدني — وهو مسجد النبى صلى الله عليه وسلم — فيقع في وسط المدينة المنورة بميل الى الشرق . وهو لطيف الشكل ، جميل المنظر ، على هيئة مستطيل متوسط ، طوله من الشمال الى الجنوب مائة وستة عشر مترا وربع متر ، وعرضه من الشرق الى الغرب ، من جهة القبلة ، ستة وثمانون مترا وخمسة وثلاثون سنتيمترا ، ومن جهة الباب الشامى ستة وستون مترا .

والحرم المدني ينقسم قسمين : المسجد ، والصحن . والمسجد يتدىء من قبلة عثمان ،

الإسلام في الجمهورية العربية المتحدة

الإقليم الشمالي

فتح المسلمون الشام في عهد أبي بكر الصديق ، وكان تابعا لحكم البيزنطيين . فقد دعا أبو بكر المقاتلين من جميع أجزاء الجزيرة العربية ، وكون منهم أربعة ألوية جعل على كل لواء أميرا . وكان اللواء الأول بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ، وقد وجهه الى حمص ، وجعل مركز قيادته الجابية . واللواء الثاني بقيادة عمرو بن العاص ، وقد وجهه الى فلسطين . واللواء الثالث بقيادة يزيد بن أبي سفيان ، ووجهه الى دمشق . واللواء الرابع بقيادة شرحبيل بن حسنة ، ووجهه الى وادي الأردن ... وأمر أن يعاون بعضهم بعضا .

وفي الوقت الذي شنت فيه عمرو بن العاص جيوش البيزنطيين في فلسطين ، كان جيش الشام قد استولى على بصرى ودمشق . وفي معركة اليرموك انتصر المسلمون على البيزنطيين ، فضضعت لهم بلاد سوريا كلها . وقد زعم الروم أن اليرموك حصينة لا تقهر ، فذهبت أوهامهم أدراج الرياح . ولما علم هرقل بانتصار المسلمين في واقعة اليرموك — وكان بيت المقدس — رأى أن يقاء بها خطر عليه ، فأسرع بالرحيل الى حمص . ودام حصار المسلمين لدمشق سبعين يوما ، ولم تجد البيزنطيين منعة حصونها . وقد رأى أهل دمشق جيش المسلمين ينساب من بين الأدغال والحدائق كثيية اثر كثيية ، وعلى المقدمة عمرو بن العاص في تسعة آلاف فارس ، ومن ورائهم كتائب المسلمين وقوادهم ، وعلى الساقة خالد بن الوليد .

وقد قامت دمشق بدور كبير في سياسة الدولة الأموية ، اذ اتخذها معاوية قسبة للملك عام ٤١ للهجرة (٦٦٠ م) ، وأنشأ فيها مسجدا كبيرا تم بناؤه في عهد الوليد بن عبد الملك ، ويعد آية في الروعة والجمال .

وقد كان المسجد قبل ذلك كاتدرائية تسمى كاتدرائية القديس يوحنا المعمدان ، ويعد الرابع في الاسلام بعد مساجد مكة والمدينة والقدس . ولم يقتصر الوليد ، في بناء هذا المسجد ، على استخدام أهل الخبرة من أبناء البلاد ... بل حشد صناعا وفنانين من الفرس والهنود ، وأرسل الى امبراطور الروم في طلب مائة من الفنانين اليونانيين . وقد زين المسجد وأعلى جدراناه بالفسفساء الملونة والرخام النادر ، وذهب بعضها ورصع بالأحجار الكريمة .

وبنى الوليد الى الجانب الشمالي من المسجد مئذنة استخدمت أيضا بمثابة منارة ، وغدت نموذجا للمآذن في سوريا وشمال أفريقيا ، ثم نقل طرازها الى الأندلس على يد عبد الرحمن الأول . وهذه المئذنة هي أقدم مئذنة اسلامية خالصة لا تزال قائمة . أما المئذنتان الأخريان في الطرف الجنوبي ، فقد أقيمتا على برجين قديمين للكنيسة . ويقول الغزالي الفيلسوف انه اعتكف في المئذنة الشمالية للتأمل والصلاة . وربما كان جامع دمشق أول مسجد ظهر فيه المحراب . وقد أحرق البناء عام ١٠٦٩ م ، ثم عام ١٤٠٠ م على يد تيمورلنك ، وكذلك عام ١٨٩٣ م .

وفد اهتم الوليد بن عبد الملك ببناء هذا المسجد الضخم لولعه الشديد بفن العمارة ... اذ أغرم غراما شديدا بهذا الفن ، فكان لا يدخر جهدا في تشييد العمارات والمساجد ، وإقامة الدور والقصور ، وحفر الآبار وإصلاح الطرق ، حتى كان الناس في

مقصورة صنعت في الاسلام . وقد بناها معاوية بن أبي سفيان وقاية لنفسه من الخوارج أن يعتالوه في أوقات الصلاة ، كما اغتالوا عليا عليه السلام . فكان اذا سجد قام الحرس على رأسه بالسيوف ... على حد تعبير « الفخرى في الآداب السلطانية » . وبالتقرب من المقصورة الصحابية تابوت ، فوَقَّه قنديل موقد أبدا في الليل والنهار ، ويقال انه مشهد رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام .

ويقول ياقوت في « معجم البلدان » عن هذا الجامع الفريد : « ان من اعجابه أنه لو عاش الانسان مائة سنة ، وكان يتأمله كل يوم ، لرأى فيه ما لم ير في سائر الأيام من حسن الصناعة واختلافها » .

وهناك مسجد يقولون ان المسيح عليه السلام أوى الى مغارة بجانبه ، وفيه حجر انشق ولم ينفصل أحد الشقيين عن الآخر ، بل بقيا متصلين كرمان مشقوق ... أما قرية « برزة » فيزعم بعض الناس أنها شهدت مولد الخليل ابراهيم عليه السلام ، كما توجد حجارة مصبوعة بشيء يشبه أن يكون أثر دم ، ويقولون انها الحجارة التي رضى بها قابيل رأس أخيه هابيل ، ثم جره الى مغارة هناك بطلقون عليها « مغارة الدم » .

ودمشق من أجمل البقاع السورية ، وبها الغوطة الوارفة الظلال الساحرة الفاتنة ... حتى ان الرسول الكريم صلوات الله عليه قال عنها ، عند ما بلغها قادما من مكة المكرمة : « ان المؤمن لا يدخل الجنة مرتين » . وأبى أن يدخلها ، وقفل راجعا .

ولم تلبث الخلافة أن انتقلت الى بغداد . وبقيت دمشق بآثارها العظيمة شاهدة على مجدها القديم وعزها التليد ، وبقيت العروبة تنبض في عروقها ،

أيامه اذا تلاقوا في الأسواق والمجالس تساءلوا عن العمارة ، وعن أى بناء شرع فيه خليفتهم ... كدأ بهم في التساؤل عن الخبر والصلاة في أيام عمر بن عبد العزيز ، وعن الطعام في أيام سليمان بن عبد الملك ، وعن اللهو في أيام الوليد بن يزيد .

وقد ذكر ابن جبير في رحلته أنه ليس في بلاد الاسلام كلها مثل هذا الجامع حسنا واتقانا وجمال رسم وتمام زخرفة وزينة .

وروى أن جيلة ما أنفق على الجامع كان أربعمئة صندوق ، في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار . وكان المتولى على النفقة عمر بن عبد العزيز قبل أن يلي الخلافة . وحملت وثائق الصرف ثمانية عشر بعيرا ، ولم ينظر اليها الوليد عندما قدمت اليه .

ويقول ياقوت الحموي : « انه استخدم ستمائة سلسلة من الذهب للقناديل والثريات ، وزين جدرانها بفصوص من الذهب والفسيفساء مزوجة بأنواع من الأصباغ العجيبة تمثل أشكالا من الرسوم لم ير أبهج منها في العيون ، وكتب في حائط المسجد بالذهب على اللازورد « ربنا الله لا نعبد الا الله . أمر ببناء هذا المسجد ، وهدم الكنيسة التي كانت فيه ، عبد الله الوليد أمير المؤمنين في ذى الحجة سنة سبع وثمانين » .

وبالمسجد ثلاث مقصورات ، بجوار احدها خزانة مغطاة بالنقوش ، فيها المصحف الكريم الذي وجهه عثمان بن عفان رضى الله عنه الى الشام ، وفيها خاتم من الفضة للوليد بن عبد الملك منقوش عليه « يا وليد اذك ميت ومحاسب » ، وخاتم لأخيه سليمان كلماته « آمنت بالله مخلصا » .

وأشهر المقصورات في المسجد ، المقصورة الصحابية . ويقول ابن أبي الفداء : « انها أول

المدارس الرسمية ، مع زيادة الحصص الخاصة بالقرآن والدين ، وتقرير حصص إضافية لتكوين الخلق الاسلامي . وتمنح الحكومة المركزية والبلدية في حلب المدرسة كثيراً من الاعانات . ولا يتوالى الأغنياء والأثرياء عن مدها بالمعونة في شتى المناسبات . ويبلغ عدد المدارس الاسلامية في الاقليم السوري ثمانين مدرسة بعضها للبنين وبعضها للبنات ، وبعضها مشترك للجنسين .

الاسلام في فلسطين

كان فتح فلسطين في أيام أبي بكر ، رضى الله عنه ، على يد عمرو بن العاص . وقد قال له أبو بكر وهو يسلمه الراية : « قد وليتك هذا الجيش (يعنى أهل مكة والطائف وهوازن وبنى كلاب) ، فانصرف الى أهل فلسطين ، وكاتب أبا عبيدة بن الجراح (وكان يتجه الى حمص) ، وأنجده اذا أراذك ، ولا تقطع أمرا الا بمشورته ... اتق الله في شرك وعلايتك ، واستحج في خلواتك ، فانه يراك في عملك . وقد رأيت تقدمي لك على من هم أقدم منك سابقة ، وأقدم منك حرمة ... فكن من عمال الآخرة ، وأرد بعملك وجه الله ، واسلك طريق ايلياء حتى تنتهي الى أرض فلسطين ...

« واياك أن تكون وانيا عما بدبتك اليه ، واياك والوهن ، واياك أن تقول جعلنى ابن أبى قحافة في نحر العدو ولا قوة لى به . واعلم يا عمرو أن معك المهاجرين والأنصار من أهل بدر ، فأكرمهم واعرف حقهم ، ولا تتناول عليهم بسلطانك ، ولا تداخلك نخوة الشيطان فتقول انما ولانى أبو بكر لائى خيرهم . واياك وخدائع النفس ، وكن كأحدكم وشاورهم فيما تريد من أمرك . والصلاة ثم الصلاة ، أذن بها اذا دخل وقتها ، واحذر من عدوك ، وأمر

وتمشى في أوصالها . وطلعت القبائل العربية منذ ذلك التاريخ ترتحل الى الشام ، وتحمل معها رسالة الاسلام ونور الدين حتى أضياء الاسلام في جنبات البلاد ، وأصبح دين الغالبية من أبناء الاقليم السوري .

وفي الاقليم السوري مدارس دينية لاعداد مدرسى الدين الاسلامي وقضاة المحاكم الشرعية وكتبتها ، وتشرف عليها ادارة الاوقاف . وبعض هذه المدارس ابتدائية ... غير أن هناك اثنتين أعلى مستوى : واحدة في دمشق ، والأخرى في حلب . ومدرسة دمشق هي كلية الشريعة التي أنشأها جامعة العلماء عام ١٩٤٢ ، وهي مقسمة أقساما . ثلاثة : القسم الأول - ومدته ست سنوات - في مستوى مدرسة ثانوية دينية لاعداد الكتبة للمحاكم الشرعية ومدرسى الدين للمدارس الأولية . والقسم الثانى - وهو أعلى ، ومدته أربع سنوات - لاعداد طبقة أرقى من كتبة المحاكم الشرعية والوعاظ وصغار القضاة ، ومدرسى اللغة العربية والدين في المدارس الثانوية . والقسم الثالث - وهو العالى - لاعداد كبار القضاة والمفتين . ويدير مدرسة دمشق مجلس مكون من القاضى الشرعى رئيسا ، والمفتى والنقيب - وهو العميد أو المسجل - ومديرى الاوقاف وممثلين من وزارة التربية والتعليم ومدير المدرسة وسكرتيرها . والتعليم فيها بالمجان ، وكذلك السكن والطعام لطلبة القسم الداخلى . أما مدرسة حلب فهي الكلية الاسلامية ، وتتولى أمرها الجمعية الاسلامية ، وتحاول أن تقف على قدميها بازاء المدارس الأجنبية . وقد تمكنت جماعة من المواطنين المتصلين بملجأ الأيتام الاسلامي في حلب من التأثير على سيدة ثرية من حلب ، فتبرعت لهم ببناء المدرسة على نفقتها في ضواحي حلب عام ١٩٤٣ م . وتتبع المدرسة مناهج الدراسة في

وبه أروقة أخرى في الجهتين الغربية والشمالية ،
ومكتبة ومتحف إسلامي .

أما مسجد الصخرة (ويطلق عليه الحرم أيضا)
فقد بنى في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان
عام ٧٢ للهجرة (٦٩١ م) ، ورصد لبنائه خراج مصر
سبع سنين . وقد تبقى من المباني المخصصة لبنائه
مائة ألف دينار ، فأمر بها عبد الملك جائزة للرجلين
اللذين أشرفا على البناء — وهما رجاء بن حياة
الكندي ، أحد علماء الاسلام من بيسان ، ويزيد
ابن سلام من القدس — فرفضا قائلين : « نحن أولى
أن نزيده من حلى سائنا ، فضلا عن أموالنا ،
فاصرفها في أحب الأشياء إليك » . فأمر أن تسبك
ذهبا ، وتفرغ على القبة والأبواب .

وفي عام ١٠٩٩ م حول الصليبيون المسجد الى
كنيسة ، وبنوا عليه مذبحا . ولكن صلاح الدين
الأيوبي عاد فأزال المعانم الصليبية ، وزين القبة ،
وستر الجدران بالرخام ، وأقام السدنة لخدمة
المسجد ، ووقف عليه دارا وأرضا . واهتم بعمارته
من بعده ملوك بنى أيوب والمماليك والعثمانيون .
ومن عمل المماليك صنع الأبواب ، واصلاحات
القبة ، واقامة القناطر وعدد من المآذن وبعض
الأسبله . أما سلاطين بنى عثمان فقد جددوا عمارة
الأبواب وصنعها ، ووضعوا القسم الأكبر من
الرخام والبلاط الصيني في الجدران ، كما ركبوا
القاشاني البديع في عدد من الطاقات وفي قبة
السلسلة ، وأهدوا مجموعة كبيرة من السجاد
العجمي والثريات الى مسجد الصخرة والمسجد
الأقصى .

ويرجع تقديس المسلمين للصخرة الى صلتها
الوثيقة بقصة الاسراء والمعراج . وهي تحت قبة
المسجد مباشرة ، وطولها من الشمال الى الجنوب

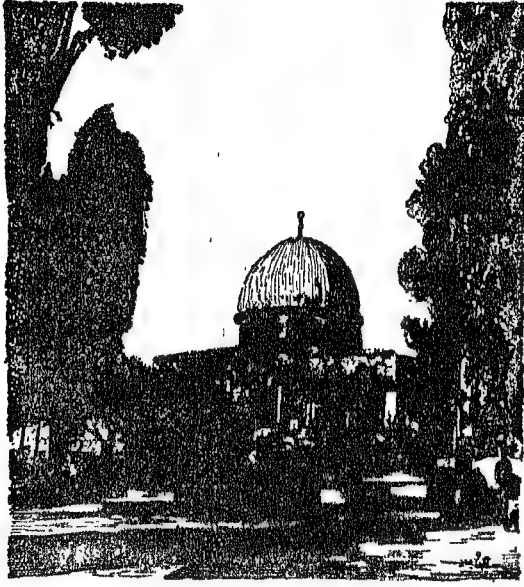
أصحابك بالحرص ، ولتكن أنت بعد ذلك مطلقا
عليهم . وأطل الجلوس بالليل على أصحابك ، وافهم
بينهم ، واجلس معهم . واتق الله اذا لاقيت العدو ،
وقدم قبلك طلائعك فيكونوا أمامك ...

« واذا وعظت فأوجز ، وأصلح نفسك تصلح لك
وعيتك . واذا رأيت عدوك فاصبر ولا تتأخر ،
فيكون ذلك منك فخرا . وألزم أصحابك قراءة
القرآن ، وانههم عن ذكر الجاهلية وما كان منها ...
فان ذلك يورث العداوة بينهم . وأعرض عن زهرة
الدنيا حتى تلتقي بمن مضى من سلفك . وكن من
الأئمة الممدوحين في القرآن ، اذ يقول الله تعالى :
« وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا اليهم
فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا
عابدين » .

ثم قال لعمر : « امض بارك الله فيك وفيهم » .
سار عمرو في تسعة آلاف يريدون فلسطين .
ومنذ ذلك الوقت انتشرت القبائل العربية في أرض
فلسطين وما جاورها ، وأقامت . واستوطن الشعب
العربي هذه البقاع الى جانب القبائل العربية التي
كانت تقيم بها منذ عصور سحيقة في القدم .

وفي مدينة القدس (وهي تابعة الآن للأردن)
ستة وثلاثون مسجدا ، عدا المسجد الأقصى ومسجد
الصخرة ، تسعة وعشرون منها في المدينة القديمة
داخل السور ، وسبعة في المدينة الجديدة .

وللمسجد الأقصى (ويسمى الحرم الشريف)
عشرة أبواب مفتوحة ، وأربعة مغلقة . وفي ساحته
عدة أسبله أنشأها الملوك والمتولون على القدس ،
وبه خمس وعشرون بئرا عذبة . ثمان منها في صحن
الصخرة ، وسبع عشرة في فناء الأقصى . ويجتمع
الناس للوضوء حول الحوض المسمى بالكأس ،
أمام المسجد الأقصى وللحرم أربع مآذن عالية ،



قبة الصخرة بفلسطين التي يحج إليها عشرات الآلاف من المسلمين

والاستيلاء على جميع الأراضي الصالحة بها ، وخنق العرب خنقا مائدا .. حتى اذا أعبتهم الحيل ، اضطروا الى الاسحاب من فلسطين ، والرجوع الى بوادبهم والضرب في الصحراء .

وفد تتابع الثورات في البلاد العربية لاجراج اليهود من فلسطين ووقف الهجرة ، فأوفدت بريطانيا لجنة لدراسة القضية الفلسطينية عام ١٩٣٦ تسمى لجنة بيل ، وانتهت من مهمتها في عام ١٩٣٧ بمشروع يقترح تقسيم فلسطين الى دولتين دولة عربية ، ودولة يهودية غير أن العرب رفضوا المشروع ، وعقدوا مؤتمرات عدة لاستنكاره .

ولما فامت الجامعة العربية في عام ١٩٤٥ ، قررت بميثاقها ملحقا خاصا بفلسطين أجمعت فيه على اعتبارها دولة مستقلة لها الحق في الانضمام الى الجامعة ، وان حالت دون ذلك ظروف قهرية فلما عازمت بريطانيا على انهاء اتدابها على فلسطين عقب الحرب العالمية الثانية ، أصدر مجلس جامعة الدول العربية في ٩ من أكتوبر عام ١٩٤٧ قرارات مهمة أوصى فيها حكومات الدول العربية بأن تبادر

١٧٧٠ مترا ، وعرضها من الشرق الى الغرب ١٣٥٠ مترا ، وارتفاعها يتراوح بين متر ومترين . والمسجد الأقصى في الجهة الجنوبية من رقعة الحرم الشريف وقد شرع في بنائه عبد الملك بن مروان الأموي ، وأتمه ابنه الوليد بن عبد الملك عام ٧٠٥ م وطوله ثمانون مترا ، وعرضه خمسة وخمسون مترا ويقوم الآن على ثلاثة وخمسين عمودا من الرخام ، وتسع وأربعين سارية مربعة . وكانت أبوابه زمن الأمويين موشاة بصنائج من الذهب والفضة ، ولكن أبا جعفر المنصور امر بنزعها وصرفها دنائير تنفق على المسجد وفي أوائل القرن الحادى عشر أصلحت بعض أجزائه ، وصنعت قبته وأبوابه الشمالية .

وقد طرأ على المسجد الأقصى خلال عام ١٩٢٧ م ، فساهمت الدول الاسلامية كلها في ترميمه ، وأقيمت له أعمدة جديدة على أساسات متينة من الحراسة المسلحة وفي داخل المسجد الأقصى جامع مستطيل بسمونه « جامع عمر » ، وابوان كبير بسمونه « مقام عزيز » ، وابوان صغير جميل فيه محراب ذكرى عليه السلام .

وقد عانى هذا القطر الاسلامى — ولا زال — صراعا مريرا بين العرب أصحاب البلاد واليهود المعنصين في شتى مراحل التاريخ ففي أثناء الحرب العالمية الأولى ، أحست بريطانيا أن شعور اليهود بدأ يتحول ضدها ، فأرادت أن تكسب تأييدهم فأصدرت في ٢ من نوفمبر عام ١٩١٧ تصريحاً سمي « وعد بلفور » تعهدت فيه بإنشاء وطن قومي لليهود وقد مر اليهود بهذا الوعد ، وشرعوا يرسمون الخطط ، ويدبرون المؤامرات لاجلاء العرب عن فلسطين ، وإنشاء وطن قومي بها . وكان من خطة اليهود العمل على ايجاد أكثرية يهودية ساحقة بفلسطين من طريق الهجرة ،

وقد ترتب على هذه المأساة الانسانية ، أن تشرد مليون من العرب ، بعد أن سلبوا أموالهم وديارهم وأرضهم ، ولجأوا الى الدول العربية المجاورة ، وإلى قطاع غزة في كنف الجمهورية العربية المتحدة . وقد اهتمت جامعة الدول العربية بمشكلة اللاجئين التي تفاقم خطرها ، فتعاونت مع لجنة التوفيق الدولية التي شكلت في ١١ من ديسمبر عام ١٩٤٨ بناء على قرار مجلس الأمن الصادر في ١٦ نوفمبر عام ١٩٤٨ ، وبالرغم من فشل هذه اللجنة في مهمتها ، فقد قامت باتخاذ تدابير لترحيل عدد من اللاجئين ، كما قررت معونة بعضهم ماليا . وتكون لذلك مجلس أعلى لاغاثة اللاجئين .

ولئن كانت عوامل الفرقة والتخاذل ، ومواطاة الاستعمار قد مكنت الصهيونية من فلسطين في عام ١٩٤٨ ... فان القومية العربية التي أيقظت روحها هذه المأساة الدامية ، وتحمل لواءها الجمهورية العربية المتحدة ، لن يهدأ لها بال حتى تعود فلسطين الى العرب ، ويعود العرب اليها ، وتنعم الأراضي المقدسة بالسلام والأمن .

الاسلام في الأردن

يقع الأردن في صميم الوطن العربي الكبير ، ويحده من الشمال الاقليم الشمالي من الجمهورية العربية المتحدة ، ومن الشرق العربية السعودية ، والعراق ، ومن الجنوب العقبة والعربية السعودية ، ومن الغرب الجزء المحتل من فلسطين .

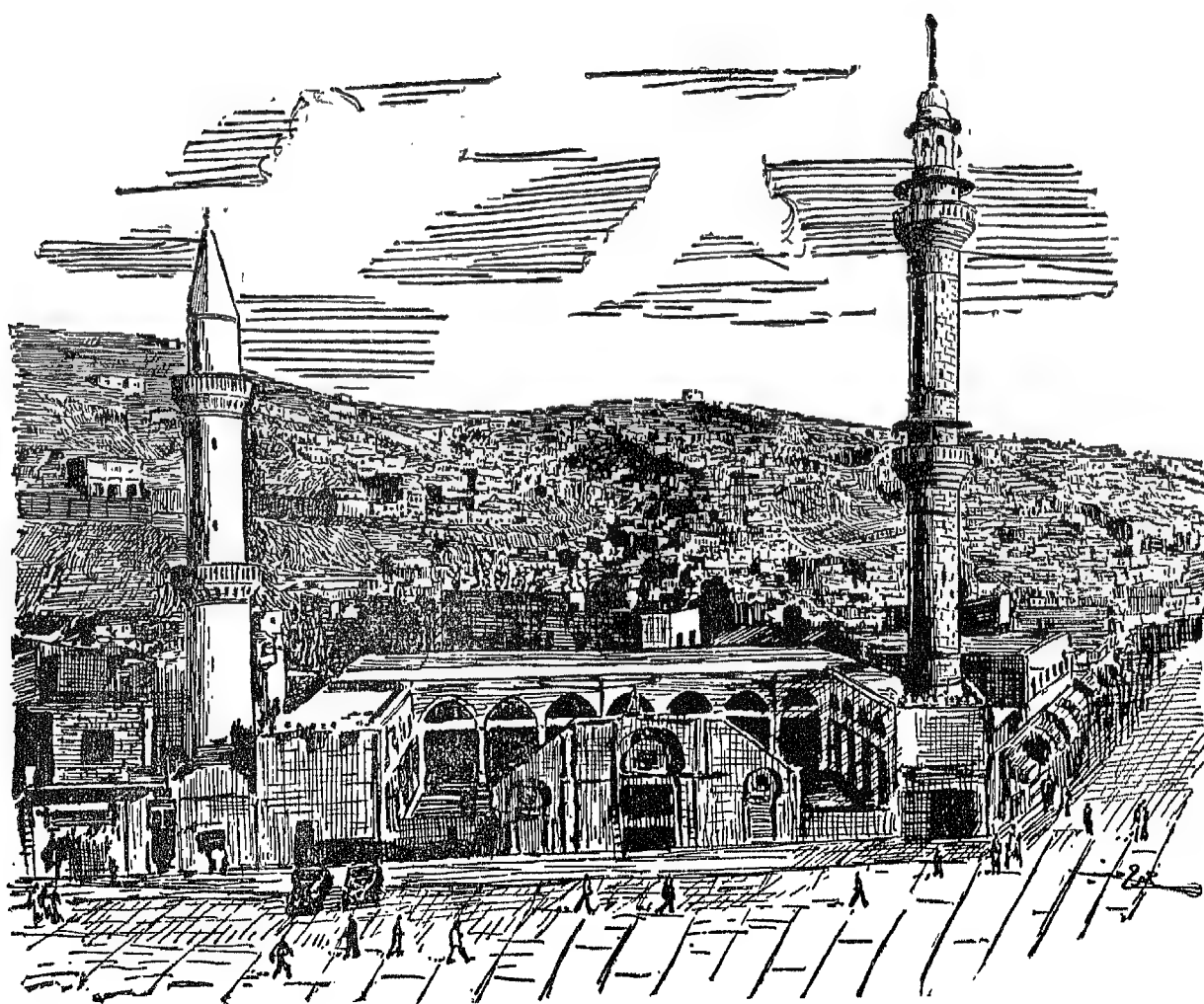
وأقدم من سكنه من الشعوب الكنعانيون ما بين ٣٠٠٠ و ٢٥٠٠ قبل الميلاد ، ثم الآشوريون والعمونيون ... وكلهم نزحوا اليه من الجزيرة العربية . ثم خضعت البلاد لحكم المصريين والبابليين والآشوريين والكلدانيين والفرس ، واستولى

باتخاذ احتياطات عسكرية على حدود فلسطين ، كما أوصى كذلك بتقديم مساعدات مادية ومعنوية لعرب فلسطين .

وفي ٢٩ نوفمبر عام ١٩٤٧ قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة تقسيم فلسطين الى دولتين : احدهما عربية ، والأخرى يهودية . وقد قضى هذا القرار الظالم ببقاء أقلية من العرب ، عددها ٣٣٧ ألف عربي ، في منطقة اليهود ، مع أن معظم المقيمين في الاقاليم الادارية العشرة التي خصصت لليهود من العرب ، ومساحة الأراضي في كل من المنطقتين العربية واليهودية تكاد تكون متعادلة .

يضاف الى ذلك أن معظم الأراضي في منطقة اليهود مملوكة للعرب ، ولا تزيد نسبة ملكية اليهود للأراضي في أي بلد من بلدان فلسطين على ٣٩٪ ، ولكن قرار الامم المتحدة خصص الأراضي الزراعية لليهود ، وأخصب الوديان لهم ، وكانت الصناعة أيضا من نصيب اليهود ... فمعظم مصانع صقل الماس والمنسوجات والكيماويات تقع في أحيائهم ، وتديرها رؤوس أموال يهودية .

ونشبت الحرب بين العرب واليهود في نوفمبر عام ١٩٤٧ ، وسارعت الدول العربية ، وفي مقدمتها مصر بالتدخل ، وكاد الجيش المصري — بالرغم من قلة ذخيرته ، وفساد أسلحته ، وعوامل التخاذل والخيانة من وراء ظهره — أن يحزن لصرا حاسما في هذه الحرب ... لولا تأمر دول الغرب ، واسراعها بفرض هدنة على المتخاذلين من الساسة ، أفقدت الجيوش العربية ما أحرزته من نصر ، ومكنت العصابات الصهيونية من التسليح والاستعداد . وبعد مد وجزر أوقفت الحرب في ٢٥ يناير عام ١٩٤٩ بهدنة عقدها المتنازعون في « رودس » استجابة لنداء مجلس الأمن الدولي الذي صدر في ١٦ نوفمبر عام ١٩٤٨ . لبحث وسائل فض النزاع ،



المسجد الحسيني في عمان بالأردن

من السكان البالغ عددهم ١٣٥٠٠٠٠ نسمة .
وقد ازداد عدد المسلمين في الأردن بعد تقسيم
فلسطين ، وضم جزء كبير من أراضيها اليه ، ومنها
منطقة بيت المقدس التي تضم عددا كبيرا من
المسلمين .

وقد تكونت الأردن بين عامي ١٩٢١ ، ١٩٢٣ م ،
ولم يكن لها وجود قبل ذلك . وكان الأمير عبد الله
(الملك عبد الله فيما بعد) قد تحرك من الحجاز
شمالا — بعد اجلاء شقيقه فيصل الأول عن
سوريا وفلسطين — بغية العمل على استرداد
سوريا من الفرنسيين . ولكن ونستون تشرشل ،

عليها بعدئذ اليونان والرومان . ثم جاء العرب
فغمروها بعدلهم ، ونشروا في ربوعها راية السلام ،
وعمروها ... ولم تزل عامرة بهم الى ما شاء الله .

وقد استشهد في أرض الأردن أول مسلم
بسبب اسلامه ، وهو عروة بن عمرو الجذامي
عامل الروم على عمان . وكان قد اعتنق الاسلام ،
وأرسل الى النبي صلى الله عليه وسلم بغلا أشهب
وفرسا وحمارا ، وأقمصة كتانية وعباءة حريرية ،
هدية اليه . فاغتاظ الروم من هذا ، وشددوا
الخناق عليه وقتلوه .

وعدد المسلمين في الأردن ١٣٥٠٠٠٠ نسمة

١٠٨٧ . وقد حاولت قوات الفرنجة السيطرة على بيروت مرارا .

وفي عام ١٥١٠ ، وبعد انهزام المماليك أمام السلطان سليم الأول ، انتقلت بيروت الى أيدي العثمانيين . وقد جعل سلاطين آل عثمان حكم لبنان مناصفة بينهم وبين الأمراء المحليين ، ومن بينهم الأمير فخر الدين من عام ١٥٨٥ الى عام ١٦٢٥ . وانضم لبنان للحكم المصري عام ١٨٢١ .

وبعد الحرب العالمية الأولى استولى على لبنان الحلفاء ، وظل يكافح للتخلص من الانتداب الأجنبي حتى تم له الاستقلال .

والمسلمون في لبنان نحو نصف السكان ، ويتألفون من السنين الذين يسكنون المدن الكبرى — كبيروت وطرابلس — ومن الشيعة الذين يسكنون البقاع ولبنان الجنوبي ، ومن الدروز الذين يسكن معظم المناطق الجبلية — كأقضية بعلبك وعالية والشوف — ومن العدويين الذين يسكنون قضاء عكار .

وقد عاش الشيخ محمد عبده فترة من حياته في بيروت بعد أن نهى من مصر في أعقاب الثورة العراقية . وخلال هذه الفترة اشتغل الأستاذ الامام بالتأليف تارة ، والتعليم تارة أخرى ، ونقل الى العربية رسالة « الرد على الدهريين » التي كتبها السيد جمال الدين الأفغاني باللغة الفارسية ، وشرح كتاب « نهج البلاغة » ، كما شرح مقامات بدیع الزمان الهمداني . وكان يكتب المقالات في صحف لبنان .

وقد أتاحت له هذه الفرصة أن يبين للبنانيين سماحة الاسلام ومبادئه النبيلة ، وأهدافه الشريفة ، ورسائله المثلى ... وفي ذلك يقول الأمير شكيب أرسلان : « كانت فائدة مقام الشيخ ببيروت عظيمة فانه ما لبث الا وقد أصبح منزله بصورة دائمة

وزير المستعمرات البريطاني في ذلك الوقت ، تدخل في الأمر — وكان الملك فيصل قد انتخب ملكا على العراق — واتخذت التدابير لعزل المنطقة المعروفة الآن باسم المملكة الأردنية الهاشمية عن فلسطين ، وتولى الأمير عبد الله حكمها .

وفي عام ١٩٢٨ م أبرم اتفاقية مع البريطانيين ترتب عليها انشاء مجلس تشريعي للبلاد لم يكن حرا في آرائه ، لأن أصبح بريطانيا كانت تتدخل في قراراته ... بيد أنه اعترف باستقلال الأردن في معاهدة عام ١٩٤٦ م ، وترتب على ذلك أن أصبح عبد الله بن الحسين ملكا على المملكة الأردنية الهاشمية .

وقد اتجهت سياسة حكام الأردن الى مساندة الاستعمار الذي يعمل على هدم الأديان ، ومحاربة الاسلام ، وبث الفرقة بين الطوائف ... ووقف شعب الأردن من هذه السياسة موقف العداء ، وناهضها بكل ما يملك من قوة ، وثار لكرامته ثورات عاتية ... لأنه شعب يرغب في الحرية ، وينشد الاستقلال والانطلاق مع تيار القومية العربية الذي لا يعرف التحزب لدين من الأديان ، أو الانتقاص على دين من الأديان ... فالدين لله ، والوطن للجميع .

الاسلام في لبنان

تحد لبنان من الشمال والشرق سوريا ، ومن الجنوب فلسطين ، ومن الغرب البحر الأبيض المتوسط . وقد هاجر الى لبنان كثير من القبائل العربية التي استوطنت الشام منذ العصور الاسلامية الأولى . واستولى عليه العرب عام ٦٣٥ م ، كما ضم صلاح الدين الأيوبي بيروت لسلطانه عام

لجنتان من لجان التربية : احدهما خاصة بمدارس بيروت ، والأخرى بالمدارس القروية .

ويبلغ دخل الجمعية السنوى ٣٤ ألف جنيه من الأوقاف التى وقفها الموسرون المسلمون على الجمعية ، ومن مصروفات التلاميذ . وتدير الجمعية كذلك مدرسة ثانوية للبنين ، وأخرى للبنات فى بيروت ... علاوة على أربع مدارس ابتدائية للبنين ، ومدرستين للبنات . ولها كذلك عدد من المدارس فى القرى المجاورة لبيروت والبقاع .

أما كلية المقاصد الاسلامية الخيرية ببيروت ، فقد أنشئت فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر تحت اشراف الحكومة العثمانية . ولم تلبث أن تقدمت الى الأمام بفضل جهود المسلمين فى لبنان ، وبفضل الأموال التى تبرع بها الأغنياء هناك لصالح هذه الكلية ... فتوسعت فى عمارتها وقبول عدد اكبر من الطلاب ، وأسست روضة أطفال يقبل فيها الأطفال فى سن الحضانه . وتقع مباني الكلية فى الجزء الجنوبي من بيروت المجاور لغابة الصنوبر العظيمة . وتعنى الكلية عناية خاصة باللغات الأوربية - ولا سيما اللغتين الانجليزية والفرنسية - فتدرس اللغة الفرنسية منذ التعليم فى الروضة ، وتدرس اللغة الانجليزية من السنة الأولى الثانوية . وتهتم الكلية فضلا عن ذلك باللغة العربية باعتبارها لغة القرآن والدين .

وتوفد الحكومة المصرية بعض المدرسين للتدريس فى هذه الكلية ، كما يحضر الى القاهرة لقيف كبير من خريجي هذه الكلية لاستكمال الدراسة فى الجامعات المصرية للحصول على الدرجات الجامعية العليا .

وفى مدينة صيدا كلية المقاصد الاسلامية ، ولا تختلف مناهج الدراسة فيها عن مناهج الدراسة فى كلية المقاصد الاسلامية فى بيروت ،

تقريبا غاصا بالزائرين ، الذين كانوا يقصدون الى حضرته لمجرد الاستفادة من محاضراته ، والالتقاط من درره . وصار للناس ولوع به ... فكنت تراهم يحفظون من كلامه ، ويقلدونه فى لفظه ، ويتابعونه فى رأيه . وان كثيرا من الأفكار والمبادئ والألفاظ والجمال السائدة الآن فى بر الشام ، هى من بقايا آثار مجالس الشيخ محمد عبده ، لا شك فى ذلك » .

وتاريخ لبنان حافل بالجهاد ضد الاستعمار فى سبيل الحرية والاستقلال .

وقد اشترك لبنان فى توقيع ميثاق جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥ . وكان من أول الداعين الى توثيق الصلات بين البلاد العربية . وعندما اعتدت القوات الاسرائيلية البريطانية الفرنسية على مصر ، ساد لبنان شعور السخط والثورة ، وتحولت بيروت وغيرها من المدن اللبنانية الى ثكنات عسكرية ، وانتشرت قوات الجيش فيها بسبب المظاهرات العنيفة المعادية للغرب ، وما صحب هذه المظاهرات من القاء القنابل والمتفجرات على بعض المنشآت الاستعمارية . ووقع انفجار شديد فى أنابيب البترول التابعة لشركة بترول العراق فى بلدة العبودية وغيرها .

والشعب اللبناني متمسك بالقومية العربية فى اصرار وقوة ، عامل على صيانة حقوقه الطبيعية من أذئاب الاستعمار ، وعلى أن تكون الحرية الفردية مكفولة للجميع .

وفى لبنان مدارس دينية يتعلم فيها الطلبة المسلمون . وأشهرها مدرسة المقاصد الخيرية فى بيروت ، وتديرها جمعية رجال الدين المسلمين ، ويرأسها أحد أثرياء بيروت . ولا يقتصر نشاط هذه الجمعية على ادارة المدارس ، ولكنها تتولى مشروعات خيرية أخرى . وتشرف على مدارسها

التفسير ، كتفسير الزمخشري وأبي حيان والقرطبي والطبري ، وغيرهم من علماء التفسير ... كما يدرسون صحيحى البخارى ومسلم ، ويهتمون بالأسانيد والرجال والعنقة ... وما الى ذلك . ويدرسون السكاكى والقزوينى والجرجاني وغيرهم من أئمة البلاغة ، ولا يغفلون عن دراسة الشعر العربى منذ عصور الجاهلية الأولى حتى العصر الحديث .

الاسلام فى العراق

دخلت العروبة أرض العراق منذ القدم . وقد وجدت منذ العصر الجاهلى امارة الحيرة التى ضمت قبائل بنى ربيعة وبكر وقيس بن ثعلبة وعبد القيس وغيرهم . وظلت الحيرة وثنية حتى فتحها سيف الله المسلول خالد بن الوليد ... فقد أرسل أبو بكر الصديق خالدا والمشى بن حارثة لاختضاع القبائل الثائرة فى أطراف العراق ، ففتحا الحيرة والأنبار . ولكن سرعان ما شن الملك يزجرد الثالث — آخر ملوك آل ساسان — حملة على المسلمين ، فارتدوا الى الصحراء .

ولما تولى عمر بن الخطاب الخلافة عزم على أن يقطع دابر الفتن فى العراق ، فجهز جيشا لهذا الغرض . ووقع الاختيار على البطل سعد بن أبى وقاص . ولما قصد سعد القادسية على حافة البادية وحافة سواد العراق التقى برستم فى جيش يبلغ ثلاثين ألف مقاتل ، وكان جيش العرب يتراوح بين سبعة آلاف وثمانية آلاف . وكان الفرس يسخرون من نبل العرب ، ويشبهونها بالمغازل . وقد استطاع العرب أن يتوغلوا فى صميم العراق بعد انتصارهم على الفرس فى القادسية ، فاستولوا على جلولاى وغيرها من المدن . ووقعت المدائن عاصمة الفرس

مع أن الهيئة التى تشرف عليها غير الهيئة التى تشرف على كلية المقاصد الاسلامية فى بيروت . ومدة الدراسة فى كلية صيدا ثلاث سنوات فى الروضة ، و ١١ سنة فى التعليم الثانوى ، بما فى ذلك قسما الفلسفة والرياضيات .

ولما كانت الكلية الاسلامية فى صيدا هى الوحيدة التى تجتمع التعليم فى شتى مراحله ، فقد التحق بها عدد غير قليل من المسيحيين . ويقبل أبناء المعلمين فى صفها الابتدائى بالمجان ، وفى القسم الثانوى بنصف المصروفات . ولهذه الكلية مكتبة تضم نحو ألفى مجلد عربى وفرنسى ، وهى تعد الطلاب لامتحان الثانوية العامة . وقد اعترفت الجامعة المصرية بدبلومها .

وفى مدينة طرابلس بلبنان كلية التربية والتعليم ، وتعنى بالدراسات الاسلامية كذلك . وتتألف من روضة أطفال مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات ، ومدرسة ابتدائية مدة الدراسة فيها خمس سنوات ، ومدرسة ثانوية مدة الدراسة فيها خمس سنوات ، ومدرسة دينية مدة الدراسة فيها أربع سنوات .

وتدير جمعية المقاصد الاسلامية مدرسة ابتدائية للبنات ، وأخرى للبنين فى الحى القديم من مدينة طرابلس . وتمثل هذه الكلية المعاهد التى يحاول المسلمون بوساطتها تربية الجيل الناشئ تربية دينية ، وتغرس فى نفوس التلاميذ مبادئ القومية العربية .

ويدرس الطلاب فى مدارس جمعية المقاصد الاسلامية القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والفقه الاسلامى ، والنحو والعروض ... وغير ذلك من العلوم الاسلامية التى لا بد أن يستوعبها الطالب المسلم قبل تخرجه حتى يستفيد ويفيد ، ويعكف على دراسة مذاهب الأئمة المسلمين وكتب

الله عليه وسلم : أبان بن سعيد بن العاص على صنعاء وأعمالها ، ومعاذ بن جبل على الجند ، وزباد بن لييد على حضرموت وأعمالها .

وكان معاذ بن جبل ينتقل الى مختلف المقاطعات ليعلم الناس القرآن ، ويفقههم في الدين .

وفي خلافة علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - استخلف على اليمن عبيد الله بن العباس على صنعاء وأعمالها ، ولم يزل عبيد الله على صنعاء يحج بالناس الى آخر أيام علي عليه السلام .

ولما توفي علي بن أبي طالب ، وصار الأمر الى معاوية ، استعمل على اليمن عثمان بن عثمان الثقفي ، ولما استولى الحجاج على مكة استعمل على صنعاء أخاه محمد بن يوسف الثقفي . ولم يزل عاملاً على صنعاء الى أن توفي بها عام ٨٦ للهجرة . وتداول حكم اليمن خلفاء كثيرون الى أن صارت جزءاً من الامبراطورية العثمانية ، ويدير دفة الحكم فيها وال من قبل الدولة العثمانية . وفي عام ١٩٠٣ أشعل الامام يحيى امام اليمن ثورة في وجه الأتراك ، واستولى الشوار على صنعاء . وما كادت تعلن البيعة للامام يحيى بن الامام محله حميد الدين عام ١٩٠٤ ، حتى أخذ يحارب الأتراك دون هوادة . وأرسلت اليه الدولة العثمانية حملات تأديبية بين الحين والحين ، ولكنها لم تستطع أن تخمد شوكته ، وأصبحت صنعاء مفرجة الأناضول .

وقد تمكن الامام يحيى من جمع شمل اليمن تحت لوائه ، واتخذ مدينة صنعاء عاصمة لحكمه . وهي المدينة التاريخية القديمة منذ أقدم العصور ، ومركز دولة حمير وما وليها من الدول . وهي تبعد عن عدن شمالاً نحو ٥٥٠ كيلو متراً . وأقيمت هذه المدينة بين جبلي تقم وعصر ، ولها أربعة أبواب .

في يد العرب بعد حصار دام شهرين . وانهزم الفرس في هذه الموقعة هزيمة منكرة . ومنذ ذلك التاريخ كثرت القبائل العربية في العراق ، ولا يزال بعضهم من الصابئية أو اليزيديين أو البهائيين .

وقد كان العراق في أوائل القرن العشرين ولاية تركية ، وعلى أثر اتفاق تم بين فرنسا و إنجلترا في ٢٤ أبريل عام ١٩٢٠ . وضع العراق تحت انتداب بريطانيا .

ولم يدعن الشعب العراقي لسيطرة البريطانيين وأذئابهم من الحكام ، فقام بثورة كبيرة شملت العراق كله . وفي أغسطس ١٩٢١ أعلن فيصل ملكاً على العراق .

وقد ظل العراق دولة ملكية حتى يوليو عام ١٩٥٨ ، حين قامت ثورة تموز ، وألغت الحكم الملكي ، وأعلنت الحكم الجمهوري في البلاد .

ويبلغ عدد المسلمين في العراق ٦٩٣٥٠٠٠ من السكان البالغ عددهم ٧٦٨٥٠٠٠ نسمة .

وفي العراق كثير من المساجد والجوامع والزوايا ، يحمل بعضها صبغة تاريخية عربية قديمة . ومن أشهر المساجد : مسجد النجف الأشرف في مدينة النجف ، ويضم مشهد الامام علي . ويشاهد القادم الى البلدة من مسافة بعيدة قبابه المغطاة بصفائح الذهب والفضة تلمع في ضوء الشمس .

الاسلام في اليمن

اليمن أكثر كثافة أجزاء شبه الجزيرة العربية بالسكان ، وأخصبها تربة . وتسعة أعشار سكانه مسلمون ، والعشر من اليهود الذين يعيشون في المدن ، ويعاملون معاملة خاصة . ويبلغ عدد المسلمين في اليمن نحو ٥,١٠٠,٠٠٠ نسمة .

وكان علي اليمن ، عند وفاة رسول الله صلى

أما المحميات الغربية — وأهمها سلطنة لحج شمال عدن — فهي منطقة عربية صميّة منذ القدم ، ويحكمها سلطان عربي مسلم . وكذلك في الصبيحة والحوشب والقطيب والعوالق ويافع والضالع والواحدى والعوازل — وهي المحميات التسع بما فيها لحج — ينتشر الاسلام ، وتتمشى العروبة في أعراق أهلها . أما سكان المحميات الشرقية وحضرموت — ويبلغ عددهم ٣٠٠٠٠٠ نسمة — فمعظمهم من المسلمين . ويحاول الاستعمار أن يسيطر على هذه المحميات .

ويرأس المحميات الغربية سلطان لحج ، ويرأس المحميات الشرقية سلطان مكلا والشمر . ومن المنتظر أن يزدهر شأن الاسلام في اليمن الجنوبي عقب التخلص من لير الاستعمار ، وتحرر هذه المحميات من ربة السيطرة الأجنبية .

الاسلام في عدن

تقع عدن في الطرف الغربي للقارة الآسيوية ، على مدخل الخليج المسمى باسمها من ناحية المحيط الهندي . ومساحتها ثلثمائة وثلاثة آلاف متر مربع . وعدد سكانها يبلغ نحو ٧٥٣٠٠٠ نسمة ، وعدد المسلمين منهم ٧٢٥ ألف نسمة ، يتبعون المذاهب الأربعة المشهورة والمذهب الزيدي . وأصل أهل عدن من اليمن وحضرموت ، وفيها جاليات أوربية وباكستانية وهندية وصومالية وغيرها . وبها عدد من المساجد ، كمسجد العسقلاني الذي أعد للمصلين فوق سطحه سقيفة فسيحة تتسع لعدد عظيم ممن يؤمونه ، زودت بمكبرات الصوت وفرشت بالحصير ، وبها أجزاء القرآن والمصاحف وبعض الكتب الدينية .

وقد وصف المقدسي في كتابه « أحسن التقاسيم

ولما تولى الامام أحمد حكم اليمن حقق كثيرا من النظم السياسية الرشيدة ، وحاول أن يسير بالأمة قدما الى الامام ... ففى اليمن اليوم ستة وزراء لست وزارات ، وهي الداخلية والخارجية والدفاع والمواصلات والمعارف والصحة . وبها مديرتان للزراعة والمالية . والوزراء هم سيوف الاسلام الحسن واخوته . وهناك مجلس استشارى مؤلف من ٤٢ عضوا عدا الوزراء ، تعرض عليه الأمور قبل تنفيذها .

وفي اليمن الآن نحو ٦٠٠ مدرسة أولية ، كما توجد مدارس ابتدائية في جميع المدن . وهناك ثلاث مدارس ثانوية في تمز وصنعاء والحديدة ، وتبلغ ميزانية اليمن حوالى ١٥ مليون جنيه .

واليمن احدى الدول الموقعة على ميثاق جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥ ، وهي عضو في الأمم المتحدة واتحاد الدول العربية . وقد أخذت تنشئ علاقات جديدة مع الدول المحبة للسلام ، وترغب في مبدأ التعايش السلمى .

وفي صنعاء نحو ٩٧ مسجدا . وتستخدم المساجد جميعا في غير أوقات الصلاة لتدريس العلوم الدينية . وقل أن يخلو حى في اليمن من مسجد أو أكثر . وقد عمرت بعض هذه المساجد في بعض العصور التاريخية ، فازدادت روعة . ولا يزال بعضها قائما حتى اليوم منذ ظهور الاسلام .

وينتشر الاسلام كذلك في عدن ، وهي شبه جزيرة بركانية على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية ، على مسافة ١٦٠ كيلو مترا الى الشرق من مضيق باب المندب . وقد حكم عدن ، منذ أبعد الحقب والأزمان ، ملوك من العرب . وكان المهاجرون العرب يقفون بقوافلهم عند شطآنها . وسكانها عرب نزحوا اليها من المناطق المجاورة ، ومعظمهم من المسلمين .

وكان تجارها ينتقلون في جزر المحيط الهندي ،
مثل جاوة وسومطرة وغيرها من سواحل أفريقيا
الشرقية ، ولا يزالون حتى اليوم يحبون الهجرة .
ولكثرة احتكاكهم بأهالي تلك البلاد انتشر فيهم
الاسلام ، وقضى على الوثنية .

الاسلام في قطر

قطر شبه جزيرة يشرف من الشرق والشمال على
الخليج العربي ، وتشرف سواحلها الغربية على خليج
البحرين ، وتتصل حدوده الجنوبية بشبه الجزيرة
العربية عند الاحساء . وقطر منطقة عربية عريقة ،
ويبلغ عدد سكانها نحو ١٠٠.٠٠٠ نسمة ، معظمهم
مسلمون . وبها عدد من المساجد والزوايا ، بناها
العرب المهاجرون اليها من قلب الجزيرة العربية
وأهل قطر الذين اعتنقوا الاسلام .

وقد كانت قطر جزءا من بلاد البحرين ، ثم
خضعت عام ١٨٧٢ لتركيا التي احتفظت بسيادتها
عليها حتى عام ١٩١٥ م . وقد أبرمت بريطانيا معها
معاهدة عام ١٩١٩ ، ثم عام ١٩٣٤ م . وقطر في
العرف الدولي محمية صريحة ، الا أنها من الناحية
الدينية تعد ربيعة العربية السعودية ، لأن سكانها
يدبنون بالمذهب الوهابي . وأمرؤها ينحدرون من
قبيلة تميم النجدية .

وقد اكتشفت بعض آبار للبترول في قطر ساعدت
على نمو الثروة الاقتصادية في البلاد . وفي ١٧ من
مايو عام ١٩٣٥ م منح حاكم قطر شركة الزيت
الانجليزية البريطانية امتيازاً نالت بمقتضاه حقوقاً
بترولية منفردة في بلاده لمدة ٧٥ عاماً .

وكان من نتيجة هذه الاكتشافات أن ازدهرت
الحياة المادية في البلاد ، وارتفع مستوى المعيشة
لبعض الطبقات ، ووجد مئات من التجار الأغنياء .

في معرفة الأقاليم « عدن فقال : « بلد جليل عامر
أهل حصين ، دهليز الصين ، وفرضة اليمن ، وخزانة
المغرب . معدن التجارات ، كثير القصور ، مبارك
على من دخله ، مشر لمن سكنه ... مساجد حسان ،
ومعاش واسعة » .

وفي عدن صهاريج كبيرة تعد من أجل الأعمال
الهندسية في العالم ، وتسع ثمانين مليون جالون من
الماء . وتاريخ انشائها غير معروف ، ويرجح أن
يكون قبل الميلاد بخمسة أو عشرة قرون . وكانت
هذه الصهاريج مردومة ، ثم كشفت ورممت عام
١٢٧٢ للهجرة .

وليس من شك في أن موقع عدن الجغرافي جعلها
قبة كثير من الطوائف المسلمة ، ومحطاً لالتقاء كثير
من الدعاة والمبشرين للدين الاسلامي في العصر
الحديث .

الاسلام في عمان

تقع « عمان » في الزاوية الجنوبية الشرقية من
بلاد العرب . وعاصمتها « مسقط » ، وبينها وبين
مكة أكثر من ألفي كيلو متر . ولها ميناء ترسو فيه
السنن . وينقسم سكانها قسمين : البدو ، أو سكان
الحيام ، وهم قوم رحل ينتجعون المرقع ، وينتمون في
الغالب الى العرب العدنانية . والحضر — ويقال
لهم العمانيون — وهم خليط من العرب والعجم
والهنود وغيرهم .

وأهل عمان على مذهب الإباضية المنسوب الى
عبد الله بن أباض المري ، نسبة الى المري ، من
أعمال طرابلس الغرب . وقد استولى عبد الله على
أفريقيا الشمالية عام ١٥٢ هـ ، وادعى فيها الخلافة .
وكانت عمان تابعة لحكم الثبابعة ، وأسلمت في عهد
رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان الخوارج
يلجأون اليها هرباً من خلفاء بني أمية والعباسيين .

الإسلام في البحرين

البحرين مجموعة من الجزر تقع في شمال شبه جزيرة قطر ، في مواجهة ساحل الأحساء . وأكبر هذه الجزر جزيرة البحرين ، وفيها معظم السكان . وفي الشمال الشرقي منها جزيرة المحرق . وأصل سكان البحرين من عمالقة قبائل طسم وجديس . وقد استولى عليها الفرس ، وصارت تابعة لحكم المناذرة ملوك الحيرة . ثم دخلت في حوزة المسلمين في السنة السادسة للهجرة ، أبان حكم العلاء الحضرمي على إقليم البحرين ثم استولى عليها البرتغاليون ، ثم الإيرانيون ، ثم امام مسقط ، ثم الدولة العثمانية . ويحاول أن يسيطر عليها الانجليز .

وقد هاجرت بعض القبائل العربية الى البحرين منذ عصر الجاهلية الأولى ، طلبا للماء والزرع والاعتدال والظل ومن هاجر : عبد القيس بن ربيعة ، وبطون من بكر بن وائل ، وبطون من تميم ابن مرة وقد كان المندر بن ساوة بن بنى حنظلة ابن مالك بن زيد بن مناة بن تميم ، أمير هذه الجهة ، من قبل الفرس ، عند ظهور الاسلام .

وعند ما انتشر الاسلام دخلت اليمامة والبحرين في دين الله الحنيف بيد أنه في أثناء حركة الردة المشهورة ، ظهر أنصار لها في اليمامة والبحرين ... بل لقد ظهر فيها من ادعى النبوة ولكن هذه الحركة لم تلبث أن أخمدت ، وأظهرت البحرين الولاء للإسلام في عهد الحلفاء الراشدين ، وعهد بنى أمية وصدر من عهد العباسيين .

وفي عام ٢٨٣ هـ استطاع أحد الدعاة الفاطميين من القرامطة أن يستقل بالبحرين ، ويعمل على نشر

دعوة الفاطميين في هذه المنطقة . ثم تمكن أبو سعيد الجشابي من الاستيلاء على مدينة هجر بعد حصار دام سنتين ، واتخذ الأحساء عاصمة لدولة القرامطة الجديدة وكان أبو سعيد يطعم في بسط سيادته على جزيرة العرب ، وفصلها عن الدولة العباسية ... مما أثار مخاوف الخليفة العباسي المعتضد ، فأرسل اليه حملة بقيادة العباس بن الغنوي ، غير أنه هزم هزيمة منكرة ، ووقع في الأسر . وظل أبو سعيد يحكم البحرين حتى أول القرن الرابع للهجرة . ثم اغتاله خادم له عام ٣٠٣ هـ .

وأسس عبد الله بن علي آل إبراهيم العيولي الامارة العيوية التي استمر حكمها في البحرين مائتين وخمسين عاما ، وهزم القرامطة هزيمة منكرة . ثم انتزع الفرس الحكم من العرب ، وظلت كذلك فترة طويلة ... حتى جاء تيمورلنك واستولى عليها ، كما استولى عليها جنكيزخان ، ثم البرتغاليون ، وبقيت في حوزتهم نحو أربعين عاما . ثم أبرمت معاهدة بين الانجليز والسعوديين عام ١٩٢٧ م اعترفوا فيها بأن البحرين دولة مستقلة ذات روابط خاصة مع المملكة المتحدة .

ويبلغ عدد المسلمين في البحرين ١٠٩١٠٠ نسمة من السكان البالغ عددهم ١٠٩٧٥٠ نسمة .

الإسلام في الكويت

تقع امارة الكويت في الزاوية الشمالية الغربية من الخليج العربي . ويشق ناحيتها الشرقية خليج صغير يمتد الى الغرب .

وتحيط الامارة بهذا الخليج الصغير على هيئة مثلث ، يتصل ضلعه الشمالي بالعراق ، وضلعه الجنوبي بالمملكة السعودية وتتبعها عدة جزر

صغيرة ، مثل مكان وفلكا ورثا وكبر وأم المراد والشيوخ .

وكان نقيم بهذه البقعة لفيث من البدو وبعض العرب الرحل ، وصيادى الأسماك ، فنشروا فيها الاسلام ثم نزل بها بعض القبائل المهاجرة من قطر وغيرها فيما بين أواخر القرن الحادى عشر للهجرة وأوائل القرن الثانى عشر . ولما كثر السكان كان من الضرورى أن يكون لهم حاكم يفض مشاكلهم ، وينظم أمورهم .. فاختاروا صباحا الأول - جد الأسرة الحاكمة الآن - حاكما عليهم وكان ذلك فى الفترة الواقعة بين عامى ١١١٠ و ١١٣٠ للهجرة .

والكويت اسم الامارة كلها وعاصمتها ، وهى المدينة الوحيدة فى الامارة . وفى أطرافها قرى صغيرة ، وعلى مسافة ٣٦ كيلو مترا منها نشأت مدينة « الأحمدى » عند منابع البترول . وهى مركز شركة النفط الكويتية ، ولها ميناء خاص بها اسمه « ميناء الأحمدى » ، تنتهى عنده أنابيب النفط الخام التى تصبه فى حاملات البترول لتنقله الى شتى أقطار العالم وبجوار ميناء الأحمدى سيفتتح قريبا ميناء آخر عند قرية الشعبية حيث تنتهى أنابيب شركة البترول الأمريكىة المستقلة .

ومساحة الكويت نحو ١٥ ألف كيلو متر مربع (ستة آلاف ميل مربع) ، وأرضها صحراء قاحلة ، فإذا هطلت عليها أمطار غزيرة فى الشتاء ، اكتست فى الربيع حلة خضراء ، ونبتت فيها زهور مختلف ألوانها . ويفرح القوم بالغيث اذا جاءهم ، لأنه يزودهم بالماء يحفظونه فى البرك والبحاريج ، وينتفعون به فى أشهر القبط ، وينبت العشب لماشيتهم . وأرضهم لا نجد عليهم بالماء العذب .

وقد قامت الحكومة أخيرا بمشروع عظيم لتقطير مياه البحر ، لتوفر للناس حاجتهم من الماء . ويزودهم هذا المشروع فى الوقت الحاضر بنصفه مليون جالون من الماء العذب كل يوم . وينتظر أن تزداد الكمية بعد اتمام هذا المشروع . ودرجة الحرارة عالية ، وقد تبلغ فى أشهر الصيف ثمانيا وأربعين درجة سنتجراد فى الظل ، وقد تهبط فى الشتاء الى درجة الصفر .

وتقع مدينة الكويت على الضفة الجنوبية لخليجها الصغير ، وهو من أحسن الموانئ الطبيعية فى المنطقة ، يصلح لرسو البواخر الكبيرة فى أكثر جهاته . وموقعها على البحر صير أهلها من رواد البحار ، ومن أمهر أهل الخليج فى صنع المراكب الصغيرة والكبيرة ، التى وصلوا بها فى أسفارهم التجارية الى الهند وشرقى افريقية . ولهم جاليات بالهند حتى يومنا هذا ، وصلات تجارية بمعظم البلدان المصدرة فى أمريكا وأوربا وآسيا .

والكويت متصلة بالعالم الخارجى من طريق البحر ، ومتصلة بالأقطار العربية من طريق البر ... تأتياها البواخر والطائرات والسيارات كل يوم من جميع أطراف العالم وهى تشبه أخواتها من المدن العريضة التجارية ... كصيدا وصور وقرطاجنة والرقيم (بطرا) وتدمر ومكة فى تاريخنا القديم ، وكبيروت والعقبة وطنجة وعدن ودبى ومسقط فى تاريخنا الحديث .

ولقد عرف أهل الكويت العالم ، واشتغلوا بالتجارة واستخراج اللؤلؤ ، فأثروا قبل ظهور البترول فى أرضهم ... فهم تجار ، وثقافتهم بحارية . غير أنهم محتاجون الى مدارس بحارية تعلم أبناءهم أساليب التجارة الحديثة ، والى مدارس صناعية لتعليمهم الحرف الصناعية والأساليب الفنية فى صنع

وأخذت تحفر الآبار حتى بلغ عددها نحو ١٤٠ بئرا يتدفق منها النفط ، وينقل في أنابيب ضخمة الى حاملات النفط الراسية في ميناء الأحمدى ، على مسافة بضعة كيلو مترات .

وقد بلغت كمية ما يصدر من النفط كل يوم نحو مليون برميل . ويعادل الاحتياطي الثابت من النفط في أرض الكويت نصف احتياطي نفط الولايات المتحدة الأمريكية . وبحسب الاتفاقية الجديدة بين شركة الزيت الكويتية وحكومة الكويت ، تقدر حصة حكومة الكويت من أرباح البترول بنحو ٥٣ مليون جنيه ، وهي نصف أرباح الشركة في الوقت الحاضر .

وفي الكويت معهد ديني أنشئ منذ سنوات قليلة ، يتعلم فيه الطالب مع العلوم الدينية واللغوية كثيرا من العلوم المدنية واللغة الانجليزية .. فيدرس القرآن حفظا وتلاوة وأداء وتجويدا ، والسيرة النبوية ، وسيرة كبار الصحابة ، والتاريخ الاسلامي ، وتاريخ الكويت وبلاد العرب ، والتوحيد ، والدفاع عن العقيدة الاسلامية ، والتهديب والتفسير وغريب القرآن ، والحديث وشرحه ومصطلحه ، والخطابة والدروس الدينية ، والشعائر والأذكار والأدعية المتصلة بالصلاة ، والفقه ، والنحو والصرف والبلاغة ، والأدب والجغرافيا ، والصحة ، والمنطق والحساب ، واللغة الانجليزية . وفي الكويت بعض المساجد كالمسجد الأحمدى ، وهو من أعظم المساجد في الكويت .

وفي الكويت « جمعية الارشاد الاسلامية » ، وتعمل على اصلاح الفرد وربطه بأخيه برباط الأخوة عملا بقوله تعالى : « انما المؤمنون اخوة » . وتسمى الى ما يكفل سلامة الأمة من الانحلال الخلقي .

المراكب والعناية بالآلاتها ، والتجهيد لانشاء أسطول تجارى فيها .

وسكان مدينة الكويت لا يزيدون على مائتى ألف نسمة في الوقت الحاضر . وهم أصلا من أبناء الجزيرة العربية ، خرجوا منها — كما خرج اخوانهم وأجدادهم — الى الهلال الخصيب . وأماؤهم من فروع قبيلة عنزة ، وهي القبيلة التي تنتمى اليها الأسرة المالكة في نجد والبحرين من آل سعود وآل خليفة .

والكويت مدينة حديثة لا ذكر لها في تاريخ العرب القديم ، ولكنها تقع في منطقة تاريخية قريبة من موقع كاظمة التي ورد ذكرها في حوادث الفتح العربي ، وعندها وقعت معركة بين العرب بقيادة خالد بن الوليد ، وبين الفرس بقيادة هرمز عام ١٢ للهجرة .

ولقد برزت الكويت في ميدان السياسة العالمية مرتين : الأولى بمناسبة مشروع خط برلين — بغداد ، الذى أخذ امتيازه الألمان ، وأرادوا به اختراق الدولة العثمانية من الشمال الى الجنوب ، واستغلال المناطق الواقعة على جانبي هذا الخط الجديد .. فضلا عن أن مد هذا الخط الى رأس كاظمة على خليج الكويت سيهيء لبوارجهم التجارية ميناء كبيرا ، ولبوارجهم البحرية مرفأ طبيعيا آمنا ، يهددون منه الامبراطورية البريطانية في الهند .. مما أدى الى تحوف إنجلترا من هذا المشروع الذى كان من أهم أسباب نشوب الحرب العالمية الأولى .

وبرزت الكويت مرة ثالثة عندما اكتشف البترول فيها قبيل الحرب العالمية الثانية ، وباشرت الشركة صاحبة الامتياز — وهى شركة انجليزية أمريكية — حفر بعض الآبار ، ثم سدتا عند قيام الحرب . وما ان انتهت الحرب حتى عادت الشركة صاحبة الامتياز

وفي مارس عام ١٩٢٤ م تقدم كثيرون من النواب باقتراح لالغاء منصب الخلافة ، وكان على رأس المقترحين عالم من علماء الدين ، وقد انتهى الأمر باقرار القانون المقترح الذى ينص على مواد كثيرة منها : خلع الخليفة ، والغاء الخلافة لأنها مندمجة فى معنى الحكومة والجمهورية ومفهومهما ، وحرمان الخليفة المخلوع وأفراد العائلة العثمانية ، ذكورا واناثا ، هم وأصهارهم ، من الإقامة داخل حدود الجمهورية الى الأبد .

وتبع هذا القرار الغاء الوزارة الشرعية ووزارة الأوقاف ، كما تقرر أن يعين رئيس الأمور الدينية بقرار من رئيس الجمهورية ، بناء على اقتراح من رئيس الوزارة ... على أن تتبع رئاسة الأمور الدينية رئاسة مجلس الوزراء ، وتكون ميزانيتها ملحقة بها ، وتكون ادارة جميع الجوامع والمساجد والزوايا الموجودة داخل بلاد الجمهورية بإشراف رئيس الأمور الدينية ، وله الحق فى تعيين الأئمة والخطباء والوعاظ والمشايع والمؤذنين والقوام وسائر المستخدمين وعزلهم . كما تقرر أن يكون هو مرجع المفتين جميعا . وتشكل هيئة علمية استشارية لمساعدته ، وهيئة أخرى لتدقيق المصاحف والمؤلفات العلمية الدينية ، وأن يكون الرئيس وأعضاء الهيئتين من أرباب الاختصاص فى العقائد والعلوم الاسلامية .

وقد كانت هذه الخطوات وسيلة من وسائل حصر المسؤوليات ، وتضييق نفوذ الدين فى تركيا ، مما مهد لأن تكون تركيا فيما بعد دولة « علمانية » ، أى ليس لها دين رسمى .

وترتب على ذلك أن اختفت حلقات المساجد التى كانت منتشرة فى ذلك الوقت ... حتى انه كان فى ولاية قونية عام ١٣١٩ هـ ٦٦ مدرسة ، فيها ٣٦٦٦ طالبا ، هذه المدارس كانت تغذى مساجد

والجوامع التى تقام فيها صلاة الجمعة فى مدينة الكويت هى : مسجد « البدر » الذى أسسه الحاج ناصر البدر حوالى عام ١٨١٥ ، ومسجد هلال الموجود فى حى العوازم ، وقد أسسه عزران الدماج ، ومسجد آل خليفة ، وهو على شاطئ الخليج ، وينسب الى آل خليفة حكام البحرين ، ومسجد السائر القبلى ، ومسجد السائر الشرقى ، وهناك عدد آخر من المساجد تقام فيها الصلوات الخمس ، ولا تقام فيها صلاة الجمعة .

الاسلام فى تركيا

كانت تركيا حتى عهد قريب أكبر الدول الاسلامية باعتبارها مقرا للخلافة العثمانية ، ثم ألغيت فيها على يد كمال أتاتورك ، وصار الحكم فيها جمهوريا .

وفى مستهل القرن العشرين كانت تركيا تحاول تحقيق فكرة الجامعة الاسلامية التى دعا اليها السيد جمال الدين الأفغانى ... اذ كان أول مسلم أدرك خطر السيطرة الغربية المنتشرة فى الشرق الاسلامى ، وتمثل عواقبها اذا ما طال عهدها ، وامتدت حياتها ورسخت فى تربة الشرق . وأدرك شؤم المستقبل وما سينزل بساحة الاسلام والمسلمين من النائبة الكبرى اذا لبث الشرق الاسلامى على حال مثل حاله التى كان عليها .

وقد تلقف السلطان عبد الحميد دعوة جمال الدين ، وبنى عليها سياسته فى تحقيق الجامعة الاسلامية وتشبيد أركانها . وظلت دعوة عبد الحميد تسير سيرا متواليا مدة تقرب من ثلاثين عاما حتى خلع من الحكم ، ففتر سير الحركة فى مجراها الأول . وفى أكتوبر عام ١٩٢٣ م جرت الانتخابات فى تركيا فانتخب الغازى مصطفى كمال حاكما عليها .

والسادسة عشرة للمرأة . وللحاكم حق الاذن
باجازة الزواج ممن أتم الخامسة عشرة من الذكور
والرابعة عشرة من الاناث اذا وجدت أسباب آليمة
وخارقة .

وقرر الغازى لكل من الزوجين حق اتخاذ
مسكن مستقل اذا تعرضت صحته أو شهرته أو
عمله للخطر بسبب استمرار الحياة الزوجية في
مسكن واحد ، كما جعل لكل منهما الحق في
الاقامة منفردا اذا رفعت قضية طلاق أو فراق
بينهما ما دامت القضية منظورة ..

وتدخل الغازى في شئون الميراث ، فجعل
أصحاب الحق الأصليين في الميراث هم الفروع
فقط ، وعلى أساس المساواة بين الذكر والأنثى ،
وحق الابن المتوفى في ميراث أبيه ينتقل الى
فروعه . وفي ميدان العبادات جعل الخطباء يتلون
الأدعية وفواتح الخطب وخواتيمها والنصوص
بالعربية ، ثم يفسرون ويخاطبون الجمهور باللغة
التركية التى تتغلب مفرداتها العربية على مفرداتها
التركية ، ويفعل ما يشبه ذلك المدرسون في
المدارس حينما يقومون بتدريس القرآن الكريم
أو الحديث النبوى الشريف .

أما الحج الى بيت الله الحرام فقد أصبح شبه
ممنوع في عهد الغازى مصطفى كمال ، وألغى لقب
الحاج ضمن الألقاب التى ألغيت ، كما منع عرض
الصور التقليدية للكعبة والمدينة ومكة ، وشدد
في عقاب من يطبعها أو يبيعها . وقلت منذ ذلك
التاريخ الهجرة الى بيت الله الحرام لأداء فريضة
الحج . ومن كان يذهب الى الأراضى المقدسة ،
كان يذهب خفية أو متذرعاً بأسباب مختلفة لأداء
هذه الفريضة .

وأصدر مصطفى كمال في أول يناير عام ١٩٢٩ ،
قانوناً بإلغاء الحروف العربية ، واستخدام الحروف

القرى والمدن والزوايا بالأئمة والخطباء والوعاظ
والمرشدين والمشايخ ، فلم يحل عام ١٩٣٠ م الا
وأغلقت كلية اللاهيات لاقفارها من الطلاب .

وأغلقت الزوايا والتكايا كلها في بلاد الجمهورية
— سواء أكانت وقفا أم ملكا في تصرف مشايخها
أم تأسست بصورة أخرى — وألغيت الطرق
الصوفية جميعها بكل أنواعها ومظاهرها وألقابها ،
وحظر قيامها حضرا باتا .

ومن القرارات التى صدرت في هذه الآونة قرار
وزارى يحدد وظيفة العلماء في تركيا . وقد أدخل
هذا القرار رئيس الأمور الدينية ، وأعضاء الهيئة
الاستشارية في رئاسة الأمور الدينية ، والمفتين
وكتبة الافتاء في مراكز الولايات والأقضية ،
والأئمة والخطباء والوعاظ ، ومعلمى القرى
المعينين من قبل رئاسة الأمور الدينية ... في صف
العلماء ، وجعل العلامة المميزة لزيهم عمامة بيضاء
وجبة سوداء . أما لون عمامة أئمة الجيش وجيهم
فتابع لبقضى الشئون العسكرية . ولا يجبر هذا
القرار العلماء على لبس زيهم الخاص خارج
وظائفهم . والأصل أن يكون العلماء في الدوائر
الاسلامية مكشوفى الرؤوس ، ومع ذلك فهم
محبرون بين كشفها أو لبس العمامة .

وقد تدخل الغازى مصطفى كمال في القانون
المدنى ، فجعل للحاكم حق منع زواج الزوجين
المطلقين مدة سنة أو سنتين ، ويحظر على كل منهما
التزوج قبل مضي المدة المحكوم بها ، وللحاكم
تقصير المدة اذا كان المطلقان يريدان أن يعود كل
منهما الى صاحبه . ولا يجوز لشخص أن يتزوج
قائمة ما لم يثبت أن زواجه الأول قد زال بالموت
أو الطلاق أو بحكم . كما جعل سن الرشد تبدأ
بتمام السنة الثامنة عشرة ، والزواج يكسب المرء
رشداً ، وسن الزواج هو تمام السابعة عشرة للرجل



مسجد اياصوفيا في تركيا

لأنه مقام أبى أيوب الأنصارى أحد كبار الصحابة .

والمشهور أن أبا أيوب جاء لفتح القسطنطينية مع يزيد بن معاوية عام ٥١ هـ ، فمات خارج سورها ، ودفن هناك . وظل قبره مهملا حتى جاء الفتح العثماني ، فبنى محمد الفاتح على قبره مقاما ، وشيد بجانبه جامعا ، وصار لا يتولى سلطان عثمانى الا تقلد سيف عثمان رسميا في جامع أبى أيوب .

وجامع السلطان أحمد الذى بناه عام ١٠٢٦ هـ يمتاز بجماله وزخرفته ، وقد قتل فيه الانكشارية ، وهو يمتاز عن بقية المساجد بكثرة مآذنه فانها ست مآذن ، وبقية المساجد لا تزيد مآذنها على أربع . وعند باب جامع « نوري عثمانية » مدخل يؤدى الى طلعة تنتهى بأعلى الجامع الى المقصورة التى كان يجلس فيها السلاطين للصلاة . وقيل ان السلاطين كانوا يدخلون من هناك على خيولهم حتى يبلغوا الطبقة العليا فيترجلوا ويسيروا على أقدامهم الى المقصورة .

وهناك كثير من السبل كسبل السلطان أحمد ، وهو بناء مربع من الرخام الأبيض ، فوقه قبة مستديرة الأركان تستطيل حاقاتها حوله فى غاية الزخرفة والاتقان ، وعلى جهاتها الأربع نقوش

اللاتينية فى دوائر الدولة ومؤسساتها وجميع الشركات والمصارف والمؤسسات والجمعيات . أما ما هو موجود من سكة وأوراق وسندات وأسهم وتحويلات وطوابع وأوراق مدموغة ونقد ، فقد اعتبرها القانون صحيحة الى أن تعدل .

وليس من شك فى أن مصطفى كمال أخطأ فى اندفاعه وتهوره وتهجمه على الدين . وكان فى وسعه أن يعالج الموقف معالجة حسنة ، فلا يحطم القيم الدينية التى توارثها المسلمون جيلا بعد جيل . ويعدل نظم الحياة الاجتماعية فى الصورة التى يراها دون أن يخرج عن إطار الاسلام ، ويقوض ايمان المسلمين .

وعلى الرغم مما بذله مصطفى كمال لتحطيم كثير من القيم التى طالما حرص عليها المسلمون ، فلا يزال فى تركيا حتى اليوم كثيرون من المسلمين يتمسكون بأهداب دينهم تمسكا شديدا ، ويحرصون على أداء فرائضه كاملة غير منقوصة .

والمساجد فى تركيا لا تزال غاصة بالمسلمين . وفى تركيا عدد كبير من المساجد يرجع تاريخها الى عصور قديمة . وفى الآستانة وحدها ما يزيد على ٤٨٠ جامعا ، منها ٨٩ كنيسة حولها العثمانيون الى مساجد ، وأشهرها جامع « اياصوفيا » على الهضبة الأولى من هضاب استانبول .

وجامع السليمانية ، الذى بناه السلطان سليمان القانونى ، يشغل معظم الهضبة الثالثة من استانبول ، وله ملحقات من المدارس والمنائر والتكايا والأضرحة والمكاتب والحمامات . وتم بناؤه عام ١٥٦٦ .

وجامع أبى أيوب من أشهر الجوامع فى تركيا ، ويسميه بعضهم جامع السلطان أيوب . وهذا خطأ

وقد رحب الفرس بالاسلام لأنه دين المساواة .
ذلك أن المجتمع الايراني كان ينوء بنظام الطبقات . ونصت كتبهم على ثلاث طبقات : طبقة رجال الدين ، وطبقة رجال الحرب ، وطبقة الحرايين ، وقد ألحقت بعض الكتب طبقة أهل المهن بهم ، كما جعلتها كتب أخرى طبقة منفصلة قائمة بذاتها . وكان الانتقال من طبقة الى طبقة أمرا صعبا عسيرا .

وقد حبيبهم الى الاسلام ما توارد اليهم من أن النبي صلى الله عليه وسلم قرب اليه فارسيا اسمه سلمان ، وأنه يكثر من الحديث عن العنق ، وأن الاسلام دين يكفل الحرية ، ويكره الاستعباد والاستبداد . وقد سار أبو بكر الصديق على سنن رسول الله ومبادئ الاسلام في معاملة الفرس . ولما جاء عمر الفاروق تساءل الفرس : كيف يعاملنا المسلمون ؟ فقبل لهم قال صحابي عن الرسول : سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم — وقد سئل عن المجوس — يقول : « استنوا بهم سنة أهل الكتاب » .

وقد روى لنا « الفخرى في الآداب السلطانية » لابن طباطبا أن الخليفة عمر التمس النصيح عند رجل من فارس ، كان قد عمل فترة من الزمن في أحد الدواوين الحكومية ، عند ما أراد أن يهتدى الى طريقة يوزع بها غنائم الحرب التي كانت تتدفق على المسلمين . وقد أشار عليه الفارسي أن يتشىء ديوانا يسجل فيه الدخل والمصروفات ... فكان هذا الديوان هو البذرة التي انبثقت منها الأداة الحكومية .

وقد ساعدت هذه الأمور جميعا على أن يدخل الفرس في دين الله أفواجا . غير أن معظمهم كانوا — ولا يزالون — يتمسكون بالمذهب الشيعي ، ويعتقدون بأحقية علي بن أبي طالب في الخلافة .

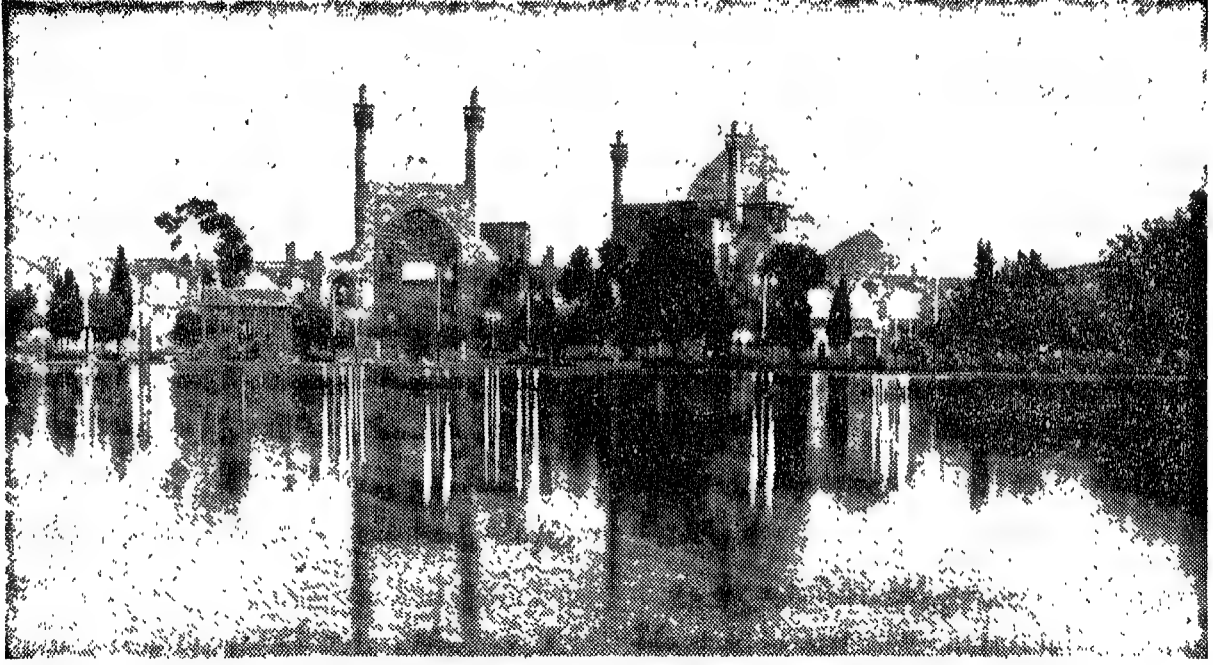
مذهبة في وسطها أشعار منقوشة بالذهب بخط جميل ، وهي قصيدة باللغة التركية ألفها شاعر السلطان .

وهكذا تعمر تركيا بالمساجد التاريخية التي يرجع تاريخ بنائها الى قرون بعيدة . ولا تزال آيات الذكر الحكيم تتلى بين جنباتها الفسيحة ، تشيع نفحات الايمان والتقوى ، وترفع لواء الاسلام ، وتقر كلمة المسلمين على الرغم مما في مظاهر الحياة في تركيا من انطلاق نحو مظاهر الحياة في الغرب ، واندفاع متهور مع تيارها الحديث .

الاسلام في إيران

عرف العرب الفرس قبل الاسلام ، وكانت التجارة تتردد بين بلاد فارس واليمن . فلما جاء الاسلام ، دارت بين العرب والفرس معركة القادسية . وتبعت القادسية معارك أخرى . وقد انحازت ديلم ، من جند الفرس ، الى المسلمين بعد القادسية ، وأسلم عدد كبير منهم . وأعطى العرب الفرس الذين قاتلوا معهم حظهم من الغنائم ، وكان عمر لايتوانى في ذلك ... بل لقد أحسن العرب الى الفلاحين الذين لم يقاتلوا .

يقول الطبري عن أهل فارس : « وتراجعوا الى بلدانهم وأموالهم على أفضل مما كانوا في زمن الأكاسرة ، فكانوا كأنما هم في ملكهم ... الا أن المسلمين أوفى لهم وأعدل عليهم ، فاغتبطوا وغبطوا ، ودخل كثير من أنبأع زرادشت في الاسلام ، حتى شكوا عامل خراسان الى عمر ابن عبد العزيز قلة الجزية ، فأرسل اليه يقول : ان الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ، ولم يبعثه جابيا » .



الجامع الكبير بمدينة اصفهان ، وهو من آثار أحد الملوك الصفوية

مصرفات مدرسية ، ولا يستحضرون غير الكتب المطلوبة ... بل لا يتقاضى المعلمون أجرا لأنهم يعدون هذا العمل ثوابا عظيما . والمباني التي تلقى فيها هذه الدروس تسمى مدارس تجاوزا ، وقد بناها كلها أغنياء الشيعة من الإيرانيين في كربلاء والنجف والكاظمية وسامرا ومشهد وطهران وأصفهان وشيراز وتبريز وغيرها من البلاد ، ووقفوا عليها الأوقاف لحفظها وإصلاحها من العطب . وهي تضم غرفا صغيرة على نمط واحد لسكنى الطلاب ، وبعضهم يسكن في هذه الغرف سكنى دائمة ، وبعضهم يدخلها مدة محددة ومن أجل الاستذكار .

ومما يذكر أن معاني القرآن لا يمكن أن تكون مستقيمة عند الشيعة ، إلا إذا كانت بتعليم الامام وإنشائه ... فهو المفسر للقرآن ، المبين لمعانيه . ويستخلص من مجموع أقوال الشيعة أنهم لا يقبلون أحاديث العامة التي تتصل مباشرة

وفي أواخر القرن الثامن للهجرة ، أسس الشاه اسماعيل الصفوى السلطنة الصفوية ، وجعل مذهب الشيعة المذهب الرسمي للشعب والمملكة الإيرانية ... فنشط علماء إيران من الشيعة لنشر مذهبهم ، ودونوا الكتب والمؤلفات في هذا الصدد . ومنذ ذلك التاريخ اتخذ المذهب الشيعي — فضلا عن الناحية الدينية — لونا جديدا مصطبعا بالسياسة الإيرانية .

ويذل أصحاب المذهب الشيعي جهودا كبيرة في تعليم أبنائهم أصول الشيعة الإمامية ... فالكتب المقررة للتدريس وتعليم الطلاب المذهب الشيعي ، هي الكتب التي ألفها أئمة علمائهم في العصور السابقة . ولكن يتحتم على الطالب قبل دراستها أن يدرس الصرف والنحو والمعاني والبيان والمنطق واللغة والأدب .

ولا تشترط سن معينة لكى يبدأ الطلاب دراسة هذه الكتب ، وإن كان معظمهم يبدأونها بعد سن البلوغ مباشرة . ولا يدفع الطلاب

الإسلام في أفغانستان

تقع أفغانستان بين الصين وكشمير شرقا ، وباكستان جنوبا ، وإيران غربا ، وجمهورية الاتحاد السوفيتي شمالا . ومساحتها نحو ٢٤٥ ألف ميل . والأفغانيون من أصل إيراني تركي ، وامتزجوا بدماء هندية . ويظهر أن أول من ذكرهم في التاريخ المدون العتيبي في كتابه « تاريخ اليم » ، وكان من كتاب محمود الغزنوي ، وكذلك ذكرهم البيروني .

ويرجع عهد أفغانستان بالاسلام والمسلمين الى أيام عثمان بن عفان ، ثالث الخلفاء الراشدين ، لما أرسل والي البصرة ، عبد الرحمن بن سمرة ، لفتح سجستان ، فحاصر « زارنج » ، وافتتحها (اسمها الآن زاهيدان) ، ولا تزال آثارها باقية الى الآن .

وفي أيام الخليفة معاوية بن أبي سفيان تم فتح هذه البلاد . وقد حاول عبيد الله بن أبي بكر عام ٧٩ للهجرة (٦٩٨ م) أن يفتح تلك الجهات ، ولكنه لم يفلح واضطر أن يفدى نفسه وجيشه بمبلغ من المال قدره ٧٠٠٠٠٠ درهم ، ثم أرسل الحجاج الثقفي عام ٨١ هـ (٧٠٠ م) حملة بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث ، ولكنها فشلت . وذكر يعقوب في « مروج الذهب » أنه أرسلت في عهد هارون الرشيد حملة أخرى الى مدينة أكابل ، ولكنها استرجعت مرة أخرى .

ثم جاءت الدولة الغزنوية ، وظلت في الحكم حتى دالت دولتهم . ثم استقل سنجر السلجوقي بالحكم ، وهزم السلطان علاء الدين ، وقيده في أغلال من ذهب كان علاء الدين قد جهزها ليقيد بها سنجر عند أسرهِ ... على أن سنجر نفسه وقع أسيرا في يد الغز بعد عام . وانقضى بموته حكم

بالنبي ، بل لابد من توسط أحد من آل البيت ، وأنهم لا يقبلون رواية غير الامامي الا اذا وجدت قرينة ترجح صدق روايته . ومن جملة القرائن وجود غير الامامي متوسطا بين راويين كلاهما أمامي .

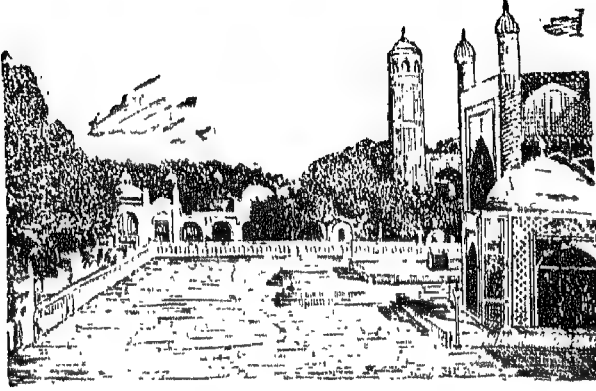
وقد تأثر الأدب الفارسي الحديث بالأدب الاسلامي ، وأخذ عن العرب معظم موضوعات الشعر والنثر ، وكل صور الشعر والنثر وأساليهما من الوزن والقافية والسجع وأنواع البديع . ثم امتاز الأدب الفارسي بخصائصه في الاسهاب والقصص وغير ذلك . وقد اتصل الأدبان اتصالا وثيقا .

وكانت اللغة العربية لغة العلم والأدب منذ الفتح الاسلامي . فلما ترعرت الفارسية ، وصارت لغة علم وأدب ، كتب المنشئون بها في كتاباتهم ، غير أنهم استخدموا البحور العربية في الشعر مع بعض التعديلات .

ويوجد بإيران الآن نحو ١٩٥٦٢٠٠٠ مسلم من السكان البالغ عددهم ١٩٨٩٦٠٠٠٠ نسمة . وأكثرهم على المذهب الشيعي ، ولذلك تقف إيران كتلة شيعية بين السنيين في الأفغان والهند ، والسنين في العراق والشام ومصر ، حتى أوجدت لنفسها شخصية مستقلة في العالم الاسلامي .

هذا وقد انتشر مذهب الاسماعيلية في إيران منذ منتصف القرن الثامن عشر للميلاد ، وله أتباع كثيرون في إيران والهند والباكستان وغيرها من البلاد .

ويوجد في إيران كثير من الجوامع والمساجد ، ولعل أشهرها هو مسجد الشاه في أصفهان ، يمتاز بفخامته وجمال تخطيطه وحسن زخارفه لداخلية .



جانب من مسجد وقبر رابع الخلفاء الراشدين سيدنا على
كرم الله وجهه في مدينة مراد شريف بأفغانستان

في كتابه « تنمة البيان في تاريخ أفغان » أن لهم
شأنا عظيما وسلطة روحانية تامة ، ونفوذ كلمة بين
الاهالي ... يخشاهم الكبراء والعظماء والأمراء ،
لأن قلوب العوام في قبضتهم . ولهم أن يثيروا
الشعب على أى أمير أو كبير متى شاءوا ...
وكثيرون منهم يستنكفون من ملاقة الأمراء ،
ويستكبرون عن زيارة رجال الحكومة ، حتى أن
أمير البلد لو زار أحدهم لا يرى من نفسه أن
يتنازل لمقابلة زيارته بزيارة مثلها .

وفي موضع آخر من كتاب « تنمة البيان في
تاريخ الأفغان » يتعرض السيد جمال الدين
الأفغانى الى الهوة السحيقة بين السنين والشيعة ،
والجفوة الشديدة القائمة بين الأسر في الطائفتين ،
فيقول : « ومما يحسن سرده هنا أن سنيا عرض
التسنن (مذهب أهل السنة) على جارية منهم
كانت عنده ، فأبت ، فعزرها وزجرها ، وألح
عليها ، فاستشاطت غيظا وقالت : أهون على أن
أكون كلبة ، ولا أكون سنية ا » .

ومن بعض عاداتهم أنهم يلقنون أمواتهم ان
دفنهم كلمات معناها « اذا جاءك ناكرو ومنكر
فلا تنخف ، فان مولاك عليا سيحضر عندك
ويطردهما عنك » . ومن عاداتهم كذلك أن أهل

السلاجقة . وتكونت على أثر ذلك الدولة
المغولية ، وتعاقبت ملوك وأسر على حكم
الأفغانستان .

وقد كانت بين الأفغانين والعرب روابط قديمة .
وهناك كلمات عربية استعيرت وعربت من الفلسفة
الأرسطائية في الأفغان : مثل الفردوس من
« براديس » ، ومعناها ما وراء الدنيا ، وجهنم من
« جهاندم » ومعناها ذيل العالم ، ومسجد من
« مازكت » وتفسيرها رقعة مربعة للصلاة . وهناك
كلمات أخرى مثل دولاب والديوان والدفتى
والبرنامج وغيرها ، ذات أصول أفغالية .

وتحتوى اللغة العامية الأفغانية على ٣٠٪ من
المفردات العربية ، واللغة الأفغانية الفصحى على
٦٠٪ من الكلمات العربية الخالصة الصافية ... بل
ان الأفغانين يحفظون كلمات عربية جميلة اقترض
استعمالها في البلاد العربية .

وقد بلغ من الأفغانين علماء كثيرون نذكر منهم
الامام الأعظم أبو حنيفة النعمان ، والامام أحمد
ابن حنبل ، والمحدثين الجليلين البخارى
والترمذى ، رضى الله عنهم أجمعين . كما ظهر
الزمخشري والسكاكي والتفتازانى وابن سينا
والفارابى وجابر بن حيان وغيرهم .

وقد كان هناك شعب يسكن المنطقة الممتدة من
شرق كابل وجنوبها الى « راولپنڊى » في
باكستان — وتسمى « جندهارا » — وكان هذا
الشعب من أعرق الشعوب في الفن والحضارة
والصناعات ، وكان يدين بتعاليم بوذا ... الى أن
جاء القائد العربى الكبير « أحنف بن قيس »
وأدخلهم في دين الله الحنيف .

وللعلماء المسلمين في أفغانستان منزلة كريمة ،
ومقام عظيم يروى السيد جمال الدين الأفغانى

مشكورة في الدعوة لتعليم اللغة العربية ، ويدل على ذلك انشاؤها مدرستين باسم « دار العلوم العربية » : احدهما في مدينة كابل ، والاخرى في مدينة « هرات » وتوجد مدرسة كذلك في مدينة « قاندهار »

والاحكام بين الأفغانيين عامة تجرى غالبا وفق الشريعة الاسلامية ورجال القضاء يختارون عادة من مدرسة دار العلوم العربية ... وذلك لأن الفقه الاسلامي ، وكافة العلوم الدينية ، تدرس في هذه المدرسة على نحو ما كانت عليه مدرسة القضاء الشرعي في مصر وتقرأ كافة المواد العلمية في المدارس باللغة العربية ، ولكن يمتحن فيها الطلاب باللغة الفارسية بسبب ضعف الطلاب في المحادثات والانشاء باللغة العربية ، وقد تضاعف في السنوات الأخيرة عدد المتكلمين باللغة العربية والمتقنين لعلومها المختلفة

ويحرص الأفغانيون المسلمون عادة — الا فئات متطرفة — على أداء فرائض الاسلام في سعة صدر ، ورضاء نفس . ويبلغ عدد المسلمين في أفغانستان ١١٠٨٥٠٠٠ من عدد السكان البالغ ١١٠٤٠٠٠٠٠ . وبها كثير من المساجد ، ومن أهمها المسجد الموجود في « مزار شريف » .

وقد مر الاسلام في أفغانستان بمحنة شديدة أيام حكم أمان الله خان ، فانه أصدر أمره بتعطيل المدارس ودور الحكومة يوم الخميس بدلا من يوم الجمعة ، وعطل بذلك أداء العبادات الدينية ، وخطب في مجلس الأعيان ، وحث على التجديد ، ونفذ العادات القديمة .

وثار في وجهه كثيرون من المسلمين ، وعلى رأسهم شيخ الطريقة المجددية — واسمه « بير صاحب »

الميت يشق كل منهم قلنسوته بعد دفنه ، ويتركها على قبره .

وكثيرا ما كان أهل « التركمان » يأسرون أشخاصا من السنيين ويجبرونهم بالضرب والكي على أن يعترفوا بالتشيع كي لا يمتنع أتقياء بخاري عن شرائهم . واتفق أن بعضا منهم أسر عالما من علماء السنة من نواحي « هرات » فكبلة بالسلاسل خوف الهرب ، ومع ذلك كان اذا حضر وقت الصلاة أطلقه ليؤم الناس ، وكان بعد الصلاة يقيده ثانيا .

ولكن الغالبية العظمى من الأفغانيين سنيون ، وعلى مذهب الامام أبي حنيفة ، ولا يتساهلون — رجالا ونساء ، حضريين وبدويين — في الصلاة ، ماعدا طائفة « نوري » فانهم متوغلون في التشيع ، ولهم محاربات شديدة مع جيرانهم السنيين ، ولا يبالون بأداء فريضة الصلاة أو صوم شهر رمضان المبارك ، وانما يهتمون بأمر ماتم الحسين رضي الله عنه في الأيام العشرة الأوائل من شهر المحرم ، ويضربون ظهورهم وأكتافهم بالسلامل ، وهي مكشوفة .

ويعتقد الأفغانيون أنه لا يوجد الايمان الكامل ، والاسلام الخالص الا في جنس الأفغان والعرب وبعض أرباب المناصب في أفغانستان من الشيعة ، مما يدل على الساحة الدينية في طبع أولى الأمر فيهم .

واللغة العربية تعلم الآن في أفغانستان كلفة أصلية في المدارس الرشدية والاعدادية (الكفاءة والثانوى) ، وفي مدرسة المعلمين الأولية . ولا يمكن نجاح طالب وانتقاله من سنة الى أخرى الا اذا جاز الحد المعين في درجات النجاح في مادة اللغة العربية التي يقدرونها تقديرا تاما ، لأنها لغة لقرآن الكريم ، والحكومة الحاضرة تبذل عناية

الإسلام في الباكستان

في الرابع عشر من شهر أغسطس عام ١٩٤٧ ، ولدت باكستان بإعلان نهاية الامبراطورية البريطانية في الهند ، وتقسيم شبه القارة الهندية الى دولتي الهند وباكستان وباكستان تتألف من قسمين يفصل بينهما نحو ١٢٠٠ ميل : يقع أحدهما في الشمال الغربي من جمهورية الهند ، ويسمى باكستان الغربية ، ويقع الثاني في الشمال الشرقي منها ، ويسمى باكستان الشرقية .

وباكستان الشرقية تتكون من اقليم شرقي البنغال ، وتبلغ مساحتها ٥٤٥٠١ ميل مربع ، وعدد سكانها ٢٠٦٣٠٠٠ نسمة ، وهي من أشد بقاع العالم ازدحاما بالسكان ، إذ يبلغ متوسط كثافة السكان في المبل المربع ٧٧٧ سمة .

أما باكستان الغربية فتتكون من عدة ولايات منها السند و كشمير ، وتبلغ مساحتها ٣١٠٢٣٦ ميلا مربعا ، وعدد سكانها ٣٣٧٧٩٠٠٠ نسمة فهي بذلك أقل سكانا وأقل كثافة في نسبة السكان للميل المربع من الباكستان الشرقية .

و « باكستان » كلمة فارسية معناها ارض الطهر وهي ترمز الى المقاطعات الاسلامية في الهند فالبناء من بنجاب ، والألف من الباتان ، والكاف من كشمير ، والسين من سند أما « ستان » فمعناها دولة

وقد دخل الاسلام الباكستان منذ القرن الأول للهجرة ، وكان لمحمد بن القاسم دور كبير في هذا الميدان ... فبعد أن فتح الاسلام ايران وأفغانستان أراد المسلمون فتح ما وراء السند ، فأرسلت الجيوش والأساطيل البحرية الى هذه

— وكان رئيسا دينيا مطاعا له سلطان روحي تام على جميع أفغانستان فقتله أمان الله خان ، وأمر الجنود فأحاطت بيته وحاصرت ، فازداد الناس هياجا ، وازدادت الثورة حمية . ولم تلبث أن دارت الدوائر على أمان الله خان ، فهرب الى « قندهار » ، وهي مدينة تبعد عن كابل الى جهة الشمال نحو مائتي ميل .

واغتنم « باجا سقا » هذه الفرصة ، فكون جيشا من قطاع الطرق والخوارج ، وهجم على مدينة كابل ، ونصب نفسه حاكما على البلاد ... ومع أنه كان من اللصوص وتجار الدماء ، بيد أن الشعب الأفغاني قبله حاكما عليه ، لأنه كان يمتك كل المقت حكم أمان الله خان ، وظل في حكمه تسعة أشهر حتى أنقذ البلاد الملك محمد نادر خان . ولكن هذا الملك اغتيل عند حضوره الى الحفلة الرياضية للطلبة في كابل لتوزيع الجوائز عليهم يوم ٩ من نوفمبر عام ١٩٣٣ الساعة الثالثة بعد الظهر ، إذ ما كاد يصل الى الحفل حتى أطلق عليه الجاني من مسافة أمتار قليلة ثلاث صدمات من مسدس كان يخفيه في ثيابه ، فساد الهرج والمرج ، وقبض على الجاني الذي كاد يمزقه الشعب ، ولكن الملك أسلم الروح بعد ساعة من اصابته .

ويظهر أن الجاني ارتكب هذه الجريمة لأنه عقد قرضا من الدول الأجنبية ، كما اشترى صفقات من الأسلحة من الخارج لدعم أركان الدولة بعد ما عاث فيها أمان الله خان فسادا ، فظنت بعض القبائل أنه يتآمر على مصلحة الشعب ، فدبرت مؤامرة لقتله . وتولى على اثر وفاته الأمير محمد ظاهر شاه العرش ، وهو ملك الأفغاني الحالي ..

تلك المناطق الغنية الفضل الأول في نشر الدين الاسلامي في أرجائها الواسعة ، وكان انتشار الاسلام في البنغال الشرقية والملايو والصين على أيديهم .

وقبل بداية القرن الثامن عشر بلغت الدولة المغولية أوجها حينما كان « أورانجزيب » على رأس امبراطورية المغول . وبعد ذلك بدأت شركة الهند الشرقية تتدخل في أمور البلاد ، وساعدها على ذلك ضعف الدولة الاسلامية . ومع أن البريطانيين جاءوا الى هذه البلاد بوصفهم تجاراً ، بعد أن حصلوا على ميثاق للتجارة عام ١٨٦٠ ، فقد أصبحوا بمرور الوقت سادة هذه البلاد ،

ولما ثار المسلمون والهنادكة على الانجليز انهزم الثوار ، وقضى على الدولة الاسلامية بالهند . وكان الانجليز يكتنون عداً شديداً للمسلمين ، لأنهم كانوا المسيطرين على أزمة الأمور في الهند .

ثم بدأت الحركات الاستقلالية بالهند . فتأسس حزب المؤتمر الهندي ، ثم حزب الرابطة الاسلامية . وقد دعا المؤتمر المسلمين الى عقد مؤتمر سنوي يضم ممثلي المسلمين من كافة الأقاليم الهندية المختلفة . فوضع بذلك الأساس الذي قامت عليه الرابطة الاسلامية التي قادت الحركة الاستقلالية لدولة باكستان .

وقام السيد أحمد خان بدور كبير في الدفاع عن المسلمين ، ونصب نفسه للدفاع عن شعب أعزل يرسف في أغلال التأخر . ولم تلبث حركته هذه أن قويت ، وصار لها خطرها حين أسس المؤسسة التعليمية المشهورة « عليكرة » التي تخرج فيها قادة الرأي والفكر الذين كانت البلاد في حاجة اليهم .

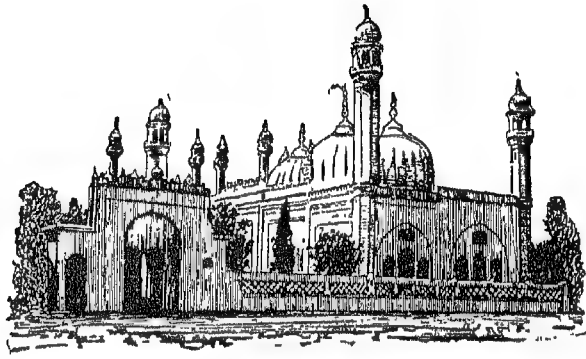
وفي عام ١٩٠٦ تكون حزب الرابطة الاسلامية ،

المناطق ، واستطاعت أن تنزل بمنطقة قرب كراتشي . وسرعان ما انتشرت الحضارة الاسلامية وثقافتها . وقد بقيت اللغة السندية الى اليوم زاخرة بالألفاظ العربية .

وحوالي عام ٧١٢ م — وحين بدأ القراصنة يتدخلون في تجارة العرب في البحر العربي — قام محمد بن القاسم ليعيد الى هذه الأرجاء سلامها وأمنها . ولما نجح القائد المسلم في مهمته ، اتخذ أتباعه من قرية صغيرة قريبة من مصب نهر السند ، كانت مخصصة للصيد ، مقراً لهم . ويقال ان هذه القرية كانت محل « بامبور » التي تبعد اليوم عن كراتشي نحو ٤٠ ميلاً . وبدأت الجماعة الصغيرة تتاجر مع أهالي وادي السند ، ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت كل هذه المنطقة خاضعة لنفوذ الاسلام .

وفي القرن العاشر للميلاد قدم محمود الغزنوي — وهو ملك أفغانى مسلم — عن طريق ممر خيبر . وعندئذ ولدت الدولة الاسلامية ، واتخذت لاهور مقراً لها ، وهي أول عاصمة اسلامية بالهند . ومن هناك تفرعت الدولة الاسلامية الى أجزاء أخرى في شبه القارة . وقبل أن ينقضى القرن العاشر استطاع محمود الغزنوي أن يمد من رقعة الفتح الاسلامي حتى وصل الى البنغال .

وفي القرن الثاني عشر غزت البنغال الشرقية أسرة هندوكية متعصبة ، نزلت عليها من الجنوب ، وطبقت نظام الطبقات الهندوكي في صرامة وشدة وتعصب . فلما جاء المسلمون ، وغلبوا هذه الأسرة الحاكمة ، وبشروا بدينهم ... استهوت دعوتهم المغلوبين على أمرهم ، ورأوا في الدين الجديد مساواة لم يروها في الديانة الهندوكية . فأقبلوا على اعتناقه ، وتحولوا من الهندوكية الى الاسلام . وكان للدعاة والتجار المسلمين الذين انحدروا الى



مسجد الكلية الإسلامية بمدينة پشاور

« اننى لا أنصح المسلمين قط بقبول أى نظام لا يعترف لهم بكيانهم السياسى الخاص المتميز ». وقد كافح المرحوم محمد على جناح القائد الأعظم فى بلوغ هذا الهدف ، وكان يشيد دائما بذكر اقبال قائلا : « انه كان دليلى ورفيقى » .

وفى عام ١٩٤٠ أعلن حزب الرابطة الإسلامية لعموم الهند عن اتحاده فكرة انشاء الدولة الإسلامية التى دعا اليها اقبال ، هدفا سياسيا عليه أن يحققه وينفذه . ولم تلبث أن تحولت الفكرة الى حقيقة يوم ١٤ أغسطس عام ١٩٤٠ على يد القائد محمد على جناح ، وأعلن القائد الكبير فى هذه المناسبة التاريخية « ان تأسيس باكستان — وهو ما جاهدنا لأجله طيلة السنوات العشر الأخيرة — أصبح اليوم ، بفضل الله ، حقيقة قائمة . فقد كان المقصود من تحقيق هذه الفكرة هو وجوب تأسيس دولة نستطيع فيها أن نعيش ، وأن نكيف عيانتنا وفقا لمواهبنا وثقافتنا ، وحيث يمكن لتعاليم الاسلام عن العدالة الاجتماعية أن تجد لها مكانا » .

وهكذا قامت باكستان على أساس من العقيدة والحضارة الإسلامية والمثل العليا ، ولم تقم أبدا على أساس الجنس . وينص الدستور على أن باكستان جمهورية إسلامية تعيش بحسب تعاليم

بعد انقضاء ثمانى سنوات على وفاة السيد أحمد خان ، فكان قيامه هو البداية الحقيقية للحركة القومية التى سار فيها مسلمو الهند ، ونفخ السيد أحمد خان فى جذوتها من قبل . وكان أول ما نادى الحزب به كفالة حقوق المسلمين ، وحماية حقوقهم السياسية والادارية

وأول من اعتنق فكرة وجوب انفصال المسلمين عن غيرهم ، وتكوينهم دولة اسلامية خاصة بهم ، هو « محمد اقبال » شاعر النهضة الإسلامية . وقد ولد اقبال عام ١٨٧٣ . وتوفى عام ١٩٣٨ ، وقرأ القرآن منذ أن كان صبيا ، وتشربت روحه بفيضه السننى . وقد أنكر التعصب ، وقال ان العصبية أكبر أعداء الاسلام ، وهى من اختراع ابليس . وقد تتلمذ على يد المستشرق الانجليزى الكبير « السير توماس أرنولد » ، كما رحل الى أوروبا ، وحصل على الدكتوراه فى الفلسفة من سويسرا ، واشتغل بالسياسة ، وكان رئيسا للعصبة الإسلامية لجميع الهند ، والعضو العامل فى مؤتمر الله أباد التاريخى الذى نادى فيه بضرورة تكوين دولة اسلامية فى الهند هى « باكستان » .

ومما قاله اقبال فى مؤتمر الله أباد عام ١٩٣٠ : « أود أن أرى البنجاب وولاية الحدود الشمالية والغربية والسند وبلوختستان دولة واحدة مستقلة » . وهذه البلاد هى الآن قوام القسم الغربى من باكستان حيث تستقر الحكومة المركزية . وقال فى صدد شرح هذا رأى : « من الواضح أنه ليس من حل يؤدى الى اقامة نظام دستورى رصين فى الهند — حيث يتنوع المناخ ، وتختلف العناصر واللغات ونظم الحياة — الا فى اقامة حكومات مستقلة تجمع سكانها وحدة اللغة والعنصر والتاريخ والدين وتشابه المصالح والمنافع الاقتصادية » . وقال فى الخطاب نفسه أيضا :

نسمة ، أو ما يساوي خمس مجموع سكان
الدومنيون الهندي البريطاني أو ربعهم ، ونحن
لهذا نرغب في أن تتاح للمسلمين الفرصة لتمثيل
أنفسهم في أية صورة من الصور — شاملة أو
محدودة — لا سيما وهم يطلبون الاعتراف بهم
كعامل ذي أثر في الدولة .

وقد كان لهذا الاجتماع أثره في تأليف حزب
الرابطة الإسلامية في العام نفسه ، وقد انضم أغاخاني
إلى الحزب الجديد ، وكان رئيسه الدائم من عام
١٩٠٨ إلى عام ١٩١٤ .

وكانت لأغا خان صلات قوية بالسيد أحمد
خان . وبعد وفاته بذل أغا خان جهودا مشكورة
في تأسيس جامعة « عليكرة » ، وجمع لها مبالغ
كبيرة أربت على ثلاثة ملايين روبية . وفي عام ١٩٢٨
رأس أغا خان مؤتمر مسلمي عموم الهند ، كما
رأس في عامي ١٩٣٠ و ١٩٣٢ الوفد الإسلامي
لمؤتمر المائدة المستديرة بلندن .

ويتبع أغا خان عدد كبير من الناس ، في باكستان
والهند وآسيا الصغرى ، يبلغ عددهم نحو سبعين
مليوناً ، ويكادون يعبدونه ... حتى ليوصف بأنه
الأمير الوحيد في العالم الذي له رعية وليست له
أرض يحكمها . ويهدى إليه أتباعه سنوياً ما يوازي
وزنه ذهباً . ولا تسيطر فكرة الصداق على عقود
الزواج عند أتباع أغا خان ، وإنما تنهم هذه العقود
على أساس المكانة الاجتماعية التي لأهل العروس ،
وهي في العادة تأتي بالأثاث اللازم للمنزل .

ومن الذين قاموا بدور كبير في إنشاء دولة
باكستان السيد علي إمام الذي رأس عام ١٩٠٨
الدورة السنوية الثالثة لحزب الرابطة لعموم مسلمي
الهند ، ثم عين رئيساً للمجلس التنفيذي لدى نظام
حيدر آباد ، والسيد عبد الرحيم أحد أعضاء الوفد
إلى سبلا ، وقد رأس الدورة السنوية لحزب

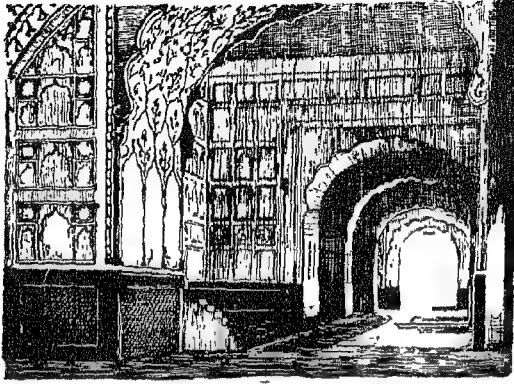
الدين وعلى هديه ، وفي الميدان الخارجي تعمل في
ضوء صلتها بالدول الإسلامية ، وهي لهذا تناصر
القضايا الإسلامية في المحافل الدولية .

وساهم السيد جمالي الدين الأفغاني في الدعوة
إلى إنشاء باكستان ، وكان يحلم بيقظة المسلمين
من جديد ، وإحياء التراث المجيد الذي خلفه لهم
أجدادهم . وكانت أفكاره هي الأفكار نفسها التي
اعتنقها بعده الشاعر الفيلسوف محمد اقبال .

وكذلك نظم الشاعر « لطاف حسين حالي »
مجموعة من الأشعار يستحث فيها المسلمين ،
ويهدف فيها إلى رفع حالهم . وكان متشبعاً بأراء
السيد أحمد خان . وأسهم « شبلي نعماني » في
الدعوة إلى إنشاء باكستان حين كان أستاذاً في
جامعة « عليكرة » ، وأنشأ في « لكانا » ندوة
العلماء قصد التقريب بين الحضارة الغربية
والدراسات الشرقية . أما نذير أحمد فقد استخدم
القصة والأدب في توضيح مواطن الفساد ، والدعوة
إلى الإصلاح والتقدم . أما « نواب وقار الملوك »
فقد تولى السيكريترية الفخرية لجامعة عليكرة ،
وهو الذي افتتح أول دورة لحزب الرابطة الإسلامية
التي انعقدت في مدينة « دكا » عام ١٩٠٦ م .

أما أغا خان فقد كان منذ أوائل القرن الحالي
زعيماً من زعماء الحركة الإسلامية ، وقد تولى
رئاسة الوفد التاريخي الذي ضم ممثلين عن كل
المسلمين في ربوع الهند ، وذهب إلى سبلا عام
١٩٠٦ ليقدم إلى نائب الملك اللورد « منتو »
المرضاة التي ضمنوها مطالب المسلمين في الاحتفاظ
بدوائر انتخابية خاصة بهم وكفالة حقوقهم ، وكانت
هذه المرضة إرهاباً بإنشاء دولة جديدة تضم
المسلمين في الهند .

وقد جاء في هذه المرضة : « يبلغ عدد المسلمين
في الهند ، بحسب احصاء ١٩٠١ ، أكثر من ٦٣ مليون



الفناء الداخلى لمسجد شامى بمدينة لاهور

فلسطين . ولكنها لم تلبث أن تخلت عن سياستها التى رسمها لها مؤسسها محمد على جناح ، واندفعت مع تيار الأحلاف . وانا اليوم لتعود الى الروح التى نشأت عليها مستهدية بنور الاسلام ، وروابطها التاريخية المجيدة بالعالم العربى .

الاسلام فى الهند

تضم الهند ما يقرب من ٤٣ مليون مسلم من مجموع عدد سكانها البالغ ٣٥٧ مليون نسمة . ويقول سير توماس آرنولد : « ان عددهم يربو على ٦٦ مليوناً » . والمسلمون اليوم فى الهند بعضهم ورث الاسلام عن أسلافه ، وبعضهم وفد من البلاد العربية المجاورة ، واستقر به المقام فى الهند . ومنهم من اعتنق الاسلام لأنه وجده الدين الحق ، والشرعة المثلى ... ولكن السواد الأعظم من هؤلاء المسلمين هم سكان الهند الأصليون الذين ورثوا الدين الاسلامى جيلا بعد جيل .

وقد انتشر الاسلام فى الهند ، لأن الظروف هياأت له هذا الانتشار ... فمالت اليه النفوس ، وهفت اليه القلوب ، فرارا مما كانت ترسف فيه من ظلم وطفيان ، ورغبة فى التمتع بما كفله الاسلام من حرية وعدل ومساواة .

الرابطة الاسلامية التى انعقدت عام ١٩٢٥ . وسيد أمير على مؤلف كتاب « روح الاسلام » ، ومؤسس الجمعية المحمدية القومية ، وقد نظم فرع حزب الرابطة فى لندن . ونواب سليم الله كان له دور محمود فى تأليف حزب الرابطة الاسلامية ، وقد استطاع مع جماعة من أنصاره اخراج الفكرة الى حيز الوجود .

والشيخ عبد القادر من ألمع الشخصيات الاسلامية فى البنجاب ، وقد عمل على توحيد كلمة المسلمين ، وكان يحرر صحيفة « المخزن » باللغة الأوردية ، وعين بعد ذلك وزيرا فى حكومة البنجاب ، ومثل الهند فى اجتماعات عصبة الأمم .

وغير هؤلاء كثيرون ممن قاموا بنصيب مشكور فى سبيل تأسيس باكستان ، حتى تحققت النبوة وأصبح الحلم حقيقة عام ١٩٤٧ .

وعندما قامت هذه الدولة الاسلامية الكبرى نهض القائد الأعظم محمد على جناح ليقول فى محفل من المحافل : « ان شعب باكستان لا يريد شيئا ليس له حق فيه ، ولا يتوق الا الى توفير حسن النية ، وتعزيز أواصر الصداقة مع كل الأمم الحرة فى العالم . ونحن فى باكستان قد عقدنا العزم ، بعد أن حصلنا على حريتنا التى حرمتنا منها طويلا ، على أن نبذل أقصى ما فى استطاعتنا لا لكى نقهر لنا دولة قوية سعيدة وحسب ، بل لكى نسهم بكل ما فىنا من قوة فى اقرار السلام العالمى واشاعة الرفاهية » .

وقد اتجهت باكستان — قبل أن تعتنق سياسة الأحلاف العربية — اتجاها اسلاميا عربيا حمده لها العرب والمسلمون . ففى عام ١٩٤٨ ، ١٩٤٩ كان وزير خارجيتها السيد ظفر الله خان أكثر الخطباء فى هيئة الأمم تحمسا لقضية العرب فى مشكلة

خرج العرب لفتح فارس على رأس حملات من البحرين وعمان لتأمين جانب الاسلام ، ورد غائلة المعتدين . وتوغلت جيوش المسلمين حتى سواحل الهند ، على مقربة من ميناء « كراتشى » الحالى وبمباى . ولكن الفاروق عمر نهى عامله بالبحرين ، الحكيم بن أبى العاصى ، عن المضى فى هذه الحملة ... اذ كان يخاف البحر على جند المسلمين ، وكان يعتقد أن ركوب متن السفن فى البحر أشبه بحمل الدود على العود : من نجا منهم شرق ، ومن سقط منهم غرق .

ولكن الحكيم بن أبى العاصى أوغل فى غزوه ، وبعث أخاه المغيرة الى ديبيل عند مصب السند ، وقصد هو الى بروج . ولما تولى عثمان بن عفان الخلافة خشى أن تصيب الاسلام نكسة من القبائل المتاخمة للبلاد العربية ، فأمر عامله فى العراق — وكان يسمى عبد الله بن عامر — أن يوجه بعض حملاته الى ثغور الهند ، فوجه اليها حكيم بن جبة العبدى الذى حدث الخليفة عن الهند حديثا لم ترتج اليه نفسه ، فصرف المسلمين عن غزوها فترة من الزمن . ولكنهم ما لبثوا أن توغلوا فيها ، ووصلوا الى مدينة « كابل » عاصمة الأفغانستان الآن . وانتشر المسلمون على شواطئ السند .

وفى أيام معاوية بن أبى سفيان جاء المهلب بن أبى صفرة ، ولكن الأراضى الجبلية والمناطق الوعرة ، صرفته عن أن يستمر فى حملاته فى الشمال ، فحصر جهوده بين كابل ومكران فى الجنوب .

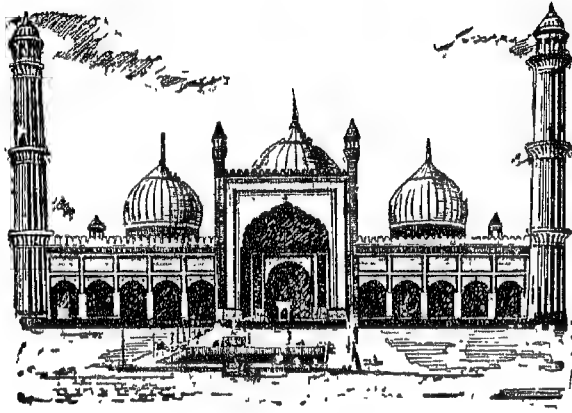
وأرسل الحجاج الثقفى — حين ولى أمور العراق — سعيد بن أسلم الى مكران ، ولكن بعض الخارجين على حكم بنى أمية تربصوا به ، وقتلوه . فلما بلغ الحجاج هذا الخبر التمس

ولقد ارتبطت الهند بالعالم العربى منذ أبعد العصور ... فالملك سليمان كان يستورد الذهب والفضة والعاج والطوايس من بلاد الهند ، وأنشأ البطالسة موانئ على البحر الأحمر لتتسيط التجارة الهندية ، كما عاشت فى الاسكندرية جالية هندية كبيرة فى أوائل القرن الثالث للميلاد . وكانت السفن العربية تبحر من سواحل البحر الأحمر أو من السواحل الجنوبية ، فتتجه الى مصب نهر السند أو ساحل مالابار ، وتساعدوا الرياح فى مجراها الى « كولم » والموانئ الأخرى . كما كانت السفن المبحرة من الخليج الفارسى تتخذ الطريق نفسه ، وبمساعدة الرياح تصل حتى جزائر الملايو وساحل الصين .

وفى القرن الثامن للميلاد أخذ نفوذ المسلمين يزداد . وفى خلال المائة التالية ، استقروا بساحل مالابار استقرارا تاما ، ورحبت بهم الحكومة الوطنية كتجار ، وسهلت لهم السبل للاستيطان والتملك ، وأطلقت لهم الحرية الدينية .

وفى أواخر القرن الثامن للميلاد ، انتشر المسلمون على ساحل الهند الغربى كله ، وأحدثوا ضجة بين أبناء البلاد من الهندوسيين بمعتقداتهم وعباداتهم ، وتحمسهم لنشر دينهم . وقد كانت الهند الجنوبية وقتئذ مسرحا للمصادمات الدينية بين الهندوسية والبوذية ، كما كان هذا العصر من الوجهة السياسية كذلك ... فكان الناس بطبيعة الحال مضطربين ومستعدين لقبول أفكار جديدة . فظهر الاسلام بتعاليمه السمحة التى لا تعرف التعقيد ولا الالتواء ، وعباداته المرنة الخفيفة ، فصادف فى النفوس هوى ، ولاقى فى القلوب استجابة وصدى .

وفى عهد عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ،



المسجد الجامع بمدينة دلهي بالهند

وعلى حين غرة هجم العدو على محمد بن القاسم ، واشترك في القتال داهر ملك السند — وكان يمتطى فيلاً ضخماً — فاشتد بالفيل العطش ، فثار وهاج واندفع نحو النهر ، فترجل الملك ، وأخذ يبارز على قدميه حتى أصابت منه سيوف العرب مقتلاً .

ووصل المسلمون بعد ذلك الى برهمن آباد ، وقد عاملوا رؤساء الهنادكة وغيرهم في هذه المدينة معاملة حسنة ضربت بها الأمثال : فأطلقوا لهم حرية العبادة مقابل أن يدفعوا جزية للمسلمين .

وقد دل أحد البراهمة محمداً بن القاسم علي مكان خفي في أحد المعابد ، مليء بالكنوز والأموال ... ففرح به ابن القاسم فرحاً عظيماً ، وكان أول ما عمله أن رد الى بيت المال ضعيف نفقات الحملة السندية حتى لا يضار المسلمون في أرزاقهم .

وعول محمد بن القاسم بعد ذلك على فتح مملكة « قنوج » ، أعظم إمارات الهند ، وكانت تمتد من السند الى بنغال . وكتب الي الحجاج يطلب منه الموافقة علي ذلك ، فأذن له .

من الوليد بن عبد الملك أن يرسل حملة الى السند لقطع دابر الخارجين على حكم بني أمية في هذه المناطق ولكن الخليفة آثر التمهيل والروية . ثم حدث أن أغار بعض القراصنة من الهنود على سفينة قادمة من جزيرة الياقوت (سيلان) ، وعليها بنات وأرامل طائفة من التجار المسلمين ، وجباة من المسلمين يحملون هدية من ملك هذه الجزيرة الى الخليفة . وتأخر داهر ملك السند في انقاذ المسلمين ، بحجة أنه لا يملك السيطرة على القراصنة ، فأوغر هذا صدر الخليفة ، فأمر الحجاج بأن ينفذ حملة بقيادة عبيد الله بن نهبان الى ديبيل ، ولكنها صادفت مقاومة شديدة . فعول الحجاج على تجهيز حملة كبيرة اختار لها ابن أخيه محمداً بن القاسم — وكان فتى لم يبلغ العشرين ، في ريعان العمر وأوج الشباب — فزحف المسلمون من مكران صوب ديبيل في جيش قوامه اثنا عشر ألف جندي وثلاثة آلاف بعير .

وانضم الى جيش المسلمين عند ديبيل عدد كبير من الخارجين على الحكومة البرهمية التي كانت تسوهم سوء العذاب ، وتنذهم لبذ النواة ، وتحرمهم من امتطاء الدواب أو ارتداء غالى الثياب ، ولا تسيح لهم الا بمزاولة أدنى الحرف وأجقرها ... فساعدوا المسلمين على معرفة المسالك والدروب في السند . واستخدم محمد ابن القاسم منجنيقه الكبير المعروف باسم « العروس » ، ووقف خلفه خمسمائة من الرجال الأشداء ، وتحطم في هذه المعركة معبد الهنادكة الأكبر . وبني ابن القاسم مسجداً في « ديبيل » ، وعمر المسلمون أحياءها ، ثم واصلوا زحفهم حتى بلغوا مدينة « ويناركوت » ، فهش أهلها للمدين الجديدة ، وأجذبوا يتعلمون فرائضه وتعاليمه .

عبد الله المهدي . ثم توالى عليها دعاة الاسماعيلية فنشروا المذهب فيها . وفي أواخر القرن الرابع للهجرة ، أقبل الغزافيون — وهم مسلمون ، وإن لم يكونوا عربا — على الهندستان فاتحين ، فاستولوا عليها .

ويروى المسعودي مشاهداته عام ٩١٦ للميلاد ، فيقول : « ان عشرة آلاف مسلم من سيراف وعمان والبصرة وبغداد ، استقروا في مدينة سيمور بالقرب من بمباي ، واستوطنوها حتى أصبحوا يعرفون فيها بالبياصرة » . ولا شك أن قيام الدولة العباسية في بغداد كان له أثر كبير في ترويج التجارة ، وتنشيط الصلات العلمية والثقافية بين العرب والهند .

وقد وصف الجاحظ ، فيلسوف البصرة ، هذه العلاقات فقال : « لقد نبغ أهل الهند في علوم الفلك والطب ، واخترعوا الشطرنج والأرقام الحسابية . وهم لا يكاد يضاهيهم أحد في فن المعمار والنقش » وفي صناعة السيوف المهنددة وفي علوم الحساب » .

وكان لتشجيع الخلفاء العباسيين من أمثال المنصور وهارون الرشيد ، وتعضيد الوزراء البرامكة من أمثال خالد ويحيى وجعفر ، أثره في دعم العلاقات الثقافية بين الهند وعاصمة الخلافة العباسية ... فنزع نفر من علماء الهند ورجال الحكمة والطب الى بغداد . نذكر من بينهم باخار وراجا وساهر وزنكال وأريجال وأنكو وغيرهم . وقد أثبت حكماء الهند الذين ذهبوا الى بغداد قدرتهم على التطبيق حين عالج « منكا » الخليفة هارون الرشيد وشفاه من علته ، وعالج صالح بن بهلة ابن عم الخليفة فأبرأه من مرضه .

ومن آيات مهارة حكماء الهند وأطبائهم ، أن أصبح ابن دهن — وهو واحد منهم — مديرا للمستوصف البرمكي في بغداد ، كذلك ترجم في

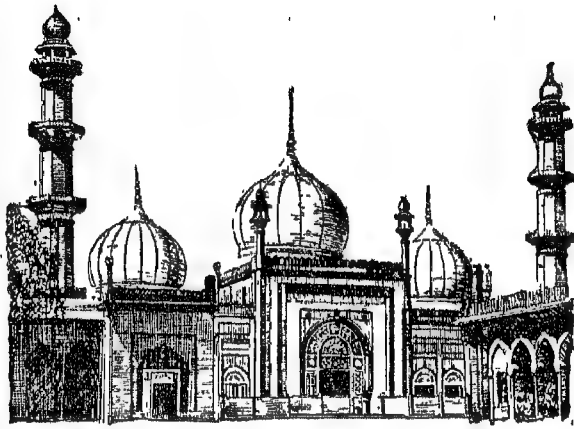
واستهل ابن القاسم خطته بإيقاد بعثة من وجاهه الى ملك قنوج يدعوه الى الاسلام أو الجزية ، فرفض الملك ذلك رفضا باتا ... عندئذ لم يجد محمد بن القاسم مناصا من المضي في خطته ، فجهز جيشا قوامه عشرة آلاف من الفرسان . وفجأة وافته الأنباء ب وفاة الحجاج والوليد ، وتولية سليمان بن عبد الملك الخلافة . فاستدعى ابن القاسم .

ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ، أخذ يدعو للاسلام في رفق وهوادة ، وأرسل الرسل الى الهند من أجل ذلك ، واستعان بعمر بن مسلم الباهلي في هذه المهمة ... حتى أقبل الهنود على دين الله أفواجا ، وأسلم ولد داهر نفسه . وظل المسلمون يرسلون بعثاتهم وحملاتهم الى هذه الأراضي طيلة العهد الأموي .

وفي بداية العصر العباسي بعث أبو مسلم الخراساني الى السند عبد الرحمن بن أبي مسلم العبدى ، فموسى بن كعب التميمي ، فجدد بناء المنصورة على شاطئ السند ، وأنشأ بها مسجدا جديدا ... كما أرسل السفاح عمر بن حفص فعمل على نشر التشيع بالسند .

أما الخليفة المهدي ، فقد عنى عناية كبيرة بنشر الاسلام في الهند . ولكن الخلافات التي دبت بين القبائل المهاجرة حدت من هذا الانتشار . ثم جاء الليث بن ظريف بعد وفاة المهدي ، فقطع شوطا كبيرا في تهدئة الخواطر ، ونشر السكينة . وإن ظلت الأطماع تحرض على الفرقة ، فكانت بعض القبائل تنادى بتقسيم البلاد بين قريش وربيعة وقيس ... وقد استعان هارون الرشيد ببعض أطباء الهند في علاجه .

ووفد على السند في بداية القرن الرابع للهجرة دعاة للفاطميين ، وعلى رأسهم الهيثم رسول



المسجد الجامع ببغدادية خليفة بالهند

عبد الله السرقسطي ، وأثبت صحة ما ذهب إليه
براهما جوبتا .

وقد كتب كثيرون من العرب من أمثال أبي
العباس والمقدسي والشهرستاني وغيرهم عن ديانة
الهندوس ومعتقداتهم وعاداتهم . كما نقل علماء
العرب الذين وفدوا إلى الهند ، وغلماء الهند الذين
جاءوا إلى بغداد ، كثيرا من معارف الهند وعلومهم
إلى عاصمة الخلافة الإسلامية ، وسرعان ما اختلطت
هذه العلوم بالبحوث الإسلامية .

وبعد أن دالت دولة العباسيين ، وسقطت بغداد
في أيدي المغيرين عام ١٢٥٨ م ، رحل أحد حلفاء
الخليقة المنتصر إلى الهند عام ١٣٣١ م ، فمنحه الملك
غياث الدين طغلق قسرا يقيم فيه ، آتيته من
الذهب والفضة ، وحمامه من الذهب الخالص .
وأعطاه مبلغا قدره ٤٠٠ ألف تافك ، كما أقطع
مدينة سيرى — إحدى مدن ولاية دلهي الأربع —
وعينه حاكما من قبله على الولاية كلها .

وفي تلك السنة قدم ابن بطوطة إلى الهند فمنحه
طغلق ٦٠٠٠ تافك ، ووهبه الحكم في خمس قرى ،
ومنحه جعلاً سنوياً قدره ١٢٠٠٠ تافك ، كما عينه
قاضياً على دلهي . ثم اختاره بعد ذلك مبعوثاً له
إلى الصين فذهب إلى الميناء تحرسه جماعة قوامها

هذا العهد عدد كبير من أمهات الكتب في شتى
العلوم والفنون ، من اللغة السنسكريتية إلى اللغة
العربية ، في دار الترجمة التي أنشأها المنصور .
ومنها : السندهند وأركند في الفلك ، وبوداسف
في القصص الخيالي الرائع ، وكتاب في أمراض
النساء والولادة وضعته سيدة هندية ، وكتابان
آخران من تأليف شانامد : أحدهما في الطب
البيطري ، والآخر في السموم ، وكتاب لباكسهر
في الموسيقى اسمه النفير . واشترك الهنود كذلك
في ترجمة عدد آخر من الكتب إلى اللغة العربية .
فعرّب منكا كتاباً في الجراحة ، وآخر في طرق العلاج
يحوى وصفات لأمراض مختلفة يبلغ غدها ٤٠٤ .

وكان من الشخصيات البارزة في بلاط خلفاء
بغداد « كانكي بانديت » وهو من أشهر المؤلفين .
وقد ترجمت مؤلفاته إلى اللغة العربية ، كما ترجمت
كذلك « البانشاناتترا » — وهي مجموعة من
القصص الرائعة التي تقوم على الحكم والأخلاق
— إلى اللغة العربية ، وعرفت بين قرائها في بلاد
العرب باسم « كليله ودمنة » ، وكانت الترجمة
العربية المصدر الذي ترجم منه الكتاب فيما بعد
إلى اللغات الأخرى . فترجم إلى الإغريقية واللاتينية
والعبرية والسريانية والإسبانية والفرنسية والتركية
والانجليزية والفارسية .

ويقول الدكتور « سوشين » أن كثيرا من المحافل
العربية عيّنت بنقل المؤلفات العلمية إلى اللغة
العربية ، وزادت عليها ، فعلقت على طريقة عرض
الموضوعات ، وأضافت لها الخواشي ، وفاضلت بين
مؤلف ومؤلف . ومن ذلك أن عبد الله بن أحمد
السرقسطي وضع كتاباً في السدهانة ، وعدد
الأخطاء التي وقع فيها « براهما جوبتا » فقام ابن
سعيد الأندلسي فوضع كتاباً آخر ، فند فيه رأى

حينئذ ولايتان أو امارتان للمسلمين : امارة في الجنوب ، وعاصمتها « المنصورة » ، و امارة في الشمال وعاصمتها « ملتان » .

وقد أتيح الاستقرار لهاتين الامارتين بما توفر لهما من خيرات البلاد ، ومن التجارة الواسعة التي كانت بين السند والشرق والغرب .

وقد قامت بعد ذلك الدولة الغزنوية ، وكانت دولة اسلامية . ويعد محمود بن سبكتكين من أشهر أبطال الاسلام وناشريه في الهند . وقد استطاع أن يهزم البراهمة هزيمة منكرة مع كثرة عددهم ، وغنم ما لا يحصى ولا يستقصى من كنوز الهند ، ففتح « قنوج » و « كشمير » . وقد تألب عليه ملوك البراهمة عام ١٠٢٤ م بعد أن فتح الملتان عام ١٠٠٥ ... فاستأنف فيهم صولته المعهودة ، ودخل « لاهور » ، وخلع سلطانها بعد أن وجد ترحيبا من أهلها ، وضم جميع البنجاب الى سلطنته . فكانت ملاذا للاسلام والمسلمين في الهند ، ثم هاجم « كاليجارا » و « كفالپور » ، فأدى له ملوكها الجزية .

وقال القلقشندي في « صبح الأعشى » انه فتح « بهاضية » عام ٣٩٦ للهجرة ، وسار الى « بيدبا » ملك الهند ، فهرب منه الى مدينته المعروفة « بكاليجار » ، فحاصره فيها حتى صالحه على مال . فأخذ المال وألبسه خلعتة ، واستغنى من شد وسطه بالمنطقة ، فلم يعنه من ذلك ، فشدها على كمره . وفي عام ١٠٣٥ للميلاد غزا ساحل « الكوجرات » وهدم صنم « سوحنا » الشهير . وبهذه الفتوحات كلها التي فتحت للاسلام أبواب الهند ، أطلق عليه الخليفة العباسي « القادر بالله » لقب سلطان ، وسماه « يمين الدولة ويمين الملة » . وقد كان همه من فتح الهند نشر كلمة التوحيد ، وقلع عبادة الأصنام ... وقد فاز — مع هذا الفوز المعنوي — بغنائم من

ألف فارس . ويقول « ابن بطوطة » : « ان ملوك الهندوس كانوا يتجنبون كل ما من شأنه أن ينفر العرب منهم ، لأن قسطا كبيرا من ثروتهم كان يتوقف على تجارتهم مع العرب » .

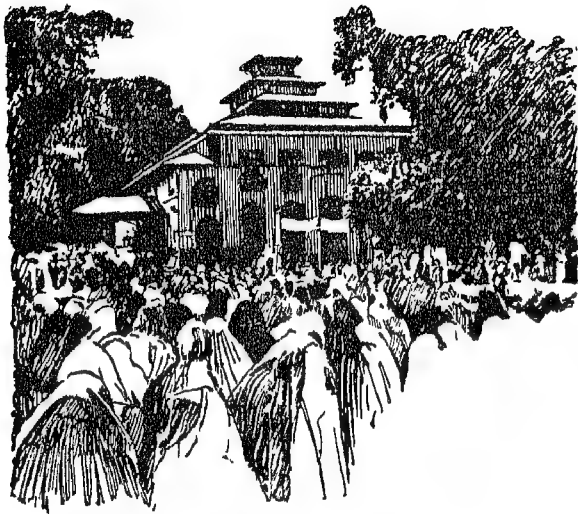
كما زار الرحالة المسعودي الهند مرتين : أولاها عام ٩١٤ م ، والثانية عام ٩١٦ م . ووصف أنهار الهند وجبالها وممالكها وحكامها .

وقد زار البيروني الهند في القرن الحادي عشر للميلاد ، وبقي هناك دهرا طويلا ألف فيه كتابه المعروف « مال الهند من مقولة » ، وهو أصدق مرجع لتاريخ الهند في العصر الوسيط وأوفاه . وقد كشف بهذا العمل الضخم لقراء اللغة العربية عن كنوز المعرفة الهندية في الرياضيات والفلك والفلسفة والدين . وقد أتقن البيروني اللغة السنسكريتية ونقل منها الى اللغة العربية كتبا كثيرة ، ثم نقح كثيرا من الكتب المترجمة أو المقتبسة واختصرها ، فقدم للعرب جماع المعارف الهندية حتى العصر الذي عاش فيه .

ويقول البيروني : ان دارات النجوم كما عرفت عن طريق قانون العالمين « الفزاري » و « يعقوب ابن طارق » ، قد نقلت عن رجل هندي كان قد جاء الى بغداد في إحدى البعثات السياسية التي أرسلتها حكومة السند الى الخليفة المنصور عام ١٥٤ للهجرة (٧٧١ م) .

وقد بقيت في الهند مدن تحمل الأسماء العربية ومنها مدينة « المحفوظة » التي بناها الحكم بن عوانة الكلبي ، كما بنى مدينة أخرى تسمى « المنصورة » .

وعند ما تفككت أوصال الدولة العباسية وسقطت بغداد في القرن الثالث عشر للميلاد ، انفصلت السند عن الدولة العباسية ، وقامت فيها



مسلة الجمعة في الجامع الكبير بمدينة (شريناجار) الحديثة
بالهند

الهند فاتحا ، وأعلن نفسه سلطانا عليها في الجامع
الأعظم ... فصارت ممالك الهند الاسلامية هي :
سلطنة دلهي ، ومملكة الدكن ، ومملكة البنغال ،
ومملكة جاوانور ، ومملكة ملفى ومملكة كوجرات .
وجاءت بعد ذلك الدولة المغولية في الهند التي
استمرت من ٩٣٢ هـ (١٥٢٦ م) الى ١٢٧٣ هـ
(١٨٥٧ م) . وكان مؤسسها يسمى « بابرشاه » ،
واسمه الكامل ظهير الدين محمد بابر .

وقام همايون ابن بابر بجهود عظيمة في توطيد
ملك المغول بالهند ... ولا سيما بعد أن فر من الهند
بعد أن هزمه شيرشاه سوري ، وخذله اخوته .
فنزح الى ايران ، ثم عاد مرة ثانية الى الهند منتصرا
ظافرا . وقد كثر في عهده التشيع لأنه سمح لكثيرين
من الشيعة من ايران والعراق بالعمل في حكومته ،
واستخدم كثيرين منهم مثل بيرمخان الشيعي في
بلاطه .

أما جلال الدين أكبر بن هاونون بن بابر
التيموري ، فقد ولي الحكم عام ٩٦٣ هـ (١٥٥٦ م)
الى ١٠١٤ هـ (١٦٠٥ م) . وقد سير أكبر دولته
على أصول ادارية جديدة ، ورفع استبداد الأمراء ،

الذهب والفضة والحجارة الكريمة لم تدخل في
حوزة أحد من قبل .

وبعد وفاة « محمود بن سبكتكين » ظهر
الأتراك السلجوقيون على خراسان ، وحاولوا
الانقضاض على ملك أبناء سبكتكين ، فانتقلوا من
غزنة الى لاهور في الهند . وما زالت أمورهم في
الانحطاط الى أن غلب على ملكهم الغوريون
الأفغان ... ففتح أبو المظفر محمد بن الحسين
الغوري مدينة لاهور عام ٥٤٧ هـ للهجرة — على
قول القلقشندي ، و ٥٧٩ للهجرة على قول
ابن الأثير — وتمكن من بلاد الهند ، وأقطع مملوكه
قطب الدين أيبك مدينة دلهي التي هي قاعدة الهند .
وبعث أيبك عساكره ، فملك من الهند أماكن لم
يدخلها مسلم قبله ، حتى قاربت جهة الصين .
وتوالت ملوك الاسلام وفتوحاتهم في الهند ، الى
أن كان محمد بن طغلق شاه ، في زمن الملك الناصر
محمد بن قلاوون ، فقوى سلطانه بالهند ، وكثرت
عساكره ، وفتح معظم الهند .

وكما أن سلاطين المماليك بمصر ملأوا مصر
والشام مساجد وعمارات شريفة ، كذلك كان
سلاطين المماليك بالهند فالسلطان « أيبك » الذي
خلف محمد الغوري ، بنى في دلهي الجامع المسمى
« جامع مسجد » والمنارة المسماة « قطب منار » ،
وبنى في أجمير الجامع المنسوب اليه .

وانتقلت سلطنة الهند من أيدي المماليك الى آل
« قيلجي » عام ١٢٧٠ م ، وهم أفغانيون ، وظلوا
يحكمونها حتى استولى عليها « بنو طغلق »
الأتراك عام ١٣٢١ م ، وأزالوا الدولة الأفغانية .
وفي عام ١٣٩٨ م زحف « تيمورلنك » بجيش
جرار على الهند ، فدخل « البنجاب » وصعد الى
دلهي ، فلاقاه سلطانها محمود الثالث في « بنيات » ،
فدارت الدائرة على محمود ، ودخل تيمورلنك

جموع غفيرة من المهاجرين المسلمين الى الساحل الغربى من بلاد الهند الجنوبية . وهكذا أصبح سكان هذه المنطقة خليطا من الدم العربى والدم الفارسى ، ولكنهم جميعا كانوا مسلمين .

وقد لاقى الهنود الذين دخلوا فى دين الاسلام عقب اسلامهم احتراما كبيرا وتقديرا اجتماعيا عظيما بعد ما كانوا ينتمون الى أقل طبقات المجتمع .

وهكذا كان حال الهنود الذين اعتنقوا الاسلام فى الشمال ، فقد زادهم الله قوة وعزة ، وازدادوا تكاثفا وتساندا ، واستطاعوا أن يكونوا مثالا يحتذى فى الاخلاص والتضحية والفداء .

وقد انتشرت المدارس الاسلامية فى الهند منذ العصور الاسلامية الأولى ، وقامت بدور كبير فى نشر الاسلام وتعاليمه . وربما كانت أقدم مدرسة هندية تلك التى بناها « ناصر الدين قباتشا » لمولانا قطب الدين الكاشانى فى « ملتان البنجاب » . وفيها تلقى العلامة الشيخ بهاء الدين زكريا الملقب (ولد عام ٥٧٨ للهجرة) دروسه . ولا يعرف على وجه التحديد تاريخ تأسيسها . ويروى الندوى أن أقدم مدرسة نظامية هى المدرسة البيهقية فى « هيشابور » التى أنشئت عام ٣٨٤ للهجرة .

ولعل أولى المدارس لم تكن أكثر من مسجد ذى جناح منته ليكون مكتبة أو مكانا يأوى اليه الطلاب . ولكن المعاهد التى أنشئت بعد ذلك كانت أوسع وأكثر تفصيلا . وقد أنشئت منذ نحو تسعين عاما مدرسة دار العلوم فى « ديوبند » ، وهى مجموعة من المباني تشتمل على مسجد ومكتبة وقاعات للمحاضرات وأماكن فسيحة لسكن الطلاب والأساتذة على السواء ، وكانت المدارس أنواعا مختلفة : فمنها المكاتب للتعليم الأولى ، ومنها المدارس العامة للتعليم الدينى والعلوم غير الدينية والأدب ، ومنها مدارس لتعليم القرآن وحسده ،

وأزال الفوضى من البلاد ، ولم يعامل « أكبر » الهنود معاملة الغالب للمغلوب ، انما عاملهم معاملة طيبة كريمة الى أن لاقى ربه .

وكانت كشمير تحت حكم الملوك المسلمين ، ولكن الفتن والمنازعات كانت سائدة بين جنبااتها . فأرسل أكبر حملة لضربها اليه ، فدخل ملكها فى حاشية أكبر ، وصارت ولاية من ولاياته عام ٩٩٥ هـ (١٥٨٦ م) . كما ضم « أكبر » السند الى ملكه ، وقولدهار التى أصبحت ولاية من ولايات الهند . وقدم راجوات الهند طاعتهم لأكبر ، وأصبحت مملكته الاسلامية تشمل الهند الشمالية والوسطى ، بما فيها كوجرات ومالوى والبنغال فى الشرق وافغانستان فى الغرب ... كما فتح « أكبر » مملكة خانديس وعاصمتها « برهانپور » ، واستولى على قلعتها الحصينة ... ثم غزا مملكة بيجابور فى الجنوب ، ولكنها صمدت أمامه . وبذلك أصبحت مملكة « أكبر » تشمل الهند كلها ، ما عدا الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة الذى كانت تحكمه ممالك « بيجابور » و « كولنكدة » الاسلاميتان و « فيجايالنكر » الهندوسية التى كانت تقع فى نهاية الجنوب .

وبذلك أصبحت ممالك الاسلام فى تلك الآونة تشمل : كابل وقولدهار والسند وملتان ولاهور وكشمير ودهلى « دلهى » وأكره واجبير والهابات وأوده وبهار وبنجال وأورية ومالوى وكفرات وخانديس وبرار وأحمد نكر .

أما الاسلام فى جنوب الهند فيرجع دخوله الى القرن الثامن للميلاد ، حين وفدت الى هذه المنطقة طائفة من اللاجئين من العراق . وكانت الصلة وثيقة فى هذه الآونة بين العرب وبلاد الفرس ، وكانت التجارة رائجة بينهما — كتجارة التوابل والعاج والأحجار الكريمة — مما أدى الى توالى تدفق

بارنى ، وقد أنشئت عام ٧٥٣ هـ (١٣٥٢ م) .
وفى عهد الامبراطور « اورانجيزب » أنشئت
المدرسة « الرحيمية » نسبة الى شاه عبد الرحيم ،
والد شاه ولى الله ، وأحد مؤلفى كتاب « فتاوى
المجبرى » الذى يسمى أيضا كتاب « الهندية »
عند فقهاء الحنفية .

وقد أنشأت بيى راجا ييجوم فى عام ٨٥٦ هـ
(١٤٥٢ م) مدرسة فى مدينة «جونبور » تعد من
أشهر دور العلم . وتمتاز « لكناو » بأنها مقر أشهر
مدرسة فى شبه القارة الهندية ، وهى « فرانجى هل »
التى كان يقوم بالتدريس فيها « ملا نظام الدين »
الذى كان من أشهر علماء عصره . وفى الدكن أنشأ
محمود جاوان البدارى ، وزير محمد شاه بهمانى ،
مدرسة من أشهر المدارس .

وقد ذكر الندوى فى كتابه فى معرض الحديث
عن مدارس دلهى قوله : « ومنها المدرسة المعزية
بمدينة دلهى (دلهى) القديمة عند الجامع الكبير ،
وكان بناؤها فى غاية الحصانة والارتفاع ، حتى ان
القرامطة لما أغاروا على دلهى أيام السلطنة « رضىة
بنت الطمش » دخلوها ظنا منهم أنها جامع كبير ،
لعظم شأنها وارتفاعها ، كما فى الطبقات الناصرية ،
ولم أفق على غير ذلك ، ولكنى أظن أن قطب الدين
أبيك أسسها وعزاها الى سيده السلطان شهاب الدين
الغورى الملقب بمعز الدين » .

كما قال الندوى فى معرض حديثه عن مدرسة
الدكن : « بناها عماد الدين محمود الكيلانى
الوزير بمدينة أحمد آباد بيدر ، وطولها شرقا
وغربا خمس وسبعون ذراعا ، وعرضها شمالا
وجنوبا خمس وخمسون ذراعا ، وأسس بجانبها
المنارتين العظيمتين ، وهما فى غاية الحسن
والارتفاع ، وأحاطهما بسور تلحقه دور ومقاصير
ومساكن لطلبة العلم (ويذكر المؤرخون أنه

ومنها دور لدراسة علم الحديث ، ومنها مدارس
لدراسة الفقه الاسلامى . وكان ملوك الهند يولون
طلاب هذه المدارس عناية كبيرة ، فكانوا يقدمون
لهم هبات واعانات سخية ، الى جانب وجبات
الطعام المعتادة .

ومن الطريف أن عادل شاه ملك بيجابور كان
لا يقدم الخبز وحده ، بل كان يقدم معه البريانى
للطلاب — وهو أرز باللحم — كما كان يقدم
الزعفر ، وهو أرز محلى بالزعفران . وفى العشاء
كان يقدم الكشرى ، وهو أرز مخلوط بالعدس
والزبد الكثير كما كان فيروز شاه كريما جدا ،
فكان يقدم الوجبات فى سخاء وكرم عظيمين . وكان
الطلاب أحرارا فى الانضمام الى أية حلقة يشاءون .

يقول أبو الحسن السدوى فى كتابه « هند
ستاناكى قادم اسلامى درسجاهن » ، الذى طبعته
دار المصنفين فى آزا مجار عام ١٩٣١ : « انه كان
فى مدينة دلهى ١٧ مدرسة ، وفى البنجاب
٤ مدارس ، وفى أجرا ١٥ مدرسة ، وفى أود ١٧
مدرسة ، وفى بيهار ٦ مدارس ، وفى البنغال ١٢
مدرسة ، وفى مدراس والدكن ١٢ مدرسة ، وفى
ملوة ٧ مدارس ، وفى ملتان ٣ مدارس ، وفى
كشمير ٥ مدارس ، وفى ججرات ٨ مدارس ، وفى
سورات ٤ مدارس ... عدا المدارس الموجودة فى
القرى والديساكر ، وذلك فى الفترة الاسلامية فى
الهند . ويرجع انشاء مدرسة الناصرية فى مدينة
دلهى الى القرن السابع للهجرة ، حيث أنشأتها
السلطنة رضىة ، تخليدا لذكرى أخيها نور الدين
محمود بن السلطان شمس الدين الطمش عام
٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) . »

كما أنشئت مدرسة الحوض الخاص عام ٦٩٢ هـ
(١٢٩٣ م) . وأما مدرسة فيروز شاه فكانت
احدى المدارس التى يعتز بإنشائها ضياء الدين

المدرسة أن تخرج لنا الى معترك الحياة رجالا يمسك أحدهم العلم باحدى يديه ، والحكمة باليد الأخرى ، وعلى رأسه تاج لا اله الا الله مجده رسول الله . وقد بينها بالتفصيل الأستاذ السيد عبد الحق حقى الأعظمى ، نائب أستاذ اللغة العربية في الكلية ، في كتاب نشره عنها عام ١٩١١ م ، كما يلي :

أولا : انشاء مدرسة جامعة للمسلمين خاصة يتعلمون فيها العلوم الغربية الحديثة بلا خوف ولا وجل من أن يلحقهم أدنى ضرر في دينهم .

ثانيا : أن يكون للجامعة دور لاقامة التلاميذ فيها ليلا ونهارا ، مستكملة شروط الصحة ، مستوفية لوازم السكنى الطبية والعيشة الهنيئة ، ويرسل الآباء اليها أبناءهم وهم مطمئنون عليهم من حيث الصحة والأدب والأخلاق والسيرة ، فيقضون فيها حياتهم الدراسية ، وهم بعيدون عن تلك المفاسد والملاهي التي تفسد الأخلاق والنفس والعقول .

ثالثا : أن يكون التعليم فيها مقصورا على ما يزيد وينمي أدمغة التلاميذ وأذهالهم ... بل يكون مع ذلك شاملا للأعمال البدنية التي تقوى العضلات ، وتكسب الجسم الصحة والنشاط والعادات الحسنة والخصال الجميلة والأخلاق الفاضلة والثروة العالية والتهذيب الصحيح والعقائد الحققة ، مع تعويد الشبان من الصغر على العناية بأداء الفرائض الدينية ، وعدم التهاون أو التساهل في سننها وآدابها

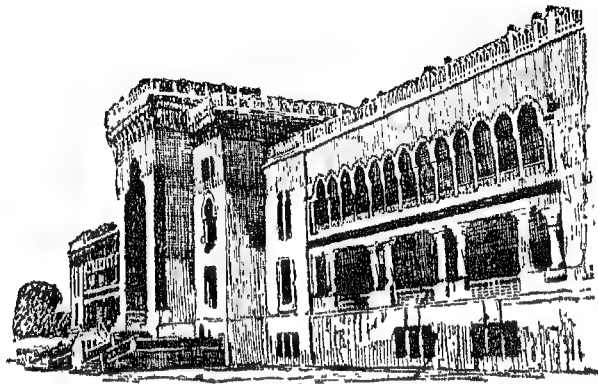
وقد قام السيد أحمد خان بدور كبير في ميدان الثقافة ، فألف كتاب « جلاء القلوب » الذي تحدث فيه عن نشأة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعن دعوته وتعليماته . وقد نهج فيه نهجا جديدا يبعد عن الروايات الضعيفة والعقائد الباطلة ، وكان

الحق بها مكتبة من أفخم وأغنى المكتبات في أيامه) ، وفي داخلها مسجد يصلون فيه ، ويعطون الطعام واللباس ، وكل ما يحتاجون اليه . ورتب العلماء للتدريس ، وجعل لهم الأرزاق السنوية مما وقفه عليها من العروض والعقار ، وكان ذلك عام ٨٧٤ هـ .

ولا تزال بالهند حتى اليوم جامعات ومعاهد اسلامية يدرس فيها الطلاب العلوم الاسلامية . ومن ذلك جامعة « عليكرة » التي أسسها المعفور له السيد أحمد خان عام ١٨٧٥ م ، وأخذت هذه المدرسة تنمو مع الزمن حتى أصبحت كلية من الطراز الأول . ولم يكند ينتقل مؤسسها الى رحمة الله عام ١٨٩٨ م حتى بذلت الجهود لرفعها الى مرتبة الجامعة . ففي شهر ديسمبر عام ١٩٢٢ م أصبحت جامعة مركزية رسمية ، وذلك على أثر صدور قانون جامعة عليكرة الاسلامية في هذا العام . وفي الجامعة أماكن لسكنى الطلاب ، ويعد رئيس جمهورية الاتحاد الهندي رئيسا لها ، وسيد رضا على نواب رانبور مديرا ، وحافظ محمد احمد سيد خان نواب شاتارى مساعدا للمدير ، والدكتور ذاكر حسين وكيل . وتهيىء هذه الجامعة جميع الفرص اللازمة للطلبة المتفوقين ، فهي تقدم دراسات مجانية في كثير من الفروع ، أهمها الفارسية والعربية والتاريخ الاسلامي والفلسفة الاسلامية .

ويصدر الطلبة بأنفسهم المجلة الجامعية الاسلامية التي تطبع في مطبعة الجامعة ، كما توجد صحيفة خاصة لأعضاء هيئة التدريس . والجريدة الجامعية الاسلامية هي الجريدة الرسمية الناطقة بلسان الجامعة .

أما أهداف الجامعة ومقاصدها ، فقد أجملها السيد أحمد على خان في قوله : « نريد من هذه



الجامعة العثمانية في حيدر اباد بالهند وهى تعنى بتدريس العلوم العربية الاسلامية والفارسية والاوردية

يستطيعوا ادخار رصيد من المال يكفى لانشاء المباني اللازمة لهذه الجامعة الجديدة . وكان على رأس هذه الحركة الدكتور ذاكر حسين الذى عين مديرا لها فترة من الزمن .

وفي مدينة « ديوبند » بالهند جامعة أخرى على مسافة مائة ميل الى الشمال الشرقى من دلهى تقريبا . وهى معهد اسلامى نموذجى يعرف باسم دار العلوم . وقد أسس هذا المعهد فى نهاية القرن الماضى مولانا محمد قاسم فانوترى ، وبدأ ككتاب صغير ، ثم نما مع الزمن الى أن أصبح فى صورته الحالية بفضل شيخ الهند مولانا محمود الحسن . ويدرس فى هذا المعهد : الحديث والتفسير والقانون الاسلامى ، والشريعة الاسلامية ، وأصول الفقه وعلم الكلام والفلسفة والأدب والفلك والطب والحساب والتاريخ وغيرها من العلوم المماثلة . ويعنى هذا المعهد بتدريس الحديث وتفسيره عناية زادت من شهرته ، ورفعت مكانته فى الشرق الاسلامى بأسره . ولا يقتصر المعهد على تعليم طلبته بالمجان ، بل هو يقدم الكتب والسكن والمأكل بلا مقابل . كذلك . وهو معهد دولى يفتد اليه الطلبة من السودان وأندونيسيا والملايو وباكستان وغيرها من الدول طلبا للعلم .

له أثر كبير فى مسلمى الهند . وله الى جانب ذلك كتاب « تحفة حسن » وكتاب « تسهيل فى الجبر الثقيل » لأبى ذر اليمنى . وغير ذلك من المؤلفات التى تشهد ببراعته ، وكانت سببا فى انتخابه عضوا فى الجمعية الملكية الاسلامية .

وفي حيدر اباد — الى جانب تلك الجامعة التى أسسها أحمد خان فى عليكرة — الجامعة العثمانية التى أسست عام ١٩١٨ م . وفى خطاب حاكم الهند الذى وجهه الى الجامعة عام ١٩٤٨ تبدو لنا مكانتها العلمية فهو يقول : « ان الجامعة العثمانية فريدة فى نوعها فى الهند بأثرها فى أن المواد العلمية والأدبية فيها تلقن بلغة هندية ، هى النتائج الفنى المشترك لاتصال المسلمين والهندوس ، وهى فريدة لأن أية جامعة أخرى فى الهند تستخدم اللغة الانجليزية . أما ما قمتم به أتم فعل لا يدعو الى فخركم فحسب ، بل الى فخر الهند كلها » .

والجامعة العثمانية ، كشيقيقتها جامعة عليكرة ، بها جناح لسكنى الطلبة . وقد تكلف بناء الجامعة ما يقرب من عشرين مليون روبية ، كما يعجزى العمل الآن فى اضافة ابنية جديدة اليها . ومن الأبنية التى تم انشاؤها : كلية الفنون ، وقاعة الطلبة التى قال عنها سائح أجنبى : « انها قطعة شعرية شرقية ساحرة نحتت من الحجر الأحمر » .

وأنشئت عام ١٩٢٠ الجامعة المليية بفضل شيخ الهند مولانا محمود الحسن ، الذى عاد من مالطة فى يونيو عام ١٩٢٠ ، وكان من أنصار انشاء جامعة جديدة لاتخضع لسيطرة الحكومة ، يقوم منهجها على أساس دينى وروح قومىة . وقد أنشئت الجامعة الجديدة فى مجموعة من الخيام بمدينة « عليكرة » ، ولم تلبث أن انتقلت الى ليودلهى ، وأقيمت لها المباني الضخمة . وكان المدرسون فيها يتنازلون عن مرتباتهم أو عن جزء منها حتى

الفارسية ، وكتابة حاشية تفسيرية عليه حتى يمكن هؤلاء الذين لا يعرفون العربية من تذوق حكمته وبلاغته . كما نظم مجموعة من الأشعار في الزهد والتصوف .

وقامت هناك جهود أخرى في الهند لتفسير القرآن الكريم ، ومن أهمها ما يلي :
علاء الدين أحمد بن أحمد الملهامى الهندي من قبيلة « خايتى » ببلاد قوجارات . أصله من القرشيين الذين استوطنوا الهند على عهد الحجاج ابن يوسف الثقفى ، توفى في جمادى الأولى عام ٨٣٥ هـ (يناير ١٤٣٢ م) . وله « تبصير الرحمن وتيسير المنان » المشهور بتفسير الرحمانى ، وطبع على هامش المصحف بدلهى عام ١٢٨٦ هـ ، و « ارادة الحقائق » طبع في بومباى دون تاريخ ، و « عوارف العطائف » ، و « الخصوص على معنى النصوص » .

ومحمد بن أحمد ميجانيو بن نصير ، ألف عام ٩٨١ هـ (١٥٧٣ م) التفسير المحمدى ، ويوجد بديوان الهند .

فيض الله بن زين العابدين الحسام البنائى (٩٠٢ هـ - ١٤٠٢ م) بأحمد آباد ، وكتب لمحمود شاه سلطان قوجارات ، وله « دستور الحفاظ في تفسير القرآن العظيم » ، وتوجد نسخة منه بمكتبة الاسكوريال بأسبانيا .

فيض الله أبو الفضل بن المبارك الهندي ، توفى عام ١١٠٤ هـ (١٥٩٤ م) بأكرة ، وله « موضع الابهام في تفسير القرآن » طبع لكناو على الحجر ١٣٠٦ هـ ، وهو تفسير خال من نقط الاعجام ، وهذا عجيب .

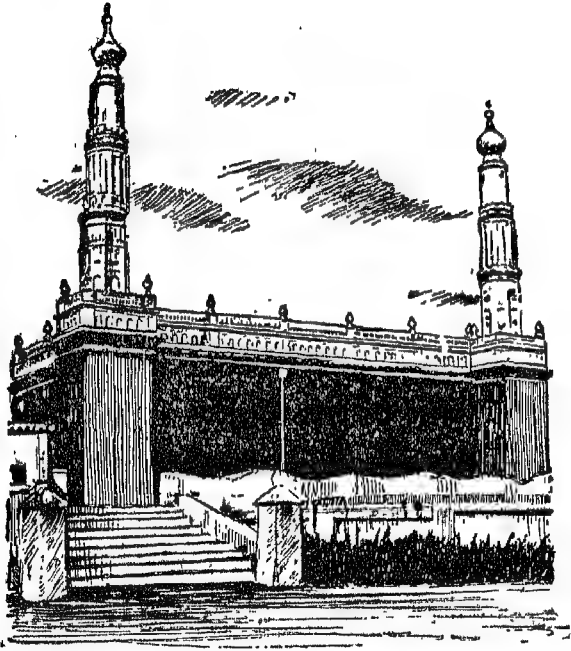
محمد على الكربلايى ، خدم السلطان عبد الله قطب شاه ، وله « الواضحة في تخرىج كل آية » ، وهو معجم للآيات القرآنية .

ومكتبة المعهد من أكبر المكتبات في الهند ، فهى تضم أكثر من عشرة آلاف كتاب باللغات العربية والفارسية والأوربية ، وتشمل مخطوطات نادرة ووثائق ذات قيمة تاريخية .

ولم يقتصر مولانا قاسم نانوتوى على انشاء هذا المعهد في ديوبند ، انما أنشأ كذلك المدرسة القاسمية في « مراد آباد » ، ولذلك يعد من أعلام الفكر الاسلامى في الهند . وبلغ من شهرته وعلو اسمه أن المتخرجين في مدرسة « ديوبند » ينتسبون اليه ، فيكتبون أسماءهم « محمد قاسمى » و « عبد الله قاسمى » ونحو ذلك . وحفيده هو مولانا محمد طيب قاسمى مدير دار العلوم في ديوبند الآن ، ومن أشهر علماء الهند وخطبائها المسلمين .

وقد نبغ من الهنود علماء كثيرون درسوا الاسلام ، وكتبوا في التفسير والشريعة والدين . ونذكر منهم شاه ولى الله الأهلوى الذى ولد عام ١١١٤ هـ (١٧٠٤ م) ، وتوفى عام ١١٧٦ هـ (١٧٦٣ م) . وقد أطلق عليه قطب الدين ، لأن الشيخ قطب الدين بختيار الأوشى - أحد الصوفيين الكبار - بشر أباه ، وطلب أن يسمى باسمه . ومن مؤلفاته كتاب « حجة الله البالغة » في الشريعة ، وكتاب « المسوى في شرح الموطأ » وطبع في الهند ومكة في مجلدين ، وكتاب « الخير الكثير » في الحكمة الاسلامية ، وطبع بالهند ، وكتاب « تأويل الاحاديث » وكتاب « التفهيمات الالهية » في التصوف ، وكتاب « شرح تراجم أبواب صحيح البخارى » وكتاب « القول الجميل في التصوف » ، وكتاب « البدور البازغة » في الحكمة الاسلامية .

وقد قام الى جانب هذه الجهود الجبارة في ميادين الشريعة والحديث ، بترجمة القرآن الى



المسجد المثلث بمدينة مدراس بالهند

مولانا غلام آزاد كذلك كتاب « ضوء الدراري في شرح صحيح البخاري » ، وكتاب « شفاء العليل » في المؤاخذات على الشاعر أبي الطيب المتنبي ، و « روضة الأولياء » في ترجمة مشاهير المتصوفة . وله سبعة دواوين من الشعر ، سميت باسم « سبعة سيارة » ، وجمعت مدائح الرسول منها في كتاب أطلق عليه « تسلية الفؤاد » ... فضلا عن ديوان يسمى « مرآة الجمال » يعد نموذجا للغزل الهندي .

وتقوم دائرة المعارف، العثمانية الآن بطبع أمهات الكتب العربية ، ونشر كتب علماء الهند .

وقد تأثر الهنود بالفن الاسلامي في بناء مساجدهم ومعاهدهم . ولا يزال كثير من الآثار الهندية حتى اليوم يحمل الطابع الاسلامي ... من ذلك منارة القطب التي تقف كالحارس الأمين الى جانب العاصمة الهندية ، ويبلغ ارتفاعها ٢٣٨ قدما ، وهي مصنوعة من الحجر الأحمر والرخام . وأول من أمر ببنائها السلطان قطب الدين أيبك ، في مستهل

وساهم العلماء الهنود ، الى جانب ذلك ، في ميادين الأدب والتاريخ . ومن أشهر أدباء الهند : عبد الله بن جمعة اللاهوري ، عام ١١٢٢ هـ (١٧١٠ م) ، وله كتاب « مبهج النفوس ومبليج العيوس » ، وأبو بكر بن محسن بعبود العلوي ، وله كتاب « المقامات الهندية » على غرار مقامات الحريري ، وتوفي عام ١١٢٨ هـ (١٧١٥ م) . وعبد الجليل البلغرامي ، توفي ١١٣٨ هـ (١٧٢٥ م) ، وله كتاب « الحكم العرفانية » . وغلام علي ابي لوح البلغرامي ، توفي عام ١٢٠٠ هـ (١٧١٩ م) ، وله ديوان من الشعر .

كما ألف علماء الهند كثيرا من دوائر المعارف ، مثل : « كنز السعادة » لطاسكمرى زادة ، و « جامع العلوم » الملقب بدستور العلماء لعبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نقاري ، وكشاف « اصطلاحات الفنون » لمحمد علاء بن علي قاضي التهانوي .

وفي ميدان التاريخ ألف الملك أحمد بن الملك بير محمد الفاروقي — من رجال القرن الحادي عشر للهجرة — كتاب « زاد الأحياء في مناقب الأصحاب » ، وهو كتاب في تراجم الشيعة . كما كتب حبيب الله القندهاري « أعجب التواريخ في تراجم علماء الهند » ، وميرزا محمد رستم خان الحارثي كتاب « مصباح الناجي في تراجم الصحابة » ، وكتاب « تراجم الحفاظ » ، وكتاب « تحفة المحبين بمناقب الخلفاء الراشدين » .

وألف مولانا غلام آزاد البلكرامي كتاب « سبعة المرجان في آثار هندستان » ، وهو يشتمل على أربعة أبواب ، بدأها بنقل كتب التفسير والحديث ونحوها . وفي آخر الكتاب تحدث عن البلاغة والابداع في الشعر والنثر ، ثم تحدث عن الطب عند العرب وعند أهل الهند . ومن مصنفات

برأيه وارشاداته في أثناء البناء . وإذا كانت القبة الكبيرة ، والسقوف المعقودة ، والممرات الداخلية ، توضح الطابع الاسلامي ... فان المقبرة العظيمة تحمل كثيرا من آثار الفن الهندي التقليدي القديم .

ويضم مسجد شاه حمدان ذو الطابقين ، والمسجد الجامع بسرينجار ، آثار الفن الاسلامي في الحفر على الخشب والبراعة في الاتقان .

وفي عام ١٦٠١ م ، بنى « أكبر » — بعد أن انتصر على « كاندشى » — باب طريق « بولاند دلاوازا » ، ونقش عليه « لقد قال يسوع بن مريم عليه السلام : الدنيا قنطرة تعبرها ، ولكن لا تبني فيها بيتا . ان من يأمل في ساعة ، فانه يأمل في الخلود ... الدنيا ساعة فلتقضها في الصلاة والعبادة ، لأن ما بعد هذه الساعة غامض ومجهول » . ويرتفع هذا الباب مائة وثلاثين قدما ، فهو أكبر باب ... لا في الهند وحدها ، ولكن في العالم بأسره .

ولا تزال هذه الصروح الاسلامية سامقة في سماء الهند حتى اليوم ، وتشرف عليها مصلحة الآثار في الهند ، وتقوم برعايتها وصيانتها .

ويحتفل المسلمون الهنود بالأعياد الاسلامية ، فهم في أجير مثلا يحتفلون بيلة المولد النبوى الشريف ، في مزار خواجا معين الدين ششتى ، منذ عهد طويل .

وقد أسندت الحكومة الهندية الى كثيرين من المسلمين أعمالا مهمة في السلك الدبلوماسي . ورأس مولانا أبو الكلام آزاد الوفد الهندي في الدورة السادسة لليونسكو ، وفي الجيش الهندي لفييف كبير من القواد المسلمين : منهم الميجر محمد يونس نائب السكرتير الحربي لرئيس الجمهورية الهندية ، والجنرال محمد أنيس خان .

القرن الثالث عشر ، تخليدا لذكرى انتصاره على شمال الهند الغربي ، ثم أكملت في عهد السلطان الطمش حوالي عام ١٣٢٠ م .

والمنارة مؤلفة من خمسة طوابق ، ولكل طابق منها شرفة أثرية تطل على الفضاء المحيط بها ، وترتكز على دعائم حجرية متينة مزخرفة بما يشبه أقراص الشهد .

ومنها أيضا : قباب المسجد الجامع في عليكرة ، ومئذنة المسجد الجامع في دلهي الذي بناه شاه جيهان وقبائه ، وماذن مقبرة جهانجير في شاهدارا من أعمال لاهور ، ومقبرة محمد عادل شاه الذي كان معاصرا لشاه جيهان امبراطور المغول ، وتعرف باسم « جول جومباز » ، وترجع أهمية هذه القبة الى أنها بنيت على عقود جانبية وأقواس متقاطعة ، ولم يكن رجال فن البناء في الهند يعرفون هذا الأسلوب في العمارة حتى هذا العصر .

على أن أعظم ما ينسب الى « شاه جيهان » ، مقبرة « تاج محل » التي دفنت فيها زوجته الملكة « ممتاز محل » ، والتي استمر بناؤها ٢٢ عاما ، واشترك في بنائها عشرة آلاف بناء وصانع ، وعشرون ألف عامل . وقد شيدت من الحجر الأحمر المرصع بالمرمر الأبيض . وفي وسط داخل المقصورة تابوتا الملك والملكة ، وحولهما شبكة مرمرية مرصعة بالأحجار الكريمة ، من زبرجد وعقيق وياقوت ولؤلؤ ومرجان ، تمثل الزهور البديعة بألوانها الطبيعية . وقد بلغت من الدقة درجة فائقة ، حتى ان الزهرة الواحدة مؤلفة من مائة حجر كريم تقريبا .

أما مقبرة « هومايون » التي أنشئت تحت إشراف « حاجي بيجوم » أرملته عام ١٥٦٤ م ، فهي نموذج للفن الاسلامي الرفيع . وكان الامبراطور أكبر ، الابن الأصغر للبيجوم ، يزودها

ويعيش المسلمون في سيلان في المنطقة الشرقية ،
الا أن خمسين منهم يعيشون في الحصن القديم
« كالي » ، ويعملون بالتجارة . وهم من أصل
عربي أو من البحارة التجار الذين وصلت سفنهم
الى « كالي » منذ ألف عام ، قادمة من مصر أو من
بلاد العرب أو فارس أو جاوة ، للمتاجرة بالذهب
والمجوهرات والعاج والقرفة وطير الطاووس .
وقد يكون بعضهم من أصل آخر لأنهم طوال
القامة تشبه وجوههم في حدتها الصقر ، ويتميزون
بعماماتهم وأرديتهم الطويلة . وهؤلاء يعرفون
محليا بالأفغاليين الذين نزحوا من الحدود الهندية .

الإسلام في جزائر مالديف

جزائر مالديف أرخبيل يقع في المحيط الهندي ،
جنوب غربى جزيرة سيلان ، وعاصمتها جزيرة
مالى ، وهى مقر الحكومة ، وتبعد عن سيلان نحو
٤١٧ ميلا . ويبلغ مجموع هذه الجزائر ١٢٧١
جزيرة ، منها ٢١٥ جزيرة آهلة بالسكان ، وبقيتها
خالية .

ويبلغ عدد سكانها ١٠٠٠٠٠ كلهم مسلمون
متمسكون بأحكام الدين الاسلامى . ولهم لغة
خاصة ، تسمى اللغة « الديفهي » تكتب من اليمين
الى اليسار . وأول سلطان معروف كان على دين
بوذا ، وظل بوذا أحد عشر عاما ، ثم أسلم على يد
الشيخ حافظ بن البركات البربرى المغربى ، عام
٥٤٨ هـ . وقد أسلم معه جميع أهالى الجزائر .
وقد أغار البرتغاليون على هذه الجزائر عام
٩٦١ هـ ، واستمر الحكم البرتغالى نحو ٢٠ سنة ،
وظل الشعب يكافح في سبيل الاستقلال حتى تم
جلاء البرتغاليين عنها عام ٩٨١ هـ . وأغار عليها أيضا

وفى القضاء يشغل كثيرون من الهنود المسلمين
مناصب بارزة فى المحكمة العليا وغيرها من محاكم
الهند . وفى ادارة البوليس والقانون والنظام
يحتل المسلمون مراكز مرموقة . وفى مختلف الولايات
ثلاثة وعشرون وزيرا مسلما ، كما أن هناك حاكمين
من حكام الولايات الهندية ، هما : سيد فضل
على ، وذاكر حسين . وأحدهما فى « أسام »
والآخر فى « بهار » .

وفى أكبر ولايات الهند — وهى ولاية
« أوتاربراديش » — يرأس لجنة الخدمات العامة
مسلم ... وهناك آلاف من المسلمين يخدمون فى
مختلف المصالح الحكومية ، ويشغلون شتى
الوظائف . والبرلمان الهندى يضم الآن اثنين
وخمسين عضوا مسلما . وفى الهند نحو ستة
وزراء ونواب وزراء مسلمين ، وهم يعملون فى
الحكومة المركزية . والجمعية التأسيسية التى
أعدت مشروع الدستور الهندى ، كان من بين
أعضائها خمسة وأربعون من المسلمين .

أما جزيرة سيلان فعدد المسلمين فيها بقدر
بحوالى ٤٣٣٠٠٠ نسمة من عدد سكانها
البالغين ٦٦٥٧٠٠٠ نسمة تقريبا . وبها
مساجد جميلة البناء . ومن أهمها مسجد كولومبو
الذى تحيطه الحدائق الغناء والمروج الحصراء ،
ومسجد بيرولا . وبها رابطتان اسلاميتان :
احدهما رابطة مسلمى سيلان ، والأخرى
الرابعة الملاوية .

وعند ما زار ابن بطوطة سيلان ، كان المسلمون
قد استقروا فى الجزيرة منذ القرن الثامن ، أى
قبل ستة قرون من مجئ ابن بطوطة ، وكان منهم
« المجلسى » الوزير ، وحاكم البحر ، وكان له
حرس من الأحباش .

العاشر والخامس عشر الى قدوم البرتغاليين ، كان العرب سادة التجارة مع الشرق دون منازع ، وكانوا قد أرسوا قواعدهم في شبه جزيرة الملايو .

وقد روى السير توماس أربولد رواية عجيبة عن دخول الاسلام في شبه الجزيرة ... وحاصلتها أن عالما عربيا يدعى الشيخ عبد الله ، حضر الى قويدة — وهي احدى ولايات شبه جزيرة الملايو في أقصى الشمال — وزار الراجة ، وسأل عن ديانة البلاد ، فأجابه الراجة : « ديني ودين رعيتي كلها هو الذي وصل الينا من الشعب القديم اننا جميعا نعبد الأصنام » فقال الشيخ « اذن ماسمعتهم جلالتم شيئا عن الاسلام والقرآن الذي أنزله الله على محمد ، ونسخ به كل الديانات الأخرى » . فقال الراجة : « اذن أرجو منك ، ان كان حقا ما تقول ، أن تعلمنا هذا الدين الجديد ، وتهدينا بنوره » .

ففرح الشيخ عبد الله فرحا عظيما لذلك ، وتهلل وجهه ، واحتضن الراجة بين ذراعيه ، ومضى يشرح له تعاليم الاسلام ، وطلب منه أن يستحضر آنية الأرواح التي كان يعكف عليها الراجة . فلما حضرت الآنية رفعا الراجة ، وسكب ما فيها وحطمها تحطيمًا . فاستبشر الشيخ عبد الله بهذا العمل ، ولم يلبث أن ازداد استبشارًا حينما أمر الراجة باحضار جميع الأصنام الموجودة في القصر وما حوله ، فأحضر رجال القصر له هذه الأصنام — وكان بعضها مصنوعا من الذهب الخالص — فانهال عليها الراجة تحطيمًا : فتارة يقذفها بيديه على الأرض ، وطورا يهوى بفأس ضخمة عليها .

واستدعى الراجة بعد ذلك بعض نساء القصر ، فحضرن ليشاهدن هذا المنظر . ولما رأى الشيخ عبد الله أن الدهشة بدت على وجوههن ، أخذ يشرح لهن تعاليم الدين الجديد فأنشراح صدرهن له ، وطلبن اعتناقه . ولم يبرح أن استدعى الراجة

الملاباريون عام ١١٦٦ هـ ، ولكن حكيمهم لم يدم سوى ٧ سنوات .

واستقلت الجزائر على يد السلطان حسن عز الدين . وآخر من انتخب للعرش (والمملك هناك انتخابي بعد ما كان وراثيا منذ ٢٢ سنة) هو الحاج عبد المجيد ديدى ، ولكن حالت الأقدار دون تعيينه فمات قبل توليته . ثم انتخب لجمهورية مالديف الزعيم محمد أمين ديدى الذي كان رئيسا لمجلس الوزراء من قبل . ويوجد بجزائر مالديف كثير من المساجد والجوامع والآثار الاسلامية ، كما تنقلد الوظائف الدينية فيها بعض خريجي الأزهر .

الاسلام في الملايو

يقع شبه جزيرة الملايو في جنوب شرقي آسيا ، ويتصل بالهند الصينية شمالا ، ويحيط به شرقا بحر الصين ، وغربا خليج بنغال ، وطوله من الشمال الى الجنوب ١٩٠ كيلو مترا ، وعرضه يتراوح بين ٤٥ كيلو مترا و ١٩٠ كيلو مترا ، وأرضه جبلية صحرية ، ويكاد ينفصل عن القارة الأسيوية ، ولا يربطه بها الا برزخ كرا عند خط ١٠° شمال خط الاستواء .

ومن الصعب أن يعرف التاريخ الدقيق لأول دخول الاسلام في شبه جزيرة الملايو ، ولكن الشيء المؤكد أن العرب زاوبوا مع بلاد الشرق تجارة واسعة منذ عصور مبكرة جدا . ففي القرن الثاني للهجرة كانت التجارة مع ميلان كلها في أيديهم . وفي مستهل القرن السابع للميلاد لقيت تجارتهم مع الصين من طريق سيلان رواجًا عظيما ، حتى لقد وجدنا تجار العرب في أواسط القرن الثامن يقيمون في كانتون في جموع غفيرة ، وفيما بين القرنين

ويتعلم الناس واجباتهم وشعائر دينهم تعلمًا كاملاً» . فلما وصل هذا الكتاب الى سلطان قويدة أخير الشيخ عبد الله به ، فأرسل رسالة شكر الى سلطان أتجية . ومنذ ذلك الوقت أكثر الشيخ عبد الله من بناء المساجد ، وأطلق أسماء إسلامية على أبناء السلطان ، فأطلق على أولاده راجة معظم شاه ، وراجة محمد شاه ، وراجة سليمان شاه .

ولا تزال توجد حتى اليوم في جزر الملايو أضرحة دعاة العرب الذين عملوا على نشر الدعوة في هذه البلاد . ويحرص المسلمون هناك على صوم رمضان وتأدية فريضة الحج الى مكة المكرمة ، وقيمون المساجد كلما احتاجوا الى أماكن للعبادة ، ولا يدخرون وسعا في تأثيث المسجد ، وامداده باللوازم ليكون مكانا محترما لتأدية العبادة .

وقد توغل الاسلام على اثر ذلك بين أهالي سيام من البوذيين ، ويطلق على من دخلوا في الاسلام منهم اسم « السامسامين » . كما اعتنق الاسلام بعض رجال القبائل في شبه الجزيرة ممن عرفوا بالقسوة والوحشية . واستطاع تجار العرب والفرس أن يدخلوا الاسلام كذلك في الهند الصينية ، ولكن الفضل الأول في نشر الدعوة في هذه البلاد يرجع الى أهل الملايو وهجراتهم التي بدأت في نهاية القرن الرابع عشر .

وقد وجد « ماركو بولو » الاسلام قد توطد ركنه في الملايو عام ١٢٩١ م . وتوجد في بعض المدن نقوش بحروف فارسية عربية تسرد العقوبات الإسلامية لارتكاب الفحشاء وغيرها من الجرائم . كما تحتوى بعض النقوش على ألفاظ عربية مثل : رسول الله ، واسلام ، وفرض الجمعة ، وصلى الله عليه وسلم . ويقول أحد الباحثين في تاريخ الملايو ، وهو السير ريتشاردو بينستو : « ان هذا النقش

الوزراء المسنين في قصره — وكانوا أربعة — فلما حضروا تولاهم العجب ، واستبدت بهم الدهشة ، وأرادوا أن يستبينوا حقيقة الأمر . فشرح لهم الراجة الأمر الذي جاء من أجله الشيخ عبد الله الذي يجلس بجواره فأبدوا رغبتهم في أن يهجموا نهجه ، ويتبعوا رأيه ، وآمنوا بما قاله الشيخ عبد الله . وعندئذ طلب منهم الشيخ عبد الله أن يبرهنوا على إيمانهم ، فلما سألوه عن كيفية برهان ذلك ، قال لهم .

« استدعوا شعبكم بأسره الى بهو الاستقبال ، ومروهم بتحطيم الأوثان التي ألفوا أن يعبدوها . فأطاعوا ونفذوا ما طلب ، وأحضروا في الوقت المحدد الأصنام المطلوبة ، وحطموها وأحرقوها أمام جماهير الشعب التي حضرت لتشهد مصرع هذه الأصنام .

وقد فرح الوزراء فرحا عظيما بهذا ، ولم يظهر أحد منهم غضاظة لهذا العمل .

وعلى اثر ذلك بنى الراجة المساجد ، وأمر أن يلحق بكل مسجد ٤٤ شخصا على الأقل من السكان بقيمون فيه ، ويعكفون على العبادة . ومضى الشيخ عبد الله في أثناء هذا كله يبشر بالاسلام ، ولا يدخر وسعا في سبيل ذلك وهرع الناس اليه من كل صوب يطلبون على يديه الهداية ، وتعلم شعائر الاسلام .

وترامت أبناء اسلام سكان قويدة الى « أتجية » . فأرسل اليهم سلطان هذه البلاد رجلا يدعى الشيخ نور الدين — وهو داع عربي كان قدم من مكة — ومعه بعض الكتب ورسالة ، وهذا هو نص الرسالة : « هذه الرسالة من سلطان أتجية ونور الدين ، الى أخينا سلطان قويدة والشيخ عبد الله اليميني الذي بقيم الآن في قويدة . أرسلنا اليكم كتابين من كتب الدين حتى تتأكد دعائم العقيدة الإسلامية ،

كتابة الدعاة المسلمين الأجانب من هنود وأنصاف هنود ، أو من كتابة العرب الذين استوطنوا هذه البقاع ، أو من كتابة أهل الملايو أنفسهم .

وقد أخذ الهولنديون عقب عودتهم من هذه البلاد بعض الكتب المكتوبة باللغة الجاوية . وقد اتضح أن مؤلف هذه الكتب رجع الى بعض المصادر العربية في التصوف والدين ، مثل كتاب « احياء علوم الدين » للامام الغزالي .

وعند أهل الملايو أوفى نسخة لكتاب « ألف مسألة » . وهو أول كتاب عربي عن الاسلام عرفته أوروبا . وهذا يوضح لنا توضيحا تاما أن لغة الملايو كانت إحدى اللغات التي نشرت الثقافة الاسلامية نشرًا بعيدا جدا .

والى جنوب شبه جزيرة الملايو جزيرة سنغافورة ، ويفصلها عنها البوغاز العظيم « سيلات تيمراو » . وتنقسم عاصمة هذه الجزيرة الى عدة أحياء : ففيها حي الملايو ، وحي الصين ، وحي المالابار ، وحي العرب . ويضم هذا الحي الأخير طائفة من العرب الذين وفدوا الى هذه المناطق ، فنشروا الدين الاسلامي بين عدد من الناس ، وأقاموا بعض المساجد والزوايا لأداء فرائض الصلاة . ولهم قبورهم الخاصة ، وتقاليدهم المتبعة في المواسم والأعياد .

الاسلام في إندونيسيا

تقع أندونيسيا في الجنوب الشرقي لآسيا بين المحيطين الهادى والهندي ، وبين قارتي آسيا وأستراليا . وهي مجموعة كبيرة من الجزر تبلغ نحو ثلاثة آلاف جزيرة ، تتراوح مساحة كل منها بين بضعة آلاف من الكيلو مترات المربعة ، وبضع عشرات من الكيلو مترات .

يرجع تاريخه الى عام ١٣٢٦ م أو عام ١٣٨٦ م ، وهو يدل على تغلغل اللغة العربية في هذه المناطق .

ومن المترجمات الملايوية الأولى ، المنقولة عن الفارسية : حكاية نور محمد ، وحكاية معجزة النبي عن انشقاق القمر اجابة لطلبه ، وحكاية عن حلاقة النبي ، وحكاية وفاة النبي ، وحكاية يوسف وزليخا . ولحكاية حلاقة النبي ترجمات بعدة لغات ملايوية : كاللغة الجاوية لأهل الملايو ، واللغة الاشيزية لأهل سومطرة ... بل اللغة البوغيزية لجزائر سيليبس .

ومن القصص الاسلامية التي استغلها كتاب الملايو : حكاية تميم الداري ، وحكاية ابن أمير المؤمنين عمر الذي حد لشربه الخمر . كما يبدو أن هناك ترجمة حديثة عن العربية لحكاية « سيف ابن ذى يزن » .

وعلى بعض القبور أشعار مقتبسة من ألف ليلة وليلة . وهناك ترجمات لكتاب « كليله ودمنة » ، أقدمها مستقاة من النص الفارسي لنصر الله ، الذي أهدي كتابه الى « بهرام شاه » ملك غزنة المتوفى عام ١١٥٧ م . وتحتوى تلك الترجمة كذلك على ثلاث قصص من كتاب « أنوار سهيلي » لحسن واعظ كاشفى ، المتوفى عام ١٥٠٤ للميلاد . ولكليله ودمنة ترجمة أخرى تسمى « حكاية بنجاة تنديران » نقلت في عام ١٨٣٥ م عن لغة تامل (جنوبى الهند وسيلان) بقلم عبد الله بن عبد القادر ، معلم سير ستانفورد رافلز الذى أسس سنغافورة الحديثة . ثم هناك ترجمة ملايوية منقولة عن ترجمة هولندية للنص التركي .

وتوجد في بلاد الملايو رسائل شتى في علم التوحيد الاسلامي ، وفي الفقه والأصول والتصوف وفي التاريخ الاسلامي . وبعض هذه الرسائل من

بعض المؤرخين أن ملقا محرفة من الكلمة العربية ملاقة ، لأن التجار كانوا يتلاقون فيها . ويقال ان الهنود كان لهم دور كبير في نشر الاسلام في هذه الجزر ، بدليل وجود بعض الفنون الهندية على المقابر . ويروى الرحالة « ماركو بولو » أن الاسلام كان منتشرا في مدينة فرلاك عام ١٣٩٢ م ، وأن ميراسيلا — أحد حكام المقاطعات — أسلم ، وسمى نفسه بالملك الصالح . وقد وصل الاسلام الى ملقا فسومطرة الشمالية ثم جاوة وغيرها .

ويقال انه تكونت في القرن الثاني عشر مملكة في سومطرة الشمالية على مضيق « ملقا » تعرف بمملكة باساي سامودرا . ولا يعرف بالضبط بدء قيام هذه المملكة ، ولا أول من تولى عليها من الملوك أو الأمراء ، ولا السنة التي تأسست فيها ... ولكن الثابت عند المؤرخين أنها كانت مملكة اسلامية ، وكان من أقدم ملوكها الملك الكامل . ويظن أنها تألفت اثر التيار الاسلامي الذي بدأ ينتشر حينئذ في هذه الجزر ، وأن التجار ومن وافقهم من العلماء هم الذين حملوا الى هذه البقعة بذور الاسلام . والمعروف أنهم جاءوا اليها من أقطار تدرجت في مدارج المدنية ، وسمت في سلم الحضارة والعلم ، وهم يحملون عقولا راجحة وعلوما ، فنشروا ما لديهم ، وعرضوا ما حملوه معهم .

وان كانت الممالك قد تركت هياكل وتمائيل وتقوشا على المباني تسترعى الاعجاب ... فقد تركت مملكة « باساي سامودرا » روحا قوية لاقامة العدالة وتركيز مكارم الأخلاق ، حتى امتدت فروعها بعد زمن فشلت جميع « أتاشية » حيث تكونت « مملكة أتاشية » المشهورة بقوتها وبعد نفوذها وعدالتها . وهذه الدولة الأخيرة هي التي حمت بلادها من الغزاة المستعمرين ... فردت

ولفظ أندونيسيا مكون من كلمتين : « أندو » بمعنى الهند ، و « نيسيا » بمعنى الجزر ، فأندونيسيا معناها جزر الهند . وتبلغ مساحة هذه الجزر جميعا نحو مليون ومائتي ألف كيلو متر مربع . ويبلغ عدد سكانها حوالي ٨٦ مليون نسمة . وأهم هذه الجزر : جاوة ، سومطرة ، كاليمانتان ، سولا ، يسنى ، سوندا الصغرى ، بالي .

وقد كان أهل هذه الجزر منذ أن وجدوا يهتدون بفطرتهم ، الى أن حمل اليهم الصينيون والهنود ، في القرن الخامس للميلاد ، معتقداتهم الدينية ، أي الديانتين البوذية والبراهمانية . وأخذت هاتان الديانتان تنتشران انتشارا واضحا في الجزر . وفي القرن الحادي عشر للميلاد حمل التجار العرب الى الجزر الخضراء دين الاسلام ولغته وثقافته . وساهم الفرس في هذا المضمار ، فكانوا يقومون برحلات الى هذه الجزر ، وينشرون الاسلام هناك . ومن جانب آخر كان أهل هذه الجزر يضربون في فجاج البلاد الاسلامية ، فيعتنقون الاسلام ثم يرجعون الى أهلهم بدينهم الجديد ، فيكونون خير دعاة لنشره وذبوعه .

واتسع منذ ذلك الوقت نطاق التبادل التجاري بين الجزر الخضراء وموانئ جنوب الهند والخليج العربي وجنوب الجزيرة والبحر الأحمر . كما انتظم سفر القوافل ذهابا وإيابا بين موانئ البحر الأبيض المتوسط وموانئ الخليج العربي بطريق البر في القرن الرابع عشر وبعده ، مما أدى الى انتشار الاسلام في معظم الجزر ، وانشاء المساجد والتكايا ومعاهد العلم الدينية .

وكان الرحالة يسمون هذه الجزر « جزائر الصين » تارة ، و « جزائر الهند » تارة . وذكر

ليسمعوا سرد هذه القصص، فيصغوا إليها اصغاء
المعجب، وينصتوا إليها انصات الخاشع.

وقد جاهدت أندونيسيا جهادا مريرا حتى
حصلت على استقلالها. وقام كثير من أقطاب
المسلمين فيها بنصيب مشكور في هذا الجهاد. وقد
زادهم الاسلام ايمانا في جهادهم، فكانوا
لا يدخرون وسعا في سبيل الحصول على
الاستقلال، وتحرير الشعب من ربقة الذل
والاستعباد... فلم تكذباً أقدام الهولنديين هذه
الجزر في القرن السادس عشر، حتى اعتبرهم
السكان معتدين آثمين يريدون استغلال حاصلاتها
لمصالحهم الخاصة دون مبالاة بالعدل والانصاف.
ومن هنا بدأ تاريخ الجهاد والمقاومة، فقامت
ثورات دموية عنيفة سجل التاريخ بعض أخبارها
برغم المحاولات المتعددة من قبل الهولنديين لطمس
هذه الحقائق.

وكانت هذه الثورات نواة صالحة للجهاد
والكفاح، فلم يستهل القرن العشرون حتى دخلت
الحركة الوطنية مضمارا جديدا ودورا عظيما.
فتأسست عام ١٩٠٨ أول هيئة أندونيسية تسلك
في جهادها منهجا مرسوما لتحقيق ما تصبو اليه
نفوس الأندونيسيين من نيل الحرية... هي جمعية
«بودي أوتومو»، ومعناها الأخلاق الفاضلة.
وقد حمل مشعلها الدكتور وحيد الدين، فبذل
جهدا كبيرا في رفع مستوى الشعب الأندونيسي
من الوجهتين التعليمية والاجتماعية، ايمانا منه بأن
هذا الطريق سيؤدي بالشعب الأندونيسي الى
أمنيته الشريفة من الوجهة السياسية.

ثم تكونت «شركة داجانج اسلام»، أي
الشركة التجارية الاسلامية، وهي حركة اسلامية
نشيطه عمدت الى محاربة الاستعمار في ميدان
التجارة والاقتصاد، والقضاء على الرأسمالية

البرتغاليين على أعقابهم، والانجليز الذين جاءوا من
بعدهم فأبرموا معها معاهدة، كما ردت الهولنديين،
وحاربتهم حربا طويلة جدا.

وقد ذكر السياح الذين زاروا هذه الدولة أنها
كانت على جانب عظيم من رواج التجارة، وحسن
الاهارة، وغزارة الثروة، وانتشار العلم.

وقام الأندونيسيون أنفسهم بدور كبير في نشر
الاسلام... ففى سواحل الخليج الغربى - حيث
تقوم المدن والحواضر في الشاطئين شرقا وغربا -
تقف السفن القادمة من الشرق، فيتلقف تجار
تلك المدن ما تحمله من متاجر، وما تنقله من
محصولات الشرق الأقصى - كالبهارات المختلفة
الأنواع، والأفاويه والعاج والأخشاب
والبحور - ويمتزج البحارة الأندونيسيون
بالسكان، ويتعارفون ويشاهدون ما لديهم من
غروض جميلة، وفنون ظهرت في النقوش والرسوم
والسجاجيد، فيقتنون منها ما يقتنون، ويرون
هناك الأحجار الكريمة والعقاقير والأقمشة
الحريرية وغيرها، فيشترون منها ويبيعون.

وفي سيراف ومسقط وهرمز والبصرة وغيرها،
تقف السفن الأندونيسية، وينزل الأندونيسيون
ليمتزجوا باخوان لهم في الدين، فيتبادلوا
العروض التجارية، ويشاهدوا الكتب الخطية
التي تعرض عادة في سوق الوراقين، وينادى بها
الوراقون. وبين هذه الكتب يشاهدون الأدب
العربى والفارسى، ويقرأون الحكايات
والروايات... فيحملون ما شاءوا أن يحملوه منها
الى بلادهم، فيروونه بلغته الأصلية، أو
يترجمونه الى اللغة الأندونيسية.

وفي سومطرة الشمالية تقرأ هذه الحكايات في
حفلات سنوية تقام في المنازل، ويدعى إليها الناس

وقد تأسست الجمعية المحمدية في ١٨ نوفمبر عام ١٩١٢ بمدينة « جوكجاكرتا » . أسسها المرحوم الحاج « أحمد دحلان » ، وأخذت منذ ذلك الحين تنمو وتزدهر ، وتنشئ الفروع والشعب في مختلف مدن أندونيسيا وقراها ، حتى شملت جميع أرجاء البلاد من أقصاها الى أقصاها ، وصمدت هذه الجمعية لجميع العراقيين التي وضعتها السلطات الاستعمارية الحاكمة في طريقها . ومن أهدافها تنقية عقيدة الاسلام من آثار الديانات الأخرى — كالبرهمية والبوذية — وأوهامها .

وقد تخرج في هذه الجمعية كثيرون من قادة أندونيسيا وزعمائها السياسيين والاجتماعيين الذين قاموا بدور كبير في بعث الحركة القومية بأندونيسيا ، والكفاح الوطني في سبيل استرداد حرية البلاد واستقلالها .

وعندما اندلعت نيران الثورة في أندونيسيا عقب الحرب العالمية الثانية ، وهب الشعب الأندونيسي على بكرة أبيه للذود عن حرية بلاده ... كانت الجمعية المحمدية في مقدمة الصفوف ، وأبليت بلاء حسنا في الكفاح والدفاع عن خياض الوطن ، حتى خلت المهاد والمؤسسات من جميع رجالها الذين تسابقوا الى الميدان .

ومن الذين تخرجوا في مدارس هذه الجمعية الجنرال « سوديرمان » قائد جيش التحرير ضد الاستعماريين ، وقد ظل حتى آخر أيامه مثال المؤمن الصادق في الحرص على أداء فرائض الدين . وقد انضم كثير من أعضاء الجمعية المحمدية الى بعض الأحزاب السياسية ، وبخاصة الحزب الاسلامي « ماشومي » ، وهو من أكبر الأحزاب السياسية في أندونيسيا .

الاختكارية بانشاء الجمعيات التعاونية ، وتنظيم صفوف العمال وتوحيد كلمتهم ، وانشاء نقابات قوية لهم .

وقد أسس هذه المنظمة ، التي أطلق عليها فيما بعد « شركة اسلام » ، الحاج سموندي ، عام ١٩١١ في مدينة صولوا — التي يقال لها أيضا « سورا كرتا » — بالقرب من مدينة « جوكجاكرتا » في جاوة الوسطى . ثم تحولت الى حزب اسلامي يستهدف تحقيق غايات اجتماعية وسياسية . وقد أحرزت « شركة اسلام » تقدما سريعا دل على أنها منظمة كان الشعب يتقرب ظهورها منذ مدة طويلة ، لأسباب أهمها روح الاسلام السائدة في أندونيسيا ، وبغض الاستعمار الهولندي المخالف للاسلام .

وجاء في القانون الأساسي لهذا الحزب الاسلامي أن غايته هي احراز تقدم محسوس للشعب الأندونيسي بتقوية الأخوة والاتحاد والتعاون بين المسلمين . وقد حرم القانون أن يكون أعضاء مجلس الادارة من الموظفين لدى حكومة الهند الهولندية . وكانت حكومة الهند الهولندية تؤمل كثيرا ألا تتجاوز هذه المنظمة الاسلامية حدود مديرية صولو ، ولكن ابي الله الا أن يتسع نطاقها ، فقد نجحت دعايتها في جاوة الشرقية نجاحا عظيما .

وفي ١٦ يناير عام ١٩١٣ انعقد المؤتمر الأول لشركة اسلام في مدينة « سورايا » فأحرز نجاحا باهرا ، ثم عقدت عدة مؤتمرات لهذه المنظمة في الفترة ما بين يونيو ١٩١٣ وسبتمبر ١٩١٨ . وبلغ عدد أعضائها مليونين في نحو ثمانين فرعاً منتشرة في أنحاء البلاد . وسادت روح الاسلام جهاد هذه المنظمة ، فكان لها أثر بعيد في تقدم البلاد ونيل استقلالها .

يلبث أن خفت حدته بعد تأسيس رابطة الأحزاب والمنظمات الاسلامية .

ومن زعماء جمعية « نهضة العلماء » : الشيخ عبد الوهاب الذي صار فيما بعد من زعماء الحزب الاسلامي « ماشومي » ، والأستاذ عبد الواحد هاشم الذي تولى منصب وزير الشؤون الدينية ، والأستاذ زين العارفين الذي تولى فرقة « حزب الله » التابعة لحزب « ماشومي » عندما قامت هولندا بأعمالها العسكرية للقضاء على الجمهورية الأندونيسية .

ومن المنظمات الاسلامية ذات النفوذ القوى : جمعية « الاتحاد الاسلامي » التي تأسست قبل الحرب العالمية الثانية تحت رعاية عالم أندونيسي معروف بجاوة الغربية ، هو فضيلة الشيخ الحاج أحمد سنوسي الذي توفي منذ سنوات . ومنها « برسيكاتان علماء » ، أي جمعية العلماء ، بزعامة فضيلة الشيخ الحاج عبد الحليم . ويوجد في خارج جزيرة جاوة منظمات اسلامية ذات شأن خطير ، لاسيما في سومطرة ، وسولاويس ، وكاليماتان ، وبورنيو .

ولما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها عام ١٩٤٥ ، واستسلمت اليابان للحلفاء ، وأعلن الشعب الأندونيسي استقلاله ... تأسس في ٨ من نوفمبر عام ١٩٤٥ م حزب اسلامي جديد بقرار مؤتمر حضره مندوبو المنظمات الاسلامية في جميع أندونيسيا ، وهو الحزب المسمى « مجلس شوري مسلمي أندونيسيا » ، ويرمز اليه بلفظة « ماشومي » . ويهدف — كما ذكر في المادة الثانية من قانونه الأساسي — الى :

١ — تأييد سيادة الجمهورية الأندونيسية ، وتعزيز الدين الاسلامي .

والجمعية المحمدية قسم خاص بالنساء يعرف باسم « العائشية » ، تيمنا باسم السيدة عائشة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم . ويقوم هذا القسم بنشر الرسالة الدينية والاجتماعية لهذه الجمعية بين السيدات ، وقد أنشأ كثيرا من المدارس والمعاهد الخاصة بالفتيات في جميع أنحاء أندونيسيا لتعليمهن ، وتنشئتهن تنشئة اسلامية قوية ، ليكن أمهات صالحات يدركن ما عليهن من واجبات تجاه الأسرة والمجتمع .

وقد بلغ عدد مدارس ومعاهد هذه الجمعية المحمدية في جميع مراحل التعليم عدة آلاف ، تضم ٢٣٠٠٠٠ تلميذ وطالب ، وأكثر من أربعة آلاف مدرس . ويبلغ عدد الأيتام الذين تؤويهم الجمعية في ملاجئها ٥٧٠٠ یتيم ، وعدد الفقراء والمحتاجين الذين تمدهم بالمعونة نحو ٢٧٠٠٠ شخص ، وعدد المرضى الذين يعالجون في مستشفياتها نحو ٦٠٠٠ مريض . وقد بنت الجمعية كذلك ٣١ مكتبة ، و ٣٨٤ مسجدا .

ومن مؤسساتها الجديدة : دار لحفظ القرآن للبنات في « كومان » ، يتعلمن فيها أيضا بعض الصناعات اليدوية ، ومدرسة للبنات في « جوديان » ، وثلاث مدارس أخرى في « مسويودان » .

وفي أندونيسيا جمعية اسلامية أخرى تسمى « نهضة العلماء » . أسسها نخبة من علماء الشافعية بأندونيسيا في ٣١ يناير عام ١٩٢٦ . ولم تمض مدة طويلة حتى كان لها نفوذ في المجتمع الأندونيسي ، وهي كالجمعية المحمدية تعنى بنشر التعليم ، واقامة الشعائر الاسلامية . ولكنها أكثر نفوذا في الأوساط الشعبية ، وأكثر التزاما لمذهب الامام الشافعي وأقوال علمائه . وكان بين الجمعيتين شبه تنافس ، بيد أن هذا التنافس لم

٢ - تحقيق مقاصد الاسلام فيما يختص بحكم البلاد وسياسة الأمة .

وقد رأى رجال هذا الحزب أن أول شرط للوصول الى هذه الغاية ، هو ايجاد اتحاد قوى بين المسلمين تحت قيادة حزب قوى . وقد تقرر أن تتنوع الأعمال طبقا لما يقتضيه الدفاع عن الدولة . ومن ذلك : تأليف جيش المتطوعين الشعبى المعروف بحزب الله ، وتأسيس منظمة الشباب الاسلامية المسماة « حركة الشباب الاسلامى » الأندونيسى ، ووحدة التجار المسلمين ، وجمعية المزارعين الأندونيسيين وغير ذلك .

وقد قامت هذه الجمعيات الدينية بدور كبير فى الدفاع عن أندونيسيا واستقلالها ... فقد حاولت هولندا أن تخلق فى أندونيسيا حكومات صورية تؤيدها فى سياستها الاستعمارية ، معتمدة على ماثوهمته من خلاف بين الأندونيسيين ولكن خاب ظنها ، وفشلت سياستها ... لأن الخلاف الذى توهمته لم يكن خلافا جوهريا ، انما هو نوع من اختلاف رأى فى الطريقة التى ينبغى سلوكها . زد على ذلك أن الاسلام وحد بين الأندونيسيين ، وجعلهم يعتصمون بحبل الله جميعا ، ويقولون بصوت واحد ، بعد المعارك الطاحنة التى دارت فى أواخر عام ١٩٤٨ : أعيدوا لنا وحدتنا ، لأننا شعب واحد ينبغى أن نجتمعنا حكومة واحدة . واضطرت هولندا الى أن تسلم السيادة على هذه البلاد الى أبنائها فى عام ١٩٤٩ م .

وفى حكومة أندونيسيا وزارة للشئون الدينية ، من مهمتها توضيح الأمور الدينية والشرعية ، حتى يفهم الشعب الأهداف التى ترمى اليها الوزارة من سن مختلف الأنظمة والقوانين .

وتهدف وزارة الشئون الدينية فى أندونيسيا الى تثقيف الشعب الأندونيسى ثقافة تستثير بهدى الدين . وهذه المهمة ملقاة على كاهل قسم التربية الدينية التابع لهذه الوزارة . وهذا القسم يقدم المساعدات اللازمة للمدارس الاسلامية الأهلية ، ويزودها بمناهج التعليم الدينى ووسائل الارشاد ، لبث الأخلاق الفاضلة فى نفوس الشعب . وتتفق الوزارة بمبالغ غير يسيرة لمساعدة هذه المدارس ، بجانب الميزانية التى خصصتها وزارة المعارف لهذا الغرض .

ويحرص المسلمون الأندونيسيون حرصا شديدا على أداء شعائر الدين . وتستقبل أندونيسيا شهر الصيام كل عام بأعظم مظاهر الحفاوة والاكرام . ويحرص الأندونيسيون على الصيام حرصا شديدا . وقلما يوجد مفطر ، والفطر جريمة منكرة فى نظرهم ... بل ان كثيرين من الأطفال يصومون تقليدا لأبائهم ، وتشرح بالصوم نفوسهم البريئة ، مع ما يلقونه من شدة وعنت ، وان أحدهم لينغضب غضبا شديدا اذا لم يوقظ للسحور .

ومن أبرز مظاهر شهر رمضان فى أندونيسيا - بعد أن استردت حريتها واستقلالها - أن يعقد فى السابع والعشرين من هذا الشهر احتفال كبير بقصر الرئاسة ابتهاجا باليلة المباركة التى أنزل فيها القرآن هدى ورحمة ونورا للعالمين ... فأخرج الناس من الظلمات الى النور ، ومن الضلال الى الهدى .

وينهض المسلمون الأندونيسيون مبكرين ، فى صباح يوم العيد ، لأداء الصلاة فى المساجد والساحات والميادين الكبرى ، فى جموع كبيرة زاخرة تبلغ مئات الألوف . وينبش عن تكبيراتهم القوية دوى مجاهل كهزيم الرعد ، لترده جنباث

عربية ، مثل كرسى وصابون وقرطاس وسلام واستراحة ونحو ذلك ، مما يدل على فضل العرب على هذه البلاد ، وتأثيرهم فى لغة الأندونيسيين . وقد حاول الهولنديون أن يعزلوا المنحدرين من أصل عربى فى ناحية ، وأبناء البلاد الأصليين فى ناحية أخرى . ولكن العرب يعدون اليوم — كما كانوا دائما — جزءا من كيان الجمهورية الأندونيسية المستقلة .

ولم تنجح رعاية العرب فى أندونيسيا الى تشييد المباني الدينية الضخمة — كما كان شأن البراهمة والبوذيين — بل كان معظم هبهم متجها الى الفتوحات الروحية ، ونشر الدين ... فليس فى جاوة أو غيرها من الجزر ما فى سائر البلاد الاسلامية من المساجد التى تبهر الأنظار بديع الصنعة وفخامة البناء ، ولكن الجوامع كثيرة العدد ، ولا يخلو منها بلد . وعدد الذين يحجون الى بيت الله الحرام كل سنة كثير . ولقب حاج له فى النفوس تقدير كبير . والمسلمون فى جاوة وسومطرة وبورنيو وسلاى نحو ٤ مليون . ولا تزال الحروف العربية شائعة الاستعمال فى أندونيسيا . وقد أدخلت عليها صور فارسية ، كما زيدت صور أخرى تعرف بالبيجو . وهى الآن أقرب الى الصور الهندسية منها الى الصور الفنية . وتعتمد على الخطوط وتحديد الارتفاع والانخفاض .

ولولا الاسلام فى أندونيسيا ومحافظة المسلمين بها على تعلم القرآن والكتب الدينية ، لما كنا نرى اليوم للحروف العربية أثرا فى أندونيسيا . ولكن القرآن الشريف — ذلك الكتاب الخالد المبين — هو الذى حافظ على هذه الحروف .

الوديان وقنن الجبال حتى يبلغ عنان السماء ... كما تحتفل الهيئات والمنظمات الاسلامية فى أندونيسيا كل عام بأعياد المسلمين والمواسم وليلة الاسراء والمعراج . فيقام احتفال كبير فى القصر الجمهورى يحضره عدد كبير من كبار الشخصيات والمسلمين الأندونيسيين ، ويخطب فيه الرئيس أحمد سوكارنو ، كما يشترك فيه رئيس الوزراء وغيره من عليا القوم .

وفى « جوكجاكرتا » ، عاصمة أندونيسيا ، جامعة اسلامية . وقد أوفدت منذ سنوات الأستاذ « سوناريو » لدراسة نظم المعاهد المصرية وتدرس الثقافة الاسلامية فيها ، وكذلك الامكانيات المتاحة لاستخدام أساتذة من مصر للتدريس فى أندونيسيا . وقد اتصل الأستاذ سوناريو بشيخ الجامع الأزهر ، كما اتصل بوزارة التربية والتعليم . ولم تلبث الجمهورية العربية المتحدة أن عقدت المعاهدات الثقافية مع أندونيسيا ، وأرسلت الى هناك عشرات من الأساتذة لهذا الغرض .

ومعظم العرب المسلمين الذين يستوطنون أندونيسيا ، من الحضارة الذين حضروا من حضرموت ، واندمجوا فى الأهالى ، ونسوا جنسياتهم ، وتسموا أسماء أندونيسية . وبعضهم من أولاد المغاربة الأول ، وكثيرون من أولاد من جاء بعدهم .

وفى أندونيسيا آثار قديمة للمسلمين ، منها مقبرة للمغاربة عليها كتابات عربية من الممر ، هدمت هولندا جزءا منها لظنها أنها تحوى ذهباً وفضة ، فلم تجد غير رمم بالية . وقد كتب على المقبرة تاريخ ٦١١ هـ . وفى اللغة الأندونيسية ألفاظ

الاسلام في الصين

كالرقيق ، ويدفع الجزية ... وهكذا برقتية بن مسلم بقسمه ، وانتصر على ملك الصين انتصارا عظيما .

وفي هذه الآونة مات الحجاج بن يوسف الثقفي ، وتولى الوليد بن عبد الملك ، فسلیمان بن عبد الملك . وكان سليمان يحقد على أنصار الخليفة السابق ، لأنهم كانوا يرغبون في إقصائه عن الحكم ، فأرسل في طلب القواد المسلمين — وكان منهم قتيبة ابن مسلم — فلما جاءه أمر سليمان بن عبد الملك ذهب ذهولا شديدا ... فقد كان الأمر بتطلب بقاءه لتأمين حال المسلمين ، وتوطيد دعائم الاسلام . ولكن سليمان بن عبد الملك أصر على استدعائه ضاربا عرض الحائط بالفتوح العظيمة التي حققها قتيبة بن مسلم .

وظل قتيبة مترددا في أمر الرحيل الى دمشق ، واطاعة أمر الخليفة ... حتى بدأت الفتن تنتشر في جيشه لصالح سليمان بن عبد الملك ، وأخذ أتباع سليمان يتهمون بالتمرد والعصيان ، وطفقوا يدبرون المؤامرات ، وينظمون الدسائس للتخلص منه . وفي احدى الليالي قتله بعض الثائرين غيلة وخيانة . وهكذا أسدل الستار على حياة بطل من أبطال الاسلام ، قاذ المسلمين من أرض الى أرض ، ومن نصر الى نصر .

ولكن الاسلام منذ أن غزا قتيبة بن مسلم هذه الأصقاع ، أخذ يزداد انتشارا ، وكثرت المساجد والمعاهد العلمية التي تلقن فيها أصول الاسلام . وشرع المسلمون الصينيون في تلقين مبادئ الاسلام الى أنصارهم على مر العصور . وقد أنشأ « لانشوما » أول معهد اسلامي في الصين . وكذلك قام « هاي بابا » بإنشاء مدرسة مماثلة في أحد المساجد ، واستطاع أن يلحق عددا كبيرا من

تواترت في دخول الاسلام بلاد الصين روايات كثيرة ، اختلفت في أسباب دخوله ، ولكنها اتفقت على أنه بدأ ينتشر شيئا فشيئا في شمال الصين وجنوبها منذ صدر الاسلام .

وقبل أن يكتسب القرن الأول للهجرة ، قام القائد الكبير « قتيبة بن مسلم » بفتح الصين لانتفاذ المسلمين فيها من ظلم الملوك والباطرة ، فأقسم — بعد أن اكتسح سهول آسيا ومدنها وأقطارها وأمصارها ، وهزم ملك التترك الغاشم ، واستولى على سمرقند وبلخ وبخارى وغيرها من مدن آسيا — أن يكتسح هذه الامبراطورية الواسعة المترامية الأطراف ، ويطأ بقدميه ثرى قصر امبراطورها ، ويسترق بينه ، ويحصل ما عنده من الأموال الى أمير المؤمنين في دمشق ... أو يدخل دين الاسلام . وشعاره المائل دائما نصب عينيه : الاسلام أو الجزية أو القتال .

ودعش امبراطور الصين دهشة عجيبة لأمر هذا القائد الشجاع ، واستدعى طائفة من المسلمين ، وخاطبهم في أمره قائلا : « كيف يجروا على اقتحام بلاد الواسعة في هذا النفر الضئيل من الناس ؟ » فقال قائلم : « وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله . وان الذي أول خيله في بلاد الزيتون (الشام) ، وآخر خيله في بلادك لا يستعصى على جيوشه شيء » . فارتاع الملك من قوة قتيبة وأنصاره . وكانت أنباء انتصارات جيشه تفرع آذانه قرعا ، فزاد فزعه ، وازدادت رهبته . وأشار عليه بعض أقطاب مملكته أن يرسل الى قتيبة ابن مسلم حفنة من تراب قصره ليطأه القائد العظيم ، كما طلب من قتيبة ختمه ليختتم به الامبراطور أبناءه

(1) كلمة بابا تعنى ولى الله عند مسلمي الصين .

ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ... ليعلم الشرائع والأحكام ، وسنن الحلال والحرام . وأعطاه القرآن المجيد معجزة ، ليفهم به المنكرين ، ويقطع لسانهم عند المنازعة والخصام . وأبقى - بعنايته الكاملة ، وهدايته الشاملة - آثاره الى يوم القيامة ، ونصبه - بقدرته في كل حين وزمان وفرصة وأوان - في أقطار العالمين من الشرق والغرب والعين ، ذا قدرة وامكان ، وصاحب جنود مجندة وسلطان ... ليروج أسواق العدل والاحسان ، ويبسط على رعوس الخلائق أجنحة الأمن والأمان ، ويأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر والطغيان ، ويرفع بينهم أعلام الشريعة الغراء . وأزاح من بينهم الشرك والكفر بالتوحيد في الملة الزهراء ...

« فوفقنا الله تعالى ، بسوابق لطفه ولواحق فضله ، أن نسعى في اقامة قوانين الشريعة الطاهرة ، وادامة قواعد الطريقة الزاهرة . وأمرنا بحمد الله أن نفصل بين الخلائق والرعايا ، في الوقائع والقضايا ، بالشريعة النبوية والأحكام المصطفوية ، ونبنى في كل ناحية المساجد والمدارس ، ونعمر الخوانق والصوامع والمعابد ، كي لا يندرس أعلام العلوم ومعالمها ، وتنطمس آثار الشريعة ومراسمها ... ولأن بقاء الدنيا الدنية وسلطانها ، واستدامة آثار الحكومة وإيالتها ، باعانة الحق والصواب ، واماطة أذى الشرك والكفر عن وجه الأرض لتوقع الخير والثواب ... فالمرجو والمأمول من ذلك الجنب وأركان دولته أن يوافقونا في الأمور المذكورة ، ويشاركونا في تشييد قواعد الشريعة المعمورة » .

أما الرسالة الفارسية فيبدو من نصها أنها أكثر صراحة في الدعوة الى اعتناق الاسلام من الرسالة الأولى ، المحررة باللغة العربية . وقد جاء فيها :

الناس تعاليم الاسلام ، حتى أن أبناء الصين أطلقوا عليه « هاى بابا » منذ ذلك التاريخ ، احتراماً لما قام به من مجهود في نشر الاسلام وتعليم مبادئه . وقد سار « خوتاي شى » على منوال « هاى بابا » في تعليم الاسلام ... فبعد أن أدى فريضة الحج عاد فتوسع في انشاء المدارس في المساجد ، حتى انتشرت العلوم الاسلامية في الصين انتشاراً عظيماً ، ولقب « بتاي شى » ، أى الأستاذ الأكبر ، كما لقب باسم « خوبوجاو » ، أى الضوء الشامل .

وقد قامت دولة منج ، التي حكمت الصين حتى القرن السابع عشر ، بخدمة الاسلام والمسلمين هناك . كما قام الامبراطور « هنج وو » بدور كبير في هذا الميدان ، فعمل على انشاء كثير من المساجد التي ألحقت بها المعاهد العلمية الدينية . وعندما قدم سفير صيني الى قصر الشاه « رخ بهادر » في سمرقند في القرن الخامس عشر ، دعا الشاه امبراطور الصين الى السلام ، وأرسل مع السفير عند عودته ، رسالتين لهذا الغرض : احداهما باللغة العربية ، والاخرى باللغة الفارسية . وهذا هو نص الرسالة العربية :

« بسم الله الرحمن الرحيم ... لا اله الا الله محمد رسول الله . قال رسول الله محمد عليه السلام : لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله ، لا ينصر من خذلهم ، ولا يطاع من خالفهم ، حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك . لما أراد الله تعالى أن يخلق آدم وذريته ، قال : « كنت كنزاً خفياً فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق لأعرف » . فعلم أن حكيمته - جلّت قدرته ، وعلت كلمته - من خلق نوع الانسان ، ايثار العرفان ، واعلاء أعلام الهدى والايمان ...

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق

في كل البلاد التي حكمها ، ونعم المسلمون طول عهده برخاء شامل ...

« والآن ، وقد انتقلت الى يدي — بلطف الله وفصله — مسالك خراسان وما وراء النهر والعراق وغيرها ، فان حكم البلاد في كافة أرجاء المملكة ، بموجب الشريعة المطهرة النبوية ، أمر بالمعروف ، ونهي عن المنكر ... ومنذ ذلك التاريخ صار يقينا وعصفا أن الخلاص والنجاة في يوم القيسامة ، والسلطان والدولة في الدنيا ، سببها إيمان الفرد وإسلامه ، وعناية الله تعالى . ومن الواجب علينا أن نعامل رعييتنا بعدل وانصاف . واني لأرجو — بفضل الله وكرمه — أن تعملوا أنتم بشريعة محمد رسول الله (عليه السلام) ، وأن تقبوا الاسلام فتتالوا بدلا من سلطان الدنيا سلطان الآخرة ... » .

وليس بعيدا أن تكون هاتان الرسالتان سببا في اعتناق أحد أباطرة الصين للاسلام ، كما تقول السير توماس أرنولد ، نقلا عن تاجر مسلم يدعى سيد علي أكبر ، قضى فترة من الزمن في بكين في نهاية القرن الخامس عشر .

ويضيف هذا التاجر قائلا : ان ثلاثين ألف أسرة مسلمة كانت قد استوطنت مدينة « كنجنفو » في هذه الفترة من التاريخ . وكان الامبراطور الصيني يحسن معاملتهم ، ويبيح لهم إقامة شعائرتهم الدينية دون خوف ولا وجل . وكان في العاصمة نفسها في هذه الآونة أربعة مساجد ، وما يقرب من تسعين مسجدا غيرها في الولايات الأخرى . وقد بنيت كلها على نفقة الامبراطور .

وفي عام ١٨٦٧ للميلاد نشر مؤرخ زوسي يدعى « فاسيليف » بحثا عن الاسلام في الصين عبر فيه عن الفكرة التي تقول بأن الاسلام يتخذ طريقه لأن يكون الدين القومي للامبراطورية الصينية ، ويقلب

« لما خلق الله الأعظم — بحكمته البالغة ، وقدرته الكاملة — آدم عليه السلام ، جعل بعض أبنائه أنبياء ورسلا ، وأرسلهم الى الخلق يدعونهم الى الحق ، وأنزل على بعض هؤلاء الأنبياء — كإبراهيم وموسى وداود ومحمد (عليهم السلام) — كتابا ، وعليهم شريعة ، وأمر أهل زمانهم أن يتبعوا شريعة كل منهم ودينه ودعا هؤلاء الرسل جميعا الناس الى دين التوحيد وعبادة الله ، ونهوا عن عبادة الشمس والقمر والنجوم والملوك والأصنام . ومع أن كلا من هؤلاء الرسل كانت له شريعة خاصة ، فانهم كانوا جميعا متفقين على توحيد الله الأعظم ...

« ولما صار أمر الرسالة والنبوة الى محمد المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، نسخت كل الشرائع الأخرى وهو نبي آخر الزمان ورسوله ، وواجب على العالم بأسره — أمراء وسلاطين ووزراء ، وأغنياء وفقراء ، وصغارا وكبارا — أن يعملوا بشريعته ، وأن يتركوا كل الملل والشرائع السابقة ، هذه العقيدة الصحيحة تسمى الاسلام ...

« ومنذ سنوات خلت تهيأ « جنكيز خان » للقتال ، وأرسل أبنائه الى بلاد وممالك مختلفة . فأرسل جورجى خان الى حدود سراى وقرم ، ودشت قفجاق ، حيث أسلم بعض الشاهات من أمثال أوزبك وجانى خان وأرس خان ، وعملوا بشريعة محمد عليه السلام ، وأصبحوا بذلك مسلمين ، وانتقلوا الى الدار الآخرة سعداء بشرف الاسلام . ومن هؤلاء : الملك الصادق غازان ، والجائتو سلطان ، والشاه سعيد الحظ أبو سعيد بهادر ، وغيرهم بعدهم ... حتى ولى العرش والدى المكرم أمير تيمور كوركان . وقد عمل والدى كذلك بشريعة محمد عليه السلام ،

المسلمين الذين يحضرون الى المساجد ليهنئ بعضهم بعضا بهذه المناسبات السعيدة .

وفي مدينة بكين وحدها نحو ٦٥ مسجدا ، وفي « شنغهاي » ٢٧ مسجدا ، وفي « كيتون » وجميع المدن الأخرى الكبيرة مساجد يهوم بالاشراف عليها عدد من الأئمة المسلمين .

ويتبع الصينيون المسلمون تقاليد الاسلام ، فمراسم تشييع الجنازة ومراسم الدفن مثلا تجري عندهم وفقا لأحكام الشريعة بوجه عام . ويقوم بهذه المهمة خدام المسجد وبعض موظفيه ، وهم يمنحون في العادة ملابس المتوفى كجزء من أجرهم ، ثم يوضع الجثمان في النعش وتشييع الجنازة الى القبر . وقد جرت العادة أن ينثر على أرض اللحد المسك والكافور ، وهو تقليد سائد في كثير من الأمم الاسلامية .

وتتميز قبور الصينيين المسلمين بأنها مستطيلة ، بخلاف قبور البوذيين فانها مخروطية مستديرة . ويراعى عند الدفن في اللحد أن يكون الرأس جهة الشمال ، والقدمان صوب الجنوب ، والوجه في اتجاه الكعبة .

وللمسلمين في الصين مقابرهم الخاصة بهم ، وفي مساء يوم الدفن ، وعند ذكراه ، يتوافد المعزون لسماع تلاوة القرآن الكريم .

وقد فكر بعض أقطاب الاسلام في الصين ، في نهاية الربع الأول من القرن العشرين ، في انشاء معهد ديني كبير في مدينة « تشنيان » — عاصمة مقاطعة « شانتونج » — لنشر الثقافة الدينية بين الشعب ، وللمحافظة على العادات والتقاليد الاسلامية ، وخافة أن تختلط هذه العادات بعادات البوذيين والوثنيين على مر الزمن ، فتضيع معالم الاسلام في أرض الصين الفسيحة .

نتيجة لذلك الأوضاع السياسية في العالم الشرقي رأسا على عقب .

وتنتشر في الصين الآن المدارس الاسلامية ، وبعضها مدارس أولية ، وبعضها مدارس عالية . والأولية كثيرة الانتشار ، وتكاد توجد في كل مسجد ، ويلتحق بها أولاد المسلمين اذا زادت سنهم على أربع سنين وأربعة شهور وأربعة أيام . ويدرسون في هذه المدارس مبادئ القراءة والهجاء والاملاء ، كما يدرسون معنى الشهادة بأن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، ثم يحفظون سوراً من القرآن الكريم وسورة الكهف ، ويطلعون على بعض كتب الأوراد والتراتيل الدينية .

والدراسة بالمدارس الأولية تؤهل الطلاب المسلمين للالتحاق بالمدارس الاسلامية العالية التي توجد في بعض المساجد ويقوم الطلاب الأغنياء بالانفاق على الطلاب الفقراء في هذه المدارس ... فالموسر يطعم طالبا واحدا أو طالبين أو ثلاثة طلاب .

ويعين من يتخرج في هذه المدارس اماما في مسجد من المساجد ، وينعم عليه بطيلسان أخضر ، وعمامة بيضاء ... كما تقدم اليه قطعة كبيرة من الحرير الأحمر ، طولها متران وعرضها متر ، كتبت عليها العلوم التي نجح فيها ، وأظهر نبوغه وتفوقه .

ويبلغ عدد مساجد الصين وزواياها نحو أربعين ألفا ، وفقا لما جاء في كتاب « برومهول » عن الاسلام في الصين . وهذه المساجد بمثابة المراكز الثقافية التي تشع منها مبادئ الاسلام وتعاليم الدين الحنيف . وقد تصدع بعض هذه المساجد على مرور الزمن ، ولكن رمم كثير منها في السنوات الأخيرة . ويتردد عليها الموظفون والعمال والطلاب المسلمون ، وتقام فيها الشعائر الدينية — وخاصة في الأعياد الاسلامية — فتزدحم بجمهور غفير من

الجمهورية العربية المتحدة اليه طائفة من العلماء لتدريس اللغة العربية والدين .

وتعد « جمعية التقدم الاسلامية » من أبرز الجمعيات الاسلامية في الصين . وقد أسسها الشيخ عبد الرحمن وان هاوزان وطائفة من أعلام المسلمين هناك . وتقوم الجمعية بإصلاح التعليم الاسلامي والديني ، وتصدر مجلة اسلامية باسمها تطلق عليها « موكوانغ » ، أى نور المحمدية ، وقد قامت بترجمة القرآن بقلم الشيخ سعد الياس وان وين تسينغ .

أما الجمعية العلمية الاسلامية فقد أنشئت في شنغهاي عام ١٩٢٥ وانتخب استاذ ماكانغ حو رئيسا لها ، والشيخ هلال الدين وكيلا لها . وتهدف هذه الجمعية الى نشر التعاليم الاسلامية والأحكام الشرعية ، وانهاض المعارف الاسلامية العامة ، والاهتمام بجمع الزكاة لمساعدة المحتاجين وخدمة المتعلمين .

وقد قامت هذه الجمعية بإنشاء مدرسة « تون خوا » الابتدائية الاسلامية ، واصدار المجلة العلمية ، وتأسيس المكتبة الاسلامية ، وترجمة القرآن الكريم لنشره بين طبقات الصينيين المختلفة .

وفي الوقت نفسه قام الطلاب المسلمون في الجامعات بإنشاء رابطة بينهم لنشر الاتحاد بين الطلاب المسلمين في الصين ، وبحث الثقافة الاسلامية ، وتسهيل الاتصال بين الصين والعالم الاسلامي .

وتوجد كذلك في الصين جمعية « رقى التعليم الاسلامي » التي تأسست عام ١٩٣١ ، ثم انتخب الجنرال « عمر باي » رئيسا لها عام ١٩٣٣ . وترمي هذه الجمعية الى وضع مشروعات التعليم الاسلامي في الصين ، وتعقد بين حين وحين مؤتمرات

فاجتمع الأستاذ محمد على تان كوسان ، والشيخ عبد الرحمن ماسون تين ، ولأستاذ مانوشين ، وغيرهم من أقطاب المسلمين في الصين ، ووضعوا مشروع تأسيس معهد ديني ، ورسموا منهج الدراسة فيه ، وأطلقوا عليه مدرسة « جندا الاسلامية » للمعلمين .

ولم تلبث أن دخلت الفكرة في حيز التنفيذ ، وعين الأستاذ محمد على تان كوسان ناظرا لهذه المدرسة ، والشيخ عبد الرحمن ماسون تين وكيلا . واسم المدرسة معناه « التربية والترقى » . ويقصدون بذلك أنها تعمل على تربية النفوس وتهذيبها ، وصقلها عن طريق دراسة الاسلام .

وقد قامت هيئة الطلاب في هذه المدرسة بالوعظ والارشاد في البيوت الخاصة والمساجد ، ونظمت حلقات دينية في المواسم الدينية وشهر رمضان المبارك . ولكن حدثت ظروف سياسية عقب ذلك أدت الى اغلاق هذه المدرسة ، وتشريد طلابها .

وفي عام ١٩٣٣ سافرت بعثة من الأزهر الشريف مكونة من الشيخين : السيد محمد الدالي ، وابراهيم فيفل ، لاصلاح الدراسة في هذا المعهد . وعلى أثر وصولهما أنشئت فرقتان في هذه المدرسة ، هما . فرقة التدريس ، وفرقة الوعظ والارشاد . وألحقت بها مكتبة زاخرة بكثير من الكتب العلمية تم بناؤها عام ١٩٣٦ ، وزودت بشتى المراجع العلمية والدينية من مصر وغيرها من البلاد الاسلامية .

وفي بكين معهد اسلامي كبير بديء العمل فيه منذ نوفمبر عام ١٩٥٥ . ومهمته تثقيف المسلمين ، واعداد أئمة المساجد الصالحين . وتشرف على المعهد وتتولى الاتفاق عليه الجمعية الاسلامية في الصين التي أنشئت عام ١٩٥٣ . وقد أوفدت

وألف « ماجو » كتاب « الأبرهة المغناطيسية في الإسلام » لشرح للملك عام ١٠٩٨ القرآن الكريم ، وطلب منه تطبيق أحكامه في بلاد الصين ، ولكن ملك الصين لم يقبل . وهذا الكتاب يتناول خلق الكون ، وأحكام الآخرة ، وأسرار السماء والأرض ، وينقسم الى عشرة أجزاء .

وقد قام « صالح ليوجي » المولد في مدينة نانكين - بوصية من والده - بترجمة مؤلفات الفصول من الكتب الإسلامية ، منها : « آداب الإسلام » ، و « الطبيعة في الإسلام » و « ترجمة المصطفى » .

هذا وقد ترجم كتاب « ترجمة المصطفى » الى اللغة الانجليزية تحت عنوان « النبي العربي » . وألف « نور الحق ماجي » (توفي عام ١٩٠٣) مجموعة من الكتب باللغات الصينية والعربية والفارسية ، منها : « مفتاح المراح » ، « والعوامل في النحو » ، و « التيسير في علم الفلك » ، و « المختصر » ، و « سائر الحواشي في علم الصرف » ، و « الجواصل » ، و « تفصيل الايمان » ، و « شرح اللطائف » مع الحاشية في علم التصوف . ونقل كتاب العلامة صالح ليوجي في علم الطبيعة من الصينية الى العربية مع الحواشي .

وعقد الشيخ « بانغ جون مين آخوند » موازنة بين الإسلام والنصرانية والكونفوشيوسية والبوذية في كتابه « الأديان الأربعة » ، وترجم كتاب « عقائد النسفي » الى اللغة الصينية ، و « القاموس المصري » لـ لياي أنطون الياس (عربي انجليزي) الى اللغة الصينية .

وألف الشيخ الحاج عبد الرحيم ماسوتين كتاب « الإسلام والحياة » ، أما الأستاذ عثمان عفيفي

ثقافية لهذا الغرض ، يشترك فيها عدد كبير من المسلمين في الصين وغيرها من الدول الإسلامية . أما « جمعية الدفاع الإسلامية » التي أنشئت في مدينة « هانكو » عام ١٩٣٨ ، فتهدف الى انقاذ الصين من غائلة الأعداء - وكان تأسيسها على أثر الحرب التي دارت بين الصين واليابان - عن طريق نهضة الدين الاسلامي . وقد انتخب الجنرال « عمر باش جونغ هي » رئيسا لها ، ثم انتقلت الى مدينة « هونج كنج » .

والجنرال عمر باي كان عضوا وقتذاك في مجلس الدفاع الصيني الأعلى ووزير التدريبات العسكرية ، ووكيل رئيس أركان حرب الجيش ، المكلف بتدبير الخطط الجوية .

وتشرف جمعية الدفاع الإسلامية على المجلات الإسلامية « ، ومجلة « أنوار الإسلام » ، ومجلة « ناقوس الإسلام » التي صدرت بيونان تحت اشراف الجمعية الفرعية هناك ، ومجلة « الهلال والنجمة » التي تصدر في شينغهاي وغيرها من المجلات الإسلامية في الصين .

وقد نشر بالصين كثير من الكتب الإسلامية ، منها كتاب « الهداية الى قواعد الدين الصحيح » الذي نشر في مدينة « كاتون » عام ١٩٦٨ م ، وهو يثنى على نشاط الدعوة الى الإسلام ، ويشير الى هؤلاء الذين دخلوا في هذا الدين من بين الوثنيين . ويتعلم المحدثون في الإسلام قواعد هذا الدين الأساسية في كتب منظومة .

ومن الكتب المؤلفة في عصر « نانسينغ » (١٩٥٠ - ١٩٣٠ هـ) كتاب « موقظ الضالين » . وقد أتم تأليفه عام ١٩٩٠ « شاي يوشان » . ويتناول فيه كثيرا من أمور الإسلام بالعرض والتحليل ، ومما يذكر أن مؤلف هذا الكتاب حفظ القرآن وأجاد تفسيره ، وكثير تلاميذه .

تونغ سى باى لو فى الشرق الذى ألحقت به مدرسة « جندا » للمعلمين .

وفى مقاطعة « هونان » قرية تسمى « سانغ بو » ويسكنها حوالى عشرة آلاف نسمة كلهم مسلمون ، ولهم سبعة مساجد للرجال ، وأربعة مساجد للنساء . وفى كل مسجد مدرسة دينية عالية .

أما مقاطعة « شان تونغ » فعدد سكانها حوالى ٤٠٠ ألف نسمة ، بينهم ١٢ ألف نسمة من المسلمين . وفى مقاطعة « شانى » مئات الأسر المسلمة ، وبها « جمعية التبليغ الاسلامية » ويرأسها عبد الحميد ماتشونج تو .

وكذلك يوجد عدد كبير من المسلمين فى مقاطعات هو بوى وسو يوان وشاهار وجيهول . ويبلغ عدد المسلمين فى منشوريا حوالى نصف مليون مسلم . ومن أشهر العلماء هناك الشيخ أبو بكر جانغ .

أما منغوليا فهى بلاد وثنية ، ومع ذلك يوجد عدد من المسلمين فى عاصمتها « كولون » ولهم مسجد يصلون فيه ، ويجتمعون لدراسة هدى الله عز وجل .

أما فى جنوب الصين الشرقى فيبلغ عدد المسلمين فى مدينة « شنغهاى » وحدها مائة ألف نسمة من مجموع سكانها البالغ نحو خمسة ملايين نسمة . ومن أشهر الجمعيات الاسلامية هناك « جمعية ادارة شئون المسلمين » ، وتشرف على المساجد ، وتحصى أحوال المسلمين لتقديم لهم يد المعونة ، و « جمعية الفضائل الاسلامية » التى تعقد أسبوعياً سلسلة من المحاضرات الاسلامية ، يؤمها عدد غفير من المسلمين من شتى بقاع الصين ، و « جمعية النساء الاسلامية » التى تصدر مجلة « المسلمات » ، وأنشأ الشيخ الحاج مى جيون مكتبة اسلامية فى

الدين ماشوى فقد نقل « رسالة التوحيد » للشيخ الامام محمد عبده الى اللغة الصينية .

وهكذا قام العلماء الصينيون المسلمون بتأليف الكتب الدينية باللغة العربية تارة وترجمة الكتب العربية الى الصينية تارة ... كما استعانوا بكثير من الكتب الفارسية فى تأليفهم .

وقد قام العلماء المسلمون الصينيون بترجمة بعض مؤلفات العرب المحدثين الى اللغة الصينية . فترجم الأستاذ عبد الله ماجى كتاب « الصين وفنون الاسلام » ، ومقالات الدكتور عبد الوهاب عزام بعنوان « أخلاق القرآن » ، ومقالات الأستاذ عبد الرازق حميدة بعنوان « الطابور الخامس فى القرآن » . وترجم الأستاذ أبراهيم هونغ جين تسونغ كتاب « الاسلام » للمرحوم فتحى زغلول ، وكتاب « الخلفاء الراشدون » للشيخ عبد الوهاب النجار ، وكتاب « الميراث فى الشريعة الاسلامية » للأستاذ عبد المتعال الصعدي .

ونقل الأستاذ محمد تواضع بالغ كتاب « تاريخ التشريع الاسلامى » للأستاذ محمد الحضرى ، وكتاب « مناهل العرفان » ، للأستاذ عبد العظيم الزرقانى ، وكتاب « رسالة الكلام والمتكلمين » للدكتور محمد غلاب .

ومما يذكر أن الاسلام توغل فى شمال الصين وشماليها الشرقى ، حتى ان عدد المسلمين فى مدينة « بيكين » يبلغ مائة وسبعين ألفاً من مجموع سكانها البالغ مليوناً وسبعمئة وخمسين ألفاً . وفيها ٤٧ مسجداً فى شتى أنحاء المقاطعة ، ومنها المساجد الأربعة الملكية التى بنيت بأمر الأباطرة ، وهى : مسجد نيوكين فى الجنوب ، ومسجد فامينغ فى الشمال ، ومسجد بومينغ فى الغرب ، ومسجد

وعدد المسلمين في مقاطعة « زيتشوان » قليل . غير أنه توجد جماعة الطلاب المسلمين في جامعة « فونان » ، ولهم مطعم خاص ، وجريدة خاصة لنشر التعاليم الاسلامية اسما « لين تساو » . ويبلغ عدد المسلمين في مقاطعة زيتشوان ٢٤٧٦٠ نسمة ، وعدد المساجد ١١٨ مسجدا . أما مقاطعة « كوانغ سي » فيبلغ عدد المسلمين فيها ٩٣٨٥ نسمة ، وعدد المساجد ٢٢ مسجدا .

ويبلغ عدد المسلمين في مقاطعة « كوى شو » ٢٠١٢٩ نسمة ، وعدد المساجد ٤٤ مسجدا . ولا يوجد في العاصمة « كوى يانغ » غير مسجد واحد . وفي مقاطعة « سي كانغ » حوالى عشرة آلاف مسلم ، ولهم خمسة مساجد . وأنشئت بها الجمعية الفرعية لجمعية الدفاع الاسلامية عام ١٩٤٠ .

أما التبت ففيها عدد غير قليل من المسلمين . وفي عاصمتها « لاسا » مسجدان . ويوجد المسلمون كذلك في غرب التبت ، بيد أن عددهم غير معروف . والجدير بالذكر أن المسلمين في الصين يتمتعون دائما — فيما عدا أوقات الثورات والاضطرابات — بالحقوق والامتيازات التي ينعم بها سائر أفراد الشعب ، فلا تغلق في وجوههم وظيفة من وظائف الدولة ، فهم يشغلون كثيرا من المناصب في الوزارة والقضاء والجيش ، وغير ذلك من وظائف الدولة .

والغريب أن معظم الصينيين المسلمين يستطيعون تحديد الفترة التي اعتنق فيها آباؤهم أو أجدادهم الاسلام ، ويعتزون بها اعتزاز بالغا ، ولا يألون جهدا في سبيل نشر الاسلام . وفي بعض الأحيان يكونون ضحايا للاضطهاد الديني من البوذيين أو الكونفوشيوسيين أو الشيوعيين ، أو غيرهم من أصحاب المبادئ والمذاهب التي تتعارض مع الاسلام .

هذه المنطقة تباع فيها الكتب العربية والاسلامية والفارسية والصينية .

أما مدينة « فانكين » فتضم ٣٠٧٠٧ من المسلمين ، ولهم ستة وثلاثون مسجدا ، وتسع مدارس ابتدائية .

وتنقسم مقاطعة « كيانغ سو » التي تضم مدينة فانكين وغيرها من المدن الكبرى ، الى ٦١ اقليما تزخر بالمسلمين .

أما مدينة « يانغ شوى » فقد انتشرت فيها شعائر الاسلام منذ عهد أسرة سونج (٩٦٠ — ١٢٧٨ م) . وفي مدينة « جانغ شو » في مقاطعة « شاي كيانغ » ، مسجد قديم يعرف باسم « مسجد العتقاء » .

أما مقاطعات أتھوى وخونان وخوبوى وكيانغ سي وكانغ تونغ وفوكيان ، فحافلة بالمساجد والأسر المسلمة . ويبلغ عدد المسلمين في مقاطعة « خونان » وحدها ٦٠٢٠٤ ، وعدد المساجد ٧١ مسجدا ، كما يبلغ عدد المسلمين في مقاطعة خوبوى ١١٢٥٦ مسلما ، ويبلغ عدد المساجد ٣٥ مسجدا . أما مقاطعة كيانغ سي فيبلغ عدد المسلمين فيها ١١٤٢٠ مسلما ، وعدد المساجد ٧ مساجد ، ويبلغ عدد المسلمين في مقاطعة فوكيان ٢٨٠٠٥ ، وعدد المساجد ٧ مساجد .

وتوجد في مقاطعة « يونان » ، في جنوب الصين الغربى ، مكتبة كبرى تضم مجموعة كبيرة من الكتب العربية والاسلامية . ويطلق على هذه المكتبة اسم « جين سيو » ، أى نهضة العلم . واشتهر من مسلمى مقاطعة « يونان » الجنرال أحمد ماتسونغ ، الذى رأس « جمعية الدفاع الاسلامية » التي تكونت حين قامت الحرب الصينية اليابانية لتدفع خطر العدوان اليابانى .

الإسلام في اليابان

دخل الإسلام اليابان ، كما دخل الصين ، من طريق التجارة والتبشير . ولا يوجد في اليابان إلا عدد ضئيل من المسلمين ، هاجر بعضهم إليها من جزر المحيط الهادى أو الهندى .

وقيل ان أحد الأمراء اليابانيين زار السلطان عبد الحميد في الأستانة ، وأخذ يتجاذب معه الحديث ، وتطرق بهما الحديث إلى الأديان ، فقال له السلطان : « بلغنى أنكم تبحثون عن دين ، فإن كان الخبر صحيحا فأنا أوصيكم بالإسلام » . فقال له الأمير اليابانى : « ليس الخبر كما بلغ سيادتكم ، بل نحن متمسكون بديننا » .

ومع ذلك فقد شرعت الحكومة العثمانية في التقرب إلى اليابانيين ، وظهرت الصحف وأعمدتها تزخر بوجوب نشر الدعوة الإسلامية في اليابان . واختير المبشرون للقيام بهذا المشروع الإسلامى الكبير ، وأرسل السلطان وفدا على ظهر بارجة حربية ، ومضى الناس يتناقلون أخبار هذا العمل الجليل ، ويؤيدونه أشد التأييد . وقالت صحيفة مصرية عام ١٩٠٦ : « ان بريطانيا العظمى — وفي حكمها ستون مليوناً من المسلمين — لتخشى كل الخشية أمر اسلام اليابان ... الأمر العظيم الذى لو حدث لتغير على الأثر مجرى السياسة الإسلامية العامة تغيرا كليا هائلا » . وقال شيخ من شيوخ مسلمى الصين : « إذا شئت اليابان أن تدرك منزلة لم تدرك مثلها دولة فيما مضى ، وأرادت أن ترفع آسيا على شأن سائر القارات ، فلا يتم لها ذلك ألبتة إلا باتجاهها للإسلام ديننا » .

وقد استقبلت اليابان وفد المسلمين استقبالا حسنا ، وأجلته محل الرعاية والاحترام . ولم

يستطع هذا الوفد أن يحقق رسالته التى أتى من أجلها ... غير أنه بشر تبشيرا طيبا بالدين الإسلامى هناك ، مما كان له أبعد الأثر فى نفوس يمكن أن تعتنق الإسلام بشىء من الاقناع والاستمالة ، وشىء من الصبر والاصرار .

ولا يزال الدين الإسلامى فى هذه البقاع فى حاجة إلى من يدعو له ، وينافح عنه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور .

وفى مدينة كوبى مسجد تأسس عام ١٩٣٥ من ثلاثة طوابق ، يستخدم الطابق الأرضى منها مخبأ من الغارات الجوية ، وتقام فيه الصلوات الخمس ، كما تقام فيه صلاة التراويح فى شهر رمضان المبارك . وفى طوكيو مسجد آخر أسس عام ١٩٣٧ بفضل الامام التركى الشيخ محمد عبد الحى القوربنالى ، وتشرف عليه الجمعية الإسلامية فى طوكيو ، وملحقة بالمسجد مدرسة فيها عدد يربى على العشرين من الطلاب .

وقد ترجم القرآن إلى اللغة اليابانية منذ سنوات ، ويحرص ما يقرب من ألف مسلم متناثرين فى أرجاء الجزر اليابانية ، على تلاوته والاستفادة من مواعظه وعبره .

الإسلام فى جزائر الفيليبين

تقع جزائر الفيليبين بين المحيط الهادى شرقا وبحر الصين الجنوبى غربا وبحر سيليس جنوبا . وهى أرخبيل يشمل مجموعة كبيرة من الجزر يبلغ عددها ١٢٠٠ جزيرة ، أشهرها جزيرة لوسون وجزر بابوان وجزر كالاميان . وهى جزائر جبلية بركانية كثيرة الزلازل ، وعدد سكانها ٧ ملايين ، وبها عدد وفير من المسلمين ، كما يوجد بها كاثوليك ووثيون . وسميت الفيليبين نسبة إلى

الإسلام في الاتحاد السوفيتي

يقف الإسلام في الاتحاد السوفيتي بين تيارين متضادين من المؤرخين : تيار يتأثر بالمشهد الشيوعي ، فيشيد بحرية المسلمين في الاتحاد السوفيتي ، وتيار يهاجم سياسة الاتحاد السوفيتي إزاء المسلمين والذي لا شك فيه أن الدين الإسلامي لاقى كثيرا من المحن في عهود مختلفة من جانب السوفيت ، ولعل الاتحاد السوفيتي غير سياسته تجاه الدين الإسلامي في هذه الآونة لكسب الشعوب الشرقية في مضمار السياسة الدولية .

ويظهر أن الاتحاد السوفيتي غير اتجاهه إزاء الإسلام والمسلمين منذ نهاية الحرب العالمية الأخيرة ، إذ ساهم فيها عدد كبير من المسلمين الروس من شتى المقاطعات الإسلامية والأوربية ، فرأت الحكومة الشيوعية أن تترك لهم أمور العبادات ، وأداء فرائضهم الدينية ، فسمح لهم بمزاولة بعض نشاطهم القديم ، وترخصوا في إقامة الاجتماعات الدينية ما لم تكن متعارضة مع النظام الشيوعي .

وتدار الجمعيات الدينية الإسلامية بواسطة أربعة مراكز دينية ، هي :

١ - المجلس الديني الإسلامي للقسم الأوروبي من اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ولسيريا ، وهو يدير الشؤون الدينية للمسلمين الذين يعيشون في القسم الأوروبي من الاتحاد السوفيتي - باستثناء القوقاز الشمالي وداغستان - وفي سيريا . ومقر المجلس الديني مدينة « أوف » ، ورئيسه المفتي شاكر خيال الدينوف .

٢ - المجلس الديني الإسلامي لآسيا الوسطى

فيليب الثاني ملك أسبانيا الذي بلغها الأسبان في عهده عام ١٥٦٨ .

وبعض المسلمين لا يلم الماما سليما بالإسلام . وقد ذهب المرحوم وجيه أفندي الكيلاني النابلسي إلى الفيلبيين لتفقيه المسلمين هناك في أمور دينهم ، غير أنه مرض فرجع إلى بلاده ، وقطعت عنه الدولة العثمانية راتبه الشهري ، وأبت أن ترسله مرة ثانية . ولكنه تحمس وسافر على نفقته الخاصة إلى هذه الجزر ، وقام بتعليم المسلمين هناك أمور دينهم ، وكان كشيخ إسلام في الفيلبيين . وقد أوفدت الجمهورية العربية المتحدة بعض مبعوثيها إلى هذه البلاد لتعليم العربية وتعاليم الدين الإسلامي . غير أن المسلمين هناك لا يزالون في حاجة إلى مزيد من العناية والاهتمام .

ويبلغ عدد المسلمين هناك نحو ٣٨٠٠٠٠ وهم موزعون كالآتي :

١٠٧٢٠٠ في كوتاباتو

٦٥٠٠ في دافو

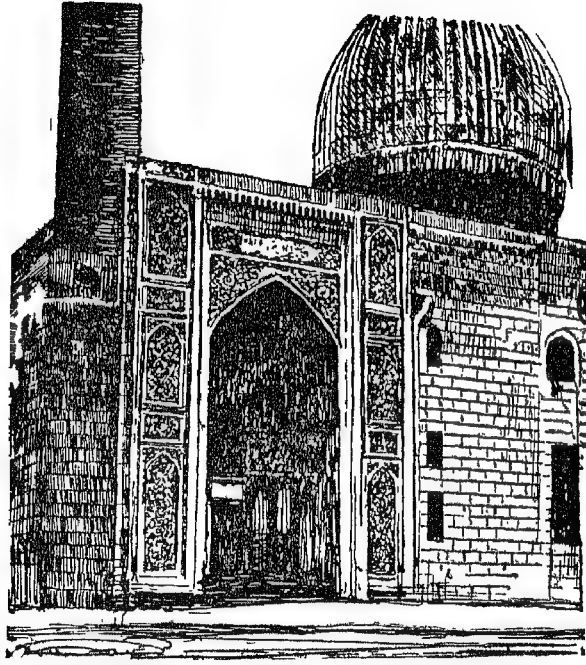
٧٥٩٦٠ في لانوا

١٤٤٠٠٠ في سولو

٤٥٠٠٠ في زامبوانجا

وعلاوة على ذلك يوجد نحو أربعمئة في جزيرة « ينجروس » وجزيرة بوهول ، وخمسة آلاف في بالاوان وبالاك ، وأربعمئة في بوكيدون ، ومائة في كاجايات . وقد شيد أول مسجد في البلاد في « توبجندنان » في القرن السادس عشر .

وقد ذكر المسيو شاتليه في بحث له في مجلة العالم الإسلامي بعنوان « السياسة الإسلامية » أن هناك جاليات من المسلمين مبعثرة في جزر المحيط الهادي ، ولكنها كلما تباعدت قل عددها . بيد أنها على أي حال أكثر في هذه الأصقاع البعيدة من الجاليات الأوربية ، وهي تبث الإسلام هناك بالتجارة والأخذ والعطاء .



مسجد ليننجراد بالانحد السوفيتي

مساجد جديدة ، وادارة المسائل المالية والادارية الخاصة بالمجالس الدينية والرقابة عليها محليا ، وتنظيم بعثات الحج الى مكة ، والاتصال بالهيئات الدينية الأجنبية للمسلمين ، ومسائل أخرى تتعلق بالعقيدة والادارة التنظيمية .

والمألوف فيما يختص بالدراسة الدينية أن يلحق رب العائلة أبناءه بمبادئ الدين الرئيسية وفروعه ، وفقا لمقدرته وإطلاعه . وبعد هذا الاعداد الأولى يأتي الآباء — اذا أرادوا — بمدرس خصوصي ليتابع تعليم الأبناء الدين .

ولبعض العلماء في آسيا الوسطى وداغستان مثلا عدد من التلاميذ الخصوصيين . وكثيرا مايكتشفون الطلبة القادرين ، ويوصون المجالس الدينية بالحاقهم بمدارس الدين . ومثال ذلك مدرسة « مسيرعرب » في بخارى التي تعمل تحت اشراف المجلس الدينى الاسلامى لآسيا الوسطى وكازاخستان . ومدة الدراسة في هذه المدرسة تسع سنوات ... يتلقى الطالب في السنوات

وكازاخستان . وهو يدير الشئون الدينية للمسلمين الذين يعيشون في أوزبكستان ، وقرغيزيا ، وقازجستان ، وتركمانيستان وكازاخستان . ومقره مدينة « طشقند » .

٣ — المجلس الدينى الاسلامى لما وراء القوقاز ، ومقره مدينة « باكو » ، ويدير الشئون الدينية للمسلمين من الشيعة والسنيين الذين يعيشون في أذربيجان وجورجيا وأرمينيا .

وقد استطاع مسلمو « ماوراء القوقاز » السوفيتية أن ينظموا مجلسا دينيا واحدا للشيعة والسنيين معا .

وتسوى المجالس الدينية المسائل الدينية البحتة المتعلقة بالعقيدة والعبادة ، والتي تظهر في تفسيرها صعوبات أو خلافات في رأى . وقرارات المجالس الدينية في مسائل الشريعة يطلع عليها المسلمون حاملة توقيع المفتى أو توقيع شيخ الاسلام . وللمفتى أو شيخ الاسلام أن يصدر الفتاوى في هذه المسألة أو تلك من مسائل الشريعة .

وهناك مسائل أخرى تعالجها المجالس الدينية : كتعيين الخطباء والأئمة لطوائف المسلمين ، والتصديق على انتخاب الأئمة بوساطة المسلمين ، وتعيينهم بعد أن تمتحن معارفهم امتحانا وافيا ، والوسائل المتعلقة بتعيين أو فصل أو نقل القائمين بخدمات العبادة الدينية ، وتوزيع الوثائق اللازمة عليهم ، وكذلك الرقابة العامة على نشاط الطوائف الاسلامية في الجمهوريات والأقاليم والمناطق ، واختيار مناهج التعليم للمدارس الدينية (سمحت لها الحكومة السوفيتية أخيرا بمزاولة نشاطها) ، ودراسات لتدريب القائمين بخدمات العبادة الدينية ، والرقابة على تدريبهم في هذه المدارس ، ونشر المؤلفات الدينية ، والتصرف في مسائل انشاء

هذه المساجد مسجداً « ليننجراد » الذي يؤمه المسلمون هناك لأداء فريضة الصلاة كل يوم ، ويجتمعون فيه أيام الجمع والأعياد الرسمية . ويشرف عليه المجلس الدينى الاسلامى للقسم الأوروبى من الاتحاد السوفيتى ولسيريا . وتجمع صلوات عيد الفطر أو عيد الأضحى فى جامع « موسكو » عادة ٨٠٠٠ مسلم ، أما جامع تل الشيخ - وهو أحد مساجد طشقند الستة عشر الكبيرة - فيتراوح عدد المصلين فيه بين ١٠٠٠٠ ، ١٢٠٠٠ مسلم ومسلمة ، اذ يسمح للسيدات بحضور الصلاة على أن يكن بمعزل عن الرجال

وفى طشقند وحدها ١٦ جامعا كبيرا ، واذا أضيفت اليها الخلوات والمصليات أربت على المائة ... منها مساجد قديمة ، كمساجد تل الشيخ ، ومساجد حديثة نسبيا ، كمساجد الرقيات ومرزا يوسف وكريل تاوش واران كوتشا وغيرها .

وبالقرب من مدينة « مرفا » القديمة (مارى الآن) فى تركمانستان لا يزال المسجد الذى بنى عام ٨٦٩ قائما حتى الآن ويدعوه الناس بالجامع الحمدانى ، نسبة الى الزعيم المسلم الكبير الحاج يوسف الحمدانى ، ويؤمه فى الأعياد آلاف من المسلمين فى جميع أنحاء تركمانستان . وبالقرب من مدينة مارى يقوم صرح من أقدم الصروح المعيارية فى آسيا الوسطى ، وهو ضريح السلطان « سنجق » الذى كان من أتباع الحاج الحمدانى . وقد بنى الضريح فى القرن الثانى عشر ، وما زال محتفظا بروعته حتى الآن .

وفى أوزبكستان مسجداً « ببى هانم » زوجة تيمورلنك الأولى ، وقد ظل محتفظا بروعته طيلة خمسة قرون كاملة . وفى نهاية القرن الماضى عانى كثيرا بسبب الزلازل وقد تم بناء المسجد عام ١٤٠٤ بعد خمسة أعوام من البدء فى بنائه . ويمول

الخمس الأولى تعليما متوسطا ، وفى السنوات الأربع الأخيرة بتلقى تعليما عاليا .

والمدرسة داخلية ، ويعيش فيها الطلاب على نفقة المجلس الدينى الذى أرسلهم اليها ، ويزورون منازلهم عادة خلال العطلة الصيفية . وعند تخرجهم فى المدرسة يعينهم المجلس الدينى أئمة وخطباء لطوائف المسلمين ، وشيوخا للمزارات بحسب أعمارهم ومواهبهم ، وقد يعين بعضهم مدرسا فى المدرسة نفسها .

وتعمل مدرسة « بركة خان » فى طشقند بالطريقة ذاتها ، وهى أيضا من أبرز مدارس الاسلام فى آسيا الوسطى .

وتصدر المجالس الدينية بانتظام النتائج الهجرية وطبقات جديدة من القرآن الكريم ، وكتب الفقهاء ، كما تصدر الفتاوى الشرعية ، ومختلف المبادئ والتفسيرات ، متناولة مختلف المسائل الدينية لخدمة الدين . وفى عام ١٩٤٥ صدر كتاب « الاسلام دينى » باللغة التترية ، بقلم المفتى السابق عبد الرحمن وسوليف ، رئيس المجلس الدينى الاسلامى للقسم الأوروبى من الاتحاد السوفيتى ولسيريا ، ويشرح الكتاب بالتفصيل جميع الواجبات المتعلقة بالصلاة شرحا وافيا .

وفى أوائل عام ١٩٥٦ أصدر المجلس الدينى الاسلامى لآسيا الوسطى وكازاخستان فى طشقند طبعة جديدة من القرآن الكريم باللغة العربية . وفى خريف عام ١٩٥٦ أصدر المجلس الدينى الاسلامى للقسم الأوروبى من الاتحاد السوفيتى ولسيريا طبعة جديدة من القرآن الكريم . كما ألف المفتى شاكى خيال الدينوف ، رئيس هذا المجلس ، كتابا جديدا صدر حديثا بعنوان « الاسلام والعبادات » .

وفى روسيا كثير من الآثار الاسلامية ، وعدد غفير من المساجد فى روسيا الأوروبية ، ومن أشهر

منهم يعيش في داغستان وتركمانستان وأوزبكستان
وفي تاجيكستان يوجد اسماعيليون كما يوجد
سنيون .

ويبلغ عدد المسلمين جميعا في الاتحاد السوفيتي
نحو ٢٦ مليون مسلم .

ويقول « فنسنت موتيل » : « ان عدد المسلمين
يبلغ نحو ٢١ مليونا : منهم ١١ مليونا في آسيا
الوسطى ، ٥٤ ملايين في القوقاز ، ٥٤ في
الفولجا ، وما تبقى موزعون في أنحاء البلاد المختلفة » .

ويبلغ عدد المسلمين في منغوليا نحو ٢٠٠.٠٠٠ .
وقد دخل الاسلام اليها منذ العصور الوسطى من
طريق القوافل التجارية التي تنتقل بين الصين
ومنغوليا .

أما مسلمو القرم فمن أصل تترى مغولي ، وهم
رعاة رحل ، ويتبعون في الغالب المذهب الحنفي .
وفي ليتوانيا ما يقرب من ألفى مسلم .

والجمهوريات الاسلامية في الاتحاد السوفيتي ،
هي : تازاكستان ، وأزبكستان ، وأذربيجان ،
والقرغيز ، وكازاخستان ، وتركمانستان . ويوجد
فقر ضئيل من المسلمين في الجمهوريات غير
الاسلامية ، وهي : روسيا ، وأكرانيا ، وبيلوروسيا ،
(روسيا البيضاء) وجورجيا ، وأرمينيا ، ولتوانيا ،
ولتوانيا ، وكوريا ، ومولدافيا .

ويبلغ عدد المسلمين في تازاكستان نحو مليون
 وخمسمائة ألف مسلم ومسلمة ، وهم ينتمون الى
أصل إيراني ، وزعيمهم الروحي هو القاضي
عبد الرشيد موزابكوف .

أما أوزبكستان فتبلغ نسبة المسلمين فيها ٩٣٪
من مجموع السكان البالغ عددهم ٢٨٢٣٤٤٦
نسمة . ونسبتهم في « أذربيجان » ٨٠٪ من

مؤرخ « تيمورلنك » على يزدى ، الشهير بشرف
الدين ، في كتابه « ظفر نامه » ، أي كتاب
« الانتصارات » : « ان قبته فريدة في نوعها ،
وقوسه نسيج وحده ، ومنارته ترتفع في السماء كي
تقول . هذه أعمالنا تشير إلينا ، فيصل قولها أركان
العالم الأربعة » .

ومن مباني سمرقند التاريخية ضريح « جور »
أمير مكانة كبرى وقد شيد بأمر تيمورلنك بين
عامي ١٤٠٤-١٤٠٥ م فوق قبر أحب أبنائه وولي
عهده السلطان محمد ، المتوفى عام ١٤٠٣ م . وفي
داخل الضريح مجموعة من الخطوط الرائعة على
القبور وأصبح ضريح تيمورلنك ضريحا لأسرته
بعد وفاته ، ودفن فيه اثنان من أبنائه أيضا ، هما
شاروخ وميران شاه كما دفن فيه أحد ملوك أسرة
تيمورلنك « أولغ بك جراجاني » .

وفي مدينة « بخارى » جامع « كليان الكبير » .
ويرجع تاريخ بنائه الى عام ١٥٤١ م ، ويقع بجوار
مدرسة « مسير عرب » التي يرجع تاريخ انشائها
الى عام ١٥٣٩ ، ويجاور الجامع والمدرسة مئذنة
طويلة أقيمت نحو عام ١٩٢٧ م ، أي قبل انشاء
الجامع والمدرسة

وتؤلف هذه المباني الثلاثة البساعة - وهي
المدرسة والمئذنة والجامع - مجموعة معمارية رائعة
في قلب بخارى القديمة .

ومن أشهر الأضرحة التي يؤمها مسلمو آسيا
الوسطى ضريح الامام « أبو بكر كفال شاشي » ،
ويدعونه بالامام لشهرته في آسيا الوسطى كلها ،
وضريح مولانا عطا في خيوه ، وقبر سلطان بابا في
كاراكالباكيا ، وجامع تازة بير الكبير في باكو .

وتنتسب الأغلبية الساحقة من المسلمين في الاتحاد
السوفيتي للطائفة السنية . أما الشيعة فهم قليلون
نسبيا ، ومنهم المسلمون في أذربيجان ، وعدد ضئيل

ونسبتهم في تازاكستان ٥٠٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٦١٤٥٣٧٩ .

ويحرص كثيرون من المسلمين على أداء فريضة الحج ، وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة ، والأماكن المقدسة . وفي مكة يلتقون بالمسلمين من جميع أنحاء العالم في جو تسوده المحبة ، وتُعرف عليه ألوية السلام .

مجموع عدد السكان البالغ ٣٢٠٩٧٣٠ نسمة . وفي تركستان ٨٠٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ١٢٣٥٩٨٥ ، وهم سنيون أحناف ، وزعيمهم الروحي هو الامام الخطيب عبد الرحمن شارينوف .

وفي « القرغيز » تبلغ نسبة المسلمين ٧٨٪ من مجموع السكان ، وهم على مذهب أهل السنة .



الإسلام في إفريقية

الإسلام في الجمهورية العربية المتحدة الافليم الجنوبي

الى التخلص من نير هذا الاستبداد ، والتحرر من ربة هذا الاستبعاد . وقد كتب الله لهم ذلك على يد عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين .

عند ما وصل عمر بن الخطاب الى الجاية عام ١٨ للهجرة (٦٣٩ م) طلب منه عمرو بن العاص أن يأذن له في المسير الى مصر ، وقال له : « انها أكثر الأرض أموالا ، وأهلها أعجز الناس عن الدفاع عن أنفسهم » (يقصد الرومانيين الذين سيطروا على أزمة الحكم في البلاد) . وأضاف قائلا : « انك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم » .

وقد تردد الخليفة في بداية الأمر لاشفاقه من فشل التجربة من جهة ، ولأن كتائب المسلمين كانت متفرقة في الشام والجزيرة وفارس من جهة أخرى ... زد على ذلك أن عمر كان لا يطمع في الفتح . ولكن عمرو بن العاص أقنعه بأن هذا الفتح سيكون فتحا للمسلمين ، وخالصا لمصر من المستعمرين . كما أن بقاء مصر في يد الروم سوف يعرض العرب في بلاد الشام للخطر ، فيكونون شوكة تقض مضاجع المسلمين ، ولا تسلمهم الى الطمأنينة أو الهدوء .

فأذن عمر بن الخطاب لعمر بن العاص . وجهز عمرو جيشا قوامه ٤٠٠٠ مقاتل . وقبل أن يتحرك عمرو بن العاص بهذا الجيش اللجب ، قال له الفاروق عمر : « اني مرسل اليك كتابا ، فان أدركك وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها ، فانصرف ... وان دخلتها قبل أن يأتيك كتابي ، فامض لوجهك ، واستعن بالله واستنصره » .

كانت مصر قبل قدوم العرب اليها احدى الولايات الواقعة تحت حكم الرومان . وكانت — كغيرها من الولايات — تدين بالوثنية ، الى أن ولد المسيح عليه السلام في عهد الامبراطور أغسطس قيصر ، مؤسس الامبراطورية الرومانية ، على أثر انتصاره على جيوش أنطونيوس وكليوباترا سنة ٣١ قبل الميلاد . ومنذ تلك الفترة انتشر الدين المسيحي ، وطمح على الوثنية الى أن جعل الامبراطور تيودوسيوس المسيحية الدين الرسمي للدولة عام ٣٨١ م .

ومنذ أن استولى الرومان على مصر عام ٣٠ قبل الميلاد جعل أغسطس قيصر هذه البلاد ضيعة من ضياع الرومان ، يستنزفون خيراتها ، ويسلبون ثرواتها ، ويفرضون الضرائب على أهلها بلا رحمة ولا هوادة ، ويسلبون الأهالي أموالهم وأثاث بيوتهم وممتلكاتهم دون رادع من عقل ولا وازع من ضمير .

وكان المصريون ملزمين بأيواء من يمر بهم من الموظفين الملكيين أو العسكريين من الرومانيين ، وكانوا مجبرين على توفير أسباب الراحة لهم في حلهم وترحالهم ... بل كانوا مضطرين الى فتح بيوتهم لهم في أى ساعة من ساعات الليل أو النهار . ولذلك تطلع المصريون بصبر نافذ وشوق شديد

كلامهم ، فلعله أن يأتي الأمر بيننا على ما نحب
وتحبون . »

وقد حملت رسل المقوقس هذا الكتاب الى عمرو
ابن العاص ، بيد أنه قال لهم ، بعد أن أبقاهم
يومين : « ليس بيننا وبينكم الا احدى خصال
ثلاث : اما دخلتم في الاسلام فكنتم اخوانا ، وكان
لكم ما لنا وعليكم ما علينا . وان أبيتتم فالجزية ...
واما القتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو أحكم
الحاكمين . »

ولما رجعت بعثة المقوقس اليه زادت لهفته لمعرفة
أحوال المسلمين فسألهم عنها ، فقالوا : « رأينا قوما
الموت أحب اليهم من الحياة ، والتواضع اليهم من
الرفعة . ليس لأحد منهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ...
جلوسهم على التراب ، وأميرهم كواحد منهم .
ما يعرف كبيرهم من وضعيهم ، ولا السيد فيهم من
العبد . واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد ،
يغسلون أطرافهم في الماء ، ويخشعون في صلاتهم .
وقد دارت المفاوضة بين الفريقين لعقد الصلح .
فأراد المقوقس أن يتخلص من هذه الشروط الثلاثة ،
ولكن عبادة بن الصامت رفع يديه وقال . « لا ورب
هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شيء ،
ما لكم عندنا خصلة غيرها ، فاختاروا لأنفسكم . »
فقال المقوقس لقومه : « أطيعوني وأجيبوا القوم
الى خصلة من هذه الثلاث ، فوالله ما لكم بهم من
طاقة . وان لم تجيبوا اليهم طائعين ، لتجيبنهم الى
ما هو أعظم من ذلك كرها . »

وقد عرض المقوقس الأمر على هرقل ملك الروم ،
فأنبه على هذا الصلح ، وحقر له شأن المسلمين حتى
خرقت الهدنة القائمة بين الطرفين . فاضطر عمرو
ابن العاص الى الزحف الى الاسكندرية ، فاستولى
على الحصون التي تقع على القسطنطينية والاسكندرية
وكان على رأس المقدمة عبد الله بن عمرو بن العاص ،

ويقال ان كتاب عمرو وصل الى عمرو وهو برفح ،
فلم يتسلمه من الرسول ... حتى كان قرب العريش ،
أخذ الكتاب وقرأه على أصحابه ، فاذا عمرو يأمره
فيه بالانصراف ان لم يكن دخل أرض مصر . فأمر
عمرو بن العاص الجيش بالسير على بركة الله .

وقد وصل عمرو الى العريش عام ١٨ للهجرة ،
وفتحها من غير مقاومة تذكر . واستمر في زحفه
حتى وصل مدينة الفرما ، وكانت أول مدينة مصرية
يصل اليها ، لأن العريش كانت تقع في قسم الحدود
وقتذاك . وقد اضطر المسلمون الى حصار الفرما
شهرًا ونصف شهر ، حتى تم فتحها في أول شهر
المحرم عام ١٩ للهجرة (منتصف يناير عام ٦٤٠ م) .
وقد ساعد القبط المسلمين في حصار الفرما ضد
الرومان .

واستأنف عمرو زحفه حتى استولى على بليس ،
ومنها الى أم دينة حيث نشب قتال مرير بين المسلمين
والرومانيين الذين تحصنوا في حصن بابليون . ولما
استمر القتال بين الفريقين عدة أسابيع ، طلب عمرو
من عمر بن الخطاب أن يمدّه بمدد ، فأمدّه عمر
بأربعة آلاف على رأسهم أربعة من مشهورى
الصحابة هم : الزبير بن العوام ، وعبادة بن
الصامت ، ومسلمة بن مخلد ، والمقداد بن الأسود .
وكتب الخليفة لعمر بن الخطاب « قد أمددك بأربعة آلاف
فيهم رجال الواحد منهم بألف رجل » .

واستطاع عمرو بن العاص بمساعدة المدد القادم
أن يحاصر حصن بابليون سبعة أشهر كاملة حتى
نفدت معدات الحرب عند العرب . ولكن المقوقس
طلب أخيرا الصلح ، وقال لعمر بن الخطاب أرسله
اليه : « قد جئتم أرضنا ، وطال مقامكم فيها ،
وأنتم عصابة بسيرة ، وأخشى أن تغشاكم الروم
فتندموا . فابعثوا الينا رجالا منكم نسمع من

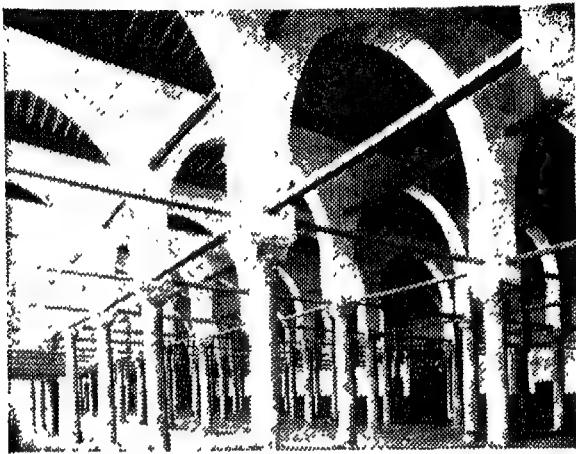
وعلى اثر ذلك انتشرت القبائل العربية في جميع أنحاء البلاد ، وكان منهم أولاد الكنز وأصلهم من ربيعة ، وكانوا ينزلون اليمامة فقدموا أرض مصر ، زمن خلافة المتوكل ، في عدد كثير ، وانتشر فريق منهم في أعالي الصعيد . كما وفدت قبيلة جهينة الى مصر ، وفي ذلك يقول المقرئ في كتابه البيان والاعراب : « وجهينة أكثر عرب مصر ، وهؤلاء كانوا يسكنون حول أسيوط وما بعدها » .

وفي الفيوم نزل بنو كلاب ، ومن ميت غمر الى زفتى سكن سعود خزام ، وسكن حول تيس ودمايط قوم ينتسبون الى نصر بن معاوية ، وهم من هوازن .

وهكذا انتشرت القبائل العربية في مصر ، وحملت معها الاسلام في أرجائها المختلفة حتى دخل الناس في دين الله أفواجا . وأصبحت مصر حصنا من حصون الاسلام ، ومعقلا عظيما للذود عن مبادئه . وقد قامت الدول الاسلامية التي تولت حكم مصر على مر العصور ببناء المساجد والجوامع ، وتعمير بيوت الله

اول مسجد في مصر

وبنى عمرو بن العاص في عام ٢١ للهجرة (٦٤٢ م)



سحن جامع عمرو بن العاص اول مسجد انشئ في الاقليم الجنوبي من الجمهورية العربية المتحدة

وكان حامل اللواء وردان مولى عمرو . وكانت حامية الاسكندرية يربى عددها على خمسين ألف جندي ، والعرب نحو اثني عشر ألفا . وأخيرا دافعت للعرب حصون الاسكندرية ، واستطاع عبادة بن الصامت أن يقتحم أسوارها .

ولم يلبث المقوقس نفسه أن أبرم الصلح مع العرب ، وتقرر فيه المهادنة أحد عشر شهرا ، واحتفاظ العرب بمراكزهم مدة الهدنة ، وألا يباشروا أعمالا حربية ضد الاسكندرية . كما فرض على الجنود الرومانية أن يكفوا عن الأعمال العدوانية . وتقرر أن يدفع كل من فرض عليه الجزية دينارين في كل سنة ، وألا يتعرض المسلمون للكنائس بسوء ، وألا يتدخلوا في أمور المسيحيين ، وأن يبقى اليهود بالاسكندرية ، وألا يعودوا أو يحاول استرداد مصر جيش روماني ... كما ترحل الحامية التي بالاسكندرية مع ما يملك أصحابها من أموال وأمتعة ، وأن يدفعوا الجزية عن شهر عند رحلتهم ، وأن يكون لدى المسلمين من الروم ١٥٠ جنديا و ٥٠ ملكيا بمثابة رهينة لتنفيذ المعاهدة .

وقد أقلق هذا الصلح جانب الروم ، وحاولوا أكثر من مرة الاستيلاء على الاسكندرية ، وشنوا الغارات تلو الغارات لتحقيق أغراضهم . ولكن عمرو بن العاص وقف لهم بالمرصاد ، وأعمل السيف في رقابهم ، واسترد الاسكندرية بعد ما استولى عليها الروم . ومنذ ذلك الوقت انتشرت القبائل العربية في مصر .

وقد اشترك في هذا الفتح قبائل مختلفة من قريش والأنصار وخزاعة ومزينة وأشجع وجهينة وثقيف وقيس ... وقد سكنوا الفسطاط . أما همدان فلم يقبلوا أن يسكنوها واختاروا الجزيرة لهم مقرا . وحاول عمرو أن يصحبهم الى الفسطاط فلم يستطع حتى انه خاطب الخليفة في شأنهم .

تفسير وما البها ، وتؤهل به بدوره للتدريس . وكان أهم ما يدرس في الأزهر ، هو علم الكلام وعلم التوحيد وتفسير القرآن الكريم والحديث الشريف . وكان للعلماء على المجاورين سلطان عظيم ، وكان الطلاب يحترمون شيوخهم احتراماً فائقاً ، ويقبلون أيديهم ، ويحملون نعالهم ، ويؤدون لهم مختلف الخدمات ، ولا ينادون شيوخهم إلا بكلمة أستاذ أو كلمة مولانا .

وقد حوت مجموعة محفوظة في « ليبزج » كثيراً من المعلومات عن الدراسة في الأزهر في القرن الثاني عشر للهجرة . وكان على رأس الأزهر في القرون الوسطى ناظر ينتخب من بين كبار موظفي الدولة . وكان لكل رواق شيخ ، ولكل طريقة نقيب . ولم يكن للأزهر شيخ أكبر إلا منذ العهد العثماني . وجرت العادة أن تتخلل الدراسة عطلات تختلف طولاً وقصراً ، وأطولها العطلة التي تبدأ في شهر رجب ، وتستمر طوال شهرى شعبان ورمضان ، وتنتهى بعد عيد الفطر في أوائل شوال . وبعد ذلك بنحو شهرين تحل عطلة عيد الأضحى ، وتستمر أياماً . وتقف الدراسة أيضاً في أيام الموالد ، وخاصة في المولد النبوى ومولد البدوى في طنطا . ولم يلبث أن تقلد مشيخة الأزهر علماء أفاضل عملوا على رفعته ورفع شأنه حتى العصر الحديث .

ومن المساجد التي أنشئت في مصر : مسجد أحمد ابن طولون ، مسجد قايتباى بحى الأزهر ، مسجد الغورى ، مسجد الامام الحسين ، مسجد السلطان حسن ، مسجد برقوق ، مسجد السلطان المؤيد ، مسجد السيدة زينب ، مسجد السيدة نفيسة ، مسجد أبو العلا ، مسجد المدبولى ، مسجد العباسى ، مسجد الامام الشافعى ، مسجد أبو العباس بالاسكندرية ، مسجد السيد البدوى

أول مسجد في مصر ، وكان المسجد يوم أنشئ يتكون من فضاء رحب ، تسوره جدران عادية ، وله بابان في مواجهة دار عمرو ، وبابان في الناحية البحرية ، وبابان في الناحية الغربية . وكان سقفه المصنوع من الجريد منخفضاً جداً ، واتخذت أعمدته من جذوع النخل ، ولم يكن له صحن يتسع لجلوس المسلمين .

وقد اهتم قرة بن شريك بعد ذلك باصلاح المسجد وعماره ، كما عني غيره من ولاة مصر بذلك ، حتى أصبح عميد المساجد العربية في الاقليم الجنوبى . وبني بعد ذلك مساجد في شتى أنحاء البلاد في عهد الحكام المسلمين الذين تولوا الحكم في مختلف العصور ، كالطولونيين والأخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين في العصر الحديث .

ويعد الجامع الأزهر من أهم المساجد في الاقليم الجنوبى ، لا لقدمه ومكائنه التاريخية فحسب ، وإنما لأنه أصبح جامعة دينية يؤمها طلاب العلم من شتى الأقطار والأمصار ، ويحضرون اليه من كل فج عميق لاستكمال ثقافتهم الدينية . وقد تخرج في هذا الجامع ، بل هذه الجامعة ، آلاف من العلماء والفقهاء ، رفعوا لواء الاسلام ، وكانوا رسل الثقافة الاسلامية الى مختلف أرجاء المعمورة . وقد بنى هذا المسجد في عهد المعز لدين الله الفاطمى ، وأجريت به منذ ذلك الحين عمارات كثيرة ، كان أهمها عمارة الأمير عبد الرحمن كتنخدا الذى استبدل بقبلة القديمة قبلة جديدة ، وزاد فيه كثيراً .

ولم يكن في الأزهر على عهده الأول امتحانات ، إنما كان كل شيخ يجيز تلميذه اجازة تشهد بأن الطالب قد صار عالماً فيما درس من فقه أو نحو أو

المسلمون أن يتسوروه أو يقتحموا أبوابه إلا بعد مشقة كبيرة .

وعندما وضع المسلمون أيديهم على المدينة ، أمنوا أهلها ، وكفلوا لهم أموالهم ، ومنعوا التعدي على أعراضهم ومعابدهم . ويقال انهم بنوا فيها مسجدا ، وان مسجد أحمد باشا بنى على أنقاضه .

دخلت ليبيا في الاسلام في خلافة عمر بن الخطاب . وبعد مقتل عمر ارتدت بعض القبائل ، فأرسل عثمان عبد الله بن أبي سرح — وهو أخوه في الرضاة — عام ٢٧ هـ لتأديب المرتدين . وقد وقفت في وجهه بعض الجسوع ، ولكن تم له أخيرا النصر . وقد سعى هذا الجيش « جيش العبادلة » لأنه ضم سبعة من كبار الصحابة كل منهم يحمل اسم عبد الله وهم : عبد الله بن عباس ابن عم النبي ، عبد الله بن أبي سرح ، عبد الله ابن جعفر ، عبد الله بن عمر ، عبد الله بن عمرو ابن العاص ، عبد الله بن الزبير ، عبد الله بن مسعود .

وقد انتهت المعركة بقوز المسلمين بعد مناوشات بسيطة . واتفق الطرفان على عقد صلح بينهما ، على أن يدفع الروم ألفي ألف وخمسمائة ألف دينار للعرب ، مقابل ارتحال العرب عن افريقيا .

ويرجع انشاء مملكة ليبيا الى النشاط السياسي الذي بذله السنوسيون في سبيل ذلك . وكانت السنوسية في بادئ الأمر طريقة دينية صرفة ، ووسيلة الى عبادة الله عز وجل . فأسس شيخها السيد محمد السنوسي في بنغازي عام ١٨٥١ طائفة من الزوايا ، لتكون مراكز للتعليم ونشر الطريقة ... الا أن اتجاه السنوسيين عقب ذلك تحول الى السياسة والى انشاء دولة مستقلة . وقد بذلت جامعة الدول العربية مساعي

بطنطا ، مسجد الرفاعي بالقلعة ... وغيرها من المساجد التي بنيت في فترات متفاوتة من تاريخ مصر ، وبقيت الى اليوم تحمل رسالة الاسلام ، ويتردد بين جنباتها صوت المؤذنين مؤذنا للصلوات الخمس ، وصوت القارئ مرتلا آي الذكر الحكيم ... تنزيل من الله العزيز العليم .

الاسلام في ليبيا

تضم ليبيا ثلاث ولايات ، هي : برقة ، وطرابلس ، وفزان . وقد كانت برقة قبل الفتح الاسلامي تابعة للاسكندرية تحت حكم الروم . وكان فتحها على يد عمرو بن العاص في عام ٢١ للهجرة — وقبل عام ٢٢ — بمثابة خلاص لها من نير الرومان ، فاستقبله أهلها استقبالا حسنا ، ولم يرفعوا في وجه جيشه سلاحا . فقد علموا بما أبداه العرب من شجاعة ، وبما في الاسلام من سماحة ومساواة بين الناس ، واحترام للأديان الأخرى ... ففتحوها لهم صدرهم ، وطلبوا من عسرو الصلح ، فصالحهم على ثلاثة عشر ألف دينار فرعونى ، يدفعونها جزية اليه كل عام ، فكانوا يرسلونها اليه دون أن يرسل اليهم جاييا . وكانت برقة قبل الفتح الاسلامي تسمى « انطابلس » ، وهى كلمة رومية معناها بالعربية خمس مدن . وقد بنيت على بعض أنقاضها مدينة بنغازي .

ثم فتح عمرو بن العاص عام ٢٢ هـ « زويلة » في اقليم فزان ، وفرض على أهلها ٣٠٠ رأس من العبيد ، ثم سار الى طرابلس . وقد حاصرها عمرو نحو شهر ، ثم استولى عليها عام ٢٢ هـ . وكان سور طرابلس منيعا جدا ، فلم يستطع

معاهدة مع ليبيا ، حصلت إنجلترا بمقتضاها على قواعد عسكرية داخل الأراضي الليبية .

وقد حاولت إنجلترا في أثناء العدوان الثلاثي على مصر ، في أكتوبر ونوفمبر عام ١٩٥٦ ، أن تستخدم القواعد الليبية في شن هجومها على مصر . ولكن الحكومة الليبية احتجت على استخدام هذه القواعد ، واتجهت النية إلى التفكير في تعديل المعاهدة الليبية البريطانية التي تنتهي عام ١٩٧٧ .

وقد أذاعت الصحف — بعد فشل العدوان على مصر — أن مصطفى بن حليم ، رئيس الوزارة الليبية في فترة الاعتداء لم يقف موقفا مشرفا مع مصر ، وأن بريطانيا كافأته بنصف مليون جنيه لتعاونها معها في حملة القناة ، إذ كانت الطائرات البريطانية تمون من ليبيا لضرب مصر . وعندما علم الملك السنوسي بآ هذه الخطة غير الكريمة أظهر استياءه ، وأذن لضابطين مصريين في زيارة « بنى غازي » للوقوف على حقيقة الأمر .

وقد هب الشعب الليبي يطالب حكومته بمعاونة المصريين ، والكف عن مساعدة الانجليز ، سواء في الموانئ أو المطارات أو المعسكرات : فحاول مصطفى بن حليم أن يخفت الأصوات المنادية بتأييد مصر باثارة الشكوك حول السياسة المصرية ومراميها عن طريق التضليل والافتراء ... ولكن وزارته اضطرت إلى الاستقالة ، وخلفتها وزارة السيد عبد الحميد كعبار ، التي حاولت أن ترأب الصدع الذي تركته الوزارة السابقة .

وتنتشر في ليبيا الدعوة السنوسية انتشارا كبيرا . ومؤسس هذه الدعوة هو محمد بن علي السنوسي ، من أوائل القرن التاسع عشر . وقد حج السيد محمد السنوسي إلى مكة ، وزار الأزهر ، وأخذ العلم عن مشايخه ، وبتبعه عدد كبير من المسلمين في ليبيا . ومن العلماء الذين

مشكورة في قضية ليبيا ، فما كادت تمر أشهر على توقيع ميثاقها ، حتى سارع الأمين العام بإرسال مذكرة إلى مجلس وزراء خارجية الدول العظمى في لندن ، في سبتمبر عام ١٩٤٥ ، جاء فيها : « إن كل تجزئة لطرابلس الغرب (ليبيا) إلى قسمين أو ثلاثة ، هي ضد مصلحة البلاد ، وضد رغبة الأهالي . ولا ترضاها الدول العربية التي ترتبط بميثاق الجامعة ، والتي اتفقت في هذا الميثاق على أن تراعى شعوب العرب ومصالحهم أينما كانت » .

وجاء في هذه المذكرة أيضا : « لا شك أن تأخير الوصول إلى حل يحقق هذه الأمانى سيؤدي إلى خيبة أمل مريرة ... ليس في ليبيا فحسب ، بل وفي أنحاء العالم العربي أجمع . ومن الطبيعي أنه إذا دعت الحال إلى فترة انتقال ، فيجب اسناد مهمة إرشاد الشعب الليبي إلى تحقيق هدفه المنشود — وهو الاستقلال التام — إلى دولة عربية أو إلى الجامعة بأجمعها . ولا شك أن اختيار أمة عربية للوصاية على شعب عربي في جوهره لما يتفق مع الروح التي تسود المنظمة العالمية الجديدة » .

وفي ٢٣ من أكتوبر عام ١٩٥٠ قررت اللجنة التي ألفها مندوب الأمم المتحدة إعلان النظام الملكي في ليبيا تحت تاج أمير برقة . وألفت أول حكومة ليبية مؤقتة في ٢٩ من مارس عام ١٩٥١ . وفي ١٧ أكتوبر عام ١٩٥١ صادقت الجمعية الليبية المؤقتة على مشروع دستور ليبيا بالاجماع .

وفي ٢٨ مارس عام ١٩٥٣ وافق مجلس جامعة الدول العربية على انضمام ليبيا للجامعة . ووصف رئيس الحكومة المصرية هذا اليوم بأنه عيد عنده ، لأنه يقدر جهاد ليبيا وما قدمه ملكها وشعبها من تضحيات في سبيل سيادتها واستقلالها .

وسارعت إنجلترا في العام نفسه (١٩٥٣) بعقد

على مسرح الحوادث أسر عريضة كوت دولاً معروفة في التاريخ ... كدولة بني الأغلب الذين قتلوا عاصمة ملكهم إلى القيروان عام ٩٠٩ م ، وأسرة الفاطميين الذين تولوا الحكم من بعدهم عام ٩٧٣ م ، واتخذوا « المهديّة » عاصمة لهم .

ولمّا انتقلت عاصمة الفاطميين إلى مصر ، وأنشئت القاهرة المعز لدين الله الفاطمي ... أصبحت تونس تابعة للخليفة الفاطمي ، وشهدت فترة ازدهار وتقدم حتى منتصف القرن الحادي عشر . ثم استولت الأسرة الحفصية على الحكم ، فجعلت مدينة تونس العاصمة ، وعاد الأمن والنظام إلى البلاد عام ١٢٣٠ م . وفي عام ١٢٧٠ م كان لويس التاسع ملك فرنسا ، الملقب بالقدّيس ، عائداً من حملته الصليبية على مصر ، فحدثته نفسه — عندما اقترب من سواحل تونس — أن يغزو هذا القطر ، ولكن الموت عاجله ولم يتمكن من تحقيق هذا المطمح .

وقد حاول الأجانب طرد المسلمين من الأراضي التونسية ، لما كانوا عليه من قوة ومنعة وسيطرة على السفن العابرة من مضيق جبل طارق في القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد . وفي ١٥٣٤ م وطد الأتراك سلطانهم في تونس ، وطرّدوا السلطان العربي ، ودارت الحرب بين الطرفين ، وهجم الأسبان على العثمانيين غير أن النصر كان لحليف العثمانيين في النهاية عام ١٥٧٤ م . واستمرت السيادة التركية على تونس ، إلى أن أعلنت فرنسا حمايتها عام ١٨٨١ . ولم تعترف تركيا بالأمر الواقع إلى أن عقدت معاهدة سيفر في أعقاب الحرب العالمية الأولى عام ١٩٢٠ ، فتنازلت تركيا عن كل حق لها في الأراضي التونسية . وانتهى الأمر باستقلال تونس منذ سنوات ، وانضمامها إلى جامعة الدول العربية .

تلمذ عليهم : الشيخ حسن العطار ، والشيخ الأمير ، والشيخ القويسني في مصر . والسيد أحمد بن إدريس الفاسي في مكة واليمن .

وقد عمل السيد السنوسي على نشر الإسلام في واحة جفوب وغيرها من الواحات في الصحراء الكبرى ، ولم يلبث أن انتقل النشاط إلى واحة الكفرة ، فانتشرت الدعوة للإسلام بين القبائل المختلفة ... ولاسيما في عهد السيد محمد المهدي في أواخر القرن التاسع عشر . وقد بنى السنوسيون كثيراً من المساجد والجوامع والزوايا في أنحاء متفرقة من ليبيا .

ويبلغ عدد سكان ليبيا ١٢٨٣٠٠٩١ نسمة ، منهم ١٢٧٢٠٠٠ نسمة من المسلمين . وقد قام هؤلاء المسلمون بدور كبير في نشر المذهب السنوسي في القارة الأفريقية ، حتى صارت نواحي بحيرة تشاد هي مركز الإسلام العام في وسط أفريقيا .

الإسلام في تونس

تقع تونس بين الجزائر من الغرب ، وليبيا من الجنوب الشرقي ، والصحراء من الجنوب الغربي ، وتربطها بالجزائر سلسلة جبال الأطلس التي تعدّ العمود الفقري لأقطار المغرب العربي . ويبلغ عدد سكانها ٣٣٥٠٠٠٠ نسمة ، بينهم ٣٢٠٠٠٠ نسمة من المسلمين . وفيها أقلية من اليهود والإيطاليين والفرنسيين .

وكان الفينيقيون أول الشعوب التي استعمرت تونس في القرن التاسع قبل الميلاد ، ثم احتلها الرومان عدة قرون . ولم تكد تسقط الدولة الرومانية حتى توالى على تونس حملات القنّدال . ثم بدأ الفتح العربي للمغرب ، ولم تلبث أن ظهرت

للنساء تحيط بها حواجز من الخشب المحفور حفرا جميلا لطيفا ، وفيها نوافذ من الزجاج الملون المثبت في رخام مخروم . وتقع هذه المقصورة على يمين المحراب ، وقد أمر ببنائها المعز بن باديس .

وتوجد في القيروان كذلك زاوية سيدي صاحب ، التي تعرف عند عامة الناس باسم « جامع الحلاق » ، وسميت هذه الزاوية باسم عبد الله البلوي ، أحد الصحابة الأولين الذين اشتهروا في فتح إفريقيا عام ٣٤ للهجرة . وقد دفن عبد الله البلوي في القيروان ، ودفنت معه ثلاث شعرات قيل ان الرسول كان قد اعطاها اياها . ويعد جامع سيدي صاحب أجمل جوامع القيروان ، ويتألف من مدرسة وزاوية ومشهد . ويوجد كذلك جامع الزيتونة الذي بنى عام ١١٤ هـ ، وجامع سيدي أبو جعفر .

الإسلام في الجزائر

كان أهل الجزائر وأبناء عمومتهم التولسيون والمغربيون يدينون بالوثنية ... الى أن ظهرت المسيحية . ثم انبثق نور الاسلام ، فعمل القلوب ، واستقر فيها استقرارا تاما . وقد استقرت القبائل العربية في بلاد المغرب العربي منذ أيام الفتح الاسلامي . وانتشرت في الجزائر قبائل جوشم ورياح وزغبة ومقل - وكلهم من بني هلال بن عامر - وقبائل دياب وزغب وعون ، وهم من بني سليم بن منصور .

وقد نشأت في الجزائر دول عربية مثل دولة تيهرت عام ١٦٩ للهجرة ، ودولة الموحدية عام ٥٢٤ هـ التي قضت على المرابطين في المغرب الأقصى ، واستطاعت أن تسيطر سبعين عاما على الجزائر والمغرب . وأصبحت مدينة تلمسان من أعظم البلدان

والشعب التونسي يحرص على متابعة موكب القومية العربية على الرغم من التيارات الانحرافية التي ييثرها أعداء القومية العربية وأذئاب الاستعمار للنيل من كيان وطننا العربي المجيد ... ذلك أن الروابط الوثيقة والشائج المتينة التي تربط تونس بالوطن العربي منذ أبعد الحقب والأزمان ، لا يمكن أن تنال منها تلك الانحرافات الهزيلة .

وفي تونس فرق صوفية متعددة ، كالقادرية والرحمانية والعيسوية الإسلامية والتهجدية والشاذلية . وبها عدد كبير من الزوايا لكل من هذه الطرق ، وكتائب لتحفيظ القرآن الكريم .

ويسود المذهب المالكي بين التونسيين ، ما عدا الأسر التركية التي تتبع المذهب الحنفي . وقد اتجهت سياسة فرنسا ، منذ فرضت حمايتها على تونس ، الى محاربة التعليم الديني ، ومحاوله القضاء على اللغة العربية ... لغة القرآن الكريم . ولكن ذهبت محاولاتها مسدى ، وظل جامع الزيتونة - أو الجامعة الزيتونية - الذي يشبه نظام التعليم فيه نظام التعليم بالجامع الأزهر ، يزاوئ مهمته في هذا الميدان . كما يقوم معهد ابن خلدون بالمهمة ذاتها

وفي مدينة القيروان بعض المساجد القديمة . ومن أشهرها جامع القيروان الذي بنى وهدم عدة مرات ، وله ثمانية أبواب : أربعة منها في الجهة الشرقية ، وأربعة في الجهة الغربية وفي وسط الجامع مزولة شمسية على منصة مرتفعة ... فإذا اقتربت ساعة الظهر للصلاة ، وقف رجل بثياب بيض يرقب المزولة ، فإذا وصل الظل عليها الى الساعة المعينة ، رفع هذا الرجل يده فيأمره رجل آخر واقف على المنصة الكبرى ، فيرفع علما أبيض . وحينئذ ترتفع أصوات المؤذنين بالأذان من فوق جميع المآذن . ويشتمل الجامع على مقصورة

وسائل التعذيب والارهاب للتسكيل بالجزائريين ، واستعملت كل أساليب الوحشية للانتقام من الزعماء الجزائريين ، وسولت لها نفسها أن تخطف بعض القادة من الثوار ، وتلقيهم في غياهب السجون . ولكن هذا كله لم يفرق شمل الجزائريين ، ولم يعصف برأيهم ... وإنما زاد اصرارهم ، وتأججت حماسهم في سبيل تحرير هذا الوطن العربي

ومن الأساليب الظالمة التي استخدمتها فرنسا ضد المسلمين ، قانون « الأنديجنا » الذي كان معمولاً به في الجزائر منذ انتهاء ثورة المقراني الى أمد قريب . ويعامل هذا القانون الجائر « الجزائري المسلم » معاملة بربرية لا يقرها شرع ولا دين ولا إنسانية ومن مقتضيات قانون « الأنديجنا » أن لكل فرنسي أو متفرنس الحق في عقاب المسلم بالسجن أو التعزيم بمجرد الصاق تهمة به ، وما على الحاكم الا تنفيذ الحكم الصادر ضد المتهم حالا دون تأخير . ومع أن هذا القانون ألغى ... الا أن فرنسا لا تزال حتى اليوم تعامل الجزائريين معاملة لا تتفق مع النظم الانسانية ، ولا موافق حقوق الانسان التي أقرتها الهيئات الدولية ، بله الشرائع والأحكام التي نزلت بها الأديان السماوية

وهب جيش التحرير يقاتل في سبيل تحرير الجزائر ، باذلاً النفس والنفيس لتحقيق مطالب الجزائريين في بناء دولة ديمقراطية اجتماعية ، واحترام جميع الحقوق الأساسية للسكان دون تمييز عنصري أو ديني ، وتطهير الحركة الوطنية الثورية من آثار الفساد ، والاتجاه نحو الإصلاح ، وتجميع قوى الشعب الجزائري وتنظيمها من أجل تصفية النظام الاستعماري .

والواقع أن الوضع الاقتصادي والاجتماعي في الجزائر سيء جداً ... فإن نحو مليون ونصف مليون من الأوربيين في الجزائر يسكن معظمهم

رفعة ، وكانت تزخر بالعلماء والفقهاء ومعظم أهل الجزائر سنيون ، بيد أن فيهم من يؤمن بالدعوة الشيعية التي ورنوها من الدولة الفاطمية

ويعد غزو فرنسا للجزائر في ١٤ من يوليو عام ١٨٣٠ م ، استمراراً للسياسة الاستعمارية التي تغلغلت في أوروبا ضد القومية العربية ، منذ العصور الوسطى حتى العصر الحديث ففي هذا اليوم المشؤم نزلت جيوش ملك فرنسا شارل العاشر في « جون سيدي فرج » قرب عاصمة الجزائر وبدأت إحدى الغزوات الصليبية الجديدة في القرن التاسع عشر ضد ديار الاسلام وموئل حرية الأديان

ولم يقف الأهالي مكتوفي الأيدي ازاء غزو الفرنسيين ، بل اجتمع شمل القبائل ، ونسوا خصوماتهم في سبيل تحرير وطنهم العربي من براثن المغتصب الأثيم ، وهبوا هبة رجل واحد يدافعون عن بلادهم ، والتف الجزائريون حول بطل عظيم رابط كالأسد في حصن « قليب » الحصين ... ألا وهو البطل عبد القادر الجزائري ، الذي هزم الفرنسيين في معارك شتى ، منها معركة « وهران » المشهورة .

وظل الأمير عبد القادر يجاهد سنوات في سبيل تحرير بلاده ولكنه ازاء الهجمات الشديدة التي قام بها الفرنسيون ضد الأهالي العرب العزل من السلاح ، اضطر الى توقيع الهدنة مع فرنسا حتى تتمكن البلاد من دعم كيائها ، وجمع شتاتها ، والثورة مرة أخرى في سبيل حريتها .

ومنذ ذلك التاريخ وفرنسا تحاول أن تجعل الجزائر جزءاً منها ، واتبعت سياسة الادماج . فطبقت القانون الفرنسي بحذافيره ، ووهبت العطايا والهدايا للتجنس بالجنسية الفرنسية .

وتعاقبت الثورات العنيفة في الجزائر منذ عام ١٨٣٠ م حتى اليوم واستخدمت فرنسا كل

يدبحون المقالات ، وينظمون القصائد من أجل تحرير الجزائر ، وتصوير المآسى الدامية التي تحدث على مسرح الحياة في هذه الديار الحبيبة . وفي الجزائر جمعية عربية اسلامية تسمى جمعية علماء الجزائر . وقد أسست هذه الجمعية عدة مدارس ومعاهد ، منها معهد عبد الحميد بن باديس التكميلي ، وغيره من المعاهد . وقد أثرت السياسة الفرنسية في الحركة الدينية ، وأضررت باللغة العربية في هذه البلاد .



وفي الجزائر نوعان من المدارس العربية : المدارس التي تنال المساعدة من الحكومة ، وعليها أن تخصص ثلث حصص التعليم لتدريس اللغة الفرنسية . والمدارس التي تديرها جمعية علماء الجزائر ، وتعتمد هذه المدارس على الاعانات الخاصة ، وهي منصرفة كل الانصراف الى العلوم العربية والاسلامية .

وجمعية علماء الجزائر منظمة دينية سياسية ، أسست عام ١٩٢٩ م ، وهي تعتمد على الاصلاح الديني والاجتماعي باعتباره اساسا للحرية السياسية ، وللقاومة التيار الاستعماري الذي يهدف الى فرضة الجزائر ، ومحو القومية العربية فيها ، وطمس معالم الثقافة الاسلامية ، وتهدف هذه الجمعية الى استقلال الجزائر ، واتحادها مع اقطار شمال افريقيا ، والضمامها الى جامعة الدول العربية .

ويحاول أعضاء هذه الجمعية أن يكونوا على اتصال تام بالجامعة القروية في المغرب ، والجامعة الزيتونية في تونس ، حتى يشم للجزائريين خدمة الثقافة العربية ، ولغير التسليم الاسلامية . وقد تكونت في الاقليم الجنوبي حكومة جزائرية مؤقتة تهدف الى التخلص من يده الاستعمار .

المدن والمناطق الخصبة الجيدة التربة الحسنة المناخ ، ويستحوذون على خيرات البلد ، ويصدرونها نهبا مستباحا الى فرنسا ... في حين يعيش الشعب الجزائري في ضيق اقتصادي ، وفقر اجتماعي لا مثيل لهما . وتقتصر الزراعة الرأسمالية الاستعمارية في ثلث الاراضي المزروعة المسلوقة من الفلاحين الوطنيين ... كما مكنت الحكومة الفرنسية رجال الأعمال الفرنسيين وكبار الاقطاعيين من الحصول على اراضي القبائل والمشارب المقتصة . وفي الوقت نفسه ينتشر جنود فرنسا في ارض الجزائر يقتلون ويسفكون الدماء ، ويمثلون بالقتلى ... ويقول أحد القواد الفرنسيين - وهو سانت أرلوس - في إحدى رسائله : « ان بلاد بني نصر خصبة جميلة يانعة ، وهي من أغنى ما رأيت في افريقيا ... فالقوى متجاورة ، والمساكن تقع في صف واحد . وعند ما جئت أشعلت النيران فيها فلم تبق فيها أثرا ، وأكلت النار الأخضر واليابس ، وتركته هشيبا تذروه الرياح ... آه الحرب ، وما أدراك ما الحرب ! كم من نساء وأطفال طاردناهم الى تلوج جبال الأطلس حتى قضوا لحبهم من البرد والجوع ! » .

وقال الكحاك لقلا عن موتاليك في كتابه رسائل جندي : « قطعت رأسه ، واحترزت يده اليسرى ، وعسدت الى المعسكر ، ورأسه مرشوق في سن العنجر ، ويده المقلوبة معلقة في عمود البندقية ، فقدمت هاتين التحفتين الى الجنرال بارغواي الذي كان معسكرا قريبا من هناك ، فاهتز لهما طربا ! » . وقد فجر هذا الطغيان الدماء من نفوس الأحرار في شتى الاقطار والمصار ، فهبوا لتأييد الجزائر في كفاحها ضد الظلم والاستعباد ، بالاسلحة والاسلحة والارواح .

وهب الكتاب الجزائريون وغير الجزائريين

قرنين ، فطمع فيه البرتغاليون ونزلوا على سواحله «
فهبّت لنجدته الأسرة الشريفة المنتمية الى الدوحة
النبوية المطهرة ، ونعنى بها أسرة السعديين . ومنذ
هذا التاريخ اتخذ المغرب طابعه الاجتماعى الذى
احتفظ به حتى اليوم على يد الأشراف
السجلماسيين ، وهم الحاكمون الى الآن .

وهكذا ظل المغرب متمتعاً بالاستقلال حتى
أواخر القرن الماضى على الرغم من المحاولات
الكثيرة التى قامت بها الدول الكبرى للتحرش به
واحتلال أراضيه فى القرون الماضية . فقد قامت
أسبانيا بعد وفاة السلطان عبد الحميد بن سليمان
باحتيال عدة موانئ ، ومضت تهدد باحتلال البلاد
كلها . فسارعت الدول الكبرى الى عقد مؤتمر فى
مدريد عام ١٨٨٥ ، اشتركت فيه الدول الأوربية
كلها مع الولايات المتحدة والمغرب ، وانتهى بمعاهدة
حددت فيها مصالح كل دولة ، ونص فيها على
استقلال البلاد وسيادة سلطانها .

غير أن هذه المعاهدة مهدت للتدخل الأجنبى فى
البلاد ، اذ منحت جميع الدول التى وقعتها حق
اضفاء الحماية على الرعايا المغريين ، وحق الملكية
العقارية والانتفاع بمزايا الدولة الأكثر رعاية .
والواقع أن مطامع الدول الأجنبية لم تهدأ منذ
احتلال الجزائر عام ١٨٣٠ ، واحتلال تونس عام
١٨٨١ . فقد أخذت فرنسا تفكر فى بسط نفوذها
على ساحل أفريقيا الشمالية برمتها ، ولا سيما بعد
أن سكنت على احتلال مصر عام ١٨٨٢ ، وتركت
الانجليز ينفذون خططهم فى احتلال وادى النيل .
وقد انتهزت فرنسا فرصة القلاقل والاضطرابات
الداخلية فى البلاد ، فأرسلت حملة عسكرية من
الجنود الفرنسيين ، طوقت مدينة فاس ، وأشاعت
الذعر فى نفوس الأهلىين .

وقد قام الزعيم عبد الكريم الخطابى بشورة كبرى

ومهما اختلفت الأحزاب فى الجزائر ، فإن الشعب
الجزائرى يرفض الاستعمار بكافة ألوانه ومختلف
أنواعه وشتى صوره وأقنعتة ، ويعتقد الشعب
الجزائرى أن التخلص من الاستعمار تخلص من
الاضطهاد الدينى ، وفكّك من تكميم الأقواء ،
ووأد الحريات ، والتضييق على الشعب فى أداء
فرائضه الدينية فى حرية وانطلاق . ويتربون
اليوم الذى يتم لهم فيه الخلاص ، فيتمتعون
بحريتهم الشخصية والدينية ... وانه لآت قريب .

الإسلام فى المغرب

يتكون سكان المغرب من البربر والعرب ، وهم
سلالة الفاتحين الأولين الذين فتحوا المغرب عام ٦٣
للهجرة (٦٨٢ م) . وقد ظل المغرب تابعا لولاية
القيروان أيام الأمويين والعباسيين ، حتى تأسست
الدولة الادريسية فى القرن التاسع الميلادى . ثم
قسم المغرب بين أمراء كثيرين : منهم بنو حمود
الذين امتد ملكهم الى الأندلس ، ثم تغلب
بنو عباد ، ملوك اشبيلية ، عليهم وأخرجوهم من
الأندلس ، فظلوا قابعين فى المغرب . ثم استولى
على المغرب المرابطون بزعامة يوسف بن تاشفين
الذى جمع قواته ، وهزم ملك أرجون فى معركة
الزلاقة عام ٤٨٩ هـ (١٠٩٥ م) ، واستولى على
معظم الأندلس . كما شهد المغرب ملك الموحدين
الذى امتد من برقة الى المحيط الأطلسى ، واستمرت
دولتهم قوية النفوذ منذ عام ٥١٤ هـ (١١٢٠ م) ،
حتى اضمحلت عام ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) . وعندما
سقط الموحدون استقل بنو حفص بأفريقيا ،
وبنو زيان بتلمسان ، وبنو مرين بالمغرب عام ٦٦٨ هـ
(١٢٦٩ م) .

ثم استهدف المغرب بعد ذلك للنفوضى نحو

رجال الديوان وكبار الموظفين وصغارهم . وأخذت تنشر الأموال ذات اليمين وذات الشمال على أتباعها وأنصارها ليثيروا القلاقل في البلاد ، وحرصت بعض الاقطاعيين ، أمثال الجلاوي ، على الانتفاض على السلطان ومحاصرة قصره لترغمه على التنازل على العرش لابنه الأصغر ، أو تنفيه في الحال .

ووجه الجنرال جيوم المقيم العام الفرنسي انذارا بذلك ، فلم يأبه السلطان بالانذار ، ومزق وثيقة التنازل ، وأثر المنفى .

وفي ٢ من مارس عام ١٩٥٦ اعترفت فرنسا باستقلال المغرب رسميا ، وحقه في تأليف جيش مغربي مستقل ، وتمثيل نفسه دبلوماسيا في الخارج . وجاء في التصريح المشترك ما يلي :

« ان حكومتى الجمهورية الفرنسية وجلالة محمد الخامس سلطان مراكش تؤكدان عزمهما على تنفيذ تصريح سان كلو الصادر في ٩ من نوفمبر عام ١٩٥٥ . وهما تقرران — بعد التقدم الذى أحرزته مراكش — أن معاهدة فاس التى عقدت في ٣٠ مارس عام ١٩١٢ لم تعد ملائمة لضروريات الحياة العصرية ، وتحدد العلاقات المراكشية الفرنسية . ومن ثم فإن الحكومة الفرنسية تؤكد رسميا الاعتراف باستقلال مراكش ، وهو استقلال يتيح لها بصفة خاصة جيشا وسلطة دبلوماسية . كما تؤكد الحكومة الفرنسية عزمها على احترام وحدة الأراضي المراكشية التى تكفلها المعاهدات الدولية ... » .

وفي أبريل عام ١٩٥٦ أصدرت الحكومة الاسبانية بلاغا رسميا أعلنت فيه أن مجلس الوزراء وافق على تصريح يقضى بإلغاء الحماية الاسبانية على مراكش الخليفية ، والاعتراف باستقلال المغرب كله ووحدته .

في منطقة الريف ، استطاع على اثرها أن يخضع المنطقة كلها لنفوذه ، ويقيم فيها حكومة دسنورية وشيدة ظلت تحكم المنطقة نحو خمس سنوات . ولم تعامله فرنسا في بادىء الأمر بالشدة ، لأن ثورته كانت موجهة ضد الحكومة الاسبانية لا ضد الحكومة الفرنسية . ثم حشدت فرنسا ضده قواتها ، فحاربها حربا ضروسا لاهوادة فيها ، دفاعا عن الحرية والاستقلال ، وحمل راية الجهاد في هذه المرة نجله محمد عبد الكريم الذى قاتل قتالا مجيدا ... وأخيرا اضطر الأمير الى تسليم نفسه للقوات الفرنسية ، فنفته هو وأسرته الى جزيرة ريونيون في المحيط الهندى .

وظل الأمير في منفاه حتى طلبت جامعة الدول العربية — بناء على رغبة الشعب المغربى — اطلاق سراحه . فوافقت الحكومة الفرنسية ، على أن يقيم في باريس . وفى أثناء مروه بميناء بورسعيد في عام ١٩٤٧ ، طلب من الحكومة المصرية اعتباره لاجئا سياسيا لديها . فقبلت الحكومة طلبه ، وعاش مع أسرته في ربوع البلاد وظل يتابع جهاده في سبيل خدمة القضية المغربية .

وقد قاسى المغرب في أثناء الحرب العالمية الثانية كثيرا من الاجراءات التعسفية والضييق ، واستغلال مرافق البلاد ومواردها الاقتصادية . فلما منيت فرنسا بالهزيمة وجد السلطان محمد الفرصة مواتية للمناداة بالاستقلال ، وحصل على وعد صريح من فرنسا بتحقيق هذه الأمنية الوطنية الكبرى . ولكن فرنسا ماطلت وسوفت حين مال ميزان الحرب في جانبها مرة أخرى مع الحلفاء .

وقد وقف السلطان من الحركات الوطنية في بلاده موقفا مشرفا ، مما أوغر صدر فرنسا ، فعملت جاهدة على اخماد هذه الحركات . وطلبت من السلطان أن يعلن براءته منها ، ويطرده الوطنيين من

وقد عبرت القبائل العربية لهذا الغرض البحر الأحمر ، واستقرت في شرق السودان ، ومنه انتقلت الى الشمال والجنوب . والطريق الثاني اتجه من شمال وادي النيل ، ثم انحدر الى الجنوب . والطريق الثالث اتجه من ليبيا الى الشرق ، وتفرع الى السودان .

ولاحظ بعض الباحثين أن هناك أماكن على الساحل الأفريقي للبحر الأحمر أو قريبا منه ، تحتفظ بأسمائها العربية الدالة على نظائرها في بلاد العرب ، مثل « نجران » التي كانت الاسم القديم لمملكة بلو (في شرق السودان) . والبيون — أو البلو في بعض الروايات السودانية الوطنية — قوم من العرب ، وفدوا على السودان قبل الفتح الاسلامي . وربما كانت سوبا اسما محرفا من « سبأ » التي نجد نظيرا لها في جنوب بلاد العرب ، وورد اسمها واسم بلقيس ملكة سبأ في كثير من المراجع التاريخية .

وقد حملت القبائل المهاجرة من الجزيرة العربية ، الى السودان اللهجات العربية معها ، فاللغة العربية نفسها ، أي لغة قريش أشهر قبائل الجزيرة العربية ، فلما ظهر الاسلام حملت القبائل المهاجرة معها هذا الدين الحنيف وكتابه المنزل الكريم ، فانتشر الاسلام في شتى أنحاء السودان ، ودخل السودانيون في دين الله أفواجا .

وقد قام بدور كبير في نشر الاسلام ، العرب الوافدون من بني هلال وبني سليم وربيعة ولخم وجذام ، والجعافرة — وهم بنو جعفر بن أبي طالب — وفزارة وغيرها ... كما قامت قبائل البربر المغربية بدور لا سبيل الى تجاهله في هذا الميدان .

ولما جاء « غلام الله بن زائد » في القرن الرابع عشر للميلاد — وهو جد السادة الركابية — عمل

وهكذا ظفر المغرب لقسمين من أقسامه الثلاثة بالاستقلال الذي جاهد في سبيله . فحصلت مراكش الشريفة — وهي أكبر أقسام المغرب ، وعاصمتها الرباط — على الاستقلال في مارس . ثم لم تلبث مراكش الخليفة — وهي أصغر كثيرا من القسم الأول — أن حصلت على الاستقلال في أبريل .

أما القسم الثالث — وهو منطقة طنجة الدولية ، وأصغر أجزاء المغرب — فان تقرير مصيره يتطلب اجراءات مع جميع الدول التي تتولى الاشراف عليه .

وقد قدم المغرب على أثر استقلاله طلبا للانضمام الى الأمم المتحدة فقبل طلبه ، وأصبح عضوا في الهيئة الدولية ، كما أصبح عضوا في جامعة الدول العربية .

ويبلغ عدد سكان المغرب ١١ر٨٦٤ر٠٠٠ نسمة ، منهم ١١ر٣٠٤ر٠٠٠ نسمة من المسلمين . ويزاول المسلمون شعائرهم الدينية في كثير من المساجد والزوايا . وأهم جامعاتهم الدينية جامعة القيروان في فاس ، كما يوجد معهد مولاي الحسن ، ومعهد مولاي المهدي في تطوان . ومن المنتظر أن يزدهر مستقبل الاسلام في المغرب في السنوات المقبلة ، ولا سيما بعد أن ظفر باستقلاله ، وتحرر من النفوذ الأجنبي .

الاسلام في السودان

العروبة في السودان عميقة الجذور، تمتد الى أقدم الأزمنة ، وذلك نتيجة الهجرات المتواصلة من الجزيرة العربية الى شتى الأقطار والأمصار ، وقد سلكت هذه الهجرات ثلاثة طرق مختلفة : أولها اتجه من الجزيرة العربية نفسها الى شرق السودان،

وجدير بالذكر أنه تأسست في السودان ممالك
سودانية مختلفة ، منها مملكة الفونج (١٥٠٥ -
١٨٢٠ م) ، وسلطنة دارفور (١٦٣٧ - ١٨٧٥ م) .

وقد انتشرت الدعوة الى الاسلام في عهد الفونج ،
ولم يدخروا وسعا في نشر الدين ، وقام الشيخ
بدوى أبو صفة البديري بدور كبير في سبيل
نشر الدين . وقد وطد الفونج صلاتهم ببعض
العرب ، وأسهم هؤلاء العرب في نشر الاسلام بين
القبائل المختلفة .

ويبدو أن مملكة « سنار » كانت من أكثر
الممالك الاسلامية أثرا في نشر الاسلام في السودان ،
حتى ان سلطنة دارفور نفسها استعانت بعلمه
سنار في نشر الاسلام ، وشجع « سليمان سلونج » ،
الذي تولى عرش دارفور عام ١٦٣٧ ، فقهاءها على
النزوح الى مملكته .

وقد انتشرت الطرق الصوفية في السودان امتدادا
لاتشارها في مصر والحجاز والعراق والمغرب
وغيرها من البلاد العربية ، ورحب أهل السودان
بمجيء هذه الطرق الى البلاد ، وقد قام بعض
شيوخ السودان بتشجيع المريدين ، والتف حوله
كثيرون من الأتباع .

ومن أشهر الطرق : الطريقة القادرية التي ظهرت
على يد عبد القادر الجيلاني في القرن الثاني عشر ،
ثم دخلت افريقية الغربية في القرن الخامس عشر ،
وتوغلت في السودان في النصف الأول من القرن
السادس عشر ، وكان لأصحاب هذه الطريقة
- وكانوا أربعة من المشايخ - السلطة الروحية
والزمنية في عهد الفونج .

والطريقة الشاذلية التي تنسب الى أبي الحسن
الشاذلي (١١٩٦ - ١٢٥٨ م) في تونس . وقد
رسخت دعائنها في السودان على يد الشيخ خوجلي
عبد الرحمن المحس المتوفى عام ١٧٤٣ م . ووجدت

على نشر الاسلام بين الدناقلة ، وقطع شوطا كبيرا
في هذا المضمار . فالتف حوله عدد كبير من الناس ،
وآمنوا بمبادئه وتعاليمه .

وقد ساعدت التجارة بين مصر والسودان في نشر
الاسلام . وقد كانت معاهدة « البقط » التي
نظمت العلاقات التجارية بين البلدين ، وسمحت
باتتقال قوافل القمح والسلع الأخرى بين القطرين ،
من أهم الأسباب في نشر الاسلام . وكانت أعداد
التجار الوافدين على بلاد النوبة تتزايد ، ويزيد
نشاطهم التجاري والديني كلما نمت العلاقات
وتطورت بين البلدين . وقد بلغت ذروة النمو في
القرن الثالث عشر للميلاد .

واشتد تيار الهجرة من الشمال الى الجنوب منذ
ظهور الاسلام ، وطرقت القبائل المهاجرة بلاد
النوبة ، واتجهت الى منطقة أسوان وشمال
السودان ، لأن هذه الجهات تشبه الى حد كبير
بلاد العرب في ظروفها المناخية .

ونشأت في العصر الفاطمي امارة عربية نوبية في
أسوان ، كان لها نفوذ كبير على كثير من القبائل في
هذه الجهات . وفي العهد الأيوبي ظهرت امارة كنز
الدولة في بلاد النوبة ، وعملت على نشر الدعوة
الاسلامية في أنحاء متفرقة من البلاد ، وامتد
سلطانها حتى العصر المملوكي ، وفي هذا العهد
توغلت العناصر العربية في النوبة والسودان .

وفي العصر الحديث لم يتوقف تيار الهجرة الى
السودان ، بل ظل المسلمون يهاجرون اليه من شتى
المواطن ، ويدعون الى العقيدة الاسلامية دون كلال
ولا ملال .

وانتشرت في أرجاء متفرقة من السودان سلالات
قبائل الجعليين وجهينة والكواهلة ، وظلوا محافظين
على مبادئ الاسلام ، متمسكين بقراءته
وواجباته .

ويقول نعيم شقير : « وكان في دارفور مساجد جمّة ، في كل بلدة مسجد أو أكثر ، يعلم به الكتّابة والقرآن . وكان لكل عالم مسجد قرب منزله يصلي به الصلوات الخمس ، وفي لصقه خلوات للمجاورين . يعلم بها العلوم الشرعية ، وله « حاكورة » هبة من السلطان يعيش هو وتلامذته في ريعها . أما الجوامع فكان لهم في كل بلدة شهيرة جامع ، إلا الفاشر ففيها جامعان ، وكوبى ففيها جامعان » . هذه هي حال المساجد والجموامع في عصر الفونج ، وقد ازداد عددها على مر العصور ، كما ازداد عدد الزوايا التي يؤمها لفيك كبير من المتصوفة للتعبّد والتهجّد وذكر الله تعالى .

ووفد الى القاهرة كثيرون من السودانيين للتعلّم في الجامع الأزهر على يد العلماء والفقهاء ، وأظهروا نبوغا وتفوقا عظيمين . وظهرت في الأزهر أروقة للسودانيين القادمين من سنار وبرنو وصليح ودنقلة ودارفور وغيرها من أنحاء السودان ، وسُميت هذه الأروقة بأسماء البلاد الواقدين منها ، فهناك رواق السنارية ، ورواق الدناقلة ، ورواق دارفور ... وغيرها .

وتأسس في السودان « الجامع العتيق » نحو عام ١٨٤٧ م . وقد درس فيه الشيخ إبراهيم عبد الدافع مفتى الديار السودانية ، والشيخ الأمين الضير وغيرهما من العلماء .

وقد ازداد سفر الحجاج الى الأراضي المقدسة في العصر الحديث بعد أن كان في عهد المهدي يصادف بعض الصعاب ... فقد منع المهدي الحج مؤقتا حتى يتقّى شر الدسائس التي كانت تحيط بيلاده من الخارج .

ونشطت الجمعيات التي تحارب الخرافات والعقائد الفاسدة والأوهام . ومن هذه الجمعيات : جمعية أنصار السنة التي أنشئت عام ١٩٣٩ ،

في السودان كذلك الطريقة التيجانية نسبة الى مؤسسها في فاس أحمد بن محمد التيجاني عام ١٧٨٢ م .

والسودانيون منذ أن دخلوا في الاسلام على المذهب السني ، ويدينون بمذهب الامام الأشعري في العقائد التوحيدية ، ويقلب عليهم مذهب الامام مالك في الفقه .

ويقول الدكتور عبد المجيد عابدين : « وهم يقرأون القرآن على طريقة « ورش » في دنقلة ودارفور ، وعلى « أبى عمرو » في سائر مناطق السودان . والظاهر أن قراءة ورش كانت منتشرة في دنقلة في أيام الفونج ، ثم ضعفت بمرور الزمن . أما في دارفور فلا تزال آثارها قوية ، ومن رواد التجويد وعلماء القراءات في أيام الفونج : التلمساني المغربي الذي قدم على محمد عيسى سوار الذهب ، وعلى يده انتشر التجويد في الجزيرة » .

وقد انتشر الاسلام عن طريق الخلوة أو الكتاب ، وعن طريق الجامع والمسجد . والخلوة في السودان يدرس فيها القرآن أساسا ، ثم بعض الاملاء ومبادئ الحساب ، وقد أنشأ كثيرون من أغنياء السودانيين وسراهم كثيرا من الخلوة في أنحاء متفرقة في السودان ، وأوقف بعضهم كثيرا من الأملاك عليها وعلى الاتفاق على طلبتها .

أما المساجد فقد وجدت في السودان قبل عصر الفونج . ونصت معاهدة « النفط » على حرمة مسجد المسلمين في بلاد النوبة ، وجاء في بعض المصادر أن العرب القاطنين على ضفاف النيل الأزرق حصلوا — في القرن العاشر للميلاد — على إذن ببناء مسجد في « سوبا » عاصمة المملكة المسيحية في ذلك الحين .

المشايخ الأمائل : الشيخ محمد المبارك عبد الله الذى تولى رئاسة المعهد منذ عام ١٩٥٦ حتى الآن . وقد تخرج فضيلته فى الجامعة الأزهرية ، ثم عاد الى وطنه ، واستأنف جهاده الدينى فى خدمة الاسلام والمسلمين .

ويبلغ عدد المسلمين فى السودان الآن ستة ملايين ونصف مليون نسمة . وهم يحافظون على شعائر دينهم محافظة تامة .

وبانضمام السودان الى جامعة الدول العربية دخل فى دور التعاون العلمى مع البلاد العربية ، وتبادل المنافع الثقافية بين البلاد المختلفة ، وبموجب الاتفاقيات والمعاهدات الثقافية بين الدول الأعضاء . فى الجامعة ، أمكن ارسال عنه كبير من المبعوثين والمدرسين الى السودان للمساهمة فى التدريس الدينى فى كثير من المدارس والمعاهد الدينية هناك . وقام الاقليم الجنوبى من الجمهورية العربية المتحدة بدور ملحوظ فى خدمة الثقافة والاسلام فى الدولة الشقيقة .

الاسلام فى الحبشة

عرف العرب الحبشة منذ العصر الجاهلى . ولما اختار الله سبحانه محمدا صلى الله عليه وسلم لتبليغ رسالته ، وبعثه بالهدى ودين الحق الى الناس كافة ، صادف الرسول الكريم فى سبيل دعوته ضروبا من الأذى ، ولاقى صنوفا من الهوان ... بيد أنه صبر وثابر . وقد نال أصحابه من الاضطهاد والهوان ما ضيق فى وجوههم المسالك ، وترصدتهم الممالك فى كل طريق ، وأوذوا فى أنفسهم وأموالهم ، فقال لهم الرسول صلوات الله عليه : « اخرجوا الى جهة أرض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد ،

وتهدف الى التوحيد الخالص المطهر من مظاهر الشرك ، والتزام صريح الكتاب وصحيح السنة ، ومجانبة البدع ومحدثات الأمور ، والتمسك بالفضيلة ، والقضاء على الخرافات والتقاليد الرجعية .

ويقوم المعهد العلمى فى أم درمان بدور كبير فى نشر الثقافة العربية والاسلامية الصحيحة . وبالمعهد مكتبة كبيرة مزودة بشتى الكتب والمراجع الدينية ، وبعض هذه الكتب ضم اليها من طريق الوقف أو التبرعات ، وكان عند الطلبة فى أول عهد الشيخ أبى القاسم نحو ستين طالبا (عام ١٩١١ م) . وكان الطالب يعطى جراية رغيف خبز ، ثم استبدلت بها ثلاثون قرشا فى الشهر . وكان مرتب المدرس فى المعهد العلمى بأم درمان لا يتعدى ثلاثة جنيهات الا فى أحوال نادرة .

وفى عام ١٩٤٨ . تأسس المجلس الأعلى للمعهد العلمى بأم درمان ، على اثر توصية خاصة من المجلس الاستشارى لشمال السودان . وتولى رياسته الشيخ أحمد الطاهر قاضى القضاة السودانى السابق ، ثم عين فضيلة الشيخ حسن مدثر ، قاضى القضاة الحالى ، خلفا له فى نوفمبر عام ١٩٥١ .

وقد بذل فضيلته جهودا مشكورة فى النهوض بالمعهد الدينى لأداء رسالته على خير وجه ... فاهتم بإصلاح حال المدرسين فى المعهد ، ومنحهم درجات مالية أسوة بموظفى الدولة ، ونظم مناهج الدراسة ، وأجرى تعديلات فى المواد التى تدرس فيه ، واستمر مشرقا على هذا المعهد حتى تقرر انشاء مصلحة الشئون الدينية عام ١٩٥٥ . ومنذ ذلك التاريخ أخذت هذه المصلحة ترعى المعهد ، وهى لا تألو جهدا فى الاهتمام بشئونه العلمية والادارية . وقد تولى مشيخة علماء السودان بالمعهد ، منذ تأسيسه حتى اليوم ، سبعة مشايخ . وآخر هؤلاء

الدعوة الاسلامية دون كلال ولا ملال ودون خوف ولا وجل .

ودخلوا على النجاشي حاملين المصحف في أيديهم ، وابتدروه بالسلام ، فقال الملك لجعفر : « ما لك لا تسجد ؟ » . وسارع عمرو بن العاص فقال : « ألا ترى أنهم يكتفون بأنهم حزب الله أيها الملك ؟ أنهم مستكبرون ، ولم يحسبك التحية اللائقة ! » . ولكن النجاشي لم يثر ، ولم يغلظ القول ، انما قال لهم في تودة وهدوء : « ما منعكم أن تسجدوا وتحينوني بتحيتي التي يحينني بها الناس ؟ » .

قال جعفر بن أبي طالب في شجاعة وصلابة عود : « لا نسجد الا لله عز وجل » . فسر الملك بهذه الشجاعة النادرة ، وهذا الايمان العميق وقال : « لم ذلك ؟ » ، فأجابه جعفر : « لأن الله تعالى أرسل فينا رسولا ، وأمرنا ألا نسجد الا لله عز وجل ، وأخبرنا أن ثحية أهل الجنة السلام . وقد حينناك بالذي يحيى به بعضنا بعضا » . فأبش النجاشي بصدق قولهم لما يعلمه من ذلك في الانجيل .

وشعر عمرو بن العاص بخيبة مسعاه ، وفشله في تأليب النجاشي على المسلمين ، فاندفع قائلا : « انهم يخالفونك في ابن مريم ، ولا يقولون انه ابن الله عز وجل » . فقال النجاشي لجعفر : « فما تقولون في ابن مريم وأمه ؟ » . فقال : « نقول كما قال الله عز وجل : روح الله وكلثه ألقاها الى مريم العذراء فخرج منها عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام » .

فقال النجاشي : « يامعشر الخبيثة والتفهمين والرهبان ما يزيدون على ما تقولون . أشهد أنه رسول الله ، وأنه الذي بشر به عيسى في الانجيل . فأشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله » .

وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا ممّا أنتم فيه .

وخرجوا مهاجرين الى الحبشة ، وعدتهم ثلاثة وثمانون رجلا وثمانى عشرة امرأة ، وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب . وأوفدت قريش في أثرهم عمرو ابن العاص — وكان وقتئذ على دين قريش — وعمارة بن الوليد بن المغيرة ، ومعهما هدية الى النجاشي ملك الحبشة ، لكي يرد الى مكة من هاجر الى بلاده من المسلمين .

فلما دخل عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد على النجاشي ، سجدا له ، وجلس أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، وقالوا : « ان نفرا من بنى عمنا نزلوا أرضك ، فرغبوا عنا وعن آلهتنا ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم . وقد بعثنا الى الملك فيهم أشراف قريش لتردوهم اليهم » . فقال النجاشي : « وأين هم ؟ » . قالوا : « بأرضك أرسل في طلبهم » . فانتفض النجاشي من مكانه ، وقال في عزم واصرار ورباطة جأش : « والله لا أسلم حتى أعلم على أى شيء هم » .

فأراد عمرو بن العاص أن يستخدم دهاءه — وكان معروفا بالدهاء — حتى يظفر برضا ملك الحبشة ، ويوغر صدره على المسلمين فيسلمهم فقال : « يا أيها الملك العظيم . انهم قوم لا يسجدون للملك اذا دخلوا عليه رغبة عن سنتكم ودينكم » ، ولكن النجاشي أراد أن يتأكد من ذلك بنفسه ، فأمر باحضارهم ليعلم صدق حديثهم ، ويقف بنفسه على أمرهم . فلما جاءوا كان جعفر بن أبي طالب على رأسهم ، فأخذوا يتشاورون فيما يجيبون به الملك اذا دخلوا عليه . فاستقر رأيهم على أن يجيبوا بما أمر به الرسول الكريم ، الصامد في مكة يصابر قريشا ويتحمل أذاها ويتناضل في سبيل

الله صلى الله عليه وسلم من النجاشي أصحمة سلام عليكم يا نبي الله من الله ورحمته وبركاته الذي لا اله الا هو ، والذي هداني للاسلام . أما بعد ، فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى عليه السلام فورب السماء والأرض ان عيسى عليه الصلاة والسلام لا يزيد على ما ذكرت . وقد عرفنا ما بعثته الينا وقربنا ابن عمك وأصحابك ، وأشهد أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم صادقا . وقد باعناك وباعت ابن عمك ، وأسلمت على يده بالله رب العالمين » .

وقد سر النبي سرورا عظيما لاسلام النجاشي ، وعده ظفرا للمسلمين ، ولما توفي في عام ٦٣٠ م صلى عليه الرسول صلاة الغائب . وقد عثت بقبره السنون ، فجدد ضريحه أحد أغنياء السودان الأتقياء ، وهو الحاج أزماج محمد عبده ، من أهالي عدوة تجرى ولا يزال الأحباش يؤمونه حتى اليوم مترحين على أول ملك مسلم في تاريخ الحبشة . والجدير بالذكر أن الرسول الكريم كان يعامل الأحباش معاملة حسنة ، ويفهمهم في أمور الدين ... بل لقد لازمه بعضهم ، ورووا الأحاديث النبوية عنه ومن هؤلاء ذو مخمد — أو محبر في رواية أخرى — وهو ابن أخي النجاشي وقد لازم النبي ملازمة كلية حتى عده بعض العلماء من مواليه . ونزل الشام في آخر أيامه ، ومات في حدود الستين للهجرة .

وقد تتابع على مر السنين اسلام القبائل الحبشية . فأسلمت قبيلة « الحباب » التي تعيش بين بني عامر والبحر ، وهي تضم ثلاث قبائل في الشمال الغربي من مصوع ، وأسلمت قبائل مسيحية مثل « تيماريام » ، « أي عطية مريم » ، و « هبته » ، أي عطية يسوع ، و « تاكليه » أي بنات يسوع .

لقد سألت عن نسب الرسول ، فقالوا : هو فينا ذو نسب . وهكذا الأنبياء يرسلها الله ويصطفونها من صفوة خلقه . وسألت عن حاله أيطلب ملكا فقالوا : لا . وهكذا الأنبياء في دعوتهم الى الله خالصة لا يبغيون من ورائها جاها ولا سلطانا . وسألت عن صدقه ، فقالوا : صادق . وهكذا الأنبياء يشتهرون بالصدق ، ويتسمون بالاخلاص . والله انه لرسول الله حقا . وستنتشر دعوته حتى تعم الآفاق ، فخذوا على يد هذا الرجل الأمين » .

وقد بعث الرسول صلى الله عليه وسلم ، على يد عمرو بن أمية ، كتابا الى النجاشي جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى النجاشي ملك الحبشة : سلم أنت ، فاني أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس ، السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى من روحه ونفخته ، كما خلق آدم بيده . واني أدعوك الى الله وحده لا شريك له والموالاته على طاعته ، وأن تتبغني وتؤمن بالذي جاءني ، فاني رسول الله أدعوك وجنودك الى الله عز وجل . وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتي . والسلام على من اتبع الهدى » .

فلما سلم جعفر بن أبي طالب الكتاب الى النجاشي ، وضعه على عينيه ، ونزل عن سريره وجلس على الأرض ، وقال : « أشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله » . وطلب حقا من العاج ، ووضع فيه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول : « لن تزال الحبشة بخير ما كان هذا الكتاب بين أظهرهم » . ثم بعث بكتاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم الى محمد رسول

١٨٢٣ م . ويطيع الدرقاوية مشايخهم طاعة تامة « طبقا لتعاليم شيخهم الأكبر ، الذى قال حينما حضرته الوفاة : « يجب على الاخوان أن يكونوا فى يد المرشد كالجثة بين يدي الغاسل » .

وفى ٢١ يناير عام ١٩٥٣ افتتح مسجد مصوع فى الحبشة . وقد بى المسجد بجوار الكنيسة فصدق قول شوقى :

أدار محمد وتراث عيسى
لقد رضىك بينهما مشاعا

لقد نبذ التعصب فيك قوم
ليمتنع الحمى بهم امتناعا

وقد بنى المسجد على ثقة الأباطرة هيلاسلاسى امبراطور الحبشة الحالى ، وقال قاضى مصوع لجلالته عند افتتاحه : « نظرت الى الاسلام بحكمتم الرشيدة ، وأدركتم طبيعته السليمة » ووقتم عند الغاية التى ينشدها رعاياكم المسلمون فى هذا البلد ... تلك هى عمارة المسجد ليؤدوا فيه شعائرهم الدينية فى كل وقت وحين » .

وفى بعض المناطق بالحبشة محاكم شرعية اسلامية ، ويشغل الشيخ عبد القادر محجب قاضى القضاة منصب رئيس المحكمة ، وهو من أهالى بلدة « كرن » بأريتريا . أما عضواها فهما الشيخ أحمد عبد الرحمن ، والشيخ سلطان جميل ، وقد تلقيا علومهما بالأزهر الشريف .

وقد أصدر هيلاسلاسى منذ سنوات أمرا بإصدار جريدة « العلم » باللغة العربية ، الى جانب الصحف الأخرى التى تصدر باللغات الأمهرية والانجليزية والفرنسية فى أديس أبابا . وتصدر العلم كل أسبوع . وكتب الامبراطور فى صدر هذه الصحيفة نقول :

« منذ تسلمنا مقاليد الحكم ، ونحن دائبون على

كما اعتنق السواد الأعظم من قبيلتى المنساع الاسلام بعد ذلك .

وكذلك أسلمت قبائل غفر أو « الدناكل » وهى فى الشرق بحذاء الساحل ، وتمتد مساكنها جنوبا حتى تصل الى الصومال .

وتنتشر فى الحبشة الطرق الصوفية . ومن أشهر هذه الطرق : الطريقة القادرية ، وهى فرع من الطريقة التى أسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني فى بعداد عام ١١٦٦ م . وتهدف الى روح التسامح مع النصارى واليهود ، وهم يبشرون بالاسلام من طريق التجارة وتبادل المنافع ، ويفتحون كتابات خاصة بهم ، لا فى زوايا الطريقة فحسب ، إنما فى كل القرى ، ويلقن شيوخ هذه الطريقة الأطفال الأحباش الدين الاسلامى فى أثناء التعليم ، ويرسلون النجباء من تلاميذهم على نفقة الزوايا الى مدارس طرابلس والقبروان وجامع القرويين والأزهر الشريف .

وفى الحبشة كذلك الطريقة الأحمدية ، وهم أتباع الزعيم الصوفى أحمد بن ادريس الذى توفى بالعسير فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . والطريقة الصالحية ، نسبة الى محمد صالح ، وكان مقامه فى مكة . وهذه الطريقة فرع من الأحمدية . وقد استطاع أحد تلاميذ محمد صالح من علماء الصومال — وهو محمد بن عبد الله حسان ، الذى لقب أخيرا بالمهدى — أن يبوء الصالحية مركزا قويا بين قبائل الصومال ، فأسس جماعات منظمة على ضفاف الأنهار .

وتنتشر فى الحبشة أيضا طرق صوفية أخرى « مثل الختمية والشاذلية وهذه الطريقة الأخيرة كانت منتشرة فى المغرب ، وانتقلت الى الحبشة » وكان مركزها « بوبريت » فى مراکش . ومن أسيادها سيدي العربى الدرقاوى المتوفى عام

الدينى ، ويقع بالقرب من حدود السودان من جهة كسلا ، وهو يشتمل على ست حجرات للدراسة .

وقد تقرر منذ سنوات أن تتحد اريتريا مع أثيوبيا — واريتريا تقع فى الشمال من هضبة أثيوبيا — فى اتحاد فيدرالى أو حكم اتحادى .

ويكاد يتساوى عدد المسلمين فى كل من اريتريا وأثيوبيا ، وهم يعيشون مع اخوانهم المسيحيين فى جو تسوده المحبة والوئام .

الاسلام فى أفريقية الغربية

يوجد عدد كبير من المسلمين فى غانا ونيجيريا والكمرون وتوجولاند ... ونيجيريا هى أكبر الدول فى غرب أفريقيا . ومن المنتظر أن تستقل فى أكتوبر عام ١٩٦٠ رئيس وزاريتها مسلم هو الحاج أبو بكر تغاوا ، نائب زعيم حزب مؤتمر شعب الشمال ، الذى أثبت فى الانتخابات الأخيرة أنه أقوى الأحزاب السياسية . ويبلغ عدد سكان نيجيريا ٢٤ مليون نسمة ، منهم ١٧٤٠٠٠٠٠ نسمة من المسلمين .

ويسكن غانا قبائل آتية من المغرب ، منذ القرن الحادى عشر . وقد أسس فرع من هذه القبائل دولة المرابطين فى اسبانيا ومن أهم المدن التى ازدهر فيها الاسلام « والاتا » التى زارها بعض الرحالة العرب ، وتضم بعض المساجد . وقد خضعت غانا فى منتصف القرن السادس عشر لمولاي أحمد سلطان مراكش ومنذ ذلك الوقت انتشرت فيها بعض القبائل الاسلامية .

وقد ضمت توجولاند أخيرا الى غانا ، وبها ٣٠٠٠٠ من المسلمين ، وثلاثة مساجد ، وست مدارس لتحفيظ القرآن .

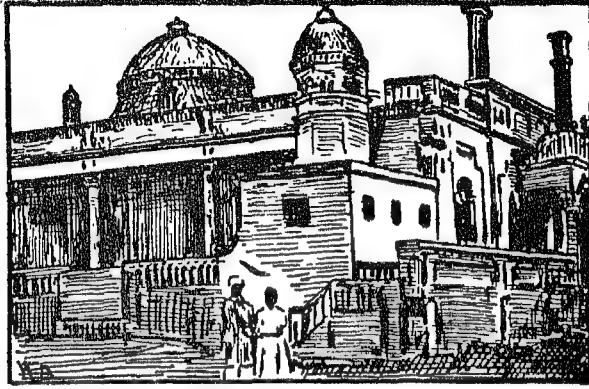
أما الكمرون التى استقلت فى أول يناير عام

فتح المدارس لأبناء المسلمين والمسيحيين على السواء دون تحيز بين الأديان أو القبائل ، لأن الجميع أمام القانون سواء ، ولأنهم أبناء أثيوبيا بالرغم من جهود العدو التى بذلها للتفريق بين عنصرى الأمة . وقد بذلوا جميعا دمائهم فى سبيل القضية الكبرى . والمسلمون أذكاء ناهضون ، عرفوا مقاصد العدو فأفسدوا عليه حيله ، لأنهم يعرفون ما أوصى به نبيهم الكريم صلى الله عليه وسلم عن كرم أثيوبيا ، وحسن وفادتها للمسلمين الأوائل الذين هاجروا اليها .

ويبلغ عدد المسلمين فى الحبشة ٧٨٠٠٠٠ نسمة من جملة السكان البالغ عددهم ١١٨٩٥٠٠٠ نسمة . وهم يزاولون فرائضهم الدينية فى المساجد المنتشرة فى ربوع الحبشة ، وفى الزوايا العديدة الموجودة فى القرى . ويرجع تاريخ بعض هذه الزوايا الى مئات السنين . ومن أشهر مساجد الحبشة كذلك مسجد أسمره .

وهناك المدرسة الاسلامية الابتدائية بأسمره ، وقد أنشأها الحاج محمد عبيد باحيش عام ١٩٤٢ ، وهو من التجار الحضارمة ، ومؤسسة صالح باشا ككيا بمدينة حرقيقو من ضواحي مصوع ، وتضم خمس مدارس : المعهد الدينى ، والمدرسة الأولية ، والمدرسة الوسطى ، ومدرسة للبنات ، ومدرسة فنية صناعية . وقد وقف عليها صالح باشا ككيا ثلاثين حانوتا فى أديس بابا تغل كل شهر ثلاثمائة جنيه .

وهناك معهد مصوع الدينى الذى أنشأه الحاج أحمد عبد الرحمن هلال ، التاجر المصرى ، على أنقاض مسجد عبد الله المهدي ، ويشتمل على ثلاث حجرات صالحة للدراسة ، ووقف عليه أحد عشر حانوتا تقع فى الطابق الأول من بناية المعهد ، وتغل ٢٥ جنيها فى الشهر . وكذلك معهد كرن



مسجد سالتبوند بجمهورية غانا

ويمنح الاسلام هؤلاء الذين يتصلون به منزلة
أرقى وفكرة أسمى عن مكانة الانسان من العالم
المحيط به ، ويحرره من ربة الأوهام الخرافية »

الاسلام في الكنفو الباجيكي

وصل الاسلام الى الكنفو عن طريق منافذ
مختلفة ... فبعض المسلمين جاء من الحبشة ،
وبعضهم جاء من السودان ، وبعضهم وصل من
زنجبار . وقد تولى القيادة في الكنفو الباجيكي
بعض الزعماء المسلمين ، مثل حميد بن محمد ،
الذي كان له نشاط سياسي معروف في النصف
الأول من القرن التاسع .

ويبلغ عدد المسلمين في الكنفو الباجيكي
والفرنسي نحو ٢٥٢٢٠٠٠ نسمة من مجموع
السكان البالغ نحو ١١٧١٦٠٠٠ نسمة .

الاسلام في روديسيا

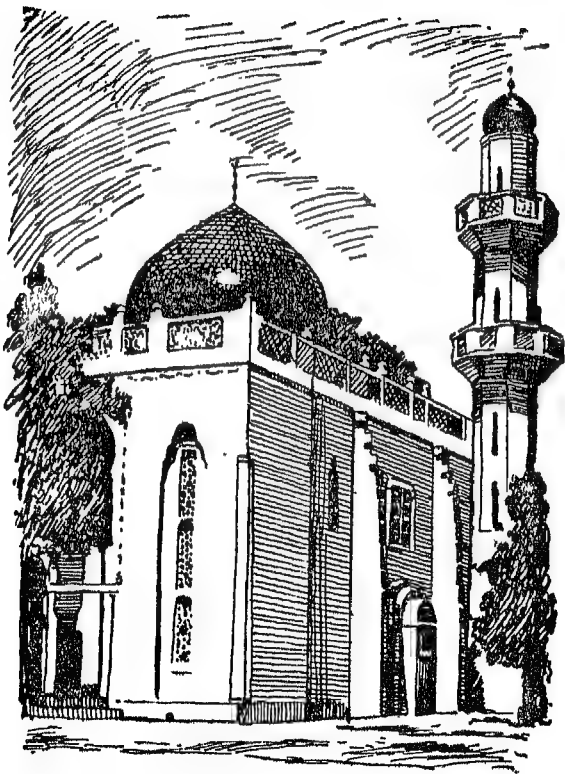
يبلغ عدد سكان روديسيا ٣٨٩٣٠٠٠
نسمة ، منهم ١١٢٠٠٠ نسمة من المسلمين ،
منتشرون في روديسيا الشمالية والجنوبية . أما
نياسلاند ففيها عدة مكاتب لتحفيظ القرآن
الكريم .

١٩٦٠ م ، ففيها بعض المسلمين . وقد تقلد رئاسة
الحكومة فيها زعيم مسلم ، هو أحمد
واجيد جو .

أما ليبيريا فيبلغ عدد المسلمين فيها نحو
٣٠٠٠ نسمة ، وفيها نشاط ملحوظ لبعض
الطرق الصوفية مثل القادرية والتيجانية وغيرها .
وقد تعاقبت على غرب أفريقيا ، منذ القرن التاسع
حتى القرن التاسع عشر ، امبراطوريات اسلامية
كثيرة كان لها أثر بالغ في انتشار الاسلام في
تلك الجهات .

وقد كتب موريل في كتابه يتحدث عن أفريقيا
الغربية ومشكلاتها ، فقال : « ان الاسلام
لا يتطلب — من وجهة نظر أهل نيجيريا — أن
يفقد أحدهم قوميته ، لأن ذلك شيء لا يصحب
الدخول في الاسلام ، ولا يستلزم تغيرات انقلابية
في الحياة الاجتماعية ، ولا هو يقوض نفوذ الأسرة
أو سلطة الجماعة . وليست هناك هوة بين الداعي
الى الاسلام والمتحول اليه ... فكلاهما متساو
— عمليا لا نظريا — أمام الله ، وكلاهما أفريقي ،
وهما من أبناء أرض واحدة ... »

« ومبدأ التأخي الانساني ينفذ تنفيذا عمليا .
ولا يعنى الدخول في الاسلام أن ينصرف الداخل
فيه عن شئونه وأسرته وحياته الاجتماعية ، ولا
عن احترامه لسلطان حكام بلاده الأصليين . وليس
هناك من لا يعجب بسلوك المسلم النيجيري
ووقاره ... بل بسلوك مسلمي أفريقيا عامة . وان
هيئة الرجل العامة لتنتم عن شعور بالقومية ،
واعتراز بالجنس . يخيّل اليك أنه يقول : ان كلا
منا يختلف عن الآخر ، ولكننا جميعا بشر . وان
انتشار الاسلام الذي نشهده اليوم في نيجيريا
الجنوبية ليؤثر بصفة خاصة تأثيرا اجتماعيا . »



جامع معهد التعليم الاسلامي بشرق افريقيا

الاسلام في موزمبيق

تقع موزمبيق بين افريقيا الوسطى البريطانية وجنوب أفريقيا . وقد دخل الاسلام اليها في القرن الثاني عشر للميلاد ، على يد أمير مسلم يسمى داود الثاني . وقامت الهجرات بدور كبير في نشر الاسلام في تلك المنطقة ، ولا سيما على الساحل ، ثم توغل في المنطقة . ويبلغ عدد المسلمين في قرمان على الساحل نحو ٢٠٠٠ ، كما يوجد عدد من المساجد في موزمبيق ، ومحكمة شرعية .

الاسلام في شرق افريقية

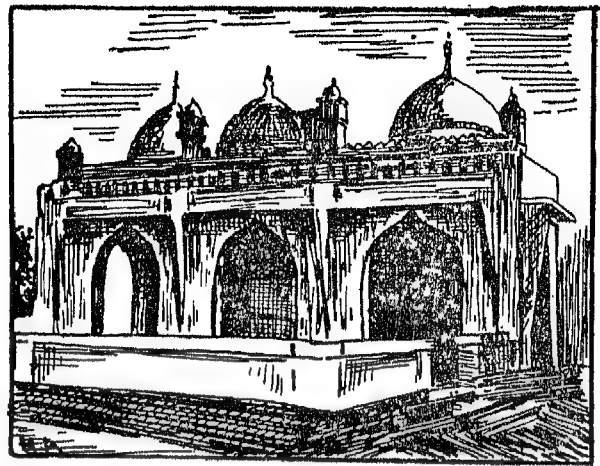
توجد في شرق افريقية أربعة أقاليم سياسية ، هي كينيا وتنجانيقا وأوغندا وزنجبار . ويبلغ عدد المسلمين في هذه المقاطعات حوالي أربعة ملايين . وهناك العرب الذين نزحوا — ولا

ويتزوجون منهم . وحاكم زنجبار مسلم ، ويدين له عرب أفريقيا الشرقية بالطاعة والولاء .

وفي زنجبار قضاة لأهل السنة ، وقضاة لطائفة الأباضية ، وفيها بعض الشيعة الاثنا عشرية ... كما أن بها مدارس لطائفة الاسماعيلية . وهم يرون انحصار الخلافة في علي وذريته ، ولا يزالون يتسكون بعادة الحداد على الحسين عليه السلام ، ولهم كثير من المساجد الضخمة التي ينفقون عليها بسخاء .

ولطائفة الاسماعيلية نشاط تجارى ملحوظ في شرق افريقية .

وفي زنجبار أيضا طائفة البهرة ، وهم فرع من الشيعة ، وزعيمهم في الهند هو طاهر سيف الدين . وهم يرون أنه معصوم من الخطأ ، وينسبون له كثيرا من الخوارق والكرامات .

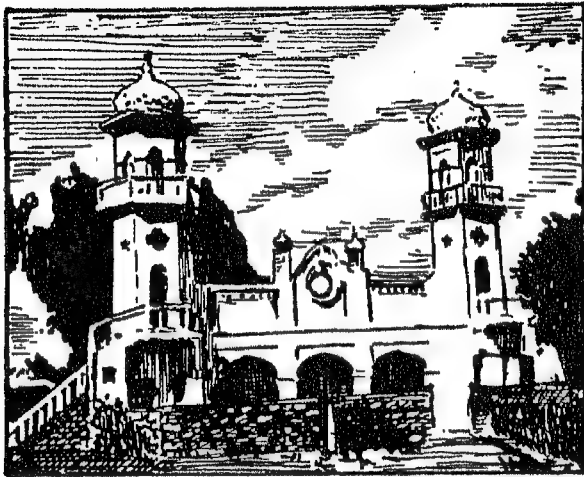


مسجد دار السلام بشرق افريقيا

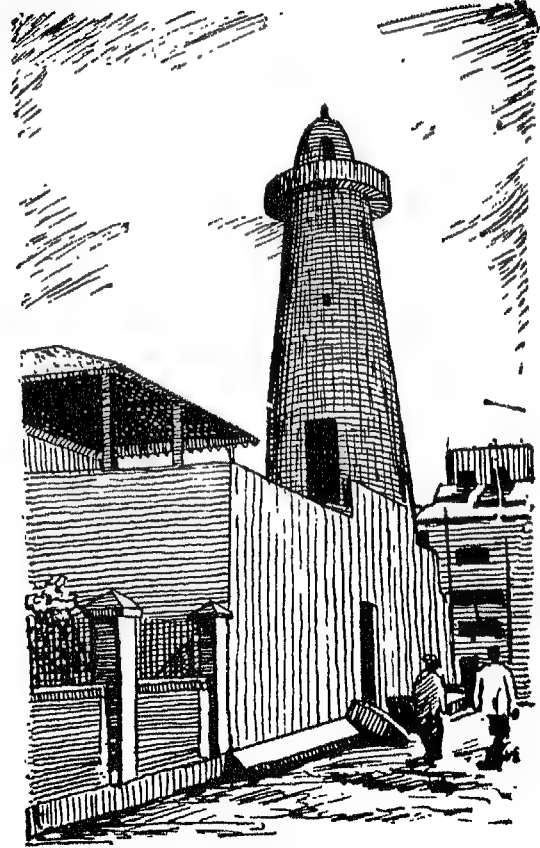
يزالون — من جزيرة العرب ، وخاصة من عمان وحضرموت وعدن ومسقط . وهم متغلغلون في البلاد كلها ونجدهم — على قلتهم في المدن وفي القرى وفي الغابات — يندمجون مع الوطنيين ،

الساحل من العرب المسلمين . وقد دخل الاسلام الى بعض القبائل المجاورة للساحل .
وفي شمال كينيا توجد قبائل صومالية مسلمة .
وللمسلمين هناك مدارس لشتى فروع التعليم .
وفي مدينة « منبسة » مدرسة عربية ثانوية للبنين ، ومدرستان ابتدائيتان كبيرتان : احدهما للبنين ، والاخرى للبنات . كما يوجد معهد للدراسات الاسلامية يؤمه عدد كبير من المسلمين من تنجانيقا وأوغندا والصومال . ويبلغ عدد سكان كينيا ٢٠٨٠٠٠٠ نسمة ، منهم ٢٠٨٠٠٠ نسمة من المسلمين .

تقع جزيرة زنجبار على مسافة عشرين ميلا أو نحوها من الساحل الأفريقي . ويبلغ عدد سكانها نحو ٣٠٠٠٠٠ نسمة ، ومساحتها ١٥٠٠ ميل مربع وبين السكان ٤٠٠٠٠ عربى ، و ٢٥٠٠٠ هندی ، و ٢٣٠٠٠٠ أفريقى ، وبضع مئات من الأوروبيين . وقد استقر العرب فيها منذ نحو ١٠٠٠ سنة . وبعد خمسمائة سنة وصلها الرحالة البرتغالي



مسجد الإجمدية بمدينة نيروبي - كينيا



جامع في مدينة ممباسا بشرق افريقيا

وقد كان سلطان أوغندا مسلما في فترة من الفترات . وكان ينوى بناء مسجد للمسلمين ، ولكن المنية عاجلته ، وقد قام حفدته من بعده بهذا العمل العظيم .
ومن المنتظر أن يكون للاسلام مستقبل عظيم في تلك الجهات ، لو كثرت البعثات التبشيرية اليها .

الاسلام في كينيا وزنجبار

تقع كينيا بين تنجانيقا والصومال الايطالي وأوغندا . وقد دخلها الاسلام عام ٨٦٠ م على يد أهل عمان الذين حضروا الى البلاد للاستعانة بجهود الأهليين في عمران العراق . ومعظم سكان

ويعبرون عن أشكركم بقولهم : « شكرنا غنى » ،
وعن أحسنت بقولهم : « أسحت » .

وفي منطقة أوجادين — التي كانت بريطانيا قد
أهدتها الى الحبشة مكافأة لها على اشتراكها في
اخماد ثورة عبد الله المهدي في الصومال ، ثم أكدت
هذه المكافأة بمعاهدة عام ١٨٩٧ — كثيرون من
المسلمين ، ومن زعمائهم الشيخ محمد عبد الله
حسن ، الذي تلقى العلوم الدينية والعربية في
الحجاز . وقد حافظ على الشريعة الاسلامية ، ونهى
الصوماليين عن شرب الخمر وتعاطى المسكرات .

ومن علمائهم الشيخ علي الصوفي ، الذي
تلقى العلم في مكة ، وقام بالتدريس في هرا
وأوجادين . وفي الصومال قبائل الاسحاقيين الذين
ينتمون الى اسحاق بن أحمد ، الذي نزع من
الجزيرة العربية الى زيلع في القرن السابع للهجرة .
وهناك مسلمون في قبائل هاويا والأبقال

والدرويمال وعيسى ، وغيرها من القبائل التي
تستوطن الصومال . ومن أشهر العرب في
الصومال الحاج محمد علي كيش الذي يعد أكبر
تاجر في جيبوتي . وقد أسس مدرسة النجاح
الاسلامية بها ، وابنه السيد سعيد محمد علي كيش ،
والسيد علي الثقاف ، القاضي الشرعي المتخرج
في الأزهر . وهناك جاليات باكستانية . وفي
الصومال فضلا عن ذلك بعض الطرق الصوفية :
مثل الطريقة القادرية ، والطريقة الصالحية الأحمدية ،
والطريقة الرفاعية ، والطريقة الدندراوية ... نسبة
الى الشيخ أبي العباس الدندراوى ، من أهل
دندرة في صعيد مصر .

وتوجد أسطورة شائعة لدى الصوماليين بأن
عربيا عريقا في الأصل أجبر على أن يغادر بلاده ،

المعروف « فأسكو داجاما » ، وأصبحت عام
١٥٠٣ م مستعمرة برتغالية .

وبعد مائتي سنة جاء أسطول زاخر بالمحاربين
العرب ، أرسلهم سلطان عمان ومسقط ، فحرروا
تلك المنطقة من البرتغاليين ، وأصبحت قسما من
تلك السلطنة . وفي عام ١٨٣٢ م نقل سعيد بن
سلطان بلاطه من مسقط الى زنجبار ، وتم
انفصالها عن سلطنة عمان . وقد أسس السلطان
سعيد برغش عام ١٨٨٣ م بيتا على النظام العربى
يسمى بيت العجائب ، ويلعب في حدائقه الأطفال
في جزيرة زنجبار .

ويقوم السلطان خليفة بن حرب ، سلطان
زنجبار ، بكثير من الجولات لتفقد أحوال
المسلمين في الجزيرة .

الاسلام في الصومال

تقع الصومال على المثلث الذى تنتهى اليه
أفريقيا ، بين خليج عدن والمحيط الهندي .
ويحد هذا المثلث شمالا خليج عدن ، وجنوبا
وشرقا المحيط الهندي ، وغربا الحبشة .

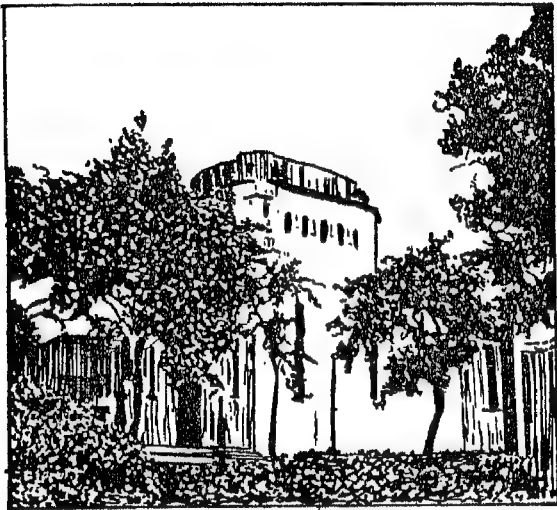
وفي الصومال بعض المسلمين ، وأكثرهم على
المذهب الشافعى . وقد جاء في كتاب السلطنة
الاستعمارية الألمانية ما يفيد أن أهل الصومال
اختلفوا بالعرب منذ أقدم العصور ، وأن صورهم
وتقاطيعهم لا تختلف عن صور العرب وتقاطيعهم .
وجاء في دائرة معارف البستانى أن لغة أهل
الصومال الأصليين فيها كثير من الألفاظ العربية .
ويقول أحد الباحثين — وهو الاستاذ عبد الله
المشد ، عضو البعثة الأزهرية لهذه البلاد — ان
الصوماليين ينطقون لفظ الجلالة الله : « الهى » ،

الإسلام في الجزر الأفريقية

يوجد عدد من المسلمين في جزر مدغشقر وقم وأنجوان وسقطرى وكرمان وسيشل وغيرها من الجزر . وكان العرب الأولون يسمونها جزائر القمر (بضم القاف وسكون الميم) ، وقد تحرك الميم فتلفظ قمر (بضميتين) ، ويسمى القمر الفرج (قومور) .

وقد ذكر المسعودي في مروج الذهب أن قنبالو أو أنجوان فتحت عام ٨٢٤ م على أيدي الأزدي الأبازيين ويقول « كارثي » في كتابه « جزر أفريقيا في بحر الهند والجزر العربية » : أن رجلا عربيا باسلا قد نصب نفسه سلطانا على جزائر القمر الكبرى ، ويوجد في جزائر القمر ٦٧٠ مسجدا وزاوية .

أما جزيرة مدغشقر فقد انتشر الإسلام فيها بين قبائل الاتامورونا التي تسكن الساحل الجنوبي الشرقي من مدغشقر . ويقال أن أصلهم من مكة ، ويحفظون كتباً عربية خطية قديمة جدا ، وينادون بأن كل إنسان منهم يجب عليه أن يكتب ويقرأ



مسجد فازال (أو مسجد لندن) باتحاد جنوب أفريقيا

قمر البحر الى عدن ، ودعا الى الاسلام بين أجدادهم .

وفي القرن الخامس عشر للميلاد جاءت من حضرموت جماعة تتألف من ٤٤ عربيا نزلوا في بربرة على البحر الأحمر ، ثم انتشروا في بلاد الصومال يدعون الى الاسلام . وقد شق أحد هؤلاء اللاجئين — وهو الشيخ ابراهيم أبو زرباي — طريقه الى هرر حوالى عام ١٤٣٠ م ، واستطاع أن يحول كثيرين الى هذا الدين ، ولا يزال قبره موضع تعظيم في هذه المدينة .

ويقول سير « توماس أرنولد » انه يوجد عن كتب من بربرة جبل يسمى جبل الأولياء ، وقد أطلق عليه هذا الاسم تبركا بمن كانوا يخلون الى أنفسهم في ظله للتعبد والتهجد والدعوة الى الاسلام . وقد قام التجار الوافدون من اليمن بنشر الاسلام في الصومال ، ولا سيما في المرافئ والمراكز الساحلية التجارية التي نزلوا بها . وقد ظل أثر هؤلاء التجار اليمنيين المسلمين باقيا في نشر الاسلام حتى اليوم .

الإسلام في اتحاد جنوب أفريقية

يبلغ عدد السكان في اتحاد جنوب أفريقيا ١١٥٠٠٠٠٠ نسمة ، منهم ٨٣٠٠٠٠ نسمة من المسلمين ، جاء معظمهم من الملايو وجزر الهند الشرقية . وفي اتحاد جنوب أفريقيا مدارس ابتدائية لتدريس اللغة العربية ، وبه كثير من المساجد . ومن أهم المدن العامرة بالمساجد مدينة الكاب التي تضم نحو ٢٣ مسجدا ، وفي مدينة كبرلى مسجدان . ويحرص القادرون من المسلمين على أداء فريضة الحج . وفي إقليم بيتشوانالاند ، في شمال اتحاد جنوب أفريقيا ، يبلغ عدد المسلمين نحو تسعة آلاف .

القمر — ففيها كذلك عدد من المسلمين . وهناك جالية من العرب ، أصلها من سواحل خليج فارس أو سواحل البحر الأحمر ، وعليها سحنة أهل اليمن . وأكثر المسلمين هناك يدعون شرف النسب الى النبي وأهله وعشيرته ، ويقضون معظم أوقاتهم مضطجعين في داخل بيوتهم ... حتى اذا أرف الغروب ، ذهبوا الى الجامع للصلاة .

ويتبع الأنجوانيون سياسة خاصة في تعليم أبنائهم ، فلا بد للطالب في سن السادسة أن يعرف القراءة والكتابة والحساب والتقويم والعقائد . ويكتب لهم المعلم على ألواح بيضاء ، بقلم من قصب الكامو ، آيات من القرآن الكريم لا بد للأولاد أن يحفظوها . ويواظب أهل أنجوان على الصلوات الخمس . ومن الغريب أن جميع الأهالي يصومون رمضان ... حتى غير المسلمين ، كما يقول المؤرخ الكبير شكيب أرسلان .

ويوجد في الجزائر الأخرى طوائف متناثرة من المسلمين تنتشر هنا وهناك ، وتؤدي عباداتها على قدر ما تتلقن من تعاليم الاسلام ، وما يفوم به الوعاظ من دور تبشيري في هذا الميدان .

باللغة العربية ، ليكون أهلا لتقلد أى منصب من المناصب أو التقدم للزواج . وكانت جميع الرسائل الرسمية ، في قصور ملوكها الأقدمين ، مكتوبة باللغة العربية . وهم يستخدمون دائما البسملة والحوقة في أحاديثهم .

وقد أشار الرحالة المشهور « ماركو بولو » الايطالى البندقى — عندما قام برحلته المشهورة في القرن الثالث عشر — الى انتشار الاسلام بين هذه القبائل . وقال مؤرخ فرنسى يسمى « فرانسوا غوش » : « ان الديانة المحمدية التي يدين بها أهالى السواحل المقابلة لمدغشقر ، لاشك أنها وصلت الى مدغشقر نفسها . فانهم يختنون ، ولا يشتغلون يوم الجمعة ، ولا يأكلون لحم الخنزير أو المختنقة ، ولا يأكلون لحم الحيوان الا اذا كان مذبوحا ، ولا يجلسون الا متربعين على السجاد أو الحصير ، ولا يؤدون شيئا من الشعائر دون أن يغتسلوا » .

ويبلغ عدد سكان مدغشقر ٣٤٩٠٠٠٠ نسمة منهم ٨٣٠٠٠٠ نسمة من المسلمين . أما جزيرة أنجوان — وهى من أرخبيل جزائى



الإسلام في أوروبا

ماتى رجل مما جعل عدد المصلين يبلغ سبعة آلاف .

وقد قامت صقلية بدور كبير في نشر الثقافة العربية والدين الاسلامى في أوروبا . ولم تكن جزيرة صقلية الجزيرة الوحيدة التى احتلها العرب في حوض البحر الأبيض المتوسط ، انما استولوا على بعض الجزر الأخرى ، ومنها جزيرة أقرطش « كريت » التى افتتحها عام ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) بحار عربى باسل هو أبو عمر حفص بن عيسى الأندلسى . وفتح المسلمون جزيرة كورسيكا ، موطن نابليون بونابرت ومسقط رأسه ، على يد موسى بن نصير فاتح الأندلس عام ٧١٣ م ، ثم فتحوها بعد ذلك أكثر من مرة ، واستطاعوا البقاء فيها أكثر من قرن ، كما فتحوا جزيرة « سردينيا » منذ فاتحة القرن الثامن للميلاد .

وفتح العرب جزيرة مالطة عام ٢٥٥ م واستولوا على جزيرة قبرص ، وكانت بينها وبين المسلمين علاقات طيبة ، كما كانت تنقسم الى قسمين : قسم للمسلمين ، وقسم للنصارى ، وكان للمسلمين بها أمير وحاكم . ويقول ابن حوقل ان جزيرتى قبرص واقريطش « كريت » كانتا جزيرتين كثيرتى الخير والمير والتجارة .

وفى رودس الآن مئات من المسلمين ، ورئيسهم الشيخ سليمان قاشلى أوغلو ، وهو مفتى رودس ، وعالم كبير . والمسلمون اليونانيون حاربوا في عام ١٩٤٠ ضد ايطاليا واستشهد منهم مئات الشباب ، وفتحوا نصف ألبانيا .

دخل العرب أوروبا عن طريقين : الطريق الأول طريق الأندلس وقد وصلوا منه الى جنوب فرنسا . والطريق الثانى طريق صقلية ومدن ايطاليا ، وقد استطاعوا أن يشغلوا في ايطاليا ، وأن يحاصروا روما مقر الحبر الأعظم . حتى ان البابا يوحنا الثامن (٨٧٢ — ٨٨٢ م) ظل يؤدى لهم الجزية مدة سنتين .

ثم دخل الأتراك أوروبا من الشرق في القرن الخامس عشر . وكان العرب والأتراك يحملون في هذه الفتوح الدين الاسلامى ، والثقافة الاسلامية اللذين كان لهما أثر كبير في نفوس الأوربيين ، فاعتنق بعضهم الاسلام ، وأحب بعضهم الثقافة العربية حبا جما ، وعكف على دراستها والتزود منها ، وأنشئت معاهد تهتم بالثقافة الاسلامية والحضارة العربية ، وتقل بعض آثار العرب الى اللغات الأجنبية . وكان تأثير الفلاسفة العرب والعلماء العرب في الحضارة الأوروبية قويا ملحوظا .

الاسلام في جزر البحر الابيض

وقد فتح المسلمون جزيرة صقلية ، وظلت في حوزتهم مائة وتسعة وثمانين عاما ، وعمروا مدينة « بالرمو » ، وأنشأوا فيها المساجد ، حتى ان الرحالة الجغرافى « ابن حوقل » ذكر فى وصفها أنه وجد فيها أكثر من مائة وخمسين حانوتا للقصابين لبيع اللحوم ، وأنها تضم أكثر من ثلاثمائة مسجد ، وأن مسجدهم الجامع قام فيه أكثر من ستة وثلاثين صفا للصلاة ، كل صف يحتوى على ما يقارب

الاسلام في اليونان

ويبلغ عدد المسلمين في اليونان حوالى مائة ألف مسلم ، وأكثرهم فلاحيون يسكنون في مقاطعه برفيا الغربية ، وعاصمتهم « كوموتينى » وحكومة اليونان تسمح بنشر الدعوة الاسلامية ، وتشجع الحركات الثقافية ، وتبنى على حسابها المدارس الاسلامية . وفي العام الماضى نشرت ترجمة يونانية للقرآن الكريم .

والمسلمون في ايونان يبنون المساجد ، وتشجعهم الحكومة على ذلك ، وتمدهم بالمعونة والأموال .. ولكن معظم حفظة القرآن في اليونان يرتلونه دون أن يدركوا معناه ومغزاه ، وبعضهم يظن أن الاسلام في المسجد وفي الاسم ، وفي دفتر تقييد المواليد واجراء عملية الحثان ونحو ذلك . ولذلك كان لابد من ارسال البعث الدينية الى البلقان لتعليم المسلمين هناك تعاليم الاسلام الصحيحة ، ولتفقهوهم في الدين .

وقد ساعدت القوافل التجارية على نشر الاسلام في أوروبا ، الى جانب هذه الفتوحات الكبيرة التي أقدم عليها العرب : لا رغبة في سفك الدماء ، إنما من أجل تأمين جانبهم ، وصيانة دولتهم ، وعملا على نشر العقيدة الاسلامية ، والمجاهدة في سبيل الله ... ولذلك نشأت واحات اسلامية في أوروبا بجهود أفراد من السياح والتجار المسلمين والوعاظ والزهاد .

وقد عرف المسلمون الشعوب السلافية ، وكانوا يسمونهم باسم الصقالبة منذ عهد بعيد . وقد اعتنق كثيرون منهم الاسلام ، ولا سيما بعد أن استولى العرب على الساحل الشرقى للبحر الادرياتيكي ، أى مقاطعة دالمسيا في يوغوسلافيا الحالية . وقد كان بعض هؤلاء الصقالبة يفتدون الى البلاد العربية منذ

العصور الاسلامية الأولى للتزود بالثقافة العربية

والتعرف الى الدين الاسلامى

يقول ياقوت الحموى في كتابه « معجم البلدان » في تفسيره باشقارد : « وجدت بمدينة حلب طائفة كثيرة يقال لهم الباشقاردية ، شفر الشعور والوجوه جدا ، يتفقهون على مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه ، فسألت رجلا منهم استعقلته عن بلادهم وحالهم ، فقال : أما بلادنا فمن وراء القسطنطينية في مملكة أمة من الافرنج يقال لهم « الهنكر » . ونحن مسلمون ، وساننا لسان الافرنج ، وزينا فيهم ، ونخدم معهم في الجندية . فسألت عن سبب اسلامهم ، مع كونهم في وسط بلاد الكفر ... فقال : سمعت جماعة من أسلافنا يتحدثون أنه قدم الى بلادنا منذ دهر طويل سبعة نفر من المسلمين من بلاد بلغار ، وسكنوا بيننا ، وتلطفوا في تعريفنا ما نحن عليه من الضلال ، وأرشدونا الى الصواب من دين الاسلام ... فهدانا الله والحمد لله ، فأسلمنا جميعا ، وشرح الله صدورنا للايمان . ونحن نقدم الى هذه البلاد وتثقه ، فاذا رجعنا الى بلادنا أكرمنا أهلها وولونا أمور دينهم . فسألت : لم تحلقون لحاكم كما يفعل الفرنج ؟ فقال : يحلقها منا المتجددون ، ويلبسون لبسة السلاح مثل الافرنج ، أما غيرهم فلا . فقلت : فكم مسافة ما بيننا وبين بلادكم ؟ فقال : من هنا الى القسطنطينية نحو شهر ونصف ، ومن القسطنطينية الى بلادنا نحو ذلك » . وهكذا انتشر الاسلام في أوروبا الجنوبية الشرقية . غير أن بعض الملوك ظلوا يحاربون الاسلام مثل الملك كارل الأول روبرت (١٣١٠ - ١٣٤٢ م) الذى أصدر قانونا يمنع فيه الصيام أو تناول الطعام على غير الطريقة المسيحية ، ويعاقب من يمتنع عن أكل لحم الخنزير ، أو يتوضأ قبل الصلاة . وأغرى من يبلغ عن أحد من المسلمين بتملكه جزءا

لأنفسهم ويقوم على المسائل الدينية مجلس الأوقاف الأعلى ، ومقره مدينة سيراغيفو ، وينتخب ثلث أعضائه على الأقل من رجال الدين وفي يوغوسلافيا عدد كبير من المساجد ، علاوة على مئات من المكاتب الاسلامية ، ومدرسة ثانوية دينية في « سيراغيفو » التي تعد عاصمة الاسلام هناك

وللمسلمين في يوغوسلافيا دورهم في الحياة العامة فهم لوريير في الوراثة الاتحادية مثل عثمان كريبجو فتش ، وحسن بيركتش رئيس لجنة التجارة الخارجية ، وبعادل منصبه منصب وزير التجارة في الدول الأخرى . وحتى المرأة المسلمة خرجت الى الحياة العامة ، ونولت منصب القضاء ، ونابت عن الناس في البرلمان ويوجد مجلس للعلماء يتألف من أربعة أعضاء في سيراغيفو (سراي بوسنة) وتوجد المشيخة الاسلاميه في بلغراد العاصمة ، وعلى رأسها شيخ الاسلام الذي يسمى رئيس العلماء ، ويعين بالانتخاب بوساطة لجنة مكونة من أعضاء مجلس العلماء وأهل الفتوى ومدير مدرسة القضاء الشرعي ومندوبي لجنة الأوقاف بمجلس النواب .

وللمسلمين في مجلس النواب ثلاثون نائباً منتخباً . ومن بينهم أعضاء مجلس العلماء ومحكمة التمييز وهم يبحثون في هيئة خاصة مصالح المسلمين ، وخصوصا ميزانية الأوقاف والمعارف ومجالس المديريات . ولكل مديرية بها خمسة آلاف من المسلمين فأكثر محكمة شرعية ، وقاض شرعي للفصل في شئون الطلاق والزواج والميراث والأوقاف الى غير ذلك ، كما توجد محكمة عليا تسمى محكمة التمييز في سراي بوسنة .

وفي سراي بوسنة أيضا مدرسة للقضاء الشرعي ، ومدرسة للعلوم الشرعية ، ومدرسة للمعلمات

من أموال المسلم . وإذا قام أحد بزيارة مسلم ، أو دعا مسلما ليضافه ، فعلى كليهما أن يأكلا لحم الخنزير . وهكذا اضطهد المسلمون في هنغاريا ، ولكن المسلمين لم يلبثوا أن تحرروا من هذا النير بموت هذا الملك ، وظلوا بين مد وجزر سنوات طويلة حتى العصر الحديث

الاسلام في يوغوسلافيا

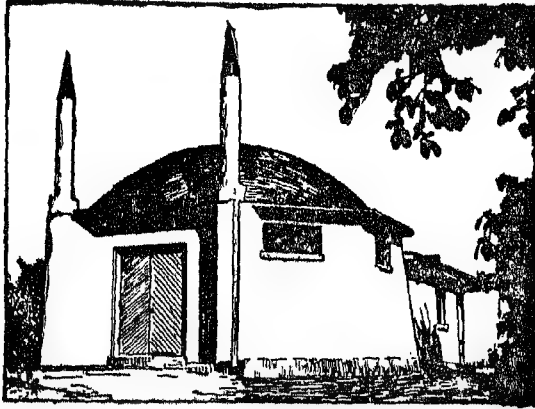
أما في يوغوسلافيا فالمسلمون كثيرون منذ العصور الأولى ، ولا سيما بين قبائل البشناق والبشناق . وقد وصف أحد الرحالة حالة المسلمين في « البوسنة » فقال : « انه لعجيب حقا أن بتغلب الاسلام في هذه البلاد الأوربية على التقاليد القومية اليوغوسلافية ، حتى لينظر اليها المسلمون الآن كأنها عادات أجنبية عنهم . ولعل هذا هو ما يميزهم عن بقية مسلمي العالم . فهم في قلب أوروبا أشد تمسكا بالتقاليد والعادات الاسلامية من اخوانهم في الشرق . وقد أتيج لي أن أزور بعض بيوتهم الجبلية ، وشاهدت أساليبهم في المعيشة ، وشعرت كأنني في بيوت العرب المتقدمين » .

وقد دخل أهل البوسنة في دين الله أفواجا بعد فتحها عام ١٤٦٣ م ، وأسلموا طواعية ومن الأدلة الساطعة على عدم اكراه أهالي البوسنة على اعتناق الاسلام ماورد في الوثيقة الموجودة في دوجي — إحدى البيع الأرثوذكسية في هرسك — والمؤرخة عام ١٥٠٥ ، وجاء فيها أن كثيرا من الناس اعتنقوا الدين الاسلامي بدون أى اكراه . وظل الاسلام يعيش بين عدد كبير من مسلمي أوروبا الجنوبية الشرقية فترة طويلة .

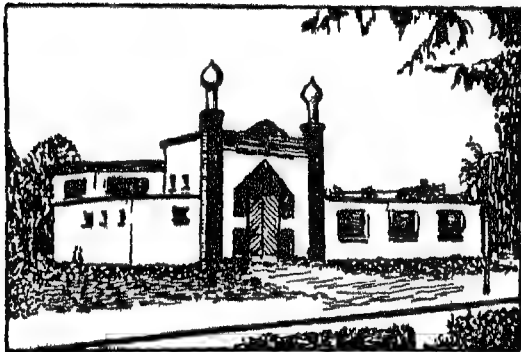
وفي يوغوسلافيا اليوم جالية اسلامية كبيرة العدد تتمتع بحريتها الدينية الكاملة ، ويكفلها لها الدستور . وينظم المسلمون شئونهم الدينية

الاسلام في المانيا

أما ألمانيا فيبلغ عدد المسلمين فيها نحو تسعة آلاف مسلم : منهم ثلاثة آلاف من الألمان ، والباقيون من العرب والهند والباكستان وسائر الدول الاسلامية . والحرية الدينية مكفولة بألمانيا . وهناك جمعيات اسلامية في بعض المدن ، وجمعية الأخوة الاسلامية التي يرأسها السيد أحمد هارون . وفي « فرانكفورت » جمعية المسلمين ، ورئيسها شاب ألماني اعتنق الدين الاسلامي ، ويدعى محمد أمين . وفي مدينة « هامبورج » جمعية اتحاد المسلمين . وامام برلين يدعى محمد أمان ، وهو عالم كبير ألف عدة كتب ، منها كتب مصورة للصلاة باللغة الألمانية حتى يقرب فرائض الدين الاسلامي



المسجد الذي أقامته جماعة الاحمدية بمدينة فرانكفورت
بألمانيا الغربية



مسجد الاحمدية بمدينة هامبورج بألمانيا الشرقية

والعلمين يستطيع طلبتها اتمام دراساتهم العالية فيما بعد في جامعات اسلامية أو أوربية وفقا لاختصاص المدارس .

الاسلام في البانيا

أما ألبانيا فقد انتشر فيها الاسلام على يد الأتراك . ولما فتح الأتراك البلقان قاومهم الألبانيون أشد المقاومة بقيادة جورج كستريوت بن حنا



مسجد تيرانا بألبانيا

كستريوت . ولكن جورج لم يلبث أن اعتنق الاسلام ، وظل في خدمة الجيش العثماني ، وصار من قواده وسمى اسكندر بك .

ويقدر سكان ألبانيا بنحو مليونين : نصفهم من المسلمين ، والنصف الثاني من الأرثوذكس والكاثوليك . ويتعلم المسلمون في بعض مدارسهم القرآن الكريم . ومن أشهر المعاهد الدينية الاسلامية في ألبانيا : مدرسة تيرانا الدينية . وكلمة مدرسة باللغة الألبانية هي نفسها باللغة العربية . ويتخرج من مدرسة تيرانا الطلبة منتين وأئمة ومؤذنين ووعاظا ومدرسين للديانة .

ليقربول ، وحول جزءا من داره الى مسجد ة
وأصبحت داره ملتقى لمحبي الثقافة الاسلاميه .
وقد أصدر جريدتين اسلاميتين ، وأخذ ينشر فيهما
آراءه ، فكان لهما أثر كبير في نشر الاسلام في
شمال انجلترا .

وظهرت في انجلترا عام ١٨٨٦ م جمعية اسلامية
استمرت سبعة عشر عاما . وقد حضر من الهند الى
انجلترا شوداري فاتح محمد سيال وخوجه كمال
الدين ، وشرعا يدعوان للاسلام حتى أسلم على
يديهما اللورد هيدلي . وتأسست في انجلترا جمعيات
اسلامية منها الجمعية الغريبة الاسلامية ، وتهدف
الى حماية حقوق العمال المسلمين من العرب والهند
والملايو والصومال ، وأكثرهم يشتغل في الموانئ
الانجليزية ، وايواء الغرباء المعوزين من المسلمين ،
وانشاء المدارس والمساجد لتعليم أبناء المسلمين .
كما تألفت في نهاية الربع الأول من القرن العشرين
جمعية لايواء المسلمين الغرباء في انجلترا ، وتولى
ادارتها بعض محبي الثقافة الاسلامية من الانجليز
وبعض الهنود والعرب من المسلمين .

ويوجد في مانشستر مركز للثقافة الاسلامية
لاقامة الشعائر الدينية . وقد منح الامام حق عقد
الزواج . وفي هذا المركز قاعة لاقامة الصلوات ة
وقاعة للمحاضرات ، وقاعة للاجتماعات والحفلات .
والطابقان العلويان مخصصان لاقامة الطلبة المسلمين
المتزوجين .

ويبلغ عدد المسلمين في مانشستر وضواحيها أكثر
من ثلاثمائة مسلم ، وتلقى في المركز محاضرات
أسبوعية لتعليم الدين الاسلامي الحنيف . ويجتمع
المسلمون مرة في الأسبوع أيضا للبحث في القضايا
الخاصة بالمركز وبأحوالهم عامة في جامعة مانشستر .
وفي الكلية الصناعية الكبيرة التابعة لها عدد

للمسلمين الألمان ، وينوب عن الامام محمد أمأن
السيد محمد أحمد ، ويقوم بجهود تبشيرية واسعة .
والمسلمون في ألمانيا على اتصال دائم بمسلمي
سويسرا والنمسا وهولندا وفنلندا والسويد ،
ويؤدي المسلمون الألمان صلاتهم باللغة العربية .
وهناك ترجمة رصينة للقرآن الكريم بهذه اللغة .

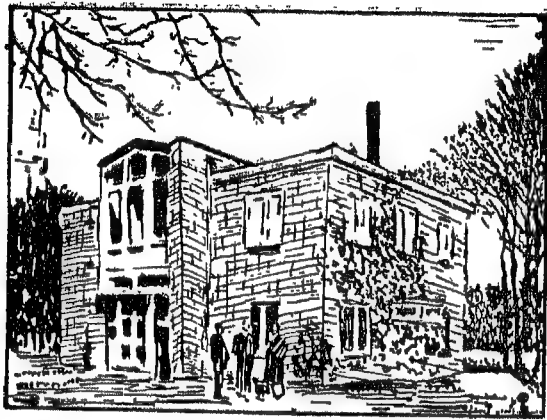
الاسلام في فرنسا

أما فرنسا فيبلغ عدد المسلمين فيها نحو مائتي
ألف ، منهم عشرون ألفا يباريس وضواحيها ،
وأكثرهم من شمال أفريقيا من طبقة العمال في
الصناعة والتجارة .

وفي مرسيليا تكية تديرها سيدة يمنية كريمة
ترحب بالضيوف واللاجئين الشرقيين . وفي باريس
مسجد كبير افتتح في ١٥ يوليو سنة ١٩٢٦ ، وبه
قاعة للمحاضرات . وقد بنى المسجد على الطراز
الاسلامي المغربي ، وفرش بأنفس البسط
والسجاجيد ، وتدلّت من سقفه مجموعة فخمة من
الثريات . وفي بعض ساحاته أحواض رائعة مليئة
بالزهور تتوسطها نافورات المياه .

الاسلام في انجلترا

أما انجلترا فيبلغ عدد المسلمين فيها نحو ثلاثين
ألفا . ويرجع تاريخ الاسلام فيها الى عام ١٨٨٠ م
حين اعتنق الاسلام اللورد استانلي أوف ألدرلي ،
أحد أشراف الانجليز وسفير انجلترا في تركيا ، وقد
سمى نفسه عبد الرحمن . وفي عام ١٨٦٦ م اعتنق
الاسلام المستر كويليام أحد أعيان ليقربول ،
وسمى نفسه عبد الله ، وكان بليغا قوى الحجة .
وقد أثار اسلامه السلطان عبد الحميد ، فاستدعاه
الى تركيا ومنحه لقب بك ، وعينه شيخا للاسلام
في بريطانيا : فعاد الشيخ عبد الله كويليام الى مدينة



مسجد لاهى بهولالدا

أن تحل المأساة الدامية ، ويفادر البلاد أبو عبده الله — آخر سلاطين بني الأحمر في غرناطة — مغلوباً على أمره ، ويسدل الستار على مجد سامق ، كان من الممكن أن يمتد فيشمل أوروبا كلها .

وقد عمل العرب في الأندلس على نشر الاسلام ، وانشاء المساجد ، وتشجيع العلم حتى قال العالم دوزى : « لم يكن يوجد في بلاد الأندلس رجل أمي واحد في الوقت الذي لم يكن في أوروبا من يلم بالقراءة والكتابة الا طبقة القسطن » : وقام أنشأ الحكم الثاني وحده ٢٧ مدرسة مجتعية بلوازمها كي لا يبقى أحد من رعيته محروماً من نعمة العلم ، وكانت جامعة قرطبة أشهر من الجامعة النظامية في بغداد ،

ولا تزال آثار المسلمين باقية حتى اليوم في الأندلس . ومن أشهر هذه الآثار قصر غرناطة الشهير بالخمر : وهو قصر فخم من أبدع ما صنعتته يد الإنسان ، وله باب من المزه منقوش فيه بالخط الكوفي نقشاً بارزاً : « هذا الباب المنتمى بباب الشريعة أمر بهنائه أبي عبده الله ابن يوسف بن الحجاج الخزرجي » . وإذا دخلنا من هذا الباب استقبلنا دهليز ساحتها موصوفة

لا يستهان به من الطلبة العرب والمسلمين يتلقون فيها الدراسات العالية .

أما في مدينة كارديف فتوجد جالية عربية من أبناء اليمن وعدن وبقية الامارات الأخرى ، ويبلغ عددها نحو ١٥٠٠ شخص . وهناك أيضاً نحو ٦٠٠ عربي من الصومال لهم جمعية اسمها جمعية شباب الصومال . ويملك العرب المسلمون في كارديف بعض المطاعم والمقاهي والفنادق وحوانيت البقالة والخضر والفواكه واللحوم ،

وقد بنى المسلمون في كارديف مسجداً يسمى « مسجد نور الاسلام » ، الشائله « جمعية نور الاسلام العلوية » ، وفي كارديف زاوية أطلق عليها اسم الزاوية العلوية الاسلامية ، وألحقت بها مدرسة ينفق عليها السيد على سلمان الزبيدي من ماله الخاص . ويأمل أهل كارديف في بناء مسجد كبير لاقامة شعائرهم الدينية . وفي ضاحية « وكنج » — وهي تبعد عن لندن ٢٨ ميلاً — مسجد بنى منذ ثلاثة أرباع قرن بأموال جمعت من الهند . وكانت تنفق عليه والدته المرحومة بيجوم بهوبال بالهند ، ولذلك يسمى أيضاً الشاه جهان ، وفي لندن نفسها مركز ثقافي يعمل على نشر الثقافة الاسلامية ، وشرح مبادئ الاسلام .

الاسلام في اسبانيا والبرتغال

لما فتح العرب اسبانيا والبرتغال ، أطلقوا عليهما اسم « الأندلس » : وتاريخ الاسلام في الأندلس يحافل بالامجاد والبطولات . فقد ظل طيلة ما يقرب من ثمانية قرون يحمل مشعل الحضارة لأوروبا كلها ، ويقوم العمراة ، وينشر المدنية والعدل في ربوع البلاد ، وقد دافع عن كيانه حتى آخر أيامه هناك دفاعاً باستلا . . . ولكن شاعت الأقاويل

وستون مترا ، وعرضه مائة وخمسة وعشرون مترا . وسقفه مرفوع على أقواس مزخرفة بالقيشاني ، معقودة على عمد من المرمر الملون الباهر ، وطول كل عمود منها أربعة أمتار ، ويبلغ عدد الأعمدة في الجامع تسعمائة عمود . وفي الساحة الخارجية عمد عددها مائتان . وأرض المسجد مرصوفة بأنواع اللبن الملون المحكم ، والمحراب والمنبر من المرمر الصافي تزينهما نقوش بديعة . وعلى المحراب كُتبت هذه الآية الكريمة بالخط البارز الكوفي المحلي بالذهب « بسم الله الرحمن الرحيم : حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » ، وكُتبت تحت هذه الآية بالصفة المذكورة عبارة : « الامام الحكم أمير المؤمنين » .

تلك هي أهم الآثار الاسلامية الباقية في الأندلس (أسبانيا والبرتغال) ، حتى اليوم ، وهي تشهد بما كان عليه الاسلام في تلك الآونة من قوة النفوذ وامتداد السلطان ، وعلو الذكر ، وارتفاع المكانة . ولولا ما ألم بالأندلس من اضطرابات وفتن ، وما فشا فيها من شجاعة ومنازعات ، لامتد الاسلام الى أوروبا ، واستطاع أن يتوغل فيها .

وفي أسبانيا ، حتى اليوم ، عدد من المسلمين لا يزالون يؤدون فرائضهم الدينية في البقاع التي شهدت مجد أجدادهم ، وعظمة آبائهم الأولين . وفيها معهد للدراسات العربية يقوم بخدمة طلاب العلم الذين يرغبون في استكمال ثقافتهم العربية ، كما يبين معالم الثقافة الاسلامية والدين الاسلامي لمن شاء من الباحثين والدارسين .

بالمرمر ، وحيطانه بدروب من اللبن الجيد . وفي جانيه أماكن السيوف والرماح المعدة للحرس الملكي الخاص . ثم تنتهي من هذا الدهليز الى طرقة ذات ظل وأشجار وأثمار ورياحين ، وبها قصر الحمراء . وقد أبدع المؤرخون في وصف قصر الحمراء ابداعا لا مزيد عليه ، وهو يضم عدة قصور تحوى مئات القاعات التي زينت أبدع زينة ، وزخرفت بأروع زخرفة ، وفيها من يدع الصنع والرواء ما يشهد بما بلغت حضارة المسلمين في الأندلس من تقدم وازدهار .

ومن الآثار الاسلامية الباقية حتى الآن في أسبانيا « قصر اشبيلية » ، وهو قصر فخيم بابه من خشب الصنوبر ، ومنظره بهيج جدا ، ويقع في وسط بستان عظيم يشتمل على أنواع الأشجار ذات الظلال والثمار ، وفيه برك وغدران متعددة ، وعليها مقاعد ومجالس ملوك أشبيلية ، وجميع السقوف والحيطان والأبواب والنوافذ مزينة بالنقوش المحكمة البديعة ، المطلية بالذهب .

ولا تزال توجد حتى الآن قنطرة الوادي الكبير عند قرطبة ، وطولها أكثر من ٥٠٠ خطوة وعرضها نحو ٢٠ خطوة . وعليها حواجز حجرية . وأما قصر الزهراء الذي سارت بذكره الركبان والقصر الذي بناه الخليفة عبد الرحمن الداخل ، فلم يبق منهما الا اطلال بالية .

أما جامع قرطبة فيقع على طرف قنطرة الوادي الكبير ، وهو مسجد عظيم يحيط به سور ضخيم ، ارتفاعه نحو ٨ أمتار ، ومبنى بالأحجار الصلدة والصخور الضخمة . وارتفاع الجامع نفسه لا يتعدى ثمانية أمتار ، وطوله مائة وثمانية

الإسلام في الأمريكتين

فاحتل الجيل الثاني — وهم الموجودون الآن — مراكز بارزة في مهن الطب والقانون والمحاسبة . ومارس كثيرون من المسلمين ، من أبناء الشرق الأوسط ، حرفة التجارة .

وهم يقرأون القرآن الكريم باللغة العربية ، وإن كان بعضهم لا يجيد القراءة . وقد تلقوا تعاليم الإسلام عن آبائهم أو عن إمام المنطقة التي يعيشون فيها إذا كانت الجالية كبيرة ، وكان هناك مسجد لاقامة الصلاة وعقد الاجتماعات لتلقى تعاليم الإسلام .

وتوجد في مدينة « سكرامنتو » في ولاية كاليفورنيا جالية باكستانية يشتغل أكثر أبنائها في الزراعة ، وبعضهم بملك مزارع كبيرة تدر عليه آلاف الدولارات . ويملك المسلمون الباكستانيون في مدينة نيويورك ناديا خاصا بهم في حي مانهاتن أطلقوا عليه نادي العصبة الإسلامية . وتهتم هذه الجمعية الإسلامية بالشئون الدينية المتعلقة بالمسلمين الباكستانيين في نيويورك ، وأكثرهم يشتغل في المصانع أو يدير بعض المطاعم الشرقية أو نحو ذلك .

وفي بروكلين جالية يمنية تحمل الطابع اليمني في حياتها ، وهي حوالى ٣٠٠ شخص . وقد اتجه أكثرهم الى العمل في المصانع أو المعامل أو نحو ذلك .

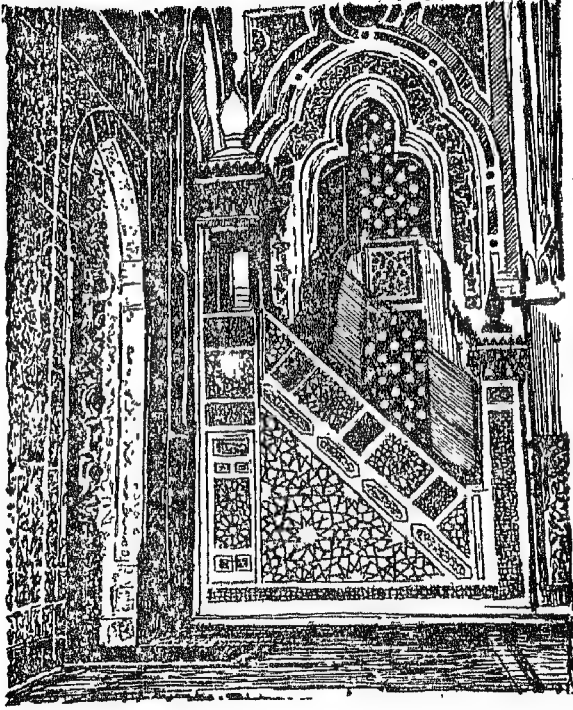
وتوجد في نيويورك جالية سودانية وأخرى سورية ولبنانية ، وتعيش هذه الجاليات مع

الإسلام في الولايات المتحدة الأمريكية

لا يمكن معرفة عدد المسلمين في الولايات المتحدة على وجه التحديد ، لأنه لا توجد أى هيئة حكومية في الولايات المتحدة تحصر عدد المواطنين وفقا لديانتهم . وتقول بعض المصادر ان عددهم يبلغ ٣٢٥٠٠ نسمة ، في حين تقول مصادر أخرى ان عددهم يصل الى ٥٠٠٠٠ أو ٦٠٠٠٠ نسمة . وقد جاء هؤلاء المسلمون الى الولايات المتحدة من جميع البلاد الإسلامية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ، ومنهم ألبانيون ويوغوسلافيون جاءوا من شرق أوروبا ، ومنهم تتر وأتراك من أواسط آسيا ... بل هناك مسلمون من جنوب آسيا وجنوبها الشرقى .

ويتركز أكبر عدد من المسلمين في الولايات المتحدة في مدينة ديترويت بولاية ميتشيجان ، ففيها نحو ١٥٠٠٠ مسلم . أما في نيويورك فيقدر عددهم بنحو ٣٠٠٠ ، وفي شيكاغو ٢٥٠٠ ، وفي توليدو بولاية أوهايو نحو ١٥٠٠ مسلم . وهناك جماعات صغيرة متفرقة في الولايات المتحدة منهم ١٥٠ مسلما يعيشون في مدينة سيدار رايد ، ونحو ٦٠٠ في سكرامنتو بمنطقة كاليفورنيا .

وقد عمل المهاجرون الأولون من المسلمين في مختلف الحرف والمهن التي أتقنوها ، واستطاع كثيرون أن يحسنوا مستواهم العلمى والثقافى . وكانوا في جميع الأحوال يهتمون بتعليم أولادهم ،



مخاربا ومئبر مسجد واشنطن

والشريعة ، ثم سمع به بعض اللبنانيين المسلمين المهاجرين في ديترويت بولاية ميشيغان الأمريكية ، فدعوه للإقامة هناك لتفقيه الكبار وتعليم الصغار . فسافر إليها في مارس عام ١٩٤٩ . وكان في أول عهده هناك يدرس باللغة العربية لمن يعرفها حتى تعلم هو اللغة الانجليزية وألفها ، وبدأ يعظ بها . أما لقب خادم الشريعة الاسلامية فقد أطلقه عليه مسلمو أمريكا لأنه وقف حياته على خدمة الدين . وقد تبرع السيد الرئيس جمال عبد الناصر بمبلغ ٤٤ ألف دولار لانشاء مركز اسلامي في ديترويت يقوم بخدمة جميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم ، ويبلغ عددهم نحو ٩٥٠٠٠ . ويتألف هذا المركز مجلس ادارة منتخب من أعضاء الجالية الاسلامية يتولى جمع الاكتاب لاستكمال المشروع الذي يتكلف حوالي ٢٠٠٠٠٠ دولار .

وقد تقرر تزويد مساجد ديترويت بمكتبات

الجاليات الاسلامية الأخرى في تعاون ومودة وإخاء .

وقد قام الزوج في أمريكا بدور كبير في نشر الاسلام . ومن الذين قاموا بالتبشير له في « هارليم » — وهو حي الزوج في نيويورك — رجلان من المسلمين عام ١٩٣١ م : أحدهما زنجي يدعى صوفي عبد الحميد ، نشأ في شيكاغو ، وعاش فترة من حياته في الشرق الأوسط . أما الآخر فكان يدعى حافظ الحكيم ، وكان متضلماً في العلوم الاسلامية . وقد صادفت دعوتها هوى في قلوب كثيرين من الزوج لأنهما أعلننا لهم أن الدين الاسلامي هو دين المساواة ، ولا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى ، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وإن الله لا ينظر إلى ألوان الناس ولا إلى صورهم ، إنما ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم .

وقد ظل يدعو الناس إلى حضور دروسهما الدينية في الدار التي خصصت لذلك حتى بلغ عددهم عام ١٩٣٦ ، ٣٠٠ شخص ، أسلم منهم ٢٥٠ شخصاً .

وفي عام ١٩٣٨ م قام أحد تلاميذ صوفي وحافظ ، ويدعى عبد الودود ، بتأسيس المركز الاسلامي العربي الوطني في هارليم ، وطلق ينظم هو وزوجته « رزقه » الاجتماعات الدينية لنشر التعاليم الاسلامية بين زوج نيويورك . وفي عام ١٩٤٢ قامت سيدة هندية تدعى البيجوم عطية بتأسيس المعهد الاسلامي . وبعد سنتين أسس عبد الودود الجمعية الاسلامية الدولية .

ويقوم محمد جواد تشيرى ، الملقب بخادم الشريعة الاسلامية في أمريكا ، بدور كبير في الدعوة إلى الدين الاسلامي في الولايات المتحدة . وقد نشأ في مدينة النجف بالعراق ، وسافر في عام ١٩٣٦ إلى لبنان ، وهناك درس أصول الدين

أما مسجد واشنطن فهو أكبر المساجد الأمريكية وأجملها . وقد ألحق به معهد للدراسات الإسلامية ، ومركز للتعاون الثقافي بين الشرق والغرب ، ومكتبة تضم آلاف الكتب القيمة من جميع أنحاء العالم . وللمركز جناح لسكنى المدير والمكاتب التابعة للمعهد .

وقد استقبل المركز الاسلامى كثيرا من كبار الضيوف المسلمين مثل الرئيس الأندونيسى أحمد سوكارنو ، وشاه ايران ، وملك المغرب ، وملك المملكة العربية السعودية ، ورئيس وزراء افغانستان ، وكثيرين غيرهم من الضيوف الممتازين من جميع أنحاء العالم الاسلامى .

ويفتح المركز الاسلامى فى واشنطن أبوابه فى شهر رمضان المبارك لصلاة التراويح . وفى عيد الفطر المبارك وعيد الأضحى يجتمع مئات من المسلمين فى المساجد لأداء فريضة الصلاة ، ولتبادل التهانى بهذا اليوم السعيد .

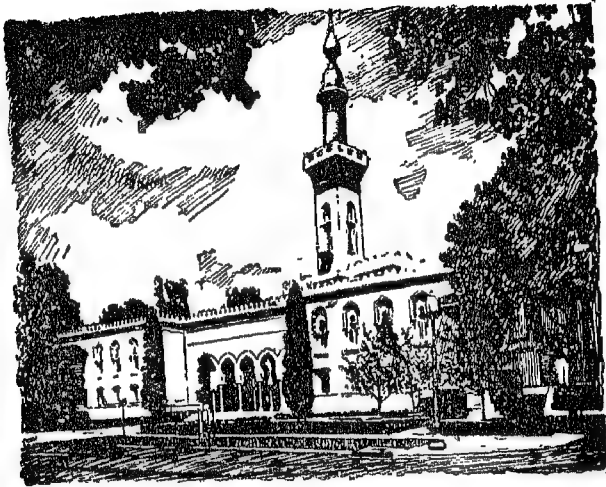
وقد تكلف بناء المركز الثقافى الاسلامى فى واشنطن ٣ ملايين دولار ، وساهمت جميع الدول الاسلامية فى بنائه . وقد تبرع السيد يوسف أبو الهوى بربع مليون دولار لبناء هذا المركز ، وأقامت شركة البترول العربية السعودية ، ومركزها الظهران ، حديقة فيحاء مليئة بالزهور الجميلة ، والأشجار المنسقة حول المركز . فزادته جمالا وروعة .

ويوجد فى مدينة « سان فرانسيسكو » مركز ثقافى اسلامى ، يرأسه طبيب ايطالى اعتنق الاسلام ، وهو الدكتور كابريو . ويشغل منصب أمين الصندوق أحد أطباء الاقليم الشمالى ، ويعمل فى أحد مستشفيات مدينة « سان فرانسيسكو » . ووكيلة المركز سيدة أمريكية اعتنقت الدين الاسلامى ، وسمت أبناءها أسماء عربية مسلمة ،

تساهم فيها وزارتا التربية والتعليم والأوقاف والمؤتمر الاسلامى والأزهر ، وفيها يتم تعليم اللغة العربية والدين للناشئين والكبار على السواء ، كما سيختار لهذه المساجد والمراكز أئمة من الأزهر . ويسمى زعيم المسلمين فى دنوريت الامام وهبى اسماعيل ، وهو من مواطنى ألبانيا السابقين .

وفى توليدو بولاية أوهايو يقوم الشيخ كامل « عود تيش » بالدعوة الى الاسلام . وقد تلقى علومه فى كلية اسلامية فى يوغسلافيا ، ثم التحق بالأزهر وتخرج فيه ، ثم عمل مدرسا و مترجما فى القاهرة بعض الوقت ، ثم دعتة الجالية الاسلامية فى شيكاغو عام ١٩٤٦ ليكون اماما . وفى عام ١٩٥٨ انتقل الى توليدو فى ولاية أوهايو ، وكان يدرس اللغة العربية ، ويفسر القرآن الكريم ، ويؤم المصلين . كما كان يدعى لعقد الزواج بين الطوائف الاسلامية فى مختلف مدن الولاية ، ويلقى ست محاضرات على الأقل شهريا فى مختلف الموضوعات الاسلامية .

وفى أمريكا الآن نحو اثنى عشر مسجدا ... وفى مقدمتها مسجد واشنطن الجديد ، وأصغرهما مسجد الجالية الباكستانية فى مدينة سكرامنتو فى ولاية كاليفورنيا . وهناك غير ذلك عدد كبير من المصليات . وربما كان أول مسجد بنى فى نصف الكرة الغربى هو مسجد الجالية السورية اللبنانية فى دنوريت . وقد تم انجازه فى عام ١٩٢٢ م ، غير أن الجالية شرعت فى بناء مسجد آخر . وأكبر مسجد قديم فى أمريكا هو مسجد ولاية ايوا الذى تم بناؤه عام ١٩٣٥ م . ويوجد فى نيويورك مسجد متوسط يؤمه كثيرون من الجالية التترية البولندية . وفى مدينة لوس انجلوس بنى رجل أمريكى اعتنق الاسلام ، اسمه محمد عبد الله رينولدز ، مسجدا على شاطئ أمريكا الغربى .



منظر عام للمركز الاسلامى بمدينة واشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية ، الذى افتتح فى الثلاثين من ذى القعدة عام ١٣٧٦ هـ ، وقد أقيم على قطعة من الأرض مساحتها ٢٠.٠٠٠ قدم مربعة تقع على شارع ماساشوستس . وتكلف بناء هذا المركز ١٢٠٠.٠٠٠ دولار اشترك فى دفعها خمس عشرة دولة من الدول العربية والاسلامية .

الدولية الاسلامية ، والجمعية الأندونيسية ، والجمعية الاسلامية الأمريكية ، والارسالية الاسلامية الأمريكية ، وجمعية الملايو الأمريكية ، والاتحاد العام للجمعيات المراكشية ، وجمعية الشباب الاسلامى ، والجمعية الثقافية للسيدات المسلمات .

ويقوم الشيخ وهبى اسماعيل - وهو عالم ألبانى درس فى الجامع الأزهر ، ويرأس الجمعية الاسلامية الألبانية فى مدينة « دترويت » بولاية ميتشجان - باعداد دليل عام للمسلمين فى الولايات المتحدة الأمريكية وكندا . وليس من شك فى أن اتمام هذا العمل العظيم سوف يعود بفائدة كبيرة على المسلمين هناك ، ويوضح للبلاد العربية سفراءها المسلمين الذين يقومون بدورهم فى خدمة القضايا الاسلامية والعربية فى صمت وسكون ، ودون صخب ولا ضوضاء .

كما تعمل جمعية التعريف الدولى للاسلام على

وهى صاحبة آباد بيض على المركز الاسلامى فى « سان فرانسيسكو » .

وقد عقد المسلمون فى الولايات المتحدة فى صيف عام ١٩٥٤ مؤتمرا فى مدينة شيكاغو ، حضره مندوبون كثيرون من شتى الجمعيات الاسلامية ، واشترك فيه من الاقليم الجنوبى الدكتور محمود الشواربى الأستاذ بجامعة ماريلاند ، وقرر المؤتمر تكوين اتحاد يسمى « اتحاد المنظمات الاسلامية فى الولايات المتحدة وكندا » ، وانتخب السيد عبد الله عجوم أول رئيس لأول اتحاد اسلامى فى نصف الكرة الغربى ، لما قام به من جهود كبيرة ، وما بذله من مساع مشكورة فى تكوين هذا الاتحاد .

وقد أقامت هذه المنظمة الاسلامية دعائم دستورها على الآية القرآنية الكريمة « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » . والهدف الذى يرمى اليه دستور هذا الاتحاد هو تنمية روح الاسلام وفلسفته وأخلاقه وثقافته بين أعضاء المنظمة وأطفالهم ، وايضاح روحه ومبادئه السامية عن طريق النشرات وغيرها .

وفى يونية عام ١٩٥٨ عقد اتحاد الجمعيات الاسلامية فى الولايات المتحدة وكندا مؤتمره السابع الذى استغرق ثلاثة أيام ، وحضره ٧٠٠ مندوب يمثلون ٤٥ اتحادا اسلاميا فى أمريكا الشمالية . وقد بدأ المؤتمر بحفلات التعارف ، ثم بصلاة الجمعة .

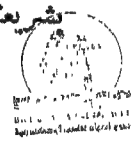
وأنشئ فى نيويورك مجلس اسلامى أعلى لمدينة نيويورك ، مثل فيه كثير من الجمعيات الاسلامية ، وهى : جمعية اتحاد وادى النيل ، وجمعية الاتحاد النوبى السودانى ، وجمعية شمال أفريقيا الأمريكية ، وجمعية الاتحاد الباكستانى بأمريكا ، والجمعية اليمنية الأمريكية ، والجمعية

وأن المكان الذي رسوا فيه يقع في أقصى المغرب .
ولا يستبعد أن يكون الشاطئ الذي رسوا
فيه جزيرة سان بول أو إحدى جزر فرناندو دي
نورونها الواقعة في مياه أمريكا الجنوبية على مسافة
نحو مائة وخمسين ميلا من شرق البرازيل ، فإن مثل
هذه المدة التي قطعوها تحملهم الى هذه المنطقة
ولا يستبعد بعد ذلك أن يكون هؤلاء العرب قد
استوطنوا هذه الجزيرة ، ثم توغلوا في القارة
الجنوبية ، ونشروا دين الاسلام هناك بين طائفة
من الناس .

وفي أقاليم أمريكا الجنوبية مسلمون يقومون
بدور كبير في ميدان الحضارة والتقدم ، ويعيشون
جنباً الى جنب مع أهالي البلاد في مودة وإخاء .
ويبلغ عدد المسلمين في أمريكا الجنوبية نحو
٥٣٠٠٠٠ نسمة ، على حسب الاحصائية التي
أصدرتها جمعية تقريب المذاهب الاسلامية ، والتي
يرأسها العالم الايراني الشيخ تقى الدين الغنى .
ويقوم المسلمون بأداء شعائرهم الدينية في
المساجد والجوامع المنتشرة في أحياء متفرقة من
أقاليم أمريكا الجنوبية .

وهناك عدد كبير من الزنوج المسلمين ، الذين
أسلموا نتيجة لاختلاطهم بالعرب الوافدين من
اسبانيا وبلاد المغرب ، ومن الوطن العربي بوجه
عام ، ولاطمئنانهم الى أن الاسلام هودين المساواة ،
ولايمانهم بأن لا خلاص لهم — في هذا العالم
المتطاحن — الا باعتناقهم ديناً لا يجد رسوله العربي
فضلاً لعربي على عجمي الا بالتقوى ، وتمسكهم
بشرعيته ...

الله فوق الخلق فيها وحده
والناس تحت لوائها أكفاء



General Catalogue of the Library
of the University of Cairo
Cairo, Egypt

طبع عدد من النشرات والكتيبات . ومن بينها
نشرات عن الفكرة الدولية في الاسلام ، وحقوق
المرأة في الاسلام ، والنظم الاقتصادية في الاسلام ،
وآراء فلاسفة العرب وعلمائه في الاسلام ، ولماذا
أسلمنا ، وفضل الاسلام على الحضارة الغربية ،
ونظرة الاسلام الى الرق والرقبتي ، والاسلام
والتسامح الديني ، والاخاء الدولي الاسلامي ،
والاسلام والديموقراطية ، والحرية والاخاء
والمساواة في الاسلام ، وآراء بعض من أسلموا من
المثقفين الأوروبيين والأمريكيين .

وتقوم الجمعية بطبع هذه النشرات بناء على
توصيات سكرتير جمعية التعريف الدولي بالاسلام
وهو الدكتور محمود يوسف الشواربي صاحب
كتاب « الاسلام في أمريكا » .

الاسلام في أمريكا الجنوبية

يقال ان العرب حاولوا اكتشاف أمريكا
الجنوبية في القرن العاشر للميلاد أو أوائل القرن
الحادي عشر . ويستند أصحاب هذه الرواية الى
ما كتبه الادريسي المؤرخ المعروف في كتابه
« نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ، من أن
جماعة من مسلمي الأندلس ، من أهل الحامة ، على
مقربة من لشبونة ، يعرفون بالمغرورين — وهم
ثمانية فتيان اخوة أو أبناء عم — أنشأوا لهم مركبا
أكبيرا ، وشحنوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم
لأشهر ، ثم خرجوا الى بحر الظلمات من نغر
لشبونة عند مهب الريح الشرقية ، وساروا في
العرب نحو أحد عشر يوما ، وصادفوا مهالك
كادت تودي بهم ، حتى أنقذهم ليف من البربر ،
وأعلموهم أن بينهم وبين الأندلس مسيرة شهرين ،

